





الألف كتاب

٤٣٩

الأزمنة والأمكنة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
وزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب العام الاجتماعية

إلى كتاب

٤٣٩

الأزمنة والأمكنة

أبجد العاشرون دهياليز الرمن

تأليف
هارولد بيك ، هيرت جون فليز

ترجمه

داجمه

الدكتور محمد السيد غلاب

الدكتور إبراهيم أحمد زرقان

الناشر

موسسة سجل العرب

بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبيد

٩٦ شارع مرقية باشا - القاهرة ٢٠١٤
تليفون ٢٩٩٩٩

١٩٩٢

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية	
رقم التسجيل
رقم الترخيص
رقم الترخيص

هذه ترجمة كتاب

Times and Places
(The Corridors of Time "X")

تأليف

H. PEAKE and H. J. FLEURÉ

فهرس

سنة

٩	مقدمة
١٥	مقدمة الترجمة العربية
٢٥	القسم الأول : تطور الإنسان
٢٧	الفصل الأول : عن العصر الجليدي والإنسان
٥٧	الثنائي : صيادو أواخر العصر الحجري القديم
١٠٥	الثالث : أعقاب العصر الحجري القديم
١٢٣	القسم الثاني : تطور الحضارة الإقليبي
١٢٥	الفصل الرابع : جنوب غرب آسيا
١٦١	الخامس : شمال إفريقية
١٩١	السادس : بلاد البحر المتوسط الأوربية
٢٣٨	السابع : أوروبا وشمال البحر المتوسط
٢٩١	الثامن : الهند
٣٢٧	التاسع : الصين
٣٥٩	العاشر : جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى
	الحادى عشر : إفريقية جنوب الصحراء وجنوب
٢٩٥	الحبشة
٤١٣	فهرس الأعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وضع هذا الكتاب ليكون خاتمة لسلسلة كتب « دهايز الزمن » ، ومن ثم كان لابد من أن يصدر بتقدير لحياة « هارولد بيك » ، أكبر المؤلفين الذي توفي عام ١٩٤٦ .

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين : القسم الأول ويضم الفصول الثلاثة الأولى ، ويحاول أن يعطي فكرة عامة عن الأبحاث الحديثة عن الإنسان في العصر الحجري القديم .

وكان من رأى المؤلفين في « دهايز الزمن » ، أن جنوب غرب آسيا هي المنطقة التي خطا فيها الإنسان خطواته العظيمة من مرحلة الاعتماد على الصيد وجمع الطعام والتقاطه إلى مرحلة إنتاج الطعام بزراعة الحبوب ، ثم أضاف إلى هذا تربية الحيوان المستأنس . وستظل جهود مصر وجنوب غرب آسيا في نشر طرق إنتاج القوت من المعالم الكبرى في تاريخ البشرية رغم ما عساه أن يكون قد حدث من محاولات صغيرة بقيام الزراعة واستئناس الحيوان في جهات أخرى من العالم . . من ثم خصص القسم الثاني من هذا الكتاب لتتبع انتشار إنتاج القوت في أقاليم عديدة ولتتبع نشأة الحضارة وتطورها في تلك الأقاليم تبعاً عاماً .

وقد استبعدت الأمريكتان بمشاكلهما الخاصة من هذا البحث .

وقد تأخر صدور هذا الجزء عدة سنوات بسبب ظروف خارجة عن إرادة أحد المؤلفين الذي ما زال على قيد الحياة ، وقد وجد من الصعب بذل الجهد المستمر بجمل معلومات هذا الكتاب جديدة ، ومع ذلك فالمرجو ألا تكون المعلومات المدونة به قديمة إلى درجة خطيرة .

المرحوم هارولد بيك

بقلم زميله : الاستاذ فلبر

هارولد جون إدوارد بيك ابن جون بيك قس الزمير ، ولد عام ١٨٦٧ ، وتوفي عام ١٩٤٦ ، تلقى تدريباً مبكراً في إدارة الأرض الزراعية ، مما أعطاه بصيرة في مسائل استغلال الأرض واستثمارها على أساس تاريخي ، وبعد أن تزوج من شارلوت بايليس وجد أنه يستطيع أن يسافر حول العالم وأن يقضى وقتاً في إحدى مزارع كولومبيا البريطانية ، ومن ثم اكتسب بصيرة خاصة في حياة الرعي قبل التاريخية ، تحدث عنها في كثير من مقالاته وفي بعض فصول هذه السلسلة . وعندما استقر الزوجان ، في بوكسفورد عام ١٨٩٩ أعطيا مثلاً يحتذى لأصحاب الفراخ البريطانيين الذين لا يقدم مركزاً أو وظيفة ، فاستخدماه في خدمة الثقافة والمجتمع ، وأصبح بينهما مركزاً للعلم والقيادة الفكرية ، ليس فقط لإقليميهما بمساهمتهما في نشاطه القصصي والمسرحي واشتركا في كثير من الواجبات وأعمال البر ، بل أيضاً للباحثين الشباب الذين اغترفوا من فيض الحكمة والمعرفة في حديقة دارهما الجميلة ، وحول النار المشتعلة فيها . وقد أصبح بيك أميناً فخرياً لمتحف نيوبري ، فأكسبه سمات خاصة ، فأدخل عليه تنظيمات رئيسية أهمها ذلك التابع التاريخي الذي خص فيه كل قرن من الزمان منذ ٣٠٠٠ ق.م بمكان خاص يعرض فيه آثاره وخراائط له . كما أصبح رئيساً لمجلس إدارة مدرسة نيوبري الثانوية ، وعضواً في مجلس التعليم بمقاطعة برکشير ، ورئيساً لمجلس إدارة مستشفى نيوبري العامة ثم مديراً له ، وعضواً في مجلس جمعية الآثار بلندن ورئيساً للمعهد الملكي للأثروبولوجيا وحاملاً لميدالية هكسلي التي يمنحها هذا المعهد ، ورئيساً للقسم الأثروبولوجي في الاتحاد البريطاني لتقدم العلوم .

وقد صممت المجموعات الزمنية بمتحف نيوبرى بحيث تبرز مقدار القصور الذى تعاني منه كتبنا المدرسية ، وهى تنتقل من بضعة أسطر قليلة تقتبسها عن الحروب الغالية لقيصر إلى الغزو الأنجلو سكسونى مباشرة وبذلك تضرب صفحاً عن السكان السابقين لهذا الغزو ، ومن نتائج متحفه فى نيوبرى أن مفتشاً للتعليم تحدث يوماً عما حدث منذ عهد بعيد ، فصحه أحد تلاميذ نيوبرى الصغار قائلاً : إن هذا حدث فى وقت متأخر ، فى فترة لاتين

• La Tène

وقد ابتعد بيك من تلقاء نفسه عن الطائفية والحزبية لأنه صاحب بصيرة نفاذة وميل لفعل الخير، لم يرض لنفسه أن يقيد ضميره ، واكتفى بأن يلاحظ ما حوله فى عناية ، وأن ينصب نفسه محامياً عن القضايا العادلة . وكانت نزاهته العقلية تبرز أحياناً بروح المرح والمداعبة . فعندما سأل أحد ضيوفه الأجانب يوماً عن أصل ميدان السباق أجاب قائلاً : ربما كان هذا معبداً لديانتنا القومية . وكان ينتقل بسا - فى محاضراته عما قبل التاريخ - إلى فجر التاريخ . ثم يقول وهنا تصبح القصة مشوهة ، إذ أن الإنسان قد بدأ يزور الحقائق عندما ترك وثائق مكتوبة . وكان « بيك » أحد الرواد الأوائل فى دراسة جغرافية الإنسان الأول وما وصل إليه ، كما شجع المحاولات العديدة التى بذلت لرسم خرائط توزيع آلاته وآثاره ونقاره وغيرها ، لأنه كان مقتنعاً بأهمية انتشار الحضارات وتداخلها وامتزاج بعضها ببعض . وسيظل « كنالوج الأدوات البرونزية البريطانية » عملاً علمياً ممتازاً وعلامة طريق هامة عن الدراسات قبل التاريخية . وقد منعه علمه الواسع من أن يكون تبعاً للمدرسة الانتشارية الحديثة ، التى أسسها « سيرجرافون إليوت » ودكتور بيرى Perry ، والتى دافعت عن انتشار الحضارة من مصر القديمة على يد « أبناء الشمس » . وكان « بيك » يقول إن من الصعب عليه أن ينظر إلى العالم

من خلال « بيرسكوب »^(١) ، واسكنه قدر ما قدمه كل من إليوت سميث
والزورث هنتنجتون للبحث بالدراسة ، من نظريات وفروض وآراء .
وقد حاول ألا يخضع تماماً لفروضه المعقولة ، ولم يمنع هذا من نضوج آرائه
نضوجاً كبيراً بعد عمل دام خمسين عاماً . وقد حاول باستمرار أن يربط
دراسة توزيع الآثار القديمة توزيعاً دقيقاً ، بدراسة تلك الآثار من الوجهة
الفنية ، وأن يحصل بذلك على صورة حية لنشاط السكان وفنونهم وبذلك
أعاد الحياة إلى التاريخ القديم وإلى القدماء ، وقدم ذلك إلى الطالب ، وكان
حريصاً أن يخضع نفسه كما يخضع غيره للتطور الحضارى . وقد عرض
في أحد المتاحف نماذج للرئيسيات العليا التى تنتهى بظهور الإنسان مرآة
— وليس هيكلًا عظمياً — ليرى فيها الزائر نفسه كنموذج للإنسان العاقل
Homo sapiens . وقد استحوذ بانتباهه موضوعان هما : نشأة زراعة الحبوب
(وقد اشترك معه في هذا صديقه ه . ه . كوغلان) ، والمراحل الأولى لعصر
المعدن .

وقد نشر « بيك » — إلى جانب اشتراكه في إصدار « دهايز الزمن »
ومقالاته الكثيرة في صحيفة المعهد الملكى للأنثروبولوجيا ، ومجلة الإنسان
Man ، ومجلة نادى نيوبرى ، وتاريخ بركشر . القرية الإنجليزية (١٩٣٢) .
وعصر البرونز والعالم الكنتى (١٩٢٣) . ونشأة الزراعة (١٩٢٦) .
والطوفان (١٩٣٠) وخطوات التقدم الإنسانى الأولى (١٩٣٣) .

ومن يعرف « مستر ومسز بيك » سيذكر باستمرار جهود مس ولسون
ومس بلومب اللتين عملتا في منزل « بيك » أكثر من خمس وأربعين عاماً ،
وساعدتا في جهود بيت وستبروك بما في ذلك الأبحاث قبل التاريخية .

(١) أى من وجهة نظر « برى » Perry (المرب) .

وهريت جون فلير

بقلم المعرب

ولد الأستاذ فلير في إحدى جزر بحر المانش التابعة لبريطانيا . وكان أستاذاً للجغرافيا في جامعة ويلز بأبرستوت فترة طويلة ، ثم أستاذاً للجغرافيا والأنثروبولوجيا بجامعة مانشستر . وبعد أن أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٤ عبر المحيط الأطلسي إلى الولايات المتحدة حيث حاضر كأستاذ زائر مدة عام ، عاد بعدها إلى إنجلترا وعكف على تنظيم الاتحاد الجغرافي والإشراف على إصدار مجلة « الجغرافية » . وقد دعت جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠ حيث حاضر بهما كأستاذ زائر في هذه الفترة ، ونشرت له مجلة الجمعية الجغرافية المصرية في هذه الفترة أبحاثاً قيّمة .

نال الأستاذ فلير درجة الدكتوراه في علم الحيوان ومن ثم كان رسوخ قدمه في العلوم الطبيعية والأحياء القديمة والجيولوجيا ، ولكنه أوقف حياته على دراسة علمي الجغرافية والأنثروبولوجيا ، وكان رئيساً لقسميهما في الاتحاد البريطاني لتقدم العلوم ، وبينما انتخب زميلاً للجمعية الملكية F. R. S. في بريطانيا ، وهو أرفع منصب على يرنو إليه أي بريطاني ، إذا به يكرم أيضاً في الجمعيات الجغرافية البريطانية والأمريكية على حد سواء .

وقد انقضى الآن أكثر من أربعين عاماً منذ أن نشر كتابه عن الجغرافية البشرية لغرب أوروبا ، الذي يعتبر من أوائل الدراسات الجغرافية البشرية في هذا القرن ، كما انقضى أكثر من ثلاثين عاماً منذ أن شرع في إصدار سلسلة دراسات «دهاليز الزمن» مع زميله المرحوم هارولد بيك ، وقد استمر إصدار هذه الدراسات من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٥٦ وقد استقل الأستاذ فلير

بتحرير المجلد الأخير من هذه السلسلة ، وهو الذى نقدمه الآن إلى قراء العربية ، ورغم ذلك فقد احتفظ باسم زميله الراحل وقدم لكتابه بثناء عاطر عليه ، مما يدل على خلق الوفاء والإخلاص لدى هذا الأستاذ الكريم.

ونحن لانستطيع أن نحصى كل مؤلفات الأستاذ فليرفهى عديدة ومتنوعة ويكفى أن نشير إلى مقالاته فى المجلات الجغرافية المعروفة فى إنجلترا وأمريكا ومصر ، ومجلة المعهد الأنثروبولوجى البريطانى ومجلة الآثار Antiquity البريطانية ، كما نود أن نشير إلى أحد مؤلفاته الجامعة التى كتبها عام ١٩٥١ وفيه ملخص لأبحاثه عن الجزر البريطانية . ويعتبر الأستاذ فليرفهى مؤسس علم الجغرافية الحديث فى بريطانيا ، وقد تلمذ عليه كثير من المصريين ولعل فى ترجمة هذا الكتاب خير تحية للأستاذ فليرفهى فى شيخوخته .

المعرب

مقدمة الرحمة العربية

الحضارة الإنسانية هي ما خلفه ذلك الحيوان الفريد ، الإنسان ، من أثر على سطح الأرض ، يثبت به وجوده ويدل على ذاته . فقطعة الحجارة المشكلة ، والآلات الإلكترونية الدقيقة ، وحجارة الأثافي الصغيرة ، وأفران الصهر العالية ، والكهوف والمغارات التي كان يأوى إليها ، وآيات العمارة المختلفة ، ونقوش الصخر المتناثرة في صحراء كلاًها رى أو داخل الكهوف والمغارات في شمال أسبانيا والصور الفنية الرائعة في متاحف العالم الكبرى وشواهد القبور وأهرامات الجيزة ، وقوارب شعوب المحيط الهادى وقطع الأسطول التي تمخر العباب في ثقة وجبروت ، كلها آيات حضارية صنعها يد الإنسان نتيجة خبرة طويلة انتقلت إليه من الخلف إلى السلف ، وهو يعيش في جماعات على درجات متفاوتة من التنظيم . وهي في أساسها ، واتصالها تؤلف قصة الحضارات الإنسانية .

فالحضارة إذن من صنع الإنسان . ولم يكن الإنسان بقادر على أن يخطو أولى خطواته الحضارية الرائعة لولا ما اتصف به من مميزات جعلته يقف فريداً في عالم الحيوان . فهو — كحيوان — يختلف اختلافاً كبيراً عن أقرب الأنواع إليه ، كما تختلف البشرية اختلافاً كبيراً عن أقرب عائلات الثدييات الأخرى . فهو يسير منتصب القامة ، يحمل رأساً متزنة فوق عموده الفقرى ، مخزلة الخيشوم منحدره الفك مرتفعة الجبهة يستطيع أن يرى بكلتا عينيه معاً فيدرك أبعاد المنظور الثلاثة ، ويرى الأشياء عمقاً كما يرى لها طولاً وعرضاً ، وأصبح بذلك يدرك المسافات ، وهو في وقفته المنتصبة يستطيع أن يشرف على مساحة أكبر من الأرض . قد ارتفع

عن سطح الأرض فاستبدل بقوة حاسة الشم ، قوة في حاسة الإبصار ودقة ، وقد هيأت قامته المنتصبة الفرصة أن يحرر يديه من السعى بهما على الأرض ، فتطورت أصابعه وتنوعت أشكالها واستطاع بها أن يمسك بالآشياء ويقبض عليها ويجذبها ويدفعها ، واكتسبت تلك اليد مهارة ودقة ومرونة في الحركة فكان الإنسان صانعاً Homo Faber ، كما أن وضع الرأس فوق العمود الفقاري وتخفف حجم الفك منح الفرصة للبلخ بأن ينمو في كل اتجاه ، فامتلاً فراغ الجمجمة العلوى ثم الخلفى ثم استدارت الجبهة وارتفعت فامتلات أيضاً بالمنخ . وهذا هو العامل الفاصل في نمر الإنسان العاقل Homo Sapiens الذى نقله من نطاق الحيوانات الأخرى وجعله من الرئيسيات ، بل والذى نقله من مستوى الرئيسيات الأخرى — كالقردة العليا والنسانيس — وجعله فريداً وحيداً في عالم الحيوان ، ورفعته إلى مستوى الإنسانية .

وإذا كانت اليد وأصابعها التى تختلف كل أصبح فيها عن الأخرى في الشكل والترتيب وإن اتحدت في ترتيب معين يعين على القبض على الأشياء ورفعها ودفعها ، قد جعلت الإنسان أكبر وأدق وأمهر صانع في الطبيعة لا يدنو منه أى حيوان آخر فيها ، فإن المنخ هو مستودع الخبرات ومخزن التجارب ، وموضع التفكير ومهبط الوحى . وهو الذى قاد الحيوانات العليا في تطورها وقاد الإنسان في تطوره وميزه عن أقرب الأنواع الحيوانية إليه ، هو المحرك والموجه والمدير في معركة الحياة ، للفرد في حياته القصيرة وللنوع في حياته الطويلة، انحدرت إليه عن طريق الوراثة الخبرات السابقة واختزننت، وأضيفت إليها الخبرات اللاحقة . ولولاه لكان على كل فرد منا أن يبدأ حياة البشرية من جديد ، أى منذ عهدها الأول بالحجارة والصوان ، فالمنخ هو مستودع التقاليد بأوسع وأشمل معنى للكلمة .

وما كان لهذه التقاليد أن تنقل لولا الكلمة ، تنطق بها الأم فتحذر طفلها .

من الاعتماد عن الكهف حتى لا يفترسه الدب ، هذه خبرة سنين كاملة تنقلها الأم في أحد أيام العصر الحجريّة الأولى لطفلها فيعينها ولا يحتاج لتكرارها ، ففي تكرارها حتفه . فاللغة إذن أداة تفكير وأداة عمل في نفس الوقت . ولولاها ما أمكن نقل التقاليد من جيل إلى جيل ، والاحتفاظ بتراث إنسانى ينمو ويتعاضد في كل انجاء على مر آلاف السنين ، ورمز لخبرات لاحصر لها ومجال لتصور خبرات قادمة تصوراً كاملاً دقيقاً ، مما جعل الإنسان مخلوقاً فريداً لا يحده زمان ولا مكان . بالكلمة يستحضر الماضي ويعيش في أجواء غير التي يعيش فيها ويتصور المستقبل ويرسم لنفسه مجالات غير التي يحيا فيها . تصور مثلاً وأنت تقرأ هذا الكتاب أنك تعيش في فترات التاريخ الماضية في مصر حيناً ، وفي جزر المحيط الهادى حيناً آخر ، في عصر بناء الأهرام أو في عصر النهضة ، وتصور وأنت تقرأ الكلمة أو تنطق بها وتحدث عن المستقبل .

هذه أدوات الإنسان الكبرى في تقدمه وتطوره والتي نقلته من عالم الحيوان إلى عالم فريد خاص به لا يشاركه فيه مخلوق آخر : قامة منتصبة ، يد صانعة ، مخ تام ، لغة .

هذا التطور الذى انتهى بتلك الأدوات قدتم خلال المليون سنة الأخيرة ، في عصر البلايستوسين ، الذى بلغ من أهميته أن أفرد له العلماء فصلاً خاصاً في سجل التاريخ الجيولوجى وأسموه بالزمن الرابع . في هذا الزمن لم ينتقل الإنسان نهائياً من الحيوانية إلى الإنسانية فحسب ، بل خطا خطواته الأولى نحو الحضارة . وبدأ يصنع آلاته من الحجارة ويشكلها لكي تقابل حاجاته المختلفة . ورغم بساطة تلك الآلات الحجرية ، التى كانت عدته الوحيدة في الحياة ، فقد استطاع بحيله وذكاؤه أن يواجه تغيرات مناخية عنيفة ، اجتاحت فيها الثلجات وغطاءات الجليد الجزء الأكبر من شمال أوربا وشمال أمريكا الشمالية ، وجثمت أعطية الثلج فوق مساحات هائلة من أوراسيا وانخفض فيها مستوى

البحار والمحيطات ، واضطرب فيها الإنسان إلى أن يلجأ إلى الكهوف والمغارات ، حيث كان يزاحم الحيوانات القطبية في أماكن التجائها ، هذا بينما استطاعت الأعاصير الغربية أن تصل إلى شمال إفريقية وما يسمى الآن بالصحراء الكبرى و صحراء بلاد العرب ، فكانت الأشجار والمروج تغطيها ، والأنهار والجداول تجري فيها ، وكان مسرحاً لأنواع شتى من الحيوان العاشب ومجالاً واسعاً للصيد .

ولقد صاحب تطور معالم البيئة الجغرافية ، تطور الإنسان الطبيعي ، كما صاحب تطوره الحضارى القديم . ففي خلال نصف مليون سنة الأخيرة ظهر أول إنسان وهو إنسان جاوة ، أو الإنسان القرد منتصب القامة . كما ظهر إنسان الصين وما يشبهه في الصين وفي أنحاء أخرى من جنوب شرق آسيا . وكذلك في هيدلبرج بأوربا . ثم ظهر إنسان نياندرتال في أوربا وشمال إفريقية وجنوب غرب آسيا وروديسيا وإيران وأخيراً ظهر الإنسان العاقل وهو الجنس البشرى الذى ننتمى إليه .

ولو صور تاريخ تطور الفقاريات في شريط سينمائي يستغرق عرضه ساعتين ، فإن الحضارة الحجرية القديمة لا تظهر إلا في الدقائق العشر الأخيرة من العرض ، ولو صور تاريخ تطور الحضارة البشرية كلها في شريط آخر يستغرق عرضه ساعتين أيضاً ، فإن الزراعة لا تظهر فيه إلا في آخر دقيقتين ، ولا يستغرق الوقت الذى انقضى بين ظهور الآلة البخارية وتفجير القنبلة الذرية أكثر من ثلاث ثوان .. فعصر ما قبل التاريخ قد استغرق من البشرية الجزء الأعظم من تاريخها حتى الآن ، من حوالى ٥٠٠,٠٠٠ ق . م . إلى ٣٠٠٠ ق . م في أعرق جهات العالم عهداً بالمدنية ، مصر والعراق . بينما لم يبدأ ظهور التاريخ ، أى لم يعرف الإنسان الكتابة ، وكيف يسجل خواطره أو تاريخه في جهات أخرى من العالم إلا بعد ذلك بفترات تتراوح بين نصف

ألف أو ألف من السنين ، بل لا تزال بعض القبائل البدائية ، مثل الأستراليين الأصليين والبوشمن والهوتنتوت في جنوب أفريقية تعيش في مرحلة ما قبل التاريخ ولم تبدأ تاريخها بعد .

وتعتمد دراسة تطور الحضارة ، في مراحلها الأولى ، على أدلة أثرية لا تجمع الآثار المادية للإنسان في منطقة ما — فحسب بل تحاول أن تستقرى . منها تاريخها ، متى صنعت أول مرة ، وأين وكيف وأي سبيل تسلكه وكيف انتقلت من مكان إلى آخر ، أو من مجتمع إلى آخر ، ولذلك يحتاج من يتصدى لهذا البحث أن يكون على إلمام تام بعلوم مختلفة مثل علوم الأحياء القديمة ، لدراسة الأحياء القديمة وهي الآثار أو الطابع أو البقايا التي تركها الكائن الحي في الصخر ، وما يتصل بها من علوم طبقات الأرض وتتابعها Stratigraphy وأن يفهم فهماً تاماً نظرية التطور ، كما عليه أن يكون ملماً بنظريات تغير المناخ ، والمناخ القديم ، وما يتصل به وأثر ذلك في الغطاء النباتي والتربة وتغير مظاهر السطح .

ولا يحتاج فهم الآثار المادية والإلمام بأنماطها ونماذجها أو تصنيفها إلى آلات مختلفة ذات أغراض مختلفة ، أو أسماء حضارية مختلفة فحسب ، ولا لدراسة توزيعها جغرافياً فقط ، بل لابد من فهم شيء عن الطبيعة البشرية ، والدوافع الإنسانية التي تكمن وراء نقش على الحائط ، أو رسم معين ، أو على تمثال أو إقامة نصب ، أي لابد من الإلمام بالأنثروبولوجيا بشرطها الطبيعي والحضاري .

نحن إزاء قصة التطور ، فصل إليها إما باستقراء الأحداث التاريخية في الزمان ، وإما باستقراء الأدلة الأنثروبولوجية في المكان ، وخير من هذا أو ذاك الاستقراء المكاني والزمني معاً أو الجغرافي التاريخي .

وتعيش في الوقت الحاضر جماعات بشرية تقف على درجات متفاوتة من

السلم الحضارى فى أدغال الهند وأحراج الملايو وغابات أندونيسيا وصحراء
أستراليا وصحراء كلاهاري وأصقاع بتاجونيا لا تزال هناك أقوام تعيش
فى مرحلة من العصر الحجري القديم ، تجمع النار وتضطاد الحيوان . وفى جزر
المحيط الهادى وأجزاء مختلفة من الأمريكتين وجزر كاناريا لا تزال شعوب
تعيش فى أوائل مراحل العصر الحجري الحديث ، وهكذا يمكن العثور على
بقايا جماعات بشرية تمثل مراحل مختلفة من تطور الإنسانية الحضارى . وكانت
هذه الجماعات ولا تزال موضع اهتمام علماء الأثر وبولوجيا الاجتماعية
أو الحضارية . وتلقى نتائج هذه الدراسات أضواء هامة على الآثار التى خلفها
الإنسان فى العصور الحجرية القديمة وتفسر كثيراً من المسائل الأثرية .

ويبدو فى كثير من صفحات هذا الكتاب تساؤل معين : هل الاختراعات
والاكتشافات الحضارية الكبرى نشأت فى أوطان معينة ، ومنها انتشرت
بعد ذلك إلى غيرها من الأوطان الثانوية والأقطار ، أم كانت هذه
الاختراعات والاكتشافات متعددة النشأة ، فى أوطان عديدة مختلف بعضها
عن بعض ؟

بمعنى آخر هل الحضارة ذات وطن واحد انتشرت منه إلى غيرها من الأوطان ،
أم أنها متعددة الأوطان ، وليس من شك فى أن الإنسان وجماعته لم يستقر قط
فى مكان واحد ، بل كانت جماعته تنتشر وتهاجر من مكان إلى آخر ، كما كانت
هذه الجماعات منذ أقدم العصور تتبادل المعرفة والخبرة . والإنسان نفسه حيوان
اجتماعى ، كان يتبادل مع غيره ما وصل إليه من فنون الصناعة والمعرفة والأوان
الخبرة والتجربة ووسائل ذلك عديدة ، التقليد والإقناع والإكراه والقسر .
وكانت التجارة والارتحال من أولى عوامل نقل الخبرة واكتسابها ، ثم أصبح
الفتح والغزو أيضاً من أهم وسائلها . وقديماً قال ابن خلدون إن الشعوب المغلوبة
مولعة بتقليد غالياتها ، كما أن كثيراً من الشعوب المغلوبة كانت تهزم غالياتها

وتصبنهم بصبغتها ، فالمصريون القدماء مصرُوا البطالسة والإغريق وطبقوا
الرومان بطابعهم الحضارى . والشعوب الدرايفية أثرت في الشعوب الآرية
الفاتحة للهند والديانات الهندوكية أثرت في البوذية الجديدة وهكذا .

فالانتشار Diffusion عامل هام جداً في نشر معالم المدنية والحضارة .
ومن ثم اتجه كثير من المفكرين إلى تقسيم العالم إلى أقاليم حضارية
Kultur Kreise . فجنوب غرب آسيا إقليم حضارى له سماته الخاصة ، والشرق
الأقصى إقليم حضارى له سماته الخاصة وهكذا . وكانت تظهر بوادر الاختراع
والاكتشاف في مكان من أى إقليم حضارى لكي تنتشر في بقية أنحائه بالتجارة
أو الهجرة أو الفتح أو الغزو أو بأكثر من عامل من هذه العوامل .

إلا أن مدرسة أخرى من المفكرين رأت أن قوانين التطور تعمل على
أن يسير الذهن البشرى في خطوات متتابعة متلاحقة ، ولما كان العقل
البشرى - أساساً واحداً ، لوحدة النوع البشرى المنحدر من أصل واحد
في كل مكان ، فليس ثمة ما يمنع من التاجية المنطقية - أن يصل العقل البشرى
في إقليم ما إلى نفس النتائج التي وصل إليها نفس العقل في إقليم آخر إذا تساوت
ظروف البيئة ، ثم نادراً بالانشاء المستقلة للاختراعات الكبرى . بمعنى أن العقل
البشرى الذى توصل إلى معرفة استخدام النار في الصين ، هو نفسه الذى توصل
إليها في أوربا ، دون حاجة إلى نقل ذلك الاكتشاف من الصين إلى أوربا .
كما أن العقل البشرى الذى توصل إلى اكتشاف الزراعة في مكان ما بجنوب
غرب آسيا ، هو نفسه الذى توصل إلى هذا الاكتشاف في مكان ما بجنوب
شرق آسيا ، دون حاجة إلى نقل هذا الاكتشاف من أقصى الأرض
إلى أقصاها .

ويبدو أن الحضارة كان لها أكثر من نشأة ، فنشأ نوع من الزراعة
في جنوب غرب آسيا وهي الزراعة الجافة . التي تعتمد على الري ، بينما ظهر نوع

آخر منها في حوض الدانوب ، ونوع ثالث وهي الزراعة المتنقلة في إفريقية المدارية وهكذا . أي أننا لانستطيع أن نغفل عامل النشأة المتنقلة والتطور المحلي للمدينة والحضارة .

إلا أن ذلك لم يمنع من قيام الاتصالات المتعددة بين إقليم وآخر ، فعن طريق هذه الاتصالات ازدادت سرعة تقدم المدينة والحضارة ، لأن معنى هذا استعانة الجماعات البشرية المختلفة بعضها ببعض الآخر ، ولولاها لأصابها الركود وانتهى بها الأمر إلى التدهور . والحضارة في هذا تشبه النهر الكبير ، الذي تغنيه الروافد العديدة التي تصب إليه من كل مكان ، بينما العزلة والانطواء يؤدي بجداول الحضارة إلى أن تركد وتأسن ، وقد ثبت من دراسة تاريخ المدينة والحضارة أن الشعوب ذات الاتصالات الثقافية المتعددة المتنوعة ، هي أكثر الشعوب تقدماً وثراء في مدينتها ، بينما تلك التي أصابها العزلة ، انتهت بها الحال إلى التدهور والانحطاط .

وقد استطاع مؤلفا هذا الكتاب ، وقد ملكا ناصية علوم الجغرافية والتاريخ والأنثروبولوجيا أن يتبعوا قصة التطور الحضارى للبشرية من إرهاباتها الأولى خلال الأزمنة المتتالية ، في الأمكنة المختلفة ، ومن ثم كانت هذه الدراسة كاملة شاملة إلى حد كبير . ولا يستطيع القارىء أن يستغنى بجزء من هذا الكتاب عن الآخر ، وربما استطاع أن يقرأ القسم الأول منه على أنه موضوع قائم بذاته وهو خاص بتطور الإنسان . ولكن القسم الثانى الخاص بالتطور الحضارى كل متماسك . بدى* بجنوب غرب آسيا مهد الحضارات الأولى الراقية ، ومهبط الوحي ، ولكنه لم يستطع في هذا الفصل أن يغفل الإشارة إلى مصر من ناحية أو شرقى البحر المتوسط من ناحية أخرى ، بينما هو عاجل هذين الإقليمين في فصلين آخرين متتابعين . ولا يستطيع من يدرس تطور حضارات أوربا أن يغفل الأحداث الهامة

التي كانت تضطرم في داخلية آسيا ، والتي دفعت إلى أوروبا بالهجرات والغزوات يتلو بعضها بعضاً . ونفس هذه الأحداث هي التي شكلت تاريخ الهند ، والصين ، وهي التي غيرت مجرى التاريخ عدة مرات في جنوب غرب آسيا بل ووصلت آثارها إلى مصر .

هذا الكتاب — نتيجة دراسة ثلاثين عاماً متوالية ، وملخص أبحاث ظهرت في تسعة مجلدات سابقة — يقدم لنا درساً في دقة البحث ، والبصر والامانة في جمع الأدلة المختلفة والتكامل الذهني لعدة فروع مختلفة ومتشابهة أحياناً ؛ فروع متباعدة من العلم ، ثم التواضع العلمي الجمل إذ أن صاحبيه لم يحاول أن يستخدم لفظاً واحداً فيه شيء من الضخامة أو الفخامة وهما يترخان لتطور الحضارة الإنسانية في جميع بقاع العالم خلال جميع العصور .

ولعلهما كانا يعتقدان أن غموض العبارة لا يخفى سوى الجمل ، وأن الاختباء وراء الالفاظ البراقة ليس إلا حيلة العاجز . وأن الفهم الكامل للموضوع تعبر عنه عبارة سهلة واضحة .

وإن من أعظم الدروس التي يخرج منها القارىء لهذا الكتاب هو أن الحضارة الإنسانية من صنع جميع البشر ، ليست غربية ولا شرقية وليست بيضاء ولا سوداء ولا صفراء ، وأن مدينتنا هذه تجرة واحة الظلال ، تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، وتمتد جذورها إلى كل مكان ، ارتوت من روافد وأنهار عديدة من مصر والعراق والهند والصين وأوروبا ، وأن لكل قارة ولكل شعب من الشعوب العريقة ، نصيباً في ريبها وتهذيبها والعناية بها ، فمن تلال جنوب غرب آسيا ظهرت زراعة القمح والشعير ولكن في سهول الإفرنتين ودلتنا النيل عرفت فنون الري ، وأن ملايين

البشر في أفريقية وجنوب غرب آسيا تتناول طعاماً منقولاً من الأمريكتين بعد كشفهما ألا وهو الذرة . كما أن ملايين أخرى لم تعرف الأرض إلا بعد أن نقل من جنوب شرق آسيا ، وإذا كان غرب أوروبا يتزعم العالم في الوقت الحاضر في المدنية الصناعية ، فعلينا أن نذكر أن صناعة التعدين لم تظهر بادي الأمر إلا في مصر وجنوب غرب آسيا ، التي سبقت بقية العالم بأكثر من ألف عام في هذه الفنون ، ولم تكن مدنية أوروبا الحديثة لتظهر لولا قيام مدنية الإسلام وحضارته في قرطبة وأشبيلية . وحضارة العرب في صقلية . ومن هذه المشاغل الحضارية تعلم الغرب فلسفة أرسطو وأفلاطون وهندسة إقليدس وطب جالينوس مترجمة إلى اللغة العربية ، ومضافاً إليها من العلم العربي .

، لقد أخذنا من الشرق الأقصى صناعة الخزف الدقيق والحرير الطبيعي وفن الطباعة ، وأخذنا عادة شرب الشاي . وقد استعنا بالطباعة الصينية ، لطبع ما نكتب ، أي لطبع وسيلة نقل الأفكار والآراء التي تعلّمناها من سينا . أو رأس شجرة أو الفينيقيين . ومعرفة المكتبة ظهرت لأول مرة في مصر واستخدمت في ذلك عدة خطوط هي الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ثم أدخل الفينيقيون تحسينات على وسائل الكتابة باستعمال الحروف الأبجدية التي عمت فيما بعد .

ويعد . .

لعلني أكون قد وفقت إلى نقل هذا الكتاب الهام إلى اللغة العربية ولعل القراء أن يفيدوا من قراءته ويخرجوا منه بأعظم دروس التاريخ : الإنسانية واحدة ، وتراثنا الحضاري واحد ، ساهمت فيه جميع شعوب الإنسانية .

محمد السيد غنوب

الاسكندرية في ١٢ يولية ١٩٦٠

القسم الأول

تطور الإنسان

الفصل الأول

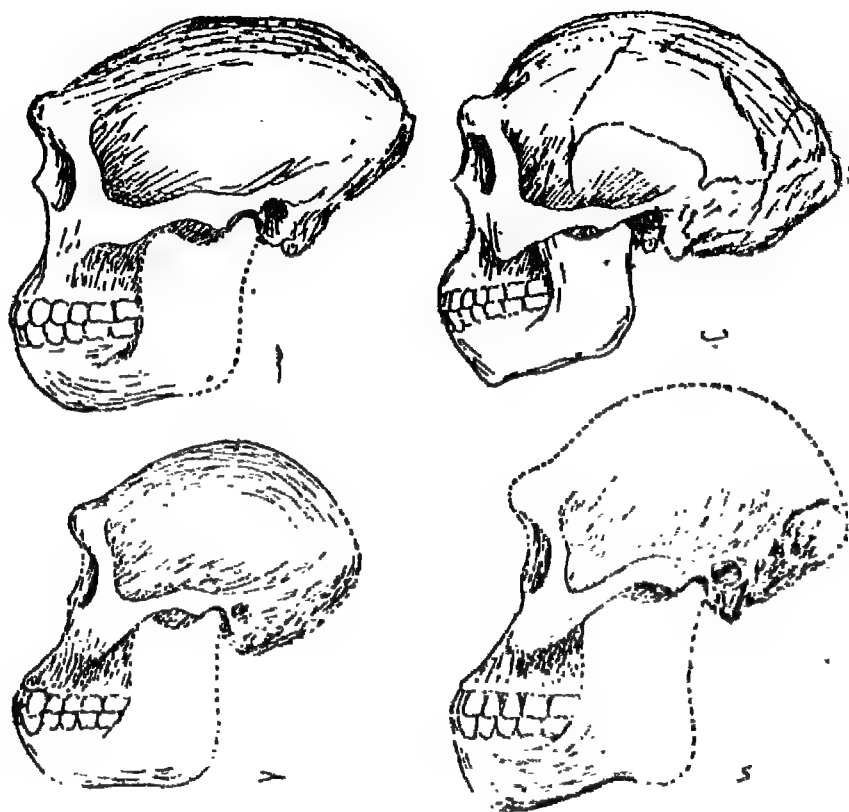
عن العصر الجليدي والإنسان

أصبحت قصة تطور الإنسان أكثر تعقداً وأكثر تفصيلاً الآن نتيجة للكشوف التي تمت لسنوات خلال الثلاثين الأخيرة وأكثر (١٩٢٤ - ١٩٥٤) وخمسة عشر في جارة والمدن وجنوب أفريقيا وشرقها هذا بالإضافة إلى اكتشاف رسائل جديدة لاخبار عمر الحضارات العظيمة النسي ، بطرق تطبق تحت ظروف خاصة فقط مما أغنى معلوماتنا . إلا أنه لم يكشف بعد عما يرجع بأصل الإنسان إلى ما قبل الفترة الانتقالية التي تقع بين عصرى البلايوسين ، والبلايستوسين ، أى ما قبل المليون سنة الأخيرة . ثم إن العظام البشرية النسيبة بالبشرية لا تحتفظ إلا تحت ظروف خاصة . ومن المتفق عليه أن الشامبانزي والغوربلا تشتركان مع الإنسان في صفات عديدة وأن هذه الصفات المشتركة من التعداد والكثرة بحيث لا يمكن أن ترجع إلى ما يسمى بالتلاق أو التجمع ، أى ظهور عدة صفات بدأت من أصول متفرقة وتلاقت بعد تطورها - وبنت في شكل واحد . ومن العسير أن نجد حيواناً أقدم من الليمور أو النارسبوس (العنبر الشجرى) يستطيع أن ينظر بكتنا عينيه إلى الأمام وأن يرفع هامته فوق منكبيه ولديه أيد لها أصابع تشبه أيدى الإنسان . وربما تطور فرع خاص من شبيهات الترسيوس إلى الإنسان كما يرى وود جونز Wood-Jones ، وقد أيد « مورتون » هذا الرأى بما لاحظته من وجود العظمة النارية الطويلة لدى الإنسان محتفظاً بها من أصله النارسى الجيولوجى القديم ، وهذه العظمة تختلف عن نظيراتها القصيرة القوية لدى القرود العليا . علينا أن نذكر أن الرئيسيات أى الليمور والنسايس والقرود

العليا من حيوانات الغابة الرطبة الدفينة أى التى لا تحتفظ تربتها بعظام
الحيوانات التى تدفن أو تطمر فيها إذ سرعان ما تتحلل وتذوب . ولقد أصبح
الإنسان إنساناً لأنه — بالإضافة إلى أشياء أخرى — قد خاطر وخرج من
الغابة إلى السهول المكشوفة وهذه السهوب أيضاً لا تحتفظ بعظام الموتي
إن لم تدفن . ومن ثم كانت حفريات الإنسان القديم نادرة جداً كما كانت
السلالات البشرية القديمة المعروفة قليلة جداً .

وتستخدم القرود العليا والنسانيس قطع الحجارة لتحطيم البندق ، ولا بد
أن أسلافنا قد سلكوا نفس السلوك ، إلا أنه لا يمكن أن نقبل الحجارة غير
المشكلة كقرينة على ظهور الإنسان . ومن الممكن أن نقول إن الإنسان
والشامبازى والغوريلا تشترك فى صفات عامة تجعل قرابة بعضها لبعض
الآخر كقرابة أولاد العم ، وإن افتراق بعضها عن البعض الآخر قد جاء
نتيجة لانتقال الإنسان من الغابة إلى السهول المكشوفة بينما ظلت القرود
العليا فى بيئة الغابات حتى بعد أن تعلمت السير على الأرض كما تعلمت بعد ذلك
بعض النسانيس أيضاً .

وتعيش أجنة الإنسان والقرود العليا حوالى تسعة أشهر فى أرحام أمهاتها
قبل أن تولد ، وتستطيع تلك الرئيسيات أن تتزاوج فى كل فصول السنة .
ومن ثم فإنها أكثر التصاقاً بعضها ببعض الآخر فى حياتها (أى أنها تعرف
شيئاً عن الحياة العائلية) ، وقد تساعد طول فترة الحمل على نمو الرأس والمخ ،
ولتصور ذلك نستطيع أن نذكر أن الشمبانزى يستطيع أن يخرج أصواتاً عديدة
ذات معان مختلفة تفوق ما يستطيعه أى حيوان آخر ، كما أن بعضها يستطيع أن
يقوم بأعمال يمكن أن تعتبر وسائل لأهداف معينة مما يكاد يقرب من العقل .
مداروغتو وبروم وروبسون وزملاؤهم فى جنوب أفريقيا عدداً من الهياكل



شكل (١)

مناظر جانبية لجماجم قديمة (عن بروم) مقياس مصغر ٢٢ مرة تقريباً .

١ — الإنسان القرد (إنسان جاوة) ، ديبو ، جاوة .

٢ — إنسان ، بلاك ، شمال الصين .

٣ — شبيه البشر الأرنسفال *Plesianthropus* ، بروم ، متركفوتين ، ترانسفال .

٤ — شبيه البشر الضخم *Paranthropus robustus* ، بروم ، كرومداري ، ترانسفال .

العظمية مطمورة في طبقات الحجر الجيري في ترانسفال وأطلق عليها أسماء عديدة مثل القرد الجنوبي وأشباه الإنسان .

Australopithecus, Telanthropus, Plesianthropus

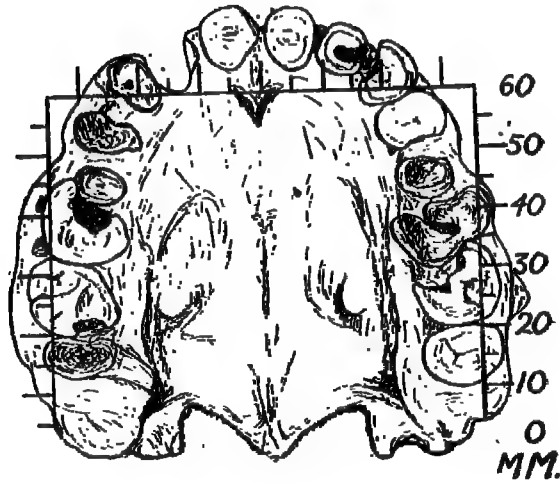
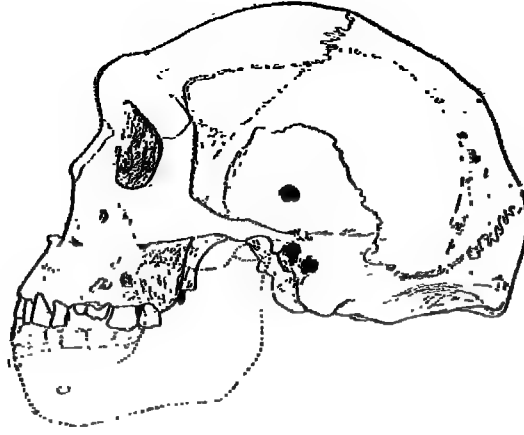
وترجع هذه الكائنات إلى مرحلة الانتقال بين البلايوسين والبلايستوسين . إلا أن « بروي » يميل إلى إرجاعها إلى عصر البلايوسين . يستند في ذلك إلى ما أثر عليه معها من حفريات حيوانية ، ويدور جدل كثير حول صلة هذه الحفريات بكل من من القرد والإنسان وهذا يترك للإخصائيين يبحثونه عندما يتوافر لديهم عدد أكبر من الحفريات . إلا أن فك هذا المخلوق السفلي أقرب في صفاته إلى البشر ، كما أن أنيابه ليست ضخمة . وتمتاز القردة العليا بوجود فجوة بين الأناب والأسنان الأخرى كي تستقر فيها أنياب الفكين العلوي والسفلي حينما ينطبقان على بعضهما البعض ، وهذه الفجوة صغيرة جداً لدى القردة البشرية الجنوبية ، بحيث لم تعد تؤدي وظيفتها . وهذا تحول نحو الظروف البشرية ، وكما أن عظام حوض الرحم أقرب في شكلها إلى الحالة البشرية منها إلى الحالة القردية ؛ بل إنه يقال إن القردة الجنوبية عرفت استخدام النار ومن ثم أطلق عليها اسم القردة الجنوبية مستخدمة النار *Australopithecus prometheus* . وقد استند هذا الفرض على ما وجد مع حفرياتها من عظام محترقة ، ومن ثم أضيف إلى اسم هذا القرد لقب بروميثيوس . ويعتبر استخدام النار إحدى الخطوات الهامة التي تميز الإنسان ، فهو يتضمن العناية بجذوة النار وتغذيتها باستمرار حتى لا تنطفئ . إذ لم يكن ذلك المخلوق بقادر على استنباطها .

وقد وجد « كارل لارش » عام ١٩٣٨ بالقرب من بحيرة نيارا بقايا فك علوي لمخلوق قريب من القردة والإنسان ، وقد أطلق عليه اسم الإنسان الضخم *Meganthropus* . كما أطلق اسم الإنسان القرد الضخم *Pithecantropus robustus* على بقايا فك أسفل عثر عليه في جاوة .

كما اشترى « فون كونج فالند » ثلاث أسنان شبه بشرية ضخمة من أحد الحوانيت في هونج كونج ، ويقال إنها جلبت من شانسي وقد سميت بالقرد

الضخم *Gigantopithecus* ، ومن المحتمل أن هذه البقايا تميز فرعاً جانبياً مندرجاً لشجرة تطور الإنسان وأنها لا تلتقي سوى ضوء ضئيل على قصة التطور ، ولا ريب أن مجموعة القرد الجنوبي أكثر أهمية ، ويبدو أنها كانت تستطيع أن تسير منتصبية القامة أو قريبة من ذلك ، وربما عرفت استخدام النار والحجارة والعظام ، وربما لم تبتعد كثيراً عن الحالة البشرية كما يقول لوجرو كلارك . ورغم أن الإنسان القرد اسم أطلق على قطع من أفكاك ضخمة كما ذكرنا ، إلا أنه في الحقيقة يطلق أيضاً على الجحاشم والحيات كل العظمية التي تنتمي إلى عصر البلايستوسين الأسفل في جاوة ، وقد عثر على ثلاث أخرى بعد ذلك بسنوات طويلة ، إحداها ما سبق أن أشرنا إليه . وقد تم الكشف عن هذه البقايا في ظروف لا تمكن من جمع أى دليل مستمد من الأدوات التي كان يصنعها الإنسان القديم إلا أن دافيد سن بلاك أخذ منذ سنة ١٩٢٧ يفحص مكانا سكنه الإنسان لفترة طويلة في شو كوتين بالقرب من بيكين . يحتل هذا الموضع فترة زمنية طويلة إذ عثر فيه على هياكل عظمية وجحاشم تنتمي لأربعة عشر شخصاً ، وقد درست تلك البقايا البشرية ووجد أنها قريبة من الإنسان القرد الذي عثر عليه في جاوة رغم أنه أطلق عليه اسم إنسان الصين . وربما امتاز بعضها عن الإنسان الجنوبي بارتفاع الجبهة وقد وجد مع هذه البقايا أدوات من الشظايا ومواقد . وينتمي هذا الإنسان مع إنسان جاوة إلى عصر البلايستوسين ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن كان البلايستوسين الأسفل أو الأوسط ، ومن المعروف أن بقايا شو كوتين ترجع إلى ما قبل البلايستوسين الأعلى .

وقد عثر ليكي Leakey في كاتم وكانجيز بكينيا على فك وجمجمة ، قيل إنها كانت تقترن بالآلات حجيرية أشولية وإنها أقرب إلى الإنسان العاقل *Homo Sapiens* . وهذه البقايا قديمة جداً ، إلا أن بوزويل يشك كثيراً في تفاصيل خاصة بتاريخها .



شكل (٢)

- ١ - إنسان ووديسيا ، بروكن هل ، روديسيا (عن براش) .
- ٢ - جمجمة أضيف إليها تخطيط فك هيدلبرج الأسفل (٠.٣٠ الحجم الطبيعي) .
- ٣ - سقف حلق إنسان روديسيا ٠.٧٥ من الحجم الطبيعي . ويمثل المستطيل مدى سقف حلق الإنسان الحديث على نفس القياس .

وفي أوروبا قبل العلماء أن يرجعوا فك ماور الذي عثر عليه في محجر بالقرب من هيدلبرج إلى البلايستوسين الأسفل . وهذا الفك ضخم جداً إذا قورن بفك الإنسان الحديث ألا أنه يكاد ينطبق على جمجمة « بروكن هل » ، في روديسيا ، ومنتهحدث عنها فيما بعد .

وترجع جمجمة فتاة (بالغة) وجدت في شتاينهايم بواى مور في ألمانيا إلى عصر البلايستوسين الأوسط أو الأسفل ، أى إلى فترة جليد رس Riss ، أو فترة أدفا خلال هذا العصر الكبير . وتشير هذه الجمجمة إلى اتجاه الجمجمة اتجاهها واضحا نحو اكتمال صفات الإنسانية أى الإنسان العاقل . وربما قيل إن جماجم الصغار ولا سيما من الإناث أقرب إلى الاعتدال وأميل إلى أن تكون في مركز متوسط في صفاتها ، وإن صفات هذه الأنواع لا تتضح إلا بعد النمو ، ولا سيما نمو الذكور ، من ثم كانت جماجم الذكور أكثر تمثيلا لهذه الأنواع من جماجم الإناث .

وقد أكد أوكلى أخيراً أن عمر جزء من جمجمة عثر عليها في سوانسكومب بكنت « ووصفها ا . ت . مارستون » يرجع إلى أوائل عصر البلايستوسين ، وقد استخدم أوكلى طريقة معينة لتقدير عمر الحفريات ، وهذه الطريقة لا تصلح إلا تحت ظروف معينة ، وتعتمد على تحليل كمية الفلورين التى تمتصها العظام من الأرض منذ دفنها . ولا تمتص العظام التى دفنت بعد عصر البلايستوسين أكثر من ٠,٣٠ ٪ من الفلورين ، بينما وجد أن جمجمة سوانسكومب قد امتصت ٠,٣٠ ٪ من الفلورين فى بعض أجزائها ، و ١,٩ ٪ فى بعضها الآخر . كما وجد أن هيكل « جالى هل » العظمى ، الذى كثر عنه النقاش ، قد امتص مقداراً من الفلورين وصل إلى ٤,٠ ٪ ومن ثم فالأرجح أن يرجع عمره إلى أواخر البلايستوسين أو ما بعد ذلك . إلا أن اختبار الفلورين يخضع لظروف كل موضع وجدت فيه العظام على حدة . ومن ثم لم تكن نتائجه مطلقة . ولم يبق للأسف من جمجمة سوانسكومب عندما وضعت تحت

الفحص العلمى سوى جزئها الخلفى ، وهى على أية حال تشير إلى طراز الإنسان العاقل ، بل إن بعض العلماء يرجعها إلى هذا النوع البشرى .



شكل (٣)

جمجمة (أنثى صغيرة) ، شتاينهايم ، ألمانيا

وقد وجدت هذه الجمجمة فى حفرة تحتوى على قنوس يدوية أشولية (انظر ص ٢٧) ويرى بعض العلماء أن هذه الجمجمة تقترن بتلك الآلات الحجرية وهذا يعنى أنهم يعطونها تاريخاً قديماً .

وعثر فى وقت أحدث على أجزاء جمجمتين فى فونتيشفاد Fontéchevade فى غرب فرنسا مقترنتين بصوان يرجع إلى العصر الأشولى المتأخر (تيساسى Tayacian) ؛ وهذا يعنى أنهما ترجعان إلى تاريخ قديم ويقال إنهما يمثلان مرحلة تطور نحو الإنسان العاقل .

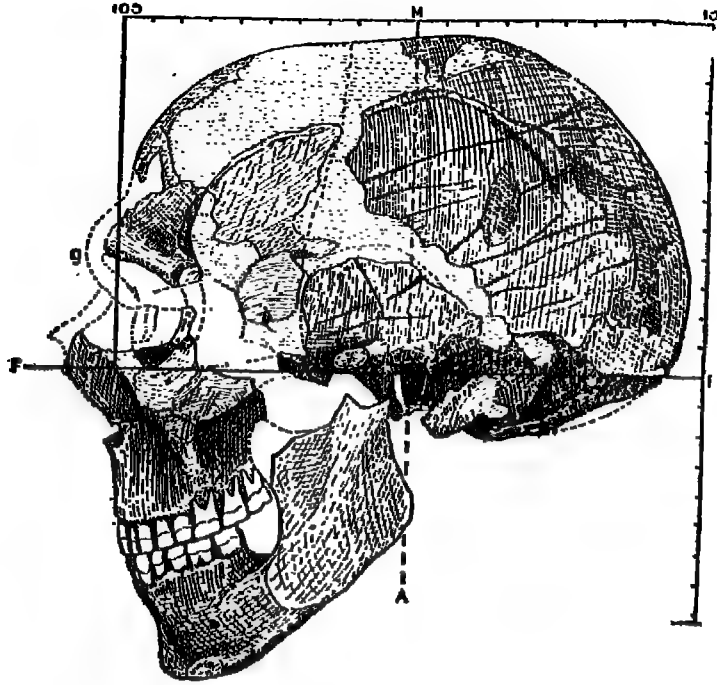


شكل (٤)

منظران لقطعتين من جمجمة سوانسكومب مقياس ٤ر. خطي .
(عن تقرير لجنة سوانسكومب ١٩٤٨) .
١ - منظر جانبي . ب - السطح الداخلي .

وعثر على بعض الجماجم التي يطلق عليها اسم طراز نياندرتال وترجع إلى عصر البلايستوسين الأوسط في أوروبا . وقد اكتسبت هذه الجماجم هذا الاسم لأنه عثر على أول نماذجها في وادي نياندر بالقرب من بون في وادي الراين عام ١٨٥٦ ولم يعترف بهذه الجماجم كطراز خاص إلا بعد نقاش حاد افترض فيه أن شكلها الذي وجدت عليه إنما هو نتيجة مرض معين . وما إن اعترف بهذا الطراز حتى أُرجمت إليه جمجمة أنثى عثر عليها في جبل طارق عام ١٨٤٨ . ثم عثر في عام ١٩١٨ على عينة هامة له أيضاً في لاشابل أوسانت La Chapelle — aux — Saints اعتبرت الشكل النموذجي لهذا الطراز وكان الفضل في ذلك يرجع إلى شكلها الكامل الذي ظل محتفظاً بكل سماته .

يمتاز هذا الطراز بجمجمة أكثر ارتفاعاً من جهة لإنسان جاوة ولكنها أوفى بكثير من جهة الإنسان العاقل ، كما أنها تمتاز بعظام الحجاجية الضخمة التي تشرف على العينين ، أما الفك والأسنان فهي ضخمة ، ويبحث التواء عظام الفخذ على الشك فيما إذا كان هذا الإنسان يستطيع أن يسير منتصب القامة تماماً أم لا . وتمتاز جمجمة لاشابل أوسانت بالفك البارز بروزاً شديداً ، إلا أن هذه الصفة ليست شائعة بين جماجم إنسان نياندرتال الأخرى . أما جماجم تل السخول (في فلسطين) فهي تشبه إلى حد ما صفات إنسان نياندرتال وربما كانت مرحلة وسطى بين الصفات النياندرتالية والصفات الإنسانية الحديثة ، وإذا اعتبرنا إنسان نياندرتال فرعاً خاصاً من الإنسان الحديث ظهر في عصر البلايستوسين ليلام ظروف المناطق الباردة البرودة ، فإن الجماجم الفلسطينية ولاسيما جمجمة السخول رقم ٤ يمكن أن تعتبر جماجم لإنسان حديث ذات أثر نياندرتالي ضعيف . كما عثر في بروكن هل بروديسيا على جمجمة ذات عظام حجاجية ضخمة جداً وجهة منخفضة تفتى بشكل عام إلى مجموعة إنسان نياندرتال .



شكل (٥)

جمجمة تعرف بالسخول رقم ٤ (ذكر) . جبل الكرمل . فلسطين .

ح — عظمة الحجاجين .

ويرى بعض العلماء أنها أيضاً ذات وجه شبه بالإنسان العاقل ، وشبيه بها أيضاً جمجمة إياسي Eyassi (شمال تنجانيقا) وإن كانت صفاتها أقل غلظة من صفات إنسان نياندرتال ، إذ ربما كانت جمجمة أنثى ، ومن المحتمل أنها ترجع إلى عصر البلايستوسين الأوسط . وتعتبر جمجمة شتاينهايم التي سبق ذكرها مثالا لشاب نياندرتالي ، وهذا مثل لصعوبة التمييز بين الجمجم تمييزاً دقيقاً . ومن الأمثلة الأخرى لذلك أيضاً ما عثر عليه في باندونج بحزيرة جاوة . وهي

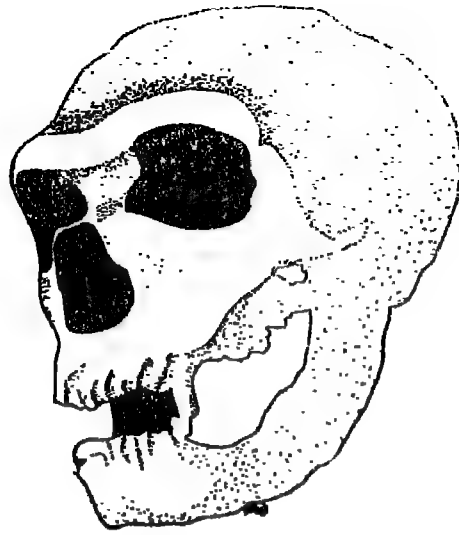
مجموعة جاجم ترجع إلى عصر البلايستوسين الأوسط أو الأعلى . ويسمى غالباً بإفسان سولو Homo-soloensis وهي أقرب شهاً للإنسان العاقل من أى مجموعة نياندرتالية عثر عليها . ويربط بعض الباحثين بين هذه المجموعة وبين الأستراليين الأصليين ، ولو أن الإنسان العاقل أو أى إنسان يشبهه كان يعيش في البلايستوسين الأوسط أو حتى في فترة من فترات البلايستوسين الأسفل جاز لنا أن نضع الإنسان العاقل العرف (كوم كابل أو كرومانيون) في طرف (انظر الفصل الثاني) ونضع إنسان لاشابل أوسانت في الطرف الآخر من هذا العصر . ولأمكن ترتيب الأنواع البشرية الأخرى بين هذين الطرفين طبقاً لدرجة اقترابها من صفات الإنسان العاقل الكامل التي بدأت في الظهور بوضوح في نهاية البلايستوسين الأوسط .

كان الرأى السائد بين العلماء منذ ثلاثين عاماً أن الإنسان العاقل لم يظهر قبل البلايستوسين الأعلى وأنه لم يعثر في بقايا الإنسان نياندرتال في طبقات أحدث من البلايستوسين الأوسط ، أى أن إنسان العاقل ربما كان قد بدأ في الظهور قبل نهاية عصر البلايستوسين الأوسط ، وربما قبل بدايته وعلى الأقل في شكله البدائي ، وهذه النظرية تتحاشى افتراضاً قديماً صعباً يقول بأن الإنسان العاقل انحدر من إنسان نياندرتال^(١) .

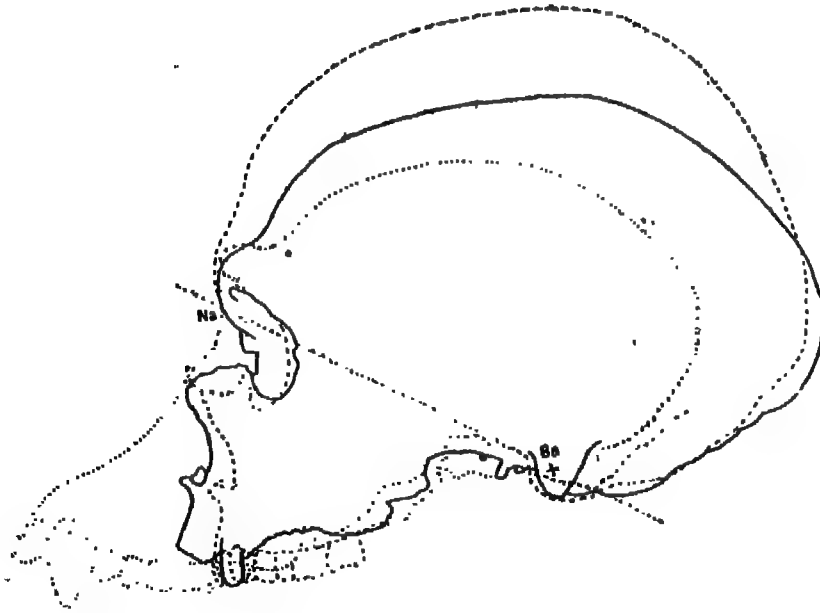
وترتبط مجموعة نياندرتال بعظامها الغليظة القوية بأوائل فترة «فرم» الباردة

(١) نفضل أن نستخدم تعبير إنسان أوفرورجولة بدلاً من الإنسان القرد وهي الترجمة الحرفية للاسم اللاتيني الذي أطلق عليه .

إنسان Anthropus قرد Pithec.



جمجمة وفك لرجل لا شابل أو سانت .



شكل (٦)

أوربي حديث

رجل لا شابل أو سانت

شامبانزي

رسم قطاعات طولية لعدة جماجم .

من العصر الجليدى ، وهى تمثل حالة من التطور تعتبر كما هو الحال فى حيوانات أخرى عديدة استجابة محتملة الحدوث لبيئة جليدية ، ويجب أن نحترس ونستخدم تعبير استجابة محتملة الحدوث ، وتجنب اعتبارها تطوراً حتمياً أو عاماً .

ولم يبق على ظهر الأرض مع بدء عصر البلايستوسين الأعلى إذا قبلنا التاريخ السائد سوى سلالات مختلفة من نوع الإنسان العاقل ، وهى بلا شك تشبه كثيراً الإنسان الحديث . وكان لبعضها عظام حجاجية كبيرة . ولكنها أقل بكثير من مثيلاتها لدى النماذج البشرية القديمة ، وكانت هذه السلالات جميعاً تسير متمسكة بالقامة ولم يكن بروز الفم والفكين — إن وجد — كبيراً ، بينما كانت الذقن لديها أكثر اكتمالاً . وسنزيد هذا الموضوع تفصيلاً فى الفصل الثانى .

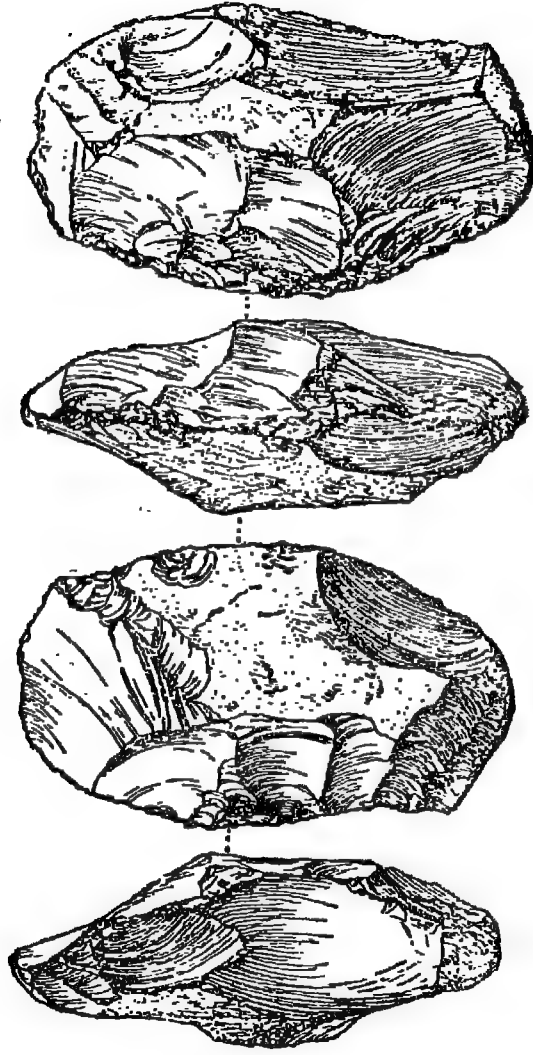
ومن أهم الحقائق التى تتعلق بالجنس البشرى قابليته للتكيف والتلاؤم لكل مناخ على ظهر الأرض فيما عدا مناخ القارة القطبية الجنوبية ، سواء كان ذلك بارتدائه الملابس أو إشعاله النار فى الأصقاع الباردة ، وكذلك كثرة تحركاته لا سيما فى عهود الصيد الأولى ثم ما يصحب ذلك من نواحي الاختلاط بين جماعاته المختلفة فى مساحات واسعة من الأرض ، وهذا يحد من تخصصه الإقليمى على نطاق واسع . وفى نفس الوقت لا بد أن الزواج الداخلى كان النظام الشائع بين المجموعات الصغيرة فى ذلك الوقت .

وآثار الإنسان الأول الحجرية أكثر وفرة من آثاره العظمية ، ولكن لم يبق لنا شئ مما استعمله الإنسان من آلاته الخشبية ، وقد استعمل الإنسان العظام وقرون الحيوان والعاج ، ولا تزال آثار الإنسان الحجرى القديم

المصنوعة منها باقية ، إلا أنه يقال إن أداة خشبية مدببة عثر عليها في كلا كتون
ياسكس . ترجع إلى فترة « مندل رس » غير الجليدية .

ومن المحتمل أن أغلب الآلات الحجرية كانت قطعاً من الحصى المشطوفة
أيضاً ثم صنع الإنسان آلاته من الصوان أو الصوان الأبيض أو الحجر
الزجاجي (الأوبسيديان) . كما أنه عالج بشيء من الجهد السكوارتز وغيره من
الصخور ، وقد عمد الإنسان إلى شطف شظايا من النواة الحجرية ثم عالج
كلا من الشظايا والنواة على حدة لصنع آلات حجرية وقد سميت آلات النواة
الأولى المشطوفة من كلا الجانبين بآلات شيلية نسبة إلى شل Chelles بالقرب
من باريس ، ولكنها الآن تسمى أبيقلية نسبة إلى أيفيل Abbeville على نهر
السوم بشمال فرنسا ، حيث وجدت بكثرة . أما الآلات الأحدث منها
وهي الفتوس اليدوية المصنوعة من الصوان أو غيره من الحجارة فهي تسمى
أشولية نسبة إلى سانت أشول St. Acheul بالقرب من إميان بشمال فرنسا .
وهذه الآلات الدقيقة الصنع كانت تحتاج لمهارة في قطعها من كتل الحجارة
أو العظام . وقد قام مسيو « كرتيل » بتجارب لإثبات هذا كما أيده في ذلك
الدكتور ليسكي .

وتدل الدقة التي تمت بها صناعة الآلات الأشولية الجيدة على أن إنساناً
عاقلاً هو الذي قام بصناعتها ، وربما أيد هذا ما وجد من آلات أشولية مع
جماجم سواسكومب وكانجيرا . ويشير توزيع الشظايا غير المتقنة في كثير من
أنحاء أوراسيا حيث توجد مختلطة بأدوات النواة — على أن بعض أنواع
إنسانية أخرى غير الإنسان العاقل قد قامت بصنعها ومن الممكن أن تصور
هجرات الجماعات البشرية التي كانت تستخدم أدوات النواة المشطوفة من
الوجهين (الإبيقلية والأشولية) من الأرض المكشوفة في أفريقية شمال
خط عرض ١٠° شمالاً في اتجاهات عديدة على النحو الآتي :



شكل (٧)

أداة لأوائل العصر الأيغيفي إلى الأشولي ، مصنوعة من نواة الصوان ، ومشظاة من الوجهين .

(أ) جنوباً إلى الأطراف الجنوبية لأفريقية ولا سيما في الفترات الجافة وكانت تحمل عناصر حضارية من الشمال ، ومن الجائز أن تكون قد عاشت فترة طويلة من الزمن في أقصى الأطراف الجنوبية للقارة وكانت هذه الهجرات تنحاش في سيرها الغابات الاستوائية الرطبة التي كانت أوسع انتشاراً في خلال بعض فترات البلايستوسين .

(ب) شمالاً إلى أوروبا ، ولا سيما في فترات الدفء ، ونحن الآن نعتقد تبعاً «لفوفيرى» Vaufray أنه لم يكن ثمة معبر أرض يربط أفريقية بإيطاليا في عصر البلايستوسين . أما عن مضيق جبل طارق فإن «فوفري» يرى أنه كان مفتوحاً طوال عصر البلايستوسين ، أما و - ب . رايت W. B. Wright فكان يرى أن المعابر الأرضية كانت موجودة ثم غمرت بالماء نهائياً خلال البلايستوسين ، ومن ثم ربما استطاع صناع آلات النواة الحجرية أن يعبروا من البر الأفريقي إلى البر الأوربي فوق أرض صلبة . وعلى أية حال فربما كانت المضائق المائية أضيق مما هي عليه الآن ، وربما لم يكن من العسير على الإنسان القديم أن يعبر تلك المضائق بوساطة أى نوع من العوامات .

(ج) شرقاً إلى الهند وربما إلى جزر الهند الشرقية القريبة التي ربما كانت أجزاء من القارة الآسيوية خلال الفترات التي انخفض فيها مستوى ماء المحيط .

ولما كان من المحتمل أن الحافات الحالية لغرب الهند وجنوب بلاد العرب هي نتيجة حركة عينية لم تحدث إلا في البلايستوسين وربما بعده ، فإن معنى هذا أن الاتصال من شبه جزيرة العرب شرقاً إلى الهند ربما كان أيسر منه في الوقت الحاضر ، ولا سيما حينما كان مستوى البحر أقل مما هو عليه الآن .

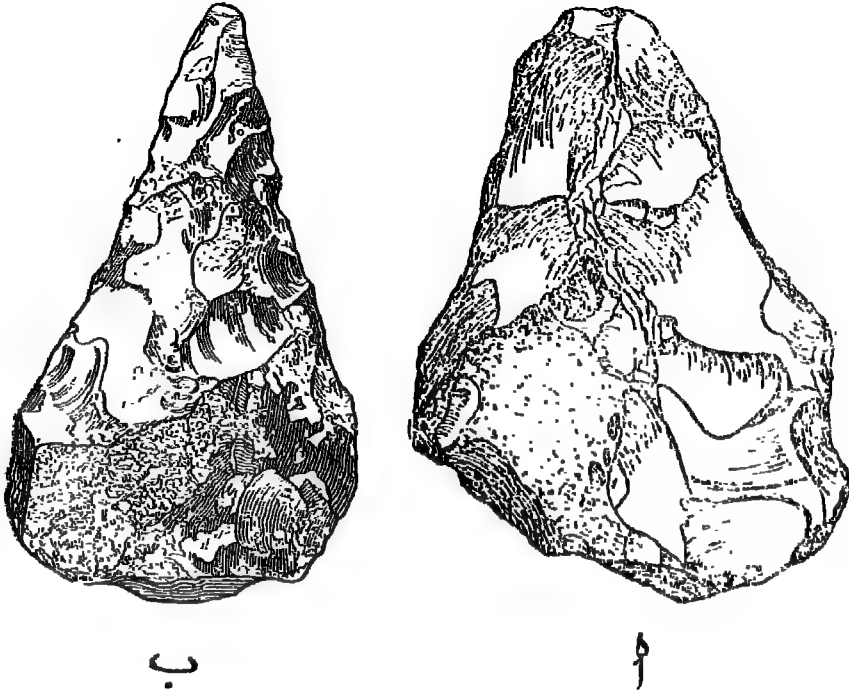
ومن المميزات الواضحة للآلات ذات الوجهين هو شيوعها وتجانسها

في المساحة الواسعة التي وجدت فيها ، وقد وجدت الآلات التي تشبه الأزميل والكشط بكثرة حيث يتوفر صخر الربوليت والكوارتز ولا سيما في أفريقية ، حيث إن هذا الصخر يشغلي بسهولة حسب الشكل المطلوب إلا أنه وجدت أزاميل ومكاشط حجرية من أوروبا وبريطانيا . رغم صعوبة تشظية الصوان في الشكل المطلوب وعدم انتشار تلك النماذج الحجرية .

وتماز تلك الصناعات الحجرية أيضاً ببطء التغير في طراز الآلات الحجرية ، مما يدل على مدى سلطان العادة ، ورسوخها في نفوس الصانع القداما . وقد ذكرنا « هربركيلى » في بحث جديد أن صناع النواة كانوا أيضاً يستخدمون الشظايا الحادة التي كانوا يفصلونها من النواة ، ويوافقه على ذلك كثيرون ، ونستطيع أن نقول إن هذا الإنسان القديم وما تركه من آلات حجرية وما دل عليه من نشاط عقلى وعملى كان قد وصل إلى مستوى قى حقيقى .

وفي السنوات الأخيرة تقدم تاريخ هذه الصناعات بحسب العصور الجليدية ، وصحب ذلك دراسات أكثر تفصيلا عن تتابع التكوينات في الجهات التي غطاها الجليد أو تأثرت بالعصر الجليدى وشبه الجليدى .

فقد وجد « ريدموار » Reidmoir « وسينتى » Saintry آلات صوانية في الرواسب العليا لكراج في نورفولك أرجعها إلى صناعة الإنسان . وهذه تعتبر رواسب بليوسينية ولكن من المحتمل أن تكون معاصرة لدور جنز الجليدى . وأحدث من هذه الآلات بقليل ما تسمى بشظايا منقار الطير Rostro - cariantes وهذه يضعها « زوينر » Zeuner في فترة مندل غير الجليدية واسكن بارنز لا يعتبرها آلات (أى من صنع الإنسان) على الإطلاق . ويرى « زوينر » أن الحضارة الأشولية ظهرت في أوروبا في فترة مندل رس غير الجليدية وأنها استمرت بعد دور الرس الجليدية إلى فترة رس فرم غير الجليدية في بريطانيا وغرب أوروبا .



شكل (٨)

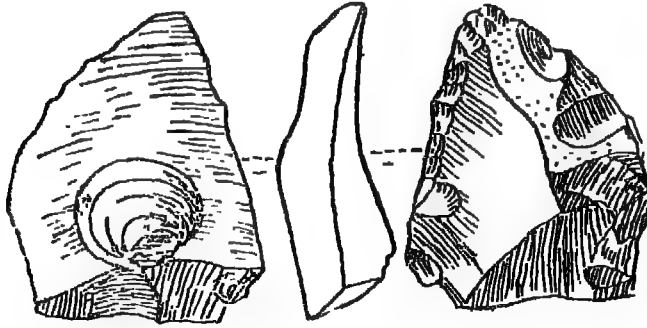
فأسان يدويان من الصوان

١ — طراز أبيغليل قديم . ب — طراز أشولى متأخر .

وقد بينت دراسة آلات الشظايا في السنوات الأخيرة ، ولا سيما تلك المشطوقة من جانب واحد ، ولذلك سميت بالآلات ذات الجانب الواحد ، أنها معاصرة للشظايا ذات الوجهين وأنها وجدت معها في نفس الإقليم كما أنها وجدت في بقاع مختلفة من وسط أوراسيا التي لم يصل إليها صناع الآلات ذات الوجهين . وقد عثر على بعض الآلات غير الدقيقة في كلاكتون (شكل رقم ٩) ياكسكس ، وقد أطلق على هذه الصناعة اسم الكلاكتونية ، وهي عبارة عن شظية فصلت عن كتلة الصخر بعد أن نالت شيئاً قليلاً من التهذيب في بعض

الآحيان ، ويبدو أن هذه الصناعة كانت مستقلة عن الصناعة الأشولية ، وأنها وصلت إلى بريطانيا في فترة مندل رس غير الجليدية ، ثم عدلت فيما بعد إلى ما يقرب من الصناعة القياسية الأقرب إلى عدم الدقة كذلك .

أما الشظايا الأحسن صناعة فتسمى ليفالوازية Levalloisian وموسترية Mousterian وهي أسماء استخدمت لتدل على معان كثيرة مختلفة متنوعة . ويعود استعمالها أخيراً إلى أبحاث «برويل» بصفة خاصة وكان يتطلب تهئية تلك الشظايا ، شطف سطح النواة على عدة مراحل ، حتى يصبح سطح الشظية محدباً كظهر السلحفاة ومن ثم كان اسمها نواة السلحفاة ، ثم فصل عدة شظفات أخرى لتكوين قاعدة للأداة الحجرية تفصل بعد ذلك بضربة أزميل من الكتلة الحجرية . وبذلك تفصل شظية كاملة ذات حواف حادة إذا أحسن تشطيتها . وكانت هذه الشظية تتم في الصناعة التي يسميها «برويل» Breuil بالموسترية بحيث تصبح للشظية سن مديية وقاعدة مثلثة . بل إن جوانب الشظية المثلثة كانت أيضاً تعالج بحيث تصبح بدورها حادة وتمتاز الحضارات الحجرية الأفريقية أيضاً بصناعة تعتمد على فصل الشظية من كتلة حجرية كبيرة .



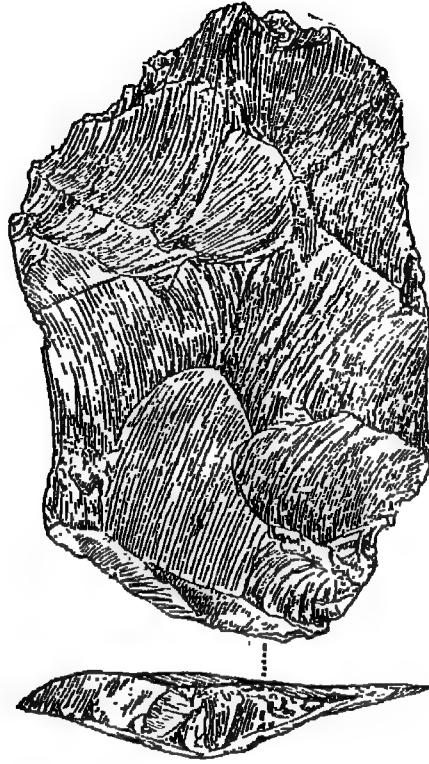
شكل (٩)

شظية كلاكتونية ، كلاكتون أون سي . إسكس (مقياس ٤ : ٩)

وتلاحظ أن هذه الصناعات تعتمد على فصل الشظية بعد تهيتها من كتلتها الحجرية بطريقة واحدة إلا أن الصوان يمتاز بوجود نواة مستديرة بداخله ، وتوجد هذه النواة بالقرب من قاعدة الشظية في الصناعات الليفالوازية . ويبدو أن هذه الصناعة قد تمت في أثناء فترة الرس الجليدية أو في الفترات الأقل برداً خلالها . وأنها استمرت إلى فترة رس فرم غير الجليدية ، بل إلى الفترة غير الجليدية التي تفصل بين قمتي القمر الجليديتين . ونواة السلاخفة التي ذكرناها آنفاً ليست إلا وجهاً خاصاً لهذه الصناعة ومن الممكن أن صاحب هذه الصناعة الليفالوازية والمستيرية قد استعان بالخشب والعظام في تهية الشظايا .

وقد وجدت الآلات ذات الوجه الواحد وذات الوجهين معاً في أماكن عديدة إلا أنه ليس لدينا تسجيل سليم لوجود هذين النوعين معاً أو لوجود مرحلة وسطى بينهما إلا بعد قطع مرحلة كبيرة في الصناعة الليفالوازية والمستيرية . فمن المعروف تماماً أن الذين كانوا يجمعون الآلات الحجرية ، حتى وقت قريب يقدر بثلاثين عاماً كانوا يرمون آلات الشظايا ويحتفظون بآلات النواة . ويلاحظ أن الآلات الأشولية المتأخرة (الحديثة) ذات الوجهين ولا سيما في شمال أفريقيا ، قد شظيت في شظايا كبيرة ، وهناك حالات ظهرت فيها آلات الشظايا الأشولية من جانب واحد بينما الجانب الآخر ترك غفلاً . وقد سميت الآلات الأشولية المتأخرة (الحديثة) الصغيرة المدببة والتي ترجع إلى الفترة غير الجليدية بين الرس والقمر أو إلى أوائل فترة القمر الجليدية بالآلات القياسية Tayacian والميكوكية ، وهو اسم استخدمه كثير من الكتاب بمعان مختلفة . ومن المحتمل أن الشظايا الصغيرة كانت تتركب أو تربط في أطراف القنا ، كما وجدت آلات حجرية أخرى تعتبر إرهابات لما يميز حضارات العصر الحجري القديم الأعلى التي سنتحدث عنها في الفصل الثاني . وقد وجدت نماذج مختلفة لصناعة العصر الحجري القديم الأسفل

في العالم الموسمي ، جنوب وشرق آسيا منها الحصى المشطى الذى يشبه المكشط .



شكل (١٠)

شطية ليفالوازية ، مونتير ، فرنسا . (مقياس ٤ : ٩)

وتحتفظ أسبانيا بقدر كبير متنوع من الآلات ذات الوجه الواحد وذات الوجهين .

أما في شمال أفريقيا — عدا مصر — فقد تنوعت وتطورت صناعة الآلات الليفالوازية والموسيرية متأثرة إلى حد ما بالصناعة الاشولية . وتمتاز

صناعات شمال أفريقيا التي ترجع إلى هذا العصر بوجود طرف بارز في منتصف القاعدة المثلثة ، وهذه الصناعة تسمى بالعاطرية . وقد اختلف العلماء في تقدير عمرها حتى لقد اقترح أن تكون حجرية حديثة إلا أن بعض القرائن الأخرى تشير إلى عمرها القديم ، وهي أنها لم توجد في كهوف . وربما استمر استخدام هذه الآلات العاطرية زمناً طويلاً ، من بدء عهد صناعة للشظية الخشنة حتى تطورت صناعاتها واكتملت أشكالها وقد أثبتت كل من مس كيتون تومسون ومس جاردنر أن الصناعة العاطرية التي وجدت نماذجها في الواحة الخارجة ترجع إلى العصر الحجري القديم المتأخر وأنها أثرت في الصناعات الحجرية الأحدث في مصر . ونلاحظ هنا أن الآلات ذات الطرف البارز في قاعدتها قد ظهرت في أواخر العصر الحجري القديم وفي العصر الحجري المتوسط في أوروبا فهي معروفة تماماً في فونت روبرت بفرنسا .

وجدت في بعض الحفائر آلات عظمية مقترنة بآلات الشظايا كما وجدت مع آلات النواة في الألاس . وقد تم الكشف عن حفائر قديمة جداً في الألب وبافاريا حيث وجدت آلات مصنوعة من العظام في كهوف ، مثل كهف دراخنلوخ Drachenloch على ارتفاع ٢٤٤٥ متراً فوق سطح البحر وكهف فلدكيرشلي Wildkriehi على ارتفاع ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر بالقرب من سانت جال بسويسرة ، وكهف دراخنهولهيه Drachenhole على ارتفاع ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر في ستاير هارك ، وفي كهف آخر على ارتفاع ٥٠٠ متر فوق سطح البحر بالقرب من نورنبرج . وقد وجد في هذه الكهوف أيضاً قليل من الآلات الحجرية سبقة الصناعة من السكوارتز وغيره من الصخور البلورية ، إلا أن الناس الذين صنعوا تلك الآلات كانوا يصطادون دب الكهوف ويعتمدون على عظامها في صناعة آلاتهم . ومهما قيل عن مجتمع العصر الحجري القديم ، فما لا شك فيه أن صيادي دب

الكهوف كانوا يتعاونون في جماعات لصيد هذا الحيوان . ويتكون كهف دراخنلوخ من ثلاث حجرات شيدت حوائط حجريتين منها من قطع الحجر الجيري بعيدة عن جدران الكهف وقد امتلأت المسافة بين جدار الكهف والحائط بجحجم الدببة .

وتدل بعض هذه الجحجم على أنها أصيبت بجراح مهيئة كما عثر فيها أيضاً على بعض أطراف الدببة وتشير الأدلة المختلفة على أن هذه البقايا لم تكن أجزاء من هياكل عظمية كاملة جمعت كيفما اتفق . فبالرغم من مدخل إحدى حجرات الكهف جمعت عظام الدببة خلف الحائط وغطيت بقطعة حجرية كبيرة تشبه الصندوق أو التابوت ولم تكن هذه العظام كاملة فقد اختيرت عظام بعض الأطراف دون الأخرى وصنفت بعناية . ومن الممكن تتبع أجزاء أخرى من الهياكل العظمية في كهوف أخرى في جنوب ألمانيا وربما كانت بقايا قرايين أو أضاحي ، وهذا يذكرنا بأجزاء من لحم الدب يقدمها «الآينو» ، شمال اليابان — كقرايين ، كما عثر على أفلاك حيوانات أخرى في الهند لا بد وأنها كانت تقدم كقرايين دون بقية أجزاء الحيوان الأخرى .

ومن الملاحظ أنه فيما عدا تلك الأمثلة التي ذكرناها لم توجد آثار لإنسان العصر الحجري القديم كلها إلا في العراق إذ أن الحياة في الكهف مما يميز العصر الحجري التالى .

ولما كانت الآلات الصوانية قد استمر استخدامها حتى العصور الوسطى بل استمر استخدامها أيضاً في أزمنة حديثة بشكل بدائى فإنه ينبغي لنا أن نحرص ونحن نحاول تأريخها .

وتدل القرائن الأولى للآلات الحجرية على أن الآلات الصوانية المصنوعة

من الشظايا (ذات الوجه الواحد) انتشرت في منطقة أوراسية وأن الآلات الصوانية المصنوعة من النواة (ذات الوجهين) انتشرت في منطقة إفريقية غربية . وأن الصناعة الأولى كانت تمتد من غرب أوروبا وبريطانيا شمالا بغرب إلى جنوب آسيا حتى الهند جنوباً بشرق . ويبدو أن كلا من الحضارتين التقتا واختلطتا في بريطانيا وفرنسا وشمال أفريقيا ، وأن في هذه المنطقة التي تقابلت فيها الحضارتان حدث تبادل في فن الصناعة وأخذ وعطاء في الحضارة فاقتربت كل من الحضارة الآشورية والحضارة الموسستيرية بالآخري ، فسادت صناعة الشظايا وبدأ تخصص الآلات الحجرية في الشكل تبعاً لوظيفة الخاصة إما للقطع وإما للكشط أو للتقّب . وهذا كله مهد الطريق لظهور حضارات العصر الحجري القديم الأعلى عندما بدأت التلججات في التعمق نهائياً ، وعندما بدأ المناخ يتحول إلى تغير آخر .

ويبدو أنه لا يزال من المحتمل أن صناعة النواة التي تحدثنا عنها في ذلك الفصل لم تكن قد وصلت إلى العالم الجديد بعد ، إلا أن صناعة الشظايا امتدت إلى أمريكا وأفريقية وعمرت هناك حتى أوقات متأخرة كما أنها ساهمت في تكوين حضارات أستراليا ولا تزال آثارها بادية حتى الوقت الحاضر .

وفد أوحى بقاء بعض عناصر الحضارة الحجرية القديمة في أستراليا حتى الوقت الحاضر لبعض الكتاب بأن يروا أن الحضارة الأسترالية ليست إلا امتداداً لمراحل العصر الحجري القديم الوسطى . إلا أن مثل هذه المناقشة مضللة . فقد تسلت إلى أستراليا عناصر حضارية أخرى أحدث عهداً وأكثر تقدماً مثل القادوم الحجري الذي تم صنعه بالصقل ، وأحدثت فجوة صغيرة لربط يد خشبية به . ولا بد أن أستراليا تقبلت من الخارج إلى جانب العناصر الحضارية المسادية مثل القادوم والقارب المستطيل ، آراء ومعتقدات أثرت

في كيان المجتمع . وهناك خطر آخر في هذا الخط من التفكير فالأستراليون الأصليون والسيانج (في الملايو) وغيرهم شعوب منحطة تعيش في مستوى اجتماعي متخلف أو راكد بينما كانت شعوب العصر الحجري القديم في أوراسيا وأفريقية على عتبة عصور حضارية أرقى . ولنا أن نشير إلى أن منطقة التقاء حضارات الفأس اليدوية وحضارات الشظايا ، أى التقاء الشعوب التي تستخدم آلات الشظايا ، كانت مسرحاً لمعداً لتطور الحضارة وتقدمها . وقد قدمت الأستاذة دوروثي ، براهين من فلسطين تدل على وجود شظايا ليفالوازية موسيرية ، وعلى أسلحة ترجع إلى أواخر العصر الحجري ولكنها لم تجد آلات حجرية ترجع إلى مرحلة انتقالية بينهما . وهي تميل إلى أن تفترض أن الشعب الذي كان يستعمل الآلات الليفالوازية في فلسطين هو الذي صنع آلات أواخر العصر الحجري القديم بعد أن كان مقتصرأ على الصناعة الليفالوازية ، وهي تقترح أن تسمى تلك الحضارة الفلسطينية الحديثة باسم العميرة Emireh . ونستطيع أن نضيف إلى هذا أنه حيث وجدت آلات حجرية لا تصلح إلا للكشط فمعنى هذا اشتغال الناس بصيد الحيوانات الضخمة ، وهذا يتطلب تعاوناً بين أفراد المجتمع . وأن تطور صناعة المكشط والمخارز مكن الناس من استخدام جلود الحيوان في الغطاء والسكساء . وأن الشظايا المدببة دقيقة الصنع مكنته من استخدام العظام والعاج .

ولا بد أن نضيف إلى هذا أن البحث الدقيق في كثير من أنحاء العالم قد أثبت استخدام النار ، وقد أظهر بقايا حيوانات بعضها انقرض في الوقت الحاضر . ومن الخطأ أن نظن أن هذه الحضارات القديمة التي كان أصحابها يستخدمون آلات من الخشب قابلة للتلف تقارن بالمستوى الحضارى الذي تعيش فيه بعض الشعوب البدائية داخل الغابات في الوقت الحاضر وأنها لذلك كانت منحطة أو متأخرة .

وسنناقش حضارات أواخر العصر الحجري القديم في الفصل الثاني .

وسنتحدث الآن عن أهم المميزات الأساسية للإنسان ، فالإنسان حيوان اجتماعي ، وأهم ما يميز حياته أنه يعيش في جماعات وهذه قرائن واضحة وضوحاً كبيراً في أشباه البشر الذين كانوا يعيشون في جنوب أفريقية وشوكوتين رغم أننا أخذنا في الاعتبار قانون الاحتمالات الذي قد يسمح ببعض الحالات الفردية التي كان الإنسان يعيش فيها منفرداً ، وأكثر من ذلك فمن المحتمل جداً أن الجماعة الإنسانية الأولى كانت أكبر من الوحدة الإنسانية الاجتماعية البسيطة المكونة من رجل وزوجه وأولادهما . ونحن لا نعرف شيئاً عن أسلافنا عندما كانوا يعيشون في مرحلة جمع الثمار والتقاطها فحسب ، ولكن هناك ما يبرر افتراضنا أن الإنسان منذ أن هبط من فوق الأشجار ليعيش على الأرض قد أصبح أكثر اعتماداً على اللحم في غذائه ، يوماً بعد يوم ، ومن ثم أخذ في حياة الصيد والقنص وقد جمع دليكي ، بالقرب من أولورجيزيلي Olorgesailie أدلة على أن الإنسان كان يحفر الحفر كوسيلة لاقتناص الحيوانات الكبيرة ، وهو في مرحلة أيفيلية أشولية عندما كان لا يزال يستخدم الفأس اليدوية . وقد ساعدت على نمو مقدرة الإنسان على الصيد قامته المنتصبة وقدرته على أن يرى بكلماته عينيه الأشياء المجسمة ، أي على رؤية البعد الثالث (وهو العمق) ، وهذا أوحى إليه بقذف الحجارة أو الرمح على الحيوان ، وهذه كلها عوامل أدت إلى خلق المجتمع الأول .

انتصاب قامته الإنسان جعل مراحل الحمل الأخيرة عند المرأة عائقاً كبيراً للحركة ، وأجبر الطفل على تعلم المشي وإن كان هذا يستغرق من عمره عامين . وقد أصبح لدى الجماعات التي تولى الأمهات فيها أطفالها ، خلال فترة وضعها ، عناية متزايدة فرصاً أكبر للبقاء ، ولا سيما أن العناية بالنار كانت

ترك للأمهات بينما الرجال غائبون في رحلات الصيد الطويلة . وكان الصيد وعلى الأقل صيد الحيوان الكبير عملية تستدعى وتتطلب تعاون عدد كبير من الرجال ، وكانت تستلزم توزيع العمل على الرجال والنساء . ولم يكن في استطاعة النساء ، لا سيما اللاتي يحملن أطفالهن ، أن يتحملن مشقة الصيد سيراً على الأقدام في مساحة كبيرة . وكان من الطبيعي أن تقوم النساء بجمع المواد اللازمة الضرورية للجماعة إلى جانب العناية بالأطفال وتغذية النيران . ومن ثم ارتادت المرأة ميادين نشاط جديدة ، فربما كانت هي التي اخترعت صنع الملابس من الجلود ، ودبغها وخياطتها ، ولا بد أنها التي اخترعت ، فيما بعد ، الفخار والزراعة وما إلى ذلك . وكان الرجل في معظم الأحيان يحمل عن المرأة ما بدأت هي اختراعه ، لا سيما أنه كان أقدر منها في استنباط وسائل اقتصاد العمل اليدوى .

فمخلة الفخار من اختراع الرجل والجاروف الذى كان الرجل يدفعه بقدمه أداة من أدوات الرجل — بينما كانت وسيلة المرة في الزراعة هي العصا المعقوفة « السلوكه » . غير أن الحديث عن الفخار والزراعة يبعدنا كثيراً عن البراعم الأولى لتطور الإنسان ، وهي وسائل سنتحدث عنها في الفصول القادمة .

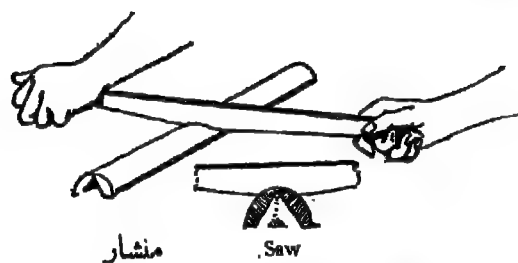
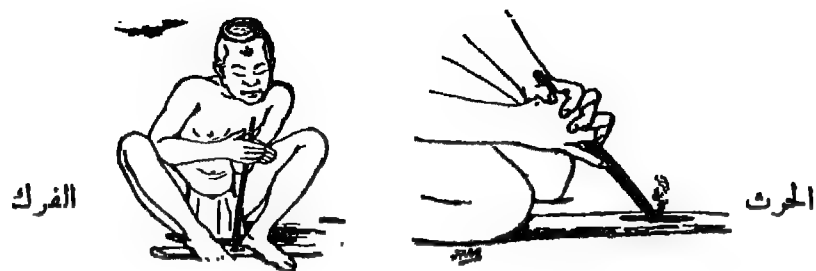
يعتبر نمو اللغة ، وإن كانت في ذلك الحين لا تزال في بدايتها ، من وسائل تقدم الإنسانية الهامة المبكرة التي ارتبطت بقامة الإنسان المنتصب واكتشاف النار والصيد . ويعرف من يلاحظ القردة العليا وخصوصاً الشمبانزى أنها تصدر أصواتاً عديدة مختلفة ذات معان ولا سيما المعانى العاطفية . وقد جمع « رندل » Rundle كشفاً بمائتى صوت من أصوات الشمبانزى . ومن العسير أن نعتبر هذه الأصوات لغة ، أى نقل معلومات أو أسماء أشياء من قرد إلى آخر ، بل إن كثيراً من الباحثين يشكون في أن تكون تلك الأصوات ذات معان على الإطلاق .

وفد ساعد على ظهور اللغة لدى الإنسان قصر الخيشوم الذي أصبح فماً ،
 والتخفف من عضلات الفك الأسفل القوية بما جعل حركته سهلة ميسرة ،
 وجعل اللسان والشفة تتحرك حركات كثيرة التنوع . ومن المحتمل أن طول
 فترة عناية الأم بطفلها ، وتعاون الرجال في الصيد والحياة والإلتفاف حول
 النار كل هذا ساهم في نمو اللغة لدى الإنسانية المبكرة . فلقد استنتج الباحثون
 من أخذ بحسب مخ إنسان جاوة أنه كان يستطيع أن يتحدث بشكل ما .
 ولا ريب أن تبادل العواطف بوساطة أصوات بين الأم وطفلها وبين الرجل
 وزوجه كانت من الخطوات الهامة نحو تطور اللغة . وعلينا أيضاً أن نتذكر
 أهمية الألفاظ الصوتية في الحديث والغناء ، وهذه الأصوات قد بلغت حدّاً
 كبيراً من الكمال بين الشعوب ذات الأشداق المرتفعة في أوروبا وأفريقيا .
 ويبدو أنها تظهر بين الشعوب ذات الرأس الطويل والوجه المستطيل وذات
 البشرة السمراء .

نمو اللغة من مجرد أصوات على مستوى عاطفي إلى مرحلة إعطاء الأسماء
 للأشياء كان عاملاً بالغ الأهمية في التقدم العقلي والذهني إذ أنها منحت العقل
 عملة يتعامل بها ومشاجب يعلق عليها ما يريد أن يتذكر من أفكار ومعلومات
 يمكن أن ينقلها للأفراد الآخرين ؛ ومن ثم أعانت على نمو الحياة الاجتماعية .

وجد في كهف جبل شيشرون Cicero في إيطاليا هيكل عظمي أحاطت
 به قطع من الحجارة وضعت في عناية ، ومن المعتقد أنها ترجع إلى أواخر
 البلايستوسين الأوسط ، ويدل الثقب الذي وجد في غطاء الجمجمة وإزالة الفك
 الأسفل على أن المخ قد أزيل منها ، كما أن الفك الأسفل قد فصل وربما كان
 ذلك في حفل ديني استلزم طقوساً معينة ، وهذه جميعاً تدل على إرهابات
 نحو ظهور الدين .

ونستطيع أن نستخلص من هذا كله أن إطالة مدة حضانة الأم لطفلها
 كان أهم العوامل في نمو الروح الإنسانية والقيم الأخلاقية بوجه عام .



الصوان وحجر الباريث

شكل (١١)

طرق استنباط النار بعد انقضاء فترة طويلة من استخدام النيران الطبيعية ،
والحفاظة عليها ، أو استنباطها بطرق اعتباطية .

ملحق للفصل الأول

حول العصور الجليدية والإنسان

كانت « أعمال بنك وبركنر ، Penck & Bruckner عن العصر الجليدى فى جبال الألب و دى جير ، de Geer عن العصر الجليدى فى شمال أوروبا هى أساس ما كتبناه فى مجلدات هذه المجموعة الأولى التى ظهرت عام ١٩٢٦ . ومنذ ذلك الحين تقدمت هذه الدراسات على أيدي غيرهم من الباحثين كما تجمعت لدينا نتائج محاولات عديدة لربط نتائج الأبحاث الجيولوجية والآثرية والحفوية والملاحظات الفلكية وحسابها ، وكانت النظرية القديمة عن حدوث عصر جليدى كبير واحد قد ماتت فعلا عام ١٩٢٦ . بل لقد عفت عنها الذاكرة أو كادت وقبلت عوضاً عنها نظرية تقدم الجليد وتقهره عدة مرات وهى نظرية افترضها « جيمس جايكى » Geikie لإسكتلندة وارتبطت بفترات الجليد الرئيسية التى ذكرها بنك وبركنر لجبال الألب ، وأضافت الدراسات التالية تحسينات عديدة على نظام تتابع هذه الفترات فى مراحل متتالية .

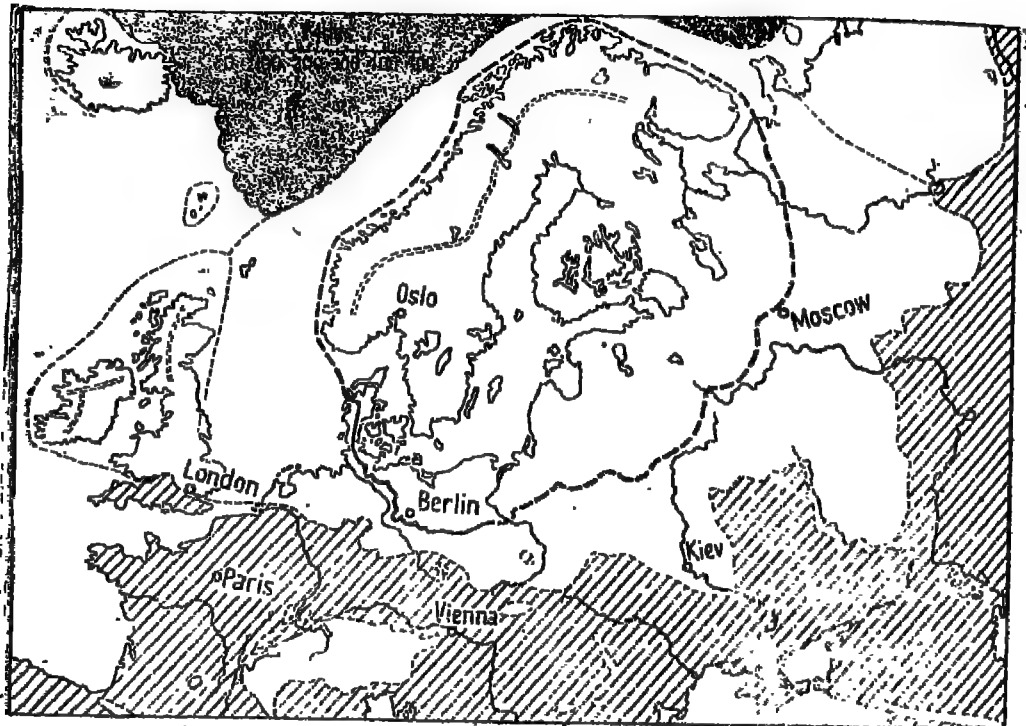
سجل « ميلانكوفتش » Milankovitch (من بلغراد) كمية الإشعاع الشمسى ، وحسب كمية الإشعاع الشمسى التى تستقبلها الأرض نظرياً فى نطاقات خطوط العرض المختلفة فى فترات مختلفة خلال المليون سنة الأخيرة التى شهدتذبذبات مناخية كبرى سميت تطرفاتها الباردة بالعصور الجليدية . ويتوقف تغير الإشعاع ، نظرياً ، على تغير ميل المحور على مستوى الكسوف والخسوف وعلى اختلاف موضع مركز الأرض بالنسبة للسدار واختلاف بعد الأرض عن الشمس ، وقد استطاع أن يتعرف من جدائله على الفترات التى ينخفض فيها الإشعاع الشمسى فى الصيف إلى أقل ما يمكن فى درجات العرض المختلفة ، وقدر أن الجليد يتكون فى بعض هذه الفترات على الأقل ويتراكم عاماً بعد عام ، وأن هذا التراكم يؤدي إلى عدة آثار ويترب على ذلك:

(١) أنه يلطف من درجة حرارة الرياح التي تهب من البحار ويجعلها تتكاثف وتسقط ثلجاً بدورها ، وهذا يؤدي إلى ازدياد برودة الصيف ، أى هبوب أعاصير عاصفة قادمة من المحيط وتسقط ما تحمله من مطار أو ثلج بشدة على مرتفعات اسكنديناوة ومرتفعات غرب بريطانيا .

(٢) أنها تجمد مياه البحر وبذلك ينخفض مستوى مياه البحر ويتعدى اليابس عن تأثير مياه البحر الملطف .

(٣) بعد تراكم الجليد فوق اليابس مدة طويلة من الزمن يصبح من النقل بحيث تنوء به الأرض فينخفض مستوى اليابس وبذلك يرتفع مستوى البحر نسبياً . وقد عالج « و . ب . رايت »^(١) في كتابه « عصر الجليد الرابعى » ارتباط الآثار المترتبة على نشاط الجليد رقم ٢ ، ٣ بشئ من التفصيل .

إذا تذكرنا هذه العوامل المختلفة ، وإذا تذكرنا الوقت الطويل الذى حدثت فيه هذه التغيرات أدركنا أن العصر الجليدى ظاهرة متعددة المراحل . وقد قدر « ميلانكووتش » أن آخر فترة وصلت فيها أقل كمية من الإشعاع الشمسى حدثت منذ ١٠٠,٣٢٠ عام مضت تقريباً . بينما حسب « دى جير » عدد دقائق الرمل المترسب من الثلج الذائب عاماً بعد عام والمتراكم بعضه فوق بعض فى قطاعات متوالية من الجنوب إلى الشمال فى السويد فوجد أنها ترسبت فى ١٨,٠٠٠ سنة ، وهى الفترة التى استغرقها تقيهر جليد دنمارك Daniglacial Retreat الذى حدث بعد فترة فرم الجليدية . ورغم أن هذا التقدير يكاد يتفق مع تقدير « ميلانكووتش » عن زمن حدوث آخر فترة جليدية إلا أننا يجب أن نحترس عند ربط الدورات الفلكية بالإرساب الفصل للطين الجليدى . ويدل التاريخ المعتمد على نسبة الكربون ذى الوزن الذرى ١٤ وهى نسبة تتضاءل بالتدريج فى البقايا العضوية على أن هذه الفترة الجليدية الأخيرة حدثت منذ ٢٠,٠٠٠ سنة .



الأراضي لم يسيطر عليها الجيبيد. أراضي سيطرة آخر فترة أقصى امتداد لفظاواتا الجبيد
 جليدية في شمال أوروبا خط التقسيم بين الجبيد المستعمر نحو الشمال الجبيد المدمر
 الغزى والجبيد المستعمر نحو الجنوب الشرقي

شكل ١٢ شمال أوروبا في العصور الجليدية

ويرى كثير من الباحثين أن أهم عوامل تكوين الجليد هو حدوث صيف بارد . ويقع جزء من شمال شرق آسيا على نفس خطوط عرض جزيرة جرينلندة ، وهي تمتاز بشتاء بارد وصيف أدفأ من صيف جرينلندة ، ومن ثم يتراكم الثلج فوق جرينلندة على نطاق واسع بينما يتراكم أى ثلج فوق شمال شرق آسيا .

ويقرر «ميلانكوافتش» بصراحة أن حساباته وتقديراته لا تقدم أى دليل على عدم حدوث فترات جليدية في ملايين السنين التي تفصل بين البلايستوسين والعصور البرمية الكربونية وربما تأثر مناخ الأرض بطريق مباشر أو غير مباشر بالحرارة المنبعثة من باطنها في فترات تشقق القشرة وتكوين الجبال في أواخر الزمن الثلاثي بعد ارتفاع التواءات الألب والهملايا، وفي العصر البرمي الكربوني بعد ارتفاع سلاسل الجبل الهرسينية الفارسية ، وفي العصر الديفوني وفي العصر السابق للكاهيري . والتواء الجبال على نطاق أوسع يرفع أجزاء من قشرة الأرض إلى مستويات عليا تسمح بدرجة حرارتها بتساقط الثلج وتجمده .

وقد تمكن «سورجيل» Soergel من أبحاثه في تورنجن ، عن جليد الألب وجليد شمال أوربا ، أن يصل إلى تعاقب تغيرات في أودية الأنهار كما يلي :

(١) ترسيب الحصى في الفترات الباردة الجافة نسبياً .

(ب) تعميق الوديان وترسيب الطمي في قيعانها أثناء الفترات الأكثر اعتدالاً . وقد حاول أن يربط بعض الفترات الباردة هذه بتقدم الجليد في كل مكان من جبال الألب وشمال أوربا ، وبهذه الوسيلة أمكن ربط الأبحاث الخاصة بالجليد في كل من جبال الألب وشمال أوربا ، وأمكن تصور تتابع للأحداث المناخية تصوراً أكد نظرية بِنِك وبركنر عن فترات الجليد الأربع الرئيسية في مراكز تجمع الجليد الأوربي الرئيسية . ولم تظهر أعمال «برويل» في منطقة السوم بشمال فرنسا أدلة عن الركعات الجليدية بطبيعة الحال إنما قدمت أدلة على انزلاق التربة نصف المتجمدة فوق المنحدرات Solifluxion .

وقد حدث هذا في كثير من الحالات كنتيجة لتشقق المواد المتجمدة إلا أن «باترسون» قد بين حديثاً أن هذا يحدث أيضاً تحت ظروف رطبة . وقد تعرف «برويل» إلى إحدى عشرة فترة متتابعة من فترات انزلاق التربة التي يعتورها فترات باردة تتوسطها ست فترات من الإرساب النهري ، وتدل على فترات معتدلة . ومن الممكن مقابلة فترات «برويل» المتتابعة بالنظام العام الذي رسمه كل من «بنك» و «بركنز» و «سورجيل» و «ميلانكوفتش» وغيرهم عن العصور الجليدية .

ولقد حاول كل من : «ولد ستيت»^(١) و «زوينر»^(٢) و «باترسون»^(٣) رسم صورة عامة للعصور الجليدية في القارة الأوروبية وفي العالم ؛ ومع هذا فإننا لم نتفق بعد على العوامل التي تدخلت في تكوين العصور الجليدية رغم أن الأبحاث تميل إلى الاتفاق على تنابع الإرساب وغيره من الأدلة الجيولوجية .

ويرى «زوينر» أن جداول «ميلانكوفتش» عظيمة القيمة إذ أنه يرجع تكوين الجليد إلى تنابع سنوات ذوات صيف لطيف الحرارة أو بارد ، عندئذ يتراكم الجليد والثلج في العروض الوسطى والعليا . بينما يتبع «باترسون» من ناحية أخرى نظرية «سيرجورج سمبسون» مع شيء من التعديل . وهذه النظرية تبدأ من فكرة تغاير الإشعاع الشمسي الساقط من الشمس إلى الأرض ، ولكنها تفترض أن في الفترات التي يتزايد فيها الإشعاع الشمسي المتساقط إلى الأرض يحدث اختلاف كبير في الأحوال المناخية بين المناطق الاستوائية والمناطق القطبية ، وينتج عن هذا ازدياد نشاط الأعاصير وازدياد كمية التساقط في

1 — Woldstedt : Das Eiszeitalter, 1939.

2 — Zeuner : Geol. Mag. 1935; Proc. Geol. Assoc. 1937;
| Proc. Prehist. Sec. 1937.

3 — Paterson : Trans. Roy. Soc. Edinburgh, 1940-1.

العروض العليا - وهذا كما يرى سمبسون ، أدى إلى تجمع الثلج وتكوين عصر جليدى .

ويفترض سمبسون^(١) أنه عندما يزداد الإشعاع الشمسى الذى تستقبله الأرض أكثر من هذا فإن الثلج المتراكم يبدأ فى الذوبان وهذا يؤدى إلى ظهور فترة دفيئة . ولكن عندما تنتهى مرحلة النهاية القصوى للإشعاع الشمسى تصبح الظروف المناخية مواتية لتكوين عصر جليدى آخر . وعندما تقل نسبة الإشعاع الشمسى عن حد معين يقل التناقص الكبير بين الظروف المناخية فى كل من المناطق القطبية والمناطق الاستوائية ويقل غنف الأعاصير ، وتنتهى فرص تراكم الجليد أى ينتهى العصر الجليدى . وعلى علماء المناخ أن يبينوا لنا ما إذا كان هناك تعارض بين نظرية «ميلانكووتش» عن الصيف اللطيف (فى العروض الوسطى والعليا) كسبب لتكوين الجليد كما يقول «نوينر» ، أو ازدياد المطر كما قال «باترسون» .

و تؤيد الآراء السائدة بين العلماء كلام «ميلانكووتش» و «زوينر» ، إلا أننا يجب أن نتحفظ عند محاولة تأريخ الفترات الجليدية الأخيرة .

نظريات «ميلانكووتش» تتضمن ضرورة دراسة كل نطاق من نطاقات الحرارة (حسب خطوط العرض) على حدة ، كما أنها تجعل الباحث يحجم عن تطبيق ظروف نصف الكرة الشمالى على نصف الكرة الجنوبى لأن ظروف الإشعاع الشمسى الذى يتقبله اليابس فى كل منهما تختلف عن الآخر بينما يرى باترسون أن الأدلة المستقاة من جهات مختلفة من العالم أجمع أى من نصفي الكرة الشمالى والجنوبى تشير إلى تغيرات مناخية عامة شاملة ، وهو

Sir George Simpson : Quart. Journ. Meteorol. Soc. (١)
1934.

يعتق نظرية « سمبسون » - ونحن بداهة لازلنا في المراحل الأولى في فهم العصور الجليدية ، ولا نستطيع أن نتصور الآن نظاماً يربط بين وجهات النظر المختلفة ربطاً منسجماً . وإذا تذكرنا أنه منذ جيل مضى كان الاعتقاد السائد في عصر جليدي واحد ، فإننا نستطيع أن نقدر مدى التقدم الذي وصل إليه البحث العلمي الحديث ، وقد اتفق العلماء على الحقائق أسرع مما اتفقوا على العوالم التي أدت إليها ، وهذا ما كان متوقعا .

ملاحظة :

من الممكن أن نضيف بعض تعديلات في التفاصيل ، عما ورد في المجلد الثاني من السلسلة (الصيادون والفنانون Hunters and Artists) على ضوء ما تجمع لدينا من معلومات حديثة . فتقدير عمر البلايستوسين قد تقدم في السنين الأخيرة ، والاتجاه الأحدث الآن هو تخفيض فكرة العصر الحجري القديم كلها إلى ربع مليون سنة تقريباً .

وقد أصبحت أهمية ركامات « بول ، Bühl والتعرف إليها أكثر غموضاً مما كنا نتصور منذ ٢٠ عاماً إلا أن ركام فنو إسكنديناوة Fenno-Scandian قد أصبح بداهة أكثر أهمية ، ويرجع تاريخ توقف الجليد في فنلندا وإسكنديناوة إلى ما هو أبعد من عشرة آلاف سنة ، وأن ركام « راجوندا ، Ragunda أرسب عندما كانت حافة الجليد المتقهقر قد وصلت إلى حافة جبال إسكنديناوة في اتجاه شمالي جنوبي . منذ ٨٧٠٠ سنة . وقد قدرت الأعمار على أساس إحصاء رقائق الطفل الجليدي التي أرسبها الجليد الذائب عاماً بعد عام .

القَصْلُ الثَّانِي

صِيَادُهُ أَوَاخِرَ الْعَصْرِ الْخَبْرِي الْقَدِيمِ

الاتصال بين الحضارات يؤدي إلى التقدم عامة . وسيحاول هذا الفصل أن يبين الثورات الكبرى التي أوجدها الاتصال الحضارى بين صناعات الآلات الحجرية المصنوعة من النواة (ذات الوجمين) وصناعات الآلات الحجرية المصنوعة من الشظايا (ذات الوجمين) في جنوب غرب أوروبا وشمال أفريقيا بوجه عام وفي فلسطين . ولقد توصل أصحاب الحضارة الأشولية الحديثة إلى صنع آلات حجرية ذات وجمين من قطع الشظايا وحُذِل شأن آلات النواة وتقدمت صناعة الشظايا وتهدبت تشظيتها واستخدمت طريقة تشظيتها في صناعة أدوات النواة . ومع تقمقر غطاء جليدي إسكنديناوة حدثت تغيرات مناخية أدت إلى هجرات الإنسان الذي أصبح أكثر استعداداً عقلياً لمواجهة ظروف لم يكن مهيئاً لاستقبالها عند نهاية الفترات الجليدية السابقة .

كان الجليد يغطي غرب أوروبا وربما كان سبب ذلك كثرة التساقط الناجم من التيارات الهوائية الأطلسية . ويبدو أن غطاء جليد القرم كان أقل انتشاراً في شرق أوروبا وغيرها من الأراضي الداخلية منه في عصر فترات جليدية سابقة . ومع تقمقر جليد القرم في أوروبا ازداد جفاف شمال أفريقيا بينما كانت فلسطين من ناحية أخرى قد استنفادت من الأعاصير الأقل عنفاً التي كانت تهب فوق البحر المتوسط في الشتاء والقادمة من المحيط الأطلسي عن طريق جنوب فرنسا أو مضيق جبل طارق . ومن هذا يبدو أن الأقاليم التي كانت تحف بالمنطقة المتجمدة في جنوب غرب أوروبا وفلسطين وشرق وسط أوروبا ذات ظروف مناخية متحسنة ، بينما كانت أجزاء من شمال أفريقيا

تعانى من ازدياد الجفاف الذى أدى إلى افتقارها . ورغم أن النيل كان يجرى بالفيضان كل عام إلا أن واديه الأذى ودلتاه التى كان يغرقها النهر بفيضانه كل عام كانت مليئة بالمستنقعات التى لم تكن قد جفت بعد ، وكانت إمكانيات الصيد فيها محدودة ، ومن ثم لم تكن مصر ذات أهمية تذكر فى ذلك الحين ، فهى لم تكتسب أهميتها الحضارية إلا بعد اكتشاف فنون الزراعة والرى ، غير أن « حزين » ، وغيره قد علقوا أهمية كبيرة على كميات الطمى الأسود التى تسبب خصب ارض مصر التى بدأ النهر يحملها من فتات صنخور الحبشة كل عام فى فصل الفيضان الصيفى . هذا الفصل الذى بدأ فى الوضوح عندما بدأت ظروف المناخ الحالى فى الاستقرار وبدأت الرياح الموسمية (وهى سبب فيضان النيل السنوى) فى الهبوب بانتظام ، ومن المحتمل كثيراً أن يكون هذا قد بدأ فى الحدوث حوالى ٨٠٠٠ قبل الميلاد .

يميل « بوبيك » Bobek إلى الاعتقاد بأن شمال شرق إيران وعمرات تركستان لم يصعبها الجليد . ويرى « ج.ف. رايت » G.F. Wright أن غطاء مائياً متسعاً كان يغطى منخفضات البحر الأسود وبحر قزوين وبحر آرال ويربط بينهما وأن هذا الماء كان نتيجة ذوبان الجليد الذى كان يغطى الجبال إلى شرقها .

فاضمحلال الجليد من وسط آسيا قد أدى إلى استغلال الأراضى الوطئية فى غربها ، إلا أن البرد الشديد السائد فوق المرتفعات كان حائلاً دون انتشار الناس من غرب آسيا إلى شرقها الأقصى وشمالها الشرقى . وقد انتشر صيادو أوروبا فى ذلك العصر فوق نطاق الحشائش الباردة التى كانت ترعاها قطعان البيسون *Bison priscus* والماشية المتوحشة *Bos primigenius* التى كانت تعيش على أطراف الغابة وفى نطاق الحشائش الرطبة ، والخيول البرية والآتان المتوحشة فى المناطق الأكثر جفافاً . أما الغزلان والخنازير البرية فقد تكاثرت مع ازدياد نمو الغابات لاسيما بعد نطاق الصنوبر والشرين ، كما كانت الأغنام

البرية التي تعيش فوق التلال . وبالقرب من متخلفات الجليد كانت تعيش الغيلة الصوفية (الماموث) والرنة أو الوعل القطبي .

ونستطيع أن نشير إلى مساكن الإنسان في ذلك العصر الحجري القديم فبينما كان الإنسان في أوائل العصر الحجري القديم يهيم على وجهه ويلجأ إلى مواضع بالقرب من الأنهار وغيرها من أماكن السقيا ويسكن فيها . يبدو أن جماعات أواخر العصر الحجري القديم كان لها مراكز تتجمع فيها من وقت إلى آخر . ومن أمثلة تلك المراكز فنلدورف في النمسا . وهناك احتمال كبير أن كهوفها المزينة كانت تستخدم كمراكز للعبادة فترة طويلة من الزمن . وكان الصيادون يستقرون في العراء في ألمانيا والنمسا وسويسرا بالقرب من مجارى المياه ولكن فوق مستوى الفيضان . ولنا أن تصب ور أنهم كانوا يعيشون في خيام في فصل الصيف . ويرى بعض الباحثين أن النقوش ذات الأضلاع المتعددة التي تركت في الكهوف لم تكن سوى رسوم لتلك الخيام . وإن كان بعضها يمثل الحفر التي كانت تستخدم للصيد وحيث توجد الكهوف تقل آثار مخيمات العراء ، ويبدو أن الناس كانوا يلجأون إلى الكهوف في الشتاء على وجه الخصوص . وربما كانت الكهوف مخازن لحفظ الطعام . ونحن نعلم أنها أيضاً كانت أماكن مقدسة . وقد وجدت في مخيمات العراء والكهوف مواقع للنار وهي حفر صغيرة ذات أرضية أوجدران من الصلصال محاطة بقطع من الحجارة وأكوام من الرمل ، ويبدو أن هذا الموقع كان مهيئاً كمنطق . وقد عثر على مواقع للسكن ذات أرضية من الصخر في سويسرا والنمسا ، كما جمعت أدلة عن مساكن تحت الأرض وجدت في جنوب روسيا ، وحفر لإقامة الأعمدة وجدت في كوستنسكى ، ومواقع للنار ومدخن تيمونوفكا Timonovka مع قطع من الصوان ونماذج هندسية مصنوعة من عاج الفيل الصوفى ، وتمائيل أنثوية صغيرة في كوستنسكى وجاجارينو . وعثر على مثل هذه المساكن تحت الأرضية في مالطا وفي سيبيريا .

هذا الملخص العام يوحى بأن جنوب غرب أوروبا ووسطها وفلسطين كانت مراكز لتطور خاص ، ويدل على هذا ما عثر عليه فيها من آلات حجرية ، وغيرها من الأدلة ، ويبقى أن نتيين ما إن كان هذا التشابه في الآثار يرجع إلى أكثر من مجرد تطور متواز (مستقل) في كل من هذه المراكز فتلك نقطة جدلية . وقد ازدادت أهمية منطقة مورافيا وغيرها من مناطق تربة اللويس في وسط أوروبا وجنوب روسيا مع ازدياد تقهر الجليد وازدياد تأثيرها في فرنسا لزيادة ملحوظاً ، وليس من الواضح ما إذا كانت هناك علاقة حضارية بين مناطق تربة اللويس هذه وبين جنوب غرب آسيا .

ولم يتضمن صيد الحيوانات الكبيرة وسائل ضربها من بعد فحسب ؛ بل تضمنت المقدرة على العمل التعاوني ، وقطع مسافات طويلة في حركة سريعة كذلك ، وربما كانت النساء والأطفال عقبه في سبيل هذه الحركة السريعة ، والسفر الطويل . ومن ثم خرج الرجال وحدهم دون نسايتهم للصيد ، ومن ثم نستطيع أن نلح بواذر تقسيم العمل بين الجنسين . إلا أن النساء والأطفال كانوا يكونون نواة أو مركزاً يعود إليه الصيادون ، وكانت الكهوف حيث وجدت وحيث . كانت خافة : إما أماكن السكنى الطبيعية وإما أماكن تخزين الطعام ولا سيما في الفصل البارد . وربما كانت المرأة ترعى النار التي جلب جذوتها - إذا صدقنا القصص الشعبية - شاب أعزب ، كما كانت النساء والأطفال يهتثون الجلود التي كانوا يلتفون بها ويقطعون السيور الجلدية وينظفون الطعام وما إلى ذلك من أعمال مختلفة . ومن ثم امتدت فرص الحديث وتبادل المعرفة اللفظية والفنية ونقلها من جيل إلى جيل بين النساء والأطفال . ولنا أن نتساءل ما إذا كانت هذه المجتمعات تحتفظ بحيوانات صغيرة مدلة ، وما إذا كان هذا بداية أولى لفن استئناس الحيوانات ، وليس من شك في أن الكلب كان أول هذه الحيوانات استئناساً .

الكهوف والصخور النائية التي كان يأوى إليها الإنسان غنية في الغالب

بالنقوش والصور لا سيما نقوش الحيوانات حيث كانت تمثل كما كانت تبدو للصيادين أو كانت تبدو ميتة . ومن عادات « البيرهور » *Birhors* وهى قبائل متأخرة تعيش فى شوتانا جهور بالهند أن زوجة الصياد الذى يقع فى شباك حيوان تنظف الأرض أمام منزلها وتضع عليها الحيوان الميت ثم تقوم بطقوس خاصة قبل أن تسلخه . ومن الممكن جداً أن جماعات العصر الحجري القديم كانت تتجمع حول مداخل الكهوف وتقوم بطقوس خاصة حول رسوم الحيوانات فى أغوار الكهف السحيقة . ولدينا بعض التماثيل مكسورة عن عمد ، وربما كان هذا جزءاً من الطقوس التى كانت متبعة ، وهذا ملاحظ بصفة خاصة فى العصر المجدلى . وكانت بعض الرسوم منقوشة على الصخر ، وصنعت أحياناً أخرى نماذج من التماثيل للحيوان من العاج والصلصال ، وكانت لبعض النماذج مثل التى وجدت فى توك دودوير رأس حقيقية أو جمجمة تركب فى النموذج أو التمثال . ومنميزات هذا العصر أيضاً تماثيل النساء لا سيما الحوامل ، بينما تقل وتندر نقوش أو رسوم الرجال وكأما كان هناك تحريم يحيط بهذا الأمر ، غير أن صصور الجنسين تركت فى لي كومباريل *Les Combarelles* . ولانعرف ماذا تثيره تلك الصور والتماثيل فى بخيلة الناس حينذاك ، ويبدو أن بعضها كانت مجرد تعبير عن سرور الفنان ، إلا أن قليلاً منها كانت تؤدى أغراضاً أخرى أكثر من السرور الفنى ، ففى كهف الإخوة الثلاثة *Les Trois Frères* بفرنسا مثلاً صورة لرجل متسكر فى جلد حيوان ورأسه وربما كان هذا قناعاً تنكرياً يضعه الإنسان فى الطقوس . وكان هذا الرسم يحتل مركزاً هاماً فى الحائط ايلفت إليه الأنظار ، وربما كان هذا الشخص هو ساحر الجماعة نفسه ، وبهذا كانت الكهوف ذات الرسوم والنقوش أما كن يحوطها الغموض ويظن بها قوة سحرية .

وتدل طرق الدفن حيث كان يوضع مع الميت بعض أدواته وزينته على فكرة البحث بعد الموت ، ويبدو أن بعض الشخصيات الهامة كانت تعتقد فى

بعضها من جديد إذ أنها كانت تدفن في وضع يشبه وضع الجنين في رحم أمه . في كهف كوجول Cogul بأسبانيا صورة بعض نساء يتحقق حول رجل له أعضاء تناسلية كبيرة ويرقصن له وكان التكبير في الرسم دليلاً على الأهمية . ويبدو أن النساء كن يلبسن القميص وكانت القصص الشعبية تظن أنه يساعد أرواح السلف على الحلول في أحرام النساء لكي تولد من جديد ، كما أنها تحمي الأرحام من العين الخبيثة (الحسودة) . وربما كان انتشار فكرة بعث أرواح السلف راجعاً إلى الظن بأن الحمل لا يحدث في النوع البشري كنتيجة مباشرة منتظمة للاتصال الجنسي كما هو الحال بين الحيوانات التي يعرفها الإنسان ، وربما كان راجعاً أيضاً إلى ملاحظة التشابه الثوراني بين السلف والخلف . وأما عن أصل ملابس الرجال فربما كانت مرتبطة بعبادات الوقوف والسير مما يتطلب إزاحة أعضاء الذكور قليلاً عن مواضعها لتسهيل الحركة والسير . وربما كان الخوف من الحسد أيضاً دافعاً إلى ستر العورة ولا سيما بعد أن عرف الإنسان العلاقة بين الاتصال الجنسي والإنجاب ، وتستر بعض قبائل أفريقية العارية عورات الذكور خشية الحسد . ولا نحتاج إلى أن نقول إن الملابس كانت وسيلة في حد ذاتها لحماية الجسم من البرد .

وكانت عملية إعداد الملابس تتطلب عدة آلات متخصصة مثل المخارز ، والسكين والمسلة العظمية أو العاجية وغيرها ، ومهما كان نوع الحياة التي كان يحياها الإنسان (إنسان العصر الحجري) القديم فلا بد أنه كان له عدد كبير من الآلات والعدد ، بل وقطع الغيار خصوصاً بعد اختراع طريقة تركيب قطع الصخر في أيد خشبية .

وقد رأينا أن هناك أدلة متوافرة على وجود أما كن استقرار أكثر دواما عما كان معروفا من قبل . وأن نقوش الكهوف وغيرها من التفاصيل توحى بنواحي حياة تعاونية تحياها مجتمعات ذات عدد كبير حتى وإن كانت مبعثرة في مساحة كبيرة .

فكشافة السكان بين جماعات الصيادين في الوقت الحاضر لا تزيد على شخص واحد في الميل المربع . ولم تكن كثافة السكان قليلة فحسب ، بل لا بد وأن كان الناس يهاجرون هجرات فصلية ، ورغم هذا فلا بد وأن كانت لهم أوطان معينة ، ينظر إليها الناس على أنها ملك لهم ، ويدل على ذلك توزيع بعض الآثار التي فسرها « أوبرماير ، Obermeir هذا التفسير .

وعلى كل حال فقد نمت لدى صيادى الوقت الحاضر مثل هذه العواطف نمواً كبيراً . وتدل الحلى التي وجدت في وادى فيزير Vézère والتي تشمل عدداً كبيراً من القواقع على فكرة التجارة أو تبادل الهدايا يد ، وربما أيضاً — وإن كان هذا الإحتمال ضئيلاً — على الهجرة الطويلة المدى ، كما تدل نقوش الساحر التي وجدت في مكان بارز في كهف الأخيرة الثلاثة على بدء ظهور فكرة الزعامة ، وأن المستوى الرفيع الذى وصلت إليه فنون أصحاب حضارة أواخر العصر الحجري القديم ليدل على أن هؤلاء الناس كانوا أكثر تقدماً وأفضل استعداداً فنياً وعقلياً عن جماعات الصيادين وجماعى القوت الذين يعيشون في الوقت الحاضر .

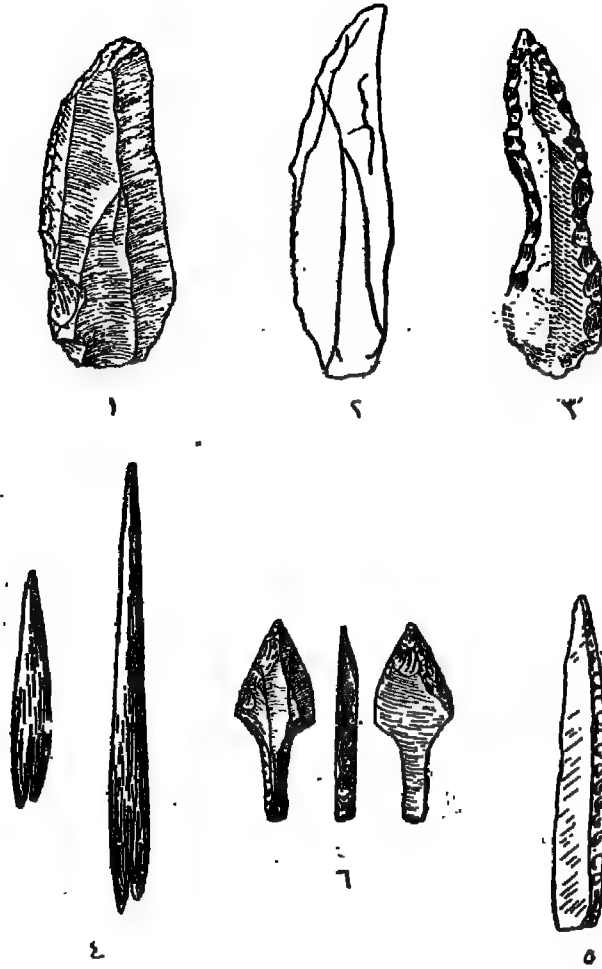
ولا بد أن برد الشتاء الطويل الذى اضطربهم لتخزين الطعام قد ساهم كثيراً في نمو التفكير وتدبير المستقبل والتنظيم وفي تكتل السكان في وادى فيزير ونطاق اللويس .

وجدت في الحجرات الداخلية الصعبة المنال للكهوف رموز ورسوم عديدة كما وجد في « بجوان » Begouen آثار أقدم شبان داخلة إلى أعماق كهف مونسيان ، والذي لم تطأه قدم أخرى منذ آلاف السنين . ومن المحتمل أن تكون هذه الكهوف المظلمة مرتبطة بطقوس تأهيل الشبان Initiation Rites . وهذه الطقوس منتشرة جداً بين الشعوب البدائية في الوقت الحاضر ، ولا بد وأن الصيادين القدماء كانوا يقومون بها . وتدل طرق الدفن على أن فكرة ،

ما عن الحياة بعد الموت كانت معروفة لديهم ، كما أن تماثيل النساء واهتمامهم بالجنس والولادة ربما كانت دليلاً على انتشار فكرة البعث وإرهاصاً بظهور فكرة الروح . ولا ندري إلى أى حد استبدت فكرة تجسد الروح وحلولها في الأشياء بهؤلاء الناس ، وإن كان بعض الكتاب يرى نقوش الكهوف إشارات إلى فكرة التوتمية Totemism التي تربط روح أفراد المجتمع بروح الحيوانات والنباتات والأشياء والظواهر الطبيعية . وربما كان الرقص والجنس كما تدل عليها نقوش «كوجول» عامة قد لعبا دوراً كبيراً في الطقوس ، وأن السحر وما يتبعه من طقوس سواء كان القصد منه اكتساب قوة تفوق الآخرين أو قوة يواجه بها ظروف البيئة ، كان يلعب دوراً كبيراً . ولا نستطيع أن نقول ما إن كانت إحدى صور العبادة ، وهي ربط المخلوق بروح الخالق ، أى أساس الدين كما ظهر فيها بعد ، قد ظهرت في ذلك الحين أولاً .

الآلات

وصف «برويل» آثار العصر الحجري القديم الأعلى التي وجدها في فرنسا ، وسماها الحضارة الأورنياسية Aurignacian . وإن كانت قد اقتصرت فيما بعد على مرحلة حضارية دخلت فرنسا من آسيا عن طريق وسط أوروبا وكانت تعرف بالحضارة الأورنياسية المتوسطة . وقد سميت مراحل هذه الحضارة الأولى والتي ربما كانت تطوراً محلياً لها ، باسم الحضارة البيرييجوردية Perigordien . وربما كان من الأوفق أن نرى تلك الحضارة التي ظهرت في فرنسا نتيجة لتطور حضارى محلي متأثر بعناصر دخيلة من وسط أوروبا اختلط بها وتسمى أقدم الآلات الحجرية الأورنياسية «بلاودي» Audi نسبة إلى اسم مكان في فرنسا ، وكانت تمتاز بانحناء الحافة انحناء جانبياً ثم تطورت تلك الآلة وأصبحت نهايتها مستقيمة ؛ ولكنها لا تزال عريضة وأطلق عليها اسم المكان التي وجدت فيه أول مرة أى «شاتليرون» Chatelperron



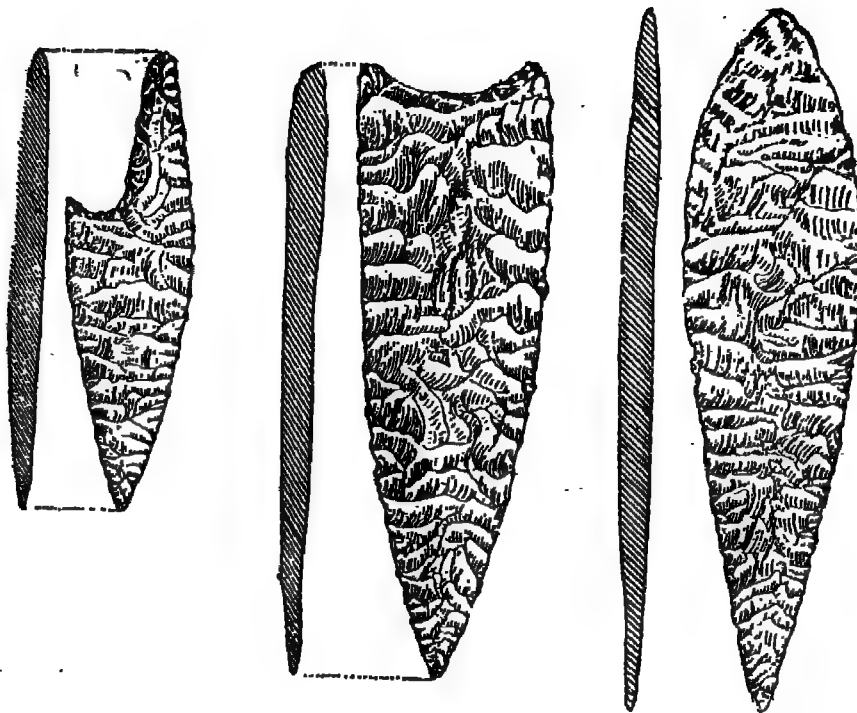
شكل (١٣)

- ١ — فصال أودي (١/٢) أواخر العصر المoustيري؛ أودي — فرنسا .
- ٢ — فصل شاتلبيرون (٢/٣) . أوائل العصر الحجري القديم الأعلى .
- ٣ — فصل مشطى (٢/٣) أورنياسي .
- ٤ — فصال عظمية ذات قواعد مجوفة .
- ٥ — رؤوس سهام جرافيت (٢/٣) ما بعد الأورنياسي .
- ٦ — رؤوس سهام فونت روبرت ما بعد الأورنياسي .

أما في «لا فيراس» La Ferrassie فالآلات الحجرية وسط بين النوعين السابقين. وفي «أودي» Audi وجدت طبقات بها هذه الآلات وفوقها طبقات بها آلات «موسترية» Mausterian ، وربما كانت هناك علاقة تطورية بين هذه الآلات المختلفة . فقد وجدت في هذه الطبقات أيضا مكاشط من الشظايا ذات حواف مستوية ، ومدى ذات حواف قاطعة حادة وحواف غير قاطعة يستطيع أن يضبط بها الصانع يديه، ومخارز ذات أسنان مدببة ، وبعضها له قاعدة مزدوجة، وتماثيل نساء من براسمبوى Grassempouy وأشياء تسمى أحيانا بعصى (شكل ٢٢) ذات ثقوب مستديرة وربما لوضع مقلع بها . وكانت المخارز الحادة تستعمل في أشغال العاج وحفر الخشب .

وتمتاز الحضارة الأورنياسة بمعنى الكلمة كما تستعمل في الوقت الحاضر ، بتنوع المكاشط وآلات الحفر ؛ ولكنها لا تمتاز بالجدة تماما فيما يتعلق بالسهم والمدى . وقد تنوعت في ذلك العهد آلات الصوان تنوعا كبيرا ، كما تميزت وسط أوربا بوجود التماثيل النسوية الصغيرة ، وتقدم الفن التشكيلي تقدما كبيرا . أما الحضارة الأورنياسية العليا فقد أمتازت بنمو صناعة السهم الماضية التي أطلق اسم «لا جرافيت» La Gravette وسهم أعرض ذوات عنق خاص تسمى فونت روبرت ، إلا أن أدوات الصوان لم تكن متوفرة كما كانت من قبل في ذلك العهد . وبعض المدى الصوانية كانت ذات حافة ماضية وأخرى عريضة .

وتحسنت وسائل استخدام العظام كثيرا في هذه الفترة . وكانت أهم مناطق استخدامها في فرنسا منطقة بيرجورد من جنوب غرب فرنسا وساحل الريفيرا . هذا إلى جانب ساحل أسبانيا الشمالي أو «لى كانتابريا» وما يليها جنوباً . إلا أنه ليس لدينا أى دليل على أن هذه الصناعة دخلت فرنسا من أفريقيا أو أسبانيا بينما كانت لاتزال الفأس اليدوية الأشولية باقية جنبا إلى جنب مع المدى والقواقع بالقرب من مدريد .

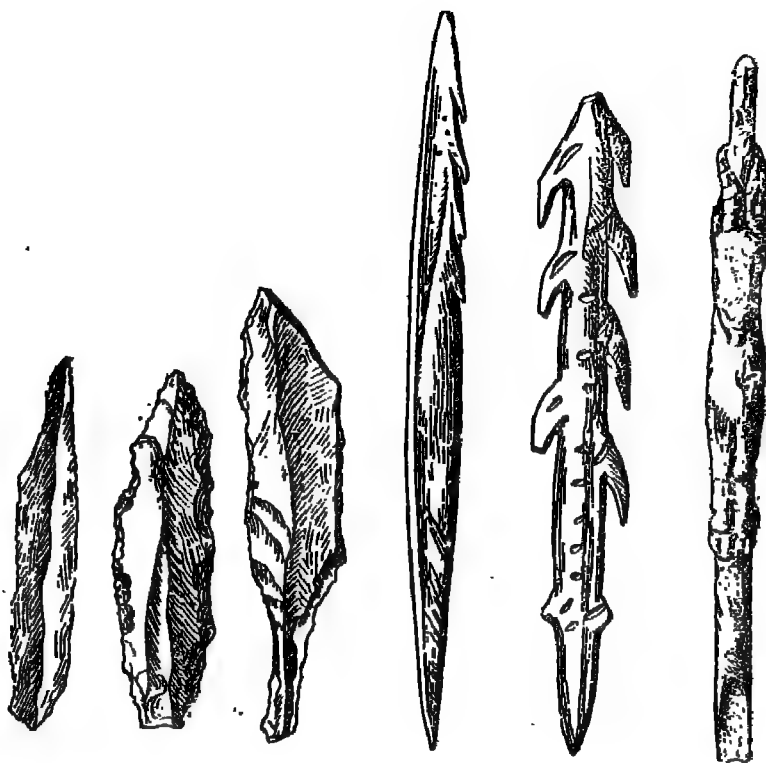


شكل (١٤)

آلات سوانرية (٢٠) ، فرنسا .

ومهما اختلفت الآراء حول انتشار الحضارة الأورنياسية من آسيا أو وسط أوروبا إلى فرنسا أو بالعكس ، فما لا ريب فيه أن الحضارة التالية التي تسمى بالسولترية (نسبة إلى سولترية Salutre في برغانديا) كانت حضارة دخيلية قادمة من شمال المجر إلى غرب أوروبا حتى وصلت جنوب غرب فرنسا وشمال فرنسا . ولم يكن أصحابها على ما يظهر يهتمون بالفنون التشكيلية ولكنهم صنعوا آلات صوانية كبيرة دقيقة الصنع تسمى « ورق الغار » وهناك من الدلائل ما تشير إلى أن صناع هذه الآلات الأوائل يدينون بشيء من الفضل إلى صناع السهام المسترية ؛ ومن ثم إلى صناع آلات النواة الأشولية ، وأنهم من ناحية أخرى تركوا تراثهم لشعوب العصر الحجري الحديث فيما بعد . إلا أن كلا من هذه الحضارات الأشولية والحجرية الحديثة بعيدة جداً من حيث الزمن عن الحضارة السولترية ، وربما كان الشبه بينهما راجعاً إلى تشابه وسائل الصناعة وكان أصحاب الحضارة السولترية يصيدونه قطعان الخيل الوحشية التي كانت تتكاثر في نطاق الحشائش والتي تقهرت إلى وسط آسيا عندما نمت الغابات وحلت محل الحشائش .

كان حيوان الرنة يعيش في فرنسا كما كان الوعل الأحمر يعيش في أسبانيا . وظلت هذه الحيوانات تعيش في تلك المناطق فترة من الزمن إلا أن الوعل الأحمر حل محل الرنة عندما مالت درجات الحرارة في فرنسا إلى الاعتدال . وقد عادت حضارات فرنسا الحجرية القديمة إلى الازدهار بعد أن تقهرت الحضارة السولترية ، وترك مدي حيوانية قديمة رديئة الصناعة إلا أن المخارز والمناقب ازداد عددها بينما لم تزد المكاشط أو السهام . وتسمى هذه المرحلة باسم الحضارة «المجدلية» Magdalenian ، وتقسم إلى ست فترات . منها فترات أولى فقيرة في فيها . إلا أن الفترة الرابعة من هذه الحضارة امتازت بسهام مصنوعة من العاج أو العظام ، وربما كان السبب في هذا انتشار الغابة التي دفعت



شكل (١٥)

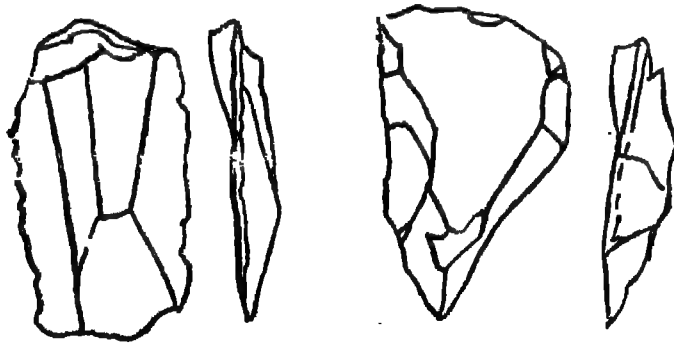
آلات مجدلية فرنسية

عصا قذف — خطافان

الناس أمامها . ويقدم لنا انتشار الحضارة المجدلية داخل خط ركامات القرم
الجليدية في سويسرا دليلاً مباشراً على تفهقر الجليد وتغيير المناخ .

آلات أخرى غير فرنسية

وجدت الأستاذة «دورثي جارود» في فلسطين مدى حجرية مع آلات
أشولية وليفالوازية أو موستيرية . بعد ذلك وجدت آلات أورنياسية سفلى
وسهام عريضة بعض الشيء ومخارز ومكاشط ومدى ذات ظهور غير حادة ،
وكلها أدق صنعا بقليل من نظيراتها في غرب أوروبا . وتجمعت لدينا في الوقت
الحاضر ، فيما بين غرب أوروبا وفلسطين ، أدلة من القرم تتفق مع أدلة فلسطين ،
إلا أننا لم نجد في القرم أدلة حجرية أقدم . وفي مورافيا لدينا أدلة لصناعة
انتقالية موستيرية تطورت إلى فنون تشكيلية مثل نحت العاج وعمل تماثيل
منه وأشغال الحفر الدقيقة عليه .



شكل (١٦)

شظايا حجرية قديمة متأخرة (بسيلية)

من الفيوم - مصر . (٢)

أما من الجانب الأفريقي فقد أودى الجفاف التدريجي بالفنون الحجرية القديمة ، إلا أن الحضارة العاطرية استمرت وأسلت تراثها فيما بعد . ويبدو أن مصر قد أصبحت منعزلة وأن الشظايا الليغالوازية قد أصبحت صغيرة جداً ، وأن الإنسان كان يعيد تشظية حافظها مرة بعد أخرى عندما تلم . وتسمى هذه الحضارة بالحضارة السيلية (شكل رقم ١٦) وأنها لم تكن تصنع المخارز حتى قرب نهاية عصرها . وقد وجدت شمال حلوان وشرق النيل الأدنى سهام صغيرة أكثرها رفيع ضيق وليس عريضاً أشبه بصناعة جنوب غرب آسيا . وقد لوحظت علاقة حلوان بجنوب غرب آسيا في كثير من العصور التاريخية التالية . وجدت في جنوب تونس وشرق الجزائر آلات صوانية أشبه بما وجد في شرق أسبانيا — أي مدى طويلة رفيعة ومخارز ، وآلات مثلثة ومعينة الشكل ، وقد ازدادت أهمية الأشكال المعينة^(١) trapezoids فيما بعد . وتسمى هذه الحضارة « القفصية » Capsian نسبة إلى قفصة في تونس ويرى البعض أنها دخلت أفريقية من أسبانيا . وقد عمرت هذه الحضارة فترة طويلة جداً من الزمن (شكل ١٧) أما إلى الغرب من ذلك فقد ظهرت الحضارة « الوهرانية » الفقيرة التي تتوفر لديها الآلات الصوانية الهندسية وكانت تسمى بالحضارة « الإيبيرية المروسية » Ibero-Maurusian رغم أنه لا توجد أية علاقة بينها وبين أسبانيا .

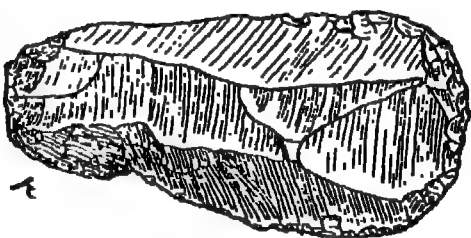
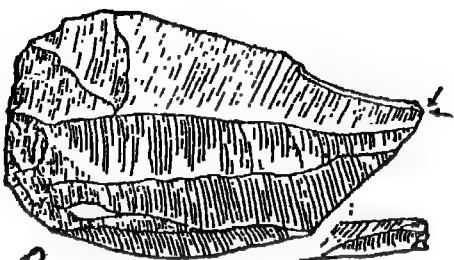
(١) فيما يختص بالصناعة العاطرية ، لابد أن نشير إلى محاضرة جرترود كاتون تومبسون عام ١٩٤٧ بالمعهد الأنثروبولوجي الملكي ، مجلد ٧٧ ، بصحيفة المعهد .

Gertrude Caton - Thompson's Huxlé Memorial Lecture, 1947.
Royal Anthropological Institute, Vol 77.

امتازت كل من بريطانيا وإيطاليا على طرفي المنطقة الإيبيرية الفرنسية بنمو مبسّر لحضارات أواخر العصر الحجري القديم. ويدرس لزي أرسترنج الحضارات البريطانية الحجرية ، وقد تأخر نمو حضارات ذلك العهد في المناطق الأخرى كل التي ذكرناها ، كما انتشرت صناعة آلات الصوان الصغيرة أو القزمية ذات الأشكال الهندسية في المناطق التي تطورت فيها حضارات العصر الحجري القديم ، وقد سميت تلك الحضارة التي سادت فيها الأشكال الهندسية وحدها بالحضارة الترونوازية نسبة إلى «لافيرترد نواز» La Fère en-Tardenois في فرنسا . وسنعالج هذا في الفصل الثامن الذي نتحدث فيه عن أواخر العصر الحجري القديم .

وعثر دليكي ، في كينيا على آلات من الأوبسديان في رواسب أحد الكهوف ، التي يظنها رواسب تركها مستوى مرتفع قديم لإحدى البحيرات ، تدل في رأيه على فترة مطيرة معاصرة لفترة فرم الجليدية إلا أن الأخذود الأفريقي قد عانى كثير من التغيرات ، لا تجعلنا نطمئن إلى تصور أية علاقة خاصة بتغير المناخ بينه وبين أوروبا . وتشبه هذه الآلات ما خلفته الحضارات الأورنياسية والففصية ، إلا أنها تقترن في كينيا بالفخار . كما وجد «حزين» حضارة مشابهة تمتاز بشظايا الأوبسديان في جنوب بلاد العرب ، وقد أيدت مس كيتون تومسون وجهة نظره هذه ، إلا أنهما وجدا هذه الشظايا مقترنة بفخار يعود إلى الآلاف السابقة للميلاد ، ومن هذا يتبين أنه يجب التحفظ الشديد لدى استخدام طراز الصناعة في تاريخ الحضارات .

ويزداد الأمر صعوبة عند محاولة الاهتداء بطراز الصناعة لمعرفة عمر الحضارات في جنوب أفريقيا ، إلا أن البحث يسير بخطوات كبيرة جدرة بأن نعلننا الكثير عن تلك البلاد .



شكل (١٧)

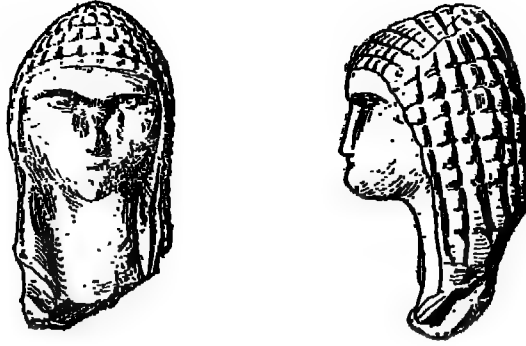
آلات قضيبة (أواخر العصر الحجري القديم)
قضيبة و تونس (٢)

التصوير والحفر والنحت

إن ميدان الفنون التشكيلية والحفر والنحت والتصوير ليعين لنا تنوعاً كبيراً في الدرافع التي دفعت الإنسان إلى إبداعها ، كما بينت ذلك دراسة الآلات الحجرية . ولدينا نحو عشرة تماثيل نسوية صغيرة من مورافيا وقليل منها من ألمانيا ، وثمانية من جنوب روسيا ، وعشرون من سيبيريا ، وما يقرب من اثني عشر تماثلاً في جنوب فرنسا ، وواحد من إيطاليا ، ومعظم هذه التماثيل محفور في العاج . وقد وجدت ستة أشكال للنساء محفورة في كتل الحجر الجيري في لوسيل Laussel بجنوب فرنسا كما تتمثل أفنعة التنكر . وتتماز صوراً وتماثيل النساء بأنها قوية البنية ، كبيرة العجز ذات أقدام كبيرة وتبدو كما لو كانت حوامل . وربما كانت إحدى نقوش هذه الفترة التي وجدت في إنجلترا تمثل رجلاً . وقد وجد Absolon في فستونيش Vestonice بتشيكوسلوفاكيا حضارة تمتاز بآلات عظيمة دقيقة ، وخطاطيف ، ورماح عظيمة ذات أعنيد ليجرى فيها الدم ، ومعالق من العاج ذات جزوز ربما كانت علامات لعددها في مجموعات خماسية . وكان يظن أن هذه الآثار ترجع إلى العصر الحجري الحديث وقد استخدم الفنان المورافي تقديم عظام الماموث المحروقة المفتة مختلطة بالطفل الجيري الدقيق كما فعل فنان توك دودويرت Tuc d'Audoubert .

وكان الفنانون يرسمون أشكالاً تخطيطية (كاريكاتورية) لتمثيل الأشخاص إما للفكاهة وإما خشية أن تحمل بها الروح لو أنها رسمت بدقة . وهذه صفة نفسية على جانب كبير من الأهمية .

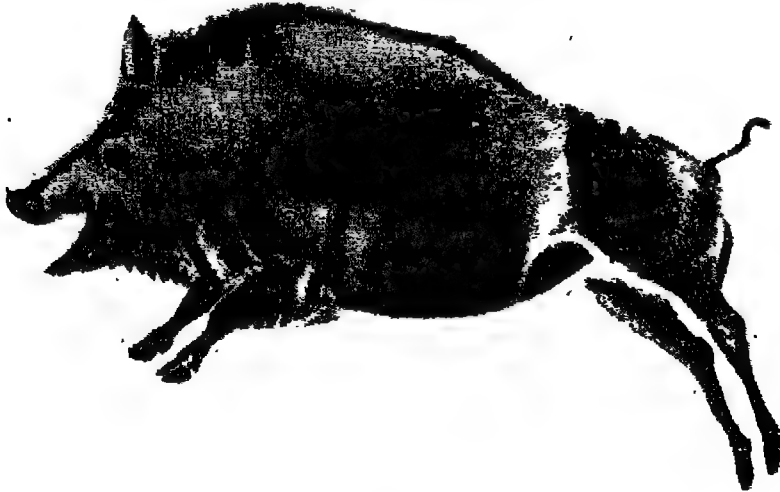
ومن ثم كانت أهمية التماثيل الصغيرة ذات الوجوه المعبرة التي رأى « كيت » Ketih وغيره أنها أشوية . وقد درس « برويل » مجموعة دقيقة جداً من نقوش الكهوف ، ربما كانت ترجع إلى العصر الأورنياسي ، تشمل



شكل (١٨)

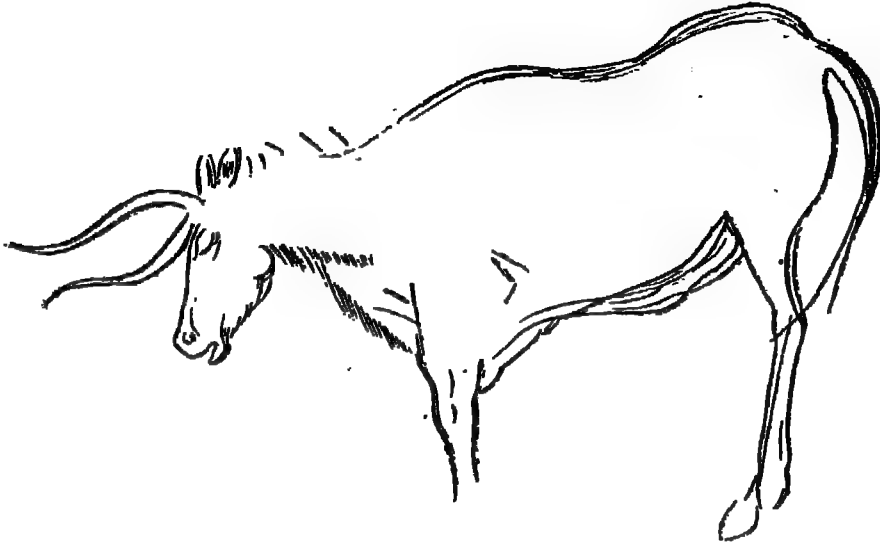
رأس فتاة من العاج ، براسمبوى ، لاند ، جنوب غرب فرنسا

رؤوساً للماشية وجدها في حفائر لاسكوه Lascaux بالدودوني في فرنسا (شكل ١٥) كما وجد في حفائر ليروك Le Roc في شارنت وهى حفائر سولترية على تماثيل الحيوانات ربما تركها فنانون أورنياسيون ، إلا أن السولترين لم يهتموا بمثل هذا النشاط الفنى .



شكل (١٩)

صورة الخنزير برى قافز ، كهف التحو التاميرة ، شمال أسبانيا .



شكل (٢٠)

ثور وحشى Bos Porimigenius ، له كامباريل

أما في الفترة المجدلية ، فقد قلت أهمية التماثيل الإنسانية في فرنسا وشمال أسبانيا وأصبحت نادرة بينما تحسنت نقوش الحيوانات وأصبح فن التصوير في حوائط الكهوف أهم معالم الفن في ذلك الحين ، وغالباً ما كانت تلك الصور تبين الحيوان الذي اقتنص غير أنه وجدت في فونت دى جوم صورة تمثل ذكر الرنة وهو يقترب من أنثاه بينما في توك «دودويرت» في البرانس نماذج من الصلصال لذكر اليلسون يطارد أنثاه أيضاً . وترك في كهف الأخوة الثلاثة القريب ، نقش لرجل متنكر في جلد حيوان . ونقشت أجمل الصور المجدلية على الإطلاق في كهف التاميرا بشمال أسبانيا حيث وجدت الحوائط المزينة بالرسوم في أغوار الكهف المطلة ، وجدت بقايا مصابيح حجرية . وتشتمل هذه الرسوم أيضاً على علامات اصطلاحية أو تقليدية ، وربما كان بعضها تسجيلات معينة ، بينما الأخرى على رأى «برويل» تمثل الخيام التي كان يأوى

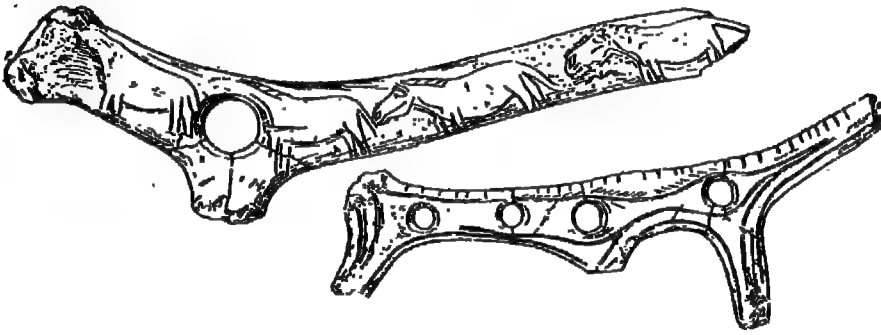


شكل (٢١)

نور وحشى . من كهف لاسكو . لاحظ العصا ذات الشعب الثلاث
التي قد يكون لها معنى رمزي

إليها الناس في الصيف ، وبعضها الآخر يمثل الحفر والمصايد ، وربما ارتبطت القيم
السحرية لهذه النقوش والصور بالقيم الفنية البحتة ، ومن الصعب ألا تتصور
رسم الساحر المنقوش في كهف الأخوة الثلاثة إلا على أنه يراد به تأثير
سحري معين . والألوان التي بقيت حتى الآن إما ألوان المغرة الحمراء المصنوعة
من خام الحديد المعروف بحجر الدم (الهيماتيت) ، أو المغرة الصفراء من

الليمونيت . أما اللون الأسود فن ثاني أكسيد المنغنيز أو العظام المحروقة ، وكانت هذه الألوان تخطط بالدهن . ولانعلم إن كانت التماثيل التشكيلية المحفورة في الأصل ملونة أولا . ولكن وجد قليل من المغرة الحمراء فوق أحد تلك التماثيل الصغيرة ، وربما كانت للمغرة الحمراء صفة سحرية خاصة لأنها تشبه الدم في لونها . وكان الفنان أحيانا يلجأ إلى رسم اصطلاحى فكان مثلا يرسم



شكل (٧٢)

آلات مزينة مصنوعة من عظام الرنة (مجدية) يسميها الأناريون عصى القيادة (مصغرة تصغيراً شديداً)

عدداً كبيراً متتالية من القرون ليدل بها على قطع ، ويكتفى برسم جسم الرانة بقليل من الحيوانات عند طرفي القطيع . وكانت بعض الصور تمثل ساقين فقط للحيوان . وبعد ذلك ظهرت أرجل الحيوان الأربعة مرسومة بمنظور ما . وكان الفنان أحيانا يشكل سطح الحيوان الحائط ليعطي تجسماً خاصاً بشكل الحيوان الذى يرسمه ، كما كان أحيانا يظلل جسم الحيوان كله بخطوط دقيقة ، وأحيانا أخرى يعطيها لوناً له ظل معين لكي ينقل للناظر فكرة عن تقاطيع جسم الحيوان .

ومن معالم هذا الفن أيضاً أشكال اليد المنطبعة على الحائط ، وكانت الأيدي أحياناً تغمس في مادة ملونة ثم تطبع فوق الحائط ، وفي أحيان كثيرة كانت بعض سلاميات اليد ناقصة في طابعها ، وهذا يذكرنا بعادة لا تزال باقية بين نساء الاستراليين الأصليين حتى الوقت الحاضر .



شكل (٢٣)

رسوم على الصخر ، لأحد رماة القوس ، ملونة بلون الأحمر الداكن ، كهف سالتادورا ، أسبانيا

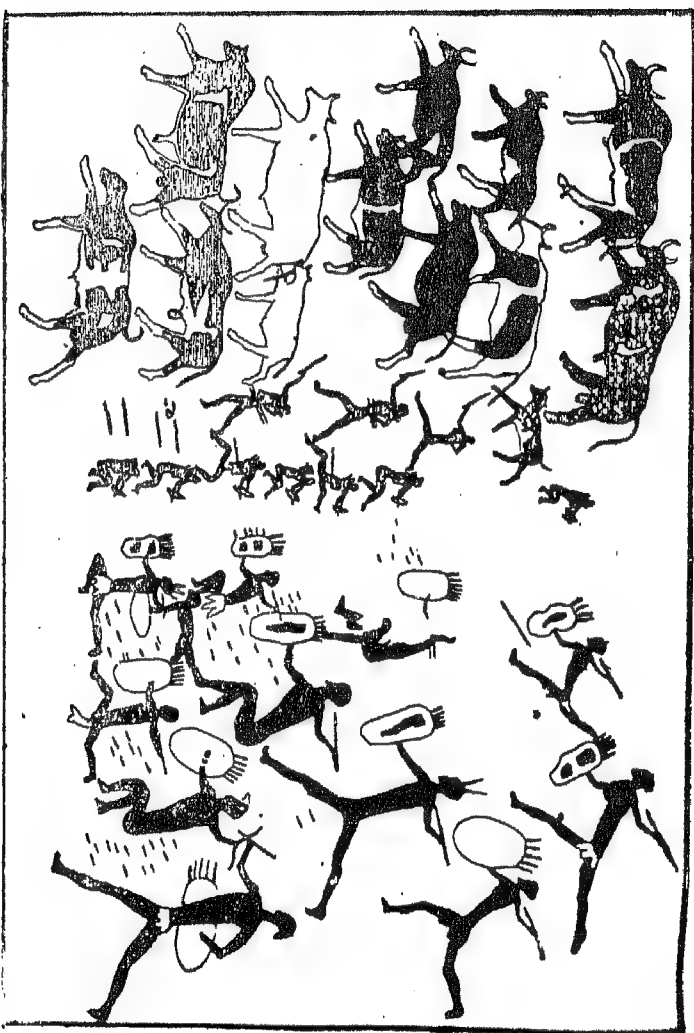
واحتفظت الحظائر الشخصية التي كان الإنسان يأوي إليها والتي لا يجرم منها ضوء النهار تماماً بصور ملونة ساعد المناخ الجاف على الاحتفاظ بها حتى الآن في جنوب أسبانيا . وهنا نلاحظ النزعة التقليدية أو الاصطلاحية واضحة تماماً بعكس النزعة الطبيعية التي تبدو في صور كهف شمال أسبانيا وجنوب فرنسا وتمثل هذه الصور مناظر طبيعية عديدة ورسوما بشرية (شكل رقم ٢٥) معظمها كما يبدو الرجال يتسلقون شجرة لجمع العسل البري ، أو يرمون



شكل (٢٤)

رسوم على الصخر من كهف اوس ليقيروس ، فيليز بلانكو ، الميريه ، أسبانيا

وعلاّ بالقوس والنشاب أو يتحاربون ، وتمثل أيضاً مجموعة من النساء يرقصن حول شاب عار (أنظر أعلاه) . وكان حجم الشيء دليل أهميته أو تأكيدده لدى الفنان فمثلاً كانت السيقان تمثل بخطوط طويلة ورفيعة وفي أوضاع توحى بالسرعة ، وأحياناً كانت تمثل ضخمة جداً توحى بالقوة ، وهذا يذكرنا بالفن الذي يعبر عن القوة بتعدد الأيدي . وهناك رسوم شبيهة برسوم شرقى أسبانيا وجدت في أجزاء عديدة من إفريقية (شكل ٢٥) ، وبعضها يرجع عهده



شكل (٢٥)

رسم البرشنة وهرمون و جنوب إفريقيا و تبين قبائل الكافر الزنوج تطارد الماشية التي سرقتها البرشنة

وبعضها يرجع عهده إلى العصر الحجري الحديث وما بعده حتى القرن الحالي ،
ورسمها البوشمن في جنوب غرب إفريقيا . وهناك نقوش على الصخرة وجدت
إفريقيا وهي أكثر تمثيلاً للطبيعة وإن كان يبدو في بعضها أحياناً ، تحريم
تمثيل الحيوان والإنسان تمثيلاً دقيقاً فظهر الفيل مثلاً في أحد النقوش بأقدام
خلفية للكركن . وقد بين « ريت لو » Riet Lowe أن فنون جنوب إفريقية
ذات سمات خاصة فنقوشها طبيعية ورسومها الملونة تقليدية أو اصطلاحية
وقد تركت الأولى أى النقوش الطبيعية قرب الساحل ، بينما تركت الأخيرة
فوق هضبة الفلد وفي كلاهما ، وإن تقابلت المدرستان قرب نهر الأورنج
وغرب نهر الفال وغيرهما من الأماكن . ولاريب في أن فنون جنوب أفريقيا مثل
الرسوم الملونة فوق الصخر والنقش قد بدأتها شعوب كانت على علاقات حضارية
بشعوب أواخر العصر الحجري القديم في شمال إفريقيا وأسبانيا ، ويرى « فان ريت »
لو أن النقش دخل جنوب إفريقيا عن طريق الجانب الغربي لهضبة روديسيا ،
وأن الرسوم الملونة على الصخر دخلتها عن طريق جانبها الشرقي .

وأن ظهور مدرستين فئيتين في كل من جنوب أفريقيا وأوروبا الأمر جدير
بأن نولي اهتماماً خاصاً . ونحن وإن كنا واثقين أن الرسوم الملونة الطبيعية في
كهوف أوروبا قد تمت كلها في أواخر العصر الحجري القديم الذي انتهى في
فرنسا مع اعتدال المناخ وانتشار الغابات التي اضطرت الإنسان إلى الهجرة
نحو سواحل البحر وشواطئ الأنهار ، إلا أننا لانعرف حتى متى استمر هذا
الفن في شرق أسبانيا وأفريقية في مواضع مختلفة كما أننا لانعرف حتى متى
استمر أسلوب الحياة الذي كان سائداً في أواخر العصر الحجري القديم ، وما
قد ذكرنا أن هذا الأسلوب بشيء من التعديل قد استمر بين البوشمن حتى
الوقت الحالي .

إضافة إلى الفصل الثاني

تتنمى كل البقايا البشرية التي وجدت مع آثار العصر الحجري القديم الأعلى وما بعده إلى نوع الإنسان العاقل *Homo Sapiens* ، أى النوع البشرى الذى ينتمى إليه الإنسان الحالى وربما كانت بعض السلالات فى شرق آسيا تحمل قليلا من إنسان الصين *Sinanthropus* ، وبعض سلالات أوروبا تحمل قليلا من صفات إنسان نيزد-تال . ورغم هذا فالتشابه كبير بين جميع سلالات الإنسان الحالى مهما اختلفت فى لون البشرة أو شكل الوجه أو الأنف أو الرأس أو مجموعات الدم .

ورغم هذا فإننا نستطيع أن نحكم من الهياكل العظمية بأن التنوع بين السلالات قد ظهر منذ أقدم الأزمنة ، وأن الظروف التى كان يعيش فيها الإنسان كانت تشجع على هذا التنوع . ولم تكن الجماعات البشرية الأولى كثيرة، وربما لم تزد أكبر الجماعات عدداً على خمسين شخصا ، وهذا رقم خطير من حيث إمكانية البحث عن الطعام ، ومعنى هذا أن الجماعة تظل تزوج فيما بينها داخل هذا العدد الصغير مما يؤدي إلى تحديد الخصوبة وإلى قلة عدد المواليد ، بل وإلى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال وإلى انخفاض أمد الحياة لمن استطاع البقاء من هؤلاء الأطفال .

تميل التغيرات فى صفات السكان إلى أن تتأكد ، حيث تتضاعف فرص انتقالها بالوراثة من الوالدين معا ، ومن ثم تنتقل التغيرات المفيدة من جيل إلى جيل ، وتتأكد ولذلك تظهر قيمة الانتخاب الطبيعى فى نقل الصفات الحسنة بسرعة وتثبيتها . وربما أثر الانتخاب الطبيعى فى عملية النمو . خصوصا إذا كانت نسبة وفيات الشبان عالية فمن المحتمل أن التغير فى عمليات النمو أدى إلى التنوع بين سلالات النوع البشرى . وقد شملت هذه التغيرات تقليل حجم الفك الأسفل من أوجه مختلفة هامة ، وتخفيف ثقل عضلات المضغ ، أو العضلات

التي تمسكه بالجمجمة ، وقد بينا في الفصل الأول أن احتمال ظهور أنماط قريبة من الإنسان العاقل في عصر البلايستوسين الأسفل والوسط يؤيده الأدلة المستقاة من بقايا الجماجم التي عثر عليها في سوانسكومب وكنت وفو نتشفاد في غرب فرنسا إلا أننا لا نستطيع أن نستنتج غير قليل من العلم من هذه البقايا المحطمة من الجماجم . ولم تظهر أدلة أقوى إلا في أواخر عصر البلايستوسين بينما لا تدل بقايا البلايستوسين الأوسط إلا على وجود إنسان نياندرتال دون الإنسان العاقل فيما عدا بعض نماذج من جبل الكرمل التي يمكن أن تعتبر مرحلة وسطى بين الصفات النياندرتالية والصفات العاقلة ، أما عن البلايستوسين الأعلى فقد وجدت في كهف «كرومانيون» بقرب فرنسا بقايا رجلين وامرأة واحدة تنتمي إلى أوائل الحضارة الأورنياسية . ووجدت في «كومب كابل» (وهي أورنياسية أيضاً) بقايا رجل واحد يختلف اختلافاً كبيراً عن نماذج كرومانيون ، وتمتاز جمجمة كومب كابل بغطائها المرتفع وبحاقها الوسطى . وأقصى ارتفاع للجمجمة أكبر من أكثر عرض لها . وتمتاز بحافة كبيرة ضخمة بارزة بروزاً كبيراً فوق كل عين بينما لا توجد هذه الحافة العظيمة في جمجمة كرومانيون (وأن كانت إحدى جماجمها تنتمي لرجل تحتفظ بحافة خفيفة) وجمجمة المرأة لا توجد بها هذه العظمة مطلقاً . وارتفاع أفضل عينات جماجم كرومانيون من القاعدة إلى قمة الجمجمة تتراوح بين ١٣٢ و ١٤٠ ملمتراً وأقصى عرض لها يتراوح بين ١٤٩ و ١٥٢ ملمتراً ، ومعنى هذا أن الارتفاع يقل كثيراً عن العرض . بينما أرقام جماجم كومب كابل المقابلة لها هي ١٣٧ و ١٣٤ (وإن كان هناك شيء من الشك حول الرقم الأخير) .

ووجه جماجم كرومانيون قصير وعريض ، ويمتاز بعظام الوجنتين الكبيرة الضخمة . ورغم استعراض عظام الوجنتين في جماجم كومب كابل فإنها تمتاز بالوجه الطويل ، وأنوف تلك الجماجم أعرض من أنوف جماجم كرومانيون كثيراً ، بينما تمتاز الأخيرة بالذقن الطويلة .

وأقصى عرض لأفضل جماجم كرومانيون تقدر نسبتها بحوالى ٧٣,٧ إلى ٧٤,٧ ٪ من أقصى طول لها . وهذه هى نسبتها الرأسية (مقاسة بالنسبة للجمجمة) . وتقدر النسبة الرأسية للجمجمة كومب كامبل بنحو ٦٧ ، وعلى أية حال فهى أقل من ٧٠ ، ويبلغ طول الهيكل العظمى الذى وجد فى كرومانيون ١٨٠٠ ملليمتر ، وهيكل كومب كابل طوله ١٥٥٠ ملليمتر . وقد وجد فى كهف جريمالدى (كهف الأطفال) Grottes des Enfants على ساحل الريفيرا الفرنسية أربع جماجم بشرية قديمة ، ينتمى اثنان منها إلى مرحلة مبكرة جداً من البلايستوسين الأعلى : وهى بقايا امرأة عجوز وفى لم يبلغ العشرين من عمره ومن ثم لا توجد فى جمجمتهما الحافة العظمية الكبيرة التى تشرف على العينين فهى ميزات قلما توجد فى جماجم الإنسان العاقل إلا لدى الذكور البالغين . وتقل النسبة الرأسية فى هاتين الجمجمتين عن ٧٠ ، بينما الأنف عريض والذقن صغير . وتمتاز كلا منهما بالعظمة الوسطى الكبيرة ، وربما كان أقصى ارتفاع الجمجمة أكبر من أقصى عرضها . وهكذا كانت هاتان الجمجمتان أقرب إلى كومب كابل وكرومانيون ، رغم صفتها المميزة الخاصة .

إلا أن هياكل الذكور التى وجدت فى مستوى أعلى كهف الأطفال أقرب فى صفاتها إلى هياكل كرومانيون منها إلى هياكل كومب كابل . وربما أنطبق هذا على هيكل الأنثى الذى وجد فى المستوى العلوى لهذا الكهف . وكان هيكل الرجل طويلاً جداً ، ربما بلغ طوله ١٨٩٠ ملليمتر (٦ أقدام و ٢,٥ بوصة) .

ووجد فى كهف بارماجراند فى جريمالدى أيضاً خمسة هياكل عظمية ، وتظهر فى جمجمتين منها ارتباط هام بين صفة الرأس المرتفع لدى جمجمة كومب كابل ، وبعض صفات الوجه على الأقل لدى إنسان كرومانيون ،

أما الجمجمة الثالثة فقد شوهدت بعد وفاة صاحبها تشويهاً كبيراً . والجمجمتان الأخيرتان أقرب في صفاتها إلى جمجمة كومب كابل بوجه عام .

ويبدو أن الفرق بين جماجم كرومانيون وجماجم كومب كابل يكمن جزئياً في طريقة اتصال عضلات الفك بالجمجمة ، فهي أقرب إلى أن تتصل بجناحي الجمجمة لدى إنسان كرومانيون . بينما هي أقرب إلى أعلى عظام الحجاجين لدى إنسان كومب كابل .

ولا بد لنا أن نشير إلى حقيقة هامة . وهي انتشار سلالة أقرب إلى طراز كومب كابل في مناطق معينة ، كما سنذكر بتفصيل في الوقت الحاضر . وهناك من يقول إن سلالة كبيرة من طراز كرومانيون لا تزال تعيش أيضاً في قليل من المواضع ، وهذا سنذكره فيما بعد . كما سنذكر سلالات أخرى قديمة وهي جميعاً تخضع لتحفظ معين ، وهي أن عدد من يتمثل فيهم هذا الطراز قليل ، وأنها جميعاً قابلة لإعادة النظر على ضوء الكشف التي تستجد . وفي الوقت نفسه فإن الشبه بين كومب كابل وبعض السلالات البشرية الحديثة تبرر استعمال تعبير طراز أو سلالة كومب كابل مستقلة عن طراز أو سلالة كرومانيون .

قبل أن نستطرد في مناقشة سلالات أخرى ظهرت في المرحلة الأورنياسية (العصر الحجري القديم) يجدر بنا أن نشير إلى البقايا التي تنتمي إلى أواخر هذا العصر . تنتمي إلى الحضارة الأورنياسية أو السولترية جمجمتان لرجلين وجدتا في « بورنو » (Brno, Brunn) في تشيكوسلوفاكيا . فهما يمتازان بارتفاع الجمجمة وعظام الحجاجين الغليظة ، وأنهما طويلتان جداً وضيقتان فهما إذن أقرب إلى طراز كومب كابل . وربما إمتست جمجمة « بروكس » Brux في تشيكوسلوفاكيا لهذا الطراز العام . وإن كان هناك شك يحيط بظروفها .

ووجدت جمجمة مرتفعة ولكنها لا تمتاز بعظام الحجاجين الغليظة . كما تنتمي جمجمة وجدت في « بشدموست » Pschedmost (بتشيكوسلوفاكيا) لهذا الطراز العام فهي جمجمة رجل وجدت في نفس المكان تمتاز بارتفاع الجمجمة والنسبة الرأسية البالغة الطول وعظام الحجاجين القوية بينما جمجمة أنثى وجدت في نفس المكان تمتاز بارتفاع الجمجمة وأقل طولاً بطبيعة الحال من جمجمة الرجل ، بينما وجدت جمجمة صبي أقرب في صفاتها إلى طراز كرومانيون .

وتعتبر هياكل بشدموست من أصحاب الحضارة السولترية . وتشبه إحدى جمجم « لاوتش » Lautsch (بتشيكوسلوفاكيا) كثيراً طراز كومب كابل وإن كانت جمجمتان أخريان تتصفان بالرأس المنخفض وعظام الحواجب الضخمة . وهذه أيضاً ترجع إلى العصر السولترى . أما عن الحضارة المجدلية فلدينا جمجمة تشبه طراز كومب كابل . وجدت في « لوجيرى السفلى » Laugerie Basse بفرنسا ، وأخسرى أقرب إلى طراز كرومانيون في « لافى برونكيل » La Faye Bruniquel بفرنسا . وهناك أوجه شبه بين هيكل « شانسليد » (فرنسا) وهيكل كومب كابل ، إلا أنه يمتاز بالأنف الضيق جداً ، وله سمات خاصة مميزة ، ويمكن أن يقارن بأسكيمو أجرينلندة . وربما تختلف صفات جمجمتين من سوردد بفرنسا كثيراً عن طراز كرومانيون حسب ما استطعنا أن نحكم به من تفاصيل قليلة بقيت لنا منهما وجدت في « أوبركاسل » بالقرب من بون ، وفي الراين الألماني جمجمتان مرتفعتان تمتازان أيضاً بعظام الحجاجين الغليظة (وإن كانت أقل غلظة في جمجمة الأنثى منها في جمجمة الذكر) إلا أن وجهها قصير وعريض والقامة قصيرة ، ونلاحظ في هذه الحالة اقتراناً في صفات طرازي كرومانيون وكومب كابل ، كما لاحظناه في طبقات بارماجراندا وأوبركاسل ويحمل صفتها معا . وإن كان الاحتمال قوياً في صحة الفرض الأول إلا أنه تنقصنا دلائل أخرى تؤيده .

ووجدت في سولترية (برغانديا) عينات أخرى عديدة لا تدخل ضمن

أى من هذين الطرازين . كما وجدت بقايا ثلاثة رجال وامرأتين فى طبقة قلنا إنها أورنياسية .

ويتماز حجمها بأنها مرتفعة والوجه أقرب إلى الطول فى اثنتين منها ، ولكنه قصير عريض فى اثنتين منها آخرين (وليس لدينا معلومات عن الخامسة) وعلى كل فأقصى عرض لثلاث من هذه الجماجم يبلغ ٧٧,٩ - ٧٩,٣ ٪ من أقصى طول لها وهو ٧٧,٧ إلى ٨٣,٢ ٪ فى مجموعتى المراتين . وربما كانت إحدى الجماجم الأثوية أحدث زمنا من باقى الجماجم وفى طبقة سولترية أخرى ، غير معروف تاريخها بدقة وإن كانت تنتمى إلى إحدى فترات البلايستوسين إلا على حدث عهد الحضارة الأورنياسية . ووجدت جماجم ثمانية ذكور وامرأتين يمكن قياسها وبقايا عظمية أخرى . ويتماز إحدى هذه الجماجم بالرأس الطويل الضيق ، ويتماز أيضاً بأن أقصى ارتفاع لها أقل بكثير من أقصى عرضها . وهى فى هذا تتفق مع جمجمة كرومانيون ؛ ولكنها ذات جبهة أعلى وأقل عرضاً . كما تتماز جماجم ثلاثة ذكور منها بالرأس الطويل الضيق وبارتفاع الجمجمة الذى يساوى أو يزيد على أقصى عرضها وبعضام الحجاجين البارزين فى اثنتين منهما . أما الجبهة فأميل إلى الضيق والصغر وهى على العموم تشبه صفات لإنسان كومب كابل فى نواح كثيرة .

وتتماز جماجم أربعة ذكور منها أيضاً بالنسبة الرأسية ٧٩-٨٣,٢ أى بالرأس القصير مثل بعض الجماجم الأورنياسية فى هذا الموضع .

ووجد فى « أوندورى ، Oundory على نهر الفولجا بروسيا مجموعتان ضيقتان جداً تتمازان بعضام الحجاجين البارزة الغليظة والجبهة المتقهرة ، وقد قارنهما بأفلوف بجمجمة كومب كابل ، وكانت إحداهما صغيرة جداً وربما كان هذا راجعاً إلى أنها جمجمة أنثى بالغة .

وربما كان هيكل «أسيلار» (بالصحراء الكبرى) الذي يمتاز بالقامة الطويلة والأنف العريض والرأس الطويل أحد أسلاف البانتو. ومن ناحية أخرى ورغم أن هيكل «أولدواي» Oldoway (تنجانيقا) والميتيرا (كينيا) تمتاز بالطول والرأس الطويل إلا أنها ذات أنوف ضيقة جداً وجمجمة بوسكوب (من جنوب أفريقية) طويلة جداً وضخمة جداً، وربما كانت تمت إلى جماجم «فش هويك» Fish Hoek (قرب مدينة كيتون) بصلة. كما تمتاز جمجمة «فلورينساد» بالضخامة وبعضام الحجاجين الغليظة ويضيق ما بين تجويفي العين. وتوضع هذه الجماجم الأفريقية جميعاً في أواخر العصر الحجري القديم بصفة مبدئية. وقريب منها — من حيث التاريخ — الجماجم المستطيلة التي وجدت في طبقات كهف «تشوكوتين» العليا بالقرب من بين.

ولا رتب أن جمجمتي «وادي جاك» WadJak (في جاوة) تنتمي إلى الإنسان العاقل، وهما تمتازان بالضخامة وبعضام الحجاجين الغليظة وبالجبهة المتقشرة. كما تمتاز جمجمتان أخريان وجدتا في كوهونا Cohuna (أستراليا) بعضام الحجاجين الغليظة والجبهة المتقشرة وبعضام غطاءها الغليظ والرأس الضيق المستطيل. وربما لم تكن جمجمة «تالجاى» Talgai (في أستراليا) وربما أمكن إرجاعها إلى كل أمريكا القديمة إلى أواخر عصر البلايستوسينى، فقد عثر على هيكل منها في «فولسوم» Folsom (نيوهامسكو)، واثنين في «نسوتا» وآخر في وادي المكسيك (تيكسبان Tepexpan) وقد أمكن تقدير عمر جمجمة بطريقة الكربون المشع ١٤، التي ذكرت في الفصل الخامس.

وقد عثر على كمية من الجماجم في «أوفنيت» Ofnet بأقاربا، ترجع إلى ما يسمى بأعقاب العصر الحجري القديم، وقد جمعت مقاييس من أربع عشرة جمجمة بالغة، منها عشر لآناث وأربع لذكور، وتمتاز بجماجم رجلين وامرأة منها بالرأس الطويل الضيق والوجه القصير العريض وبهذا تقرب من جماجم أوبركاسل وربما جرانند التي سبق أن ذكرناها. وتمتاز جمجمة أحد الذكور

بعظام الحجاجين الغليظة والنسبة الرأسية لمجمتى رجلين آخرين تتراوح بين ٧٨,٦ - ٧٨,٧ ، بينما هي في جماجم النساء التسع الأخريات تتراوح بين ٧٥,٧ - ٧٨,٩ ، وهي جميعاً فيما عدا واحدة فقط تمتاز بأن أقصى ارتفاعها أقل بكثير من أقصى عرضها . ووجوه خمس نساء من هذه التسع عريضة ، وعلى العموم فهذه المجموعة يمكن أن تقارن بمجموعة سولترية .

ووجدت أيضاً جماجم في «فورفوز» بيلجيكا و «ناجى ساب» في المجر ، و «موجيم» بالبرتغال و «فال دى أريرو» ، و «روما نيللى» ، و «أولو» في إيطاليا ، وهي جميعاً تقترب من مجموعة سولترية ، فيما عدا جمجمة امرأة واحدة وجدت في موجيم تمتاز بأنها ، ضيقة ما بين تجويفي العينين ، بارزة الفك أى يمكن أن تقارن بمجموعة كومب كابل ، وبصفة خاصة بجمجمة المرأة التى وجدت في الطبقة السفلى لكهف الأطفال بحريما لى . وعلى هذا يمكن القول بصفة عامة إن المنطقة التى تحف بحمال الآلب ، فيما عدا الريفيرا ، تمتاز بقاياها البشرية التى ترجع إلى أواخر العصر الحجري القديم (رغم أن كثيراً منها لم يعين تاريخه بعد) ، بالجماجم ذات المقاييس المتوسطة العليا أو العريضة عامة ، بينما جماجم غرب فرنسا الريفيرا طويلة غالباً أى أن بعضها قريب من كرومانيون والأخرى من كومب كابل .

وهناك جماجم بريطانية ترجع إلى عصر البلايستوسين الأعلى أو أعقاب العصر الحجري القديم رغم أن كثيراً منها لم يعين تاريخه بعد . وتوضع جمجمة «شيدار» Cheddar البالغة الطول ، والضيق ، والمرتفعة القمة ، وجمجمة «بيكرز هول» ذات عظام الحجاجين الغليظة في البلايستوسين الأعلى . كما وجدت جمجمة أخرى تمتاز بالطول والضيق والارتفاع وعظام الحجاجين الغليظة في «لانجويث» ، قد ظلت أمداً طويلاً مجهولة التاريخ ،

أن «لزلى أرمسترونج» وجد جمجمة أنثى تشبهها عامة في رواسب البلايستوسين الأعلى في «كروزويل»، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن جمجمة لانجويت ترجع إلى البلايستوسين الأعلى. وتمتاز جمجمة «هالنج» التي ترجع البلايستوسين الأعلى أيضاً بأنها مرتفعة كذلك ولكنها ليست في ضيق الجماجم الأخرى التي ذكرناها. ونذكر في هذا الصدد جمجمة رجل وجدت في «سيسبرى» وهي أيضاً مرتفعة، وربما كانت تنتمي إلى البلايستوسين الأعلى أو أعقاب العصر الحجري القديم الذي تنتمي إليه أيضاً جمجمتي رجلين وجدتا في «أفيلنزهول» في منديب، وهما أيضاً ضيقتان وأقرب إلى الارتفاع، ووجد في نفس الكهف جمجمة رجل وجمجمة امرأة أقرب في مقاييسها إلى مقاييس جماجم سوانرية وترجع إلى نفس الفترة جماجم ثلاث وجدت في كهف «ماكرثر» في أوبان، وتنتمي جمجمتان منها لشاين إحداهما أقرب من اكتمال النمو، أما الثالثة فكانت لرجل بالغ وهي طويلة جداً ضيقة ومرتفعة ذات عظام غليظة فوق الحجاجين.

من هذا نستنتج بصفة عامة أهمية طراز كومب كابل في التراث البريطاني. ولا تزال صفة الرأس الطويل واسعة الانتشار في الجزر البريطانية، بل أن النسبة الرأسية في بعض أنحاءها قد تنخفض عن ٧٣، ولا سيما في أجزائها البعيدة قديمة العهد بالسكان والتي كانت تلجأ إلى التزاوج الداخلي. وهناك مناطق أخرى تمتاز بالمباغة في طول الرأس والحواجب الغليظة الواضحة والأنف العريض نسبياً وعظام الصدغ العريضة والفم الكبير، وقد لاحظ هذا «كوليفيون» Collignon منذ ستين عاماً في الدردوني بفرنسا. وأعلن أنه وجد طراز كرومانيون في ذلك الإقليم. ووصف هذا الطراز «كوستا دافريزا» في «تراس أوس مونتيس»، شمال شرق البرتغال كما وصفه الدكتور «دكورت» في «ساردينيا»، ويبدو أنه من سمات سكان بعض الواحات في شمال

أفريقيا والصحراء ، إلا أنه تنقصنا التفاصيل الكافية على ذلك وقد لاحظ «بروم» Broom أهمية هذا الطراز أيضاً في «كورانا» بجنوب أفريقيا ، كما قامت مسز ملوارد^(١) بدراسة خاصة عن هذا الطراز ومن وجهة نظر النحات في بعض جماعات الهند التي تسكن الغابات . وتبين المجموعة الاسترالية الكبيرة الموجودة في واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، والتي رتبها الدكتور «هردلشكا» Hrdlicika نسبة كبيرة من الهجاء تتصف بالمبالغة في الطول وما لرأس المرتفع وبمعظام الحواجب البارزة في الذكور ، والأسنان الكبيرة والفم الكبير وهذا الطراز معروف أيضاً بين الآينو ، وهم سكان شمال اليابان الذين ينتمون إلى المجموعة المغولية ، وهذا أيضاً كثيرين إسكيموا جرينلندة وبين البوتوكود وفي شرق البرازيل ، ويظهر أيضاً بين الفجويين Fuegians ويمثل كذلك في مجموعات الهجاء التي جمعت من أجزاء مختلفة من أمريكا وترجع إلى العصر السابق للكشف الكلومي للبلاد .

وإن ارتباط شكل الجمجمة هذا بأنماط مختلفة من لون البشرة أو شكل الشعر ليدل على أن وراثته شكل الجمجمة لا علاقة لها بوراثة لون البشرة أو شكل الشعر ، وأن تقسيم النوع البشري إلى سلالات كما نعرفها في الوقت الحاضر ليست له إلا قيمة وراثية متواضعة .

ووجد هذا الطراز في جنوب أفريقية وفي إستراليا وأجزاء من العالم الجديد تحف بأطرافها التي يمكن أن يدخل منها الإنسان ، أي بحر برنج والبحر الآلوتي وفي أجزاء نائية من غرب أوروبا توحى بأنه طراز عريق ذو توزيع جغرافي هامشي غير متصل الحلقات .

(1) Milward, Marguerite, Artist in Unknown India.

— ١٠٣ —

ويمكن مقارنة صفات جماجم سواترية وأفنية وغيرها ، العريضة حيث تزيد نسبتها الرأسية على ٧٨ ، بل و ٨٠ بصفات الرأس العريض الذي يتميز به سكان جبال الألب وما يحف بها في الوقت الحاضر . وتشبه قواطع إنسان الصين التي وجدت في تشوكين بقواطع الصينيين الحاليين وهذا يوحي . بأن إنسان الصين Sinanthropus ربما ساهم في ميزات الشرقيين الحديثين ، كما ساهم إنسان نياندرتال في صفات الأوروبيين الحديثين .

ولا زلنا في حاجة إلى مزيد من الأدلة ، إلا أنه من المحتمل جدا أن ترجع بعض صفات الإنسان الحديث إلى صفات صاحبت حضارة العصر الحجري القديم على الأقل في بعض الأقاليم .

•••••

الفصل الثالث

أعقاب العصر الحجري القديم

أضيف الصيد والجمع والالتقاط كوسيلة للحياة أثناء العصر الحجري القديم ، أما الخطوة الكبرى التالية وهي الزراعة فهي لم تكن قد ظهرت بعد . إلا أن عصر الصيد والجمع الذهبي في أوروبا وأفريقيا على الأقل قد تلاه — كما استنتج بعض الكتاب فترة انحطاط نظراً لتغير ظروف البيئة . فقد مرت فترة تقدر بآلاف السنين كانت بعض الجماعات الإنسانية خلالها تحوم حول أوطانها القديمة وبعضها خرج من تلك الأوطان إلى أماكن بعيدة بينما تعلم البعض الحياة في المناطق الأكثر جفافاً من الغابات ثم بالتدريج سار نحو تعلم فن الزراعة في أواخر العصر وانتشروا في كل مكان حاملين معهم الثورة الثانية الكبرى في حياة الإنسانية .

كان من أثر تدهور الجليد من جبال الألب وشمال أوروبا وكذلك بعض سلاسل وسط آسيا أن ارتفعت درجات حرارة الصيف فذاب قدر كبير من الثلج وانطلقت مياهها إلا أن برد الشتاء ظل عاملاً هاماً إلى أن تقلصت مساحة أعظمية الجليد من شمال أوروبا وجلبت أعاصير البحار الأمطار إلى غرب أوروبا واندفعت من المحيط نحو الداخل بعد أن كانت الأعاصير تتحول نحو الجنوب لتسقط معظم أمطارها في حوض البحر المتوسط وتسقط ما يبقى بعد ذلك فوق غرب الصحراء الكبرى وسيبت الظروف المناخية الجديدة ازدياد جفاف الصحراء الكبرى وشمال أفريقيا ، فدفعت سكانها للهجرة نحو الشمال أو الجنوب أو نحو وادي النيل كما دفعت نفس الظروف سكان شبه جزيرة العرب نحو سوريا من ناحية أو نحو العراق من ناحية أخرى ومن ثم أصبح النيل والفرات وربما بعض المناطق المجاورة أيضاً بعد ذلك بوقت طويل أوطاناً أولى ، بل الأوطان الأولى لفن زراعة الحبوب بعد أن كانت قبل ذلك مراتع للصيد والجمع الضئيلين عدة قرون وكان الإنسان يصيد كثيراً من الحيوانات التي انتجأت إلى مستنقعات السهول الفيضية ، كما كان يجمع ثمار النباتات التي كانت تنمو في هذه السهول .

وإذا تذكرنا كيف كانت المناطق النهرية ضيقة ، لأمكن لنا أن نقدر أنها لم تكن بكافية كي تمد عدداً كبيراً من قطعان الحيوانات بالغذاء كما لم تكن تكفي سوى عدد ضئيل من السكان وربما كان هؤلاء الصيادون الجماعون يعيشون على هامش أودية الأنهار وربما استطلعنا أن تصور نساءهم وهن يتعلمن كيف يعنين بالنباتات التي تدمج بالحبوب ، ومن ثم يستطعن المخاطرة إلى السهل الفيضي عندما ينخفض مستوى الفيضان ، ولم يتعلم الإنسان تهئية الحقول إلا بعد تعلم فن الزراعة وهذا احتاج لكثير من الخبرة وكانت له نتائج عديدة نتحدث عنها في الفصول القادمة . وسنقتصر في هذا الفصل على تلك الأقاليم التي لم تتحول من الصيد والجمع والالتقاط إلى الزراعة إلا بعد أن دخلتها الزراعة من أحد أوطانها القديمة في وقت متأخر جداً .

ربما بدأ تقيقر الجليد في أوروبا من جنوب السويد ١٢٠٠٠ - ١١٠٠٠ ق.م. ولكنه لم يكن يصل إلى المرحلة التي انقسم فيها الجليد إلى كتلتين إحداهما شمال اسكنديناوة والأخرى جنوبها الغربي وذلك حوالى ٧٠٠٠ ق.م حسب تقديرات ليدل الذى اتبع طريقة دى جير في حساب رقائق الطلي الدقيقة Varves التي كان الجليد يرسبها كل صيف عند حافته النهائية . وربما زاد متوسط درجة الحرارة في أدفاً الشهور على عشرة درجات (١٠°م) في جنوب غرب البحر البلطى إلا أن الشتاء ظل بارداً وكان الغطاء النباتى يتكون من غابات الصنوبر والبتولا والصفصاف . وكانت اسكنديناوة ترتفع ببطء بعد أن تخففت من أثقال الجليد عندما ذاب وملاّ البحر البلطى الذى كان متصلاً بالمحيط أثناء فترة يولديا بالماء العذب وحولته إلى بحيرة عذبة في فترة انكيلوبس Ancyclus . ثم أدت زيادة ذوبان الجليد إلى أن يتصل البحر باليابس مرة أخرى ، فاتصلت مياه البحر البلطى بمياه بحر الشمال مرة أخرى إذ غمرتها مياه البحيرة السويدية السابقة — وهذا تدخل في الفترة المعتدلة الدافئة المعروفة بالفترة الأطلسية Atlantic ، وتشمل هذه الفترة ما عرف في تاريخ البحر

البلى بفترة الليقورينا لأن مياه البحر كانت من الدفء بحيث تسمح لقوقعة ليتورينا بالحياة فيها ولا بد وأن درجات الحرارة في الصيف حينذاك كانت أعلى من نظيراتها في الوقت الحاضر كما بين ذلك أول مرة بريجار Praeger في إيرلاندة . ولم يكن انتشار الغابات من مصلحة الإنسان في بادىء الأمر فاضطر إلى البحث عن طعامه على شواطئ البحار أو من الأنهار والبحيرات وربما لجأ إلى كهوف الجروف الصخرية يتخذ منها مأوى لاسيما في الشتاء وربما لجأ إلى التلال المرتفعة فوق مستوى الغابة ومنها يهبط مغيراً على أطرافها بحثاً عن الطعام . إلا أنه كان يقف عاجزاً أمام الغابة ، فغابة الصنوبر مكان مظلم موحش لا ينمو في أرضها إلا النذر القليل مما يستطيع أن يجمعه لغذائه إلا أن حواف الجليد كانت تذوب في الصيف فينمو محلها السكلاً الذي يجتذب قطعان الرنة وصيادها وهناك من البراهين على حدوث هجرات موسمية بين هؤلاء الصيادين فقد وجد شفاتر Schiwantes عدداً من الأرضيات المتتابعة في دوفنزى Duvenses في جنوب ألمانيا وقد غطيت أجزاء من هذه الأرضيات بالرمل لاستعمالها كواقد ، كما غطيت أجزاء أخرى بلحاء الخشب ويبدو أن هذا المكان كان مأوى لإحدى الجماعات تهاجر إليه عاماً بعد عام في فصل الصيف .

ويقول كلارك أن الأمتعة الخفيفة مثل الخيام كانت تستعمل صيفاً في أواخر العصر الحجري القديم وأعقابها وربما كان الإنسان يلجأ إلى الكهوف أو إلى منازل من الطين مبنية فوق حجرات تحت الأرض في فصل الشتاء . وربما وجد طلاب القصص الشعبية هنا تفسيراً لاختفاء الجنيات تحت الأرض أو لمنازل الجن تحت الأرض ، أو للسحر العجيب المنبعث من تحت الثرى . كما يجب أن نتذكر هنا منازل عصر الحديد التي كانت تحت الأرض . ولدينا أمثلة عديدة من شمال شرق سيبيريا وشمال أمريكا الشمالية لحالات تغير فيها اجتماعات البشرية أماكن سكناها من الخيام إلى منازل الطين أو الحجارة أو الثلج . وربما أدى بناء المنازل التي تستعمل هياكل من الخشب

تملاً بالطين إلى بناء منازل من اللبن من ناحية أو من الخشب واللبن وطلاء الطين (كنازل العصور الوسطى من ناحية أخرى) .

وربما استمرت حياة الصيادين الذين كانوا يستعملون أدوات صوانية صغيرة ويرسمون حوائط ملاجئهم الصخرية في شمال أسبانيا ، بينما وجدت بقايا أكوام القواقع البحرية التي تركها السكان الذين كانوا يستعملون الآلات الصوانية الصغيرة أيضاً في البرتغال وتوجد في ساحل استرياس بشمال أسبانيا وفي بعض كهوف جنوب فرنسا حضارة تسمى بالأزيلية Azilian وكان أصحابها يستخدمون آلات صوانية صغيرة جداً ، كما كانوا يستخدمون المكاشط وكانوا يستخدمون قرون الوعل بعد تشكيلها في هيئة خطاطيف كأسلحة وكان لبعض هذه الأسلحة ثقب صغيرة . وجدت في بعض الكهوف الفرنسية وخصوصاً في «مادازيل ، Masd'Azil» (التي أطلق إسمها على تلك الحضارة) حصى مزين بعلامات ، بلغ الحدس ببعض الكتاب أن ظنها حروفاً أبجدية ، وجمع عدد كبير من هذا الحصى من شمال أسبانيا وقد أزال المطر طلاء النقوش من بعضها وكان الأزيليون يجمعون القواقع من شمال أسبانيا ، ومنها فوقعة ليتورينا ليتوريا Litorina Litorea التي وجدت بكثرة مما يدل على مناخ ألطف من مناخ العصور الحديثة في هذه العروض ويجب أن نلاحظ العناية بأن وجود هذه القوقعة في البحر البلطى يدل على فترة بحرية حيث كانت تسود الظروف الجزرية أى فترة دافئة المناخ نسبياً بالنسبة للعروض العليا . وقد وصفت آثار الحضارة الأزيلية التي تمتاز بالخطاطيف ، ومن كهف فكتوريا في ستل Settle بيوركشر ومن كهف ماكراثر بالقرب من أوبان ومن بوباش في دروم بفرنسا .^١ ومن بيرسيك بالقرب من بازل بسويسرة ووجد في الكهفين الآخرين حصى ملون كما وجدت الخطاطيف والمكاشط والآلات الصوانية الصغيرة في مواضع عديدة من وسط أوروبا غير أنه من الصعب إدراجها في الحضارة الأزيلية .

قبل أن نعالج مناطق أخرى علينا أن نشير إلى تطور حضارى آخر في شمال أسبانيا يعرف بالحضارة الأستورية Asturian ووجدت بقاياها في مواضع عديدة - فوق بقايا الحضارة الأزيلية وهي أحدث منها عهداً ، وانتشرت إلى الغرب وربما انتشرت فوق شمال أسبانيا وجنوب فرنسا ولا يبدو أنها متطورة مباشرة من الحضارة الأزيلية أو الحضارة الترونوازية التي سندرسها فيما بعد . إلا أن بعض الحصى كان يشظى لكي تصنع حافات خشبية ، بينما تترك نهايتها للإمسك بها . ويظن « أوبرماير » أن هذه الآلات الصوانية كانت تستخدم في فصل القواقع البحرية مثل قوقعة تروخوس لينا توس Trochus Lineatus وهي تدل على مناخ أدفاً من المناخ الذي تدل عليه قوقعة ليتورينا ليتوريا السائدة في الحضارة الأزيلية . ولم تترك هذه الحضارة إلا قليلاً من الآلات المصنوعة من العظام أو من قرون الوعل . ومن المحتمل أن الفترة الأزيلية ذات المناخ اللطيف في أسبانيا كانت تتفق بصفة عامة مع فترة يولديا الباردة في شمال أوروبا وأن الفترة الأستورية جاءت بعد ذلك بوقت غير قصير ، ربما وقت تكوين بحر ليتورينا في الشمال . وربما بدأ العصر الأول حوالى ٨٠٠٠ ق . م . وبدأ الثاني حوالى ٤٠٠٠ ق . م . والواقع أنه لا يمكن تحديد عمر أى من هذين العصرين ولا يمكننا قدرنا هذين التاريخين اثنين مقدار طول الفترة التي أعقبت العصر الحجري القديم .

وجدت في كثير من تلال فرنسا ووسط أوروبا قطع من الصوان ؛ سميت الصغيره جداً منها بالحضارة الترونوازية نسبة إلى « لافير آن تروينواز » La Fère-en-Tardenois بفرنسا وإذا وجدت آلة تشبه الخطاف مصنوعة من قرون الوهل فإنها تسمى أزيلية ترونوازية ووجدت الآلات التردنوازية الصوانية الصغيرة في أماكن مختلفة على ارتفاع ١٠٠٠ قدم من سفوح البنين في بريطانيا وقد شرح بكلى كهوف بدرجلاكس التي كان ينحتها أصحاب تلك الحضارة في الصخر ويغطونها بفروع الأشجار ويأوون إليها في فصل الصيف

وكان أصحاب تلك الحضارة الترونوازية يعيشون أيضاً في كهوف كرزول وهذه الحضارة التي تمتاز بآلاتها الصغيرة جداً ، واسعة الانتشار في القارة الأوربية وانتشرت ببطء نحو الشمال .

والغريب أن آثار تلك الحضارة متوفرة في الركامات الجليدية الرملية في بولندة ، بينما هي قليلة الانتشار في مناطق اللويس ، رغم أن مناطق اللويس لم تكن كثيفة الغابات . وربما كان مناطق اللويس غزيرة الأشجار في مراحل تكوينه الأولى ، أي في أعقاب الجليد مباشرة ، ثم قطع الإنسان تلك الأشجار ولم تتم مرة أخرى بعد الفترة الأطلسية .

يبدو أن أصحاب تلك الحضارات كانوا من الصيادين ، ويبدو أنهم ظلوا في مواضعهم الأولى التي لم تكن ذات قيمة في الزراعة ، حتى بعد أن تعلموا هذا الفن ، ومن ثم كان من الخطر محاولة تقدير عمر آثارهم وتعتبر الآلات الصوانية القرمزية من معالم الآثار الهندية وهذا دليل على أن تلك الحضارة التي نشأت في جنوب منطقة حضارات ماجلوز وموليرك وارتبلة Maglemose-Mullerup-Ertebølle في شمال غرب أوروبا حيث عمرت طويلاً ، وقد امتدت شرقاً إلى الأقاليم الدفينة ، وتدل صناعات ولتون في أفريقية على انتشار آخر لها جنوباً بشرق هذه القارة .

وهناك حضارة أخرى واسعة الانتشار في السهل الأوربي ، وصفها شفانز ، تمتاز بآلات مصنوعة من الشظايا الصوانية وأهم ما يميز هذه الحضارة آلات ذات العنق المدبب ، وربما كان هذا ميراثاً عن سهام فونت روبرت ، في العصر الحجري القديم الأعلى ، وربما كان هذا تطوراً متوازياً في الحضارتين أملتته ضرورة تثبيت تلك السهام في القنا — وتمتاز أيضاً بصوان صغير مختلف الأنواع ، وقد اتفق الباحثون على أن هذه الحضارة قد اختلطت بالحضارة الترونوازية وفقدت صفتها إلا في المناطق القطبية الشمالية .

وإن امتزاج تلك الحضارة بغيرها يؤيد احتمال اقتباسها عناصر حضارية من حضارات سابقة ، فهي لم تبتدع جديداً ، وربما كان أصحاب تلك الحضارة قد حملوا ميراث العصر الحجري القديم وخلطوا به ما عرفوه من الحضارة الترونازية مع مرور الزمن . وقد انتشرت السهام ذات العنق المندب إلى المنطقة القطبية حيث لعبت دوراً هاماً في حضاراتها الأولى .

وقد وجدت في مستنقعات الدنمارك وجنوب السويد وشمال غرب ألمانيا قرون الرنة المصنوعة على شكل فتوس وأزاميل ، ويقول شفاتز أن هذه الفتوس العظيمة هي أقدم فتوس من نوعها في العالم ، وأنها سبقت الفتوس الصوانية ، وبالتالي سبقت فتوس العصر الحجري الحديث المصقولة . وهذا كله يفسر إلى حد كبير ، وقد اطلق على هذه الآلات المصنوعة من القرون اسم حضارة لسجي Lyngby ، ولكننا لا نعلم إلا القليل عن الصوان الذي رافقها .

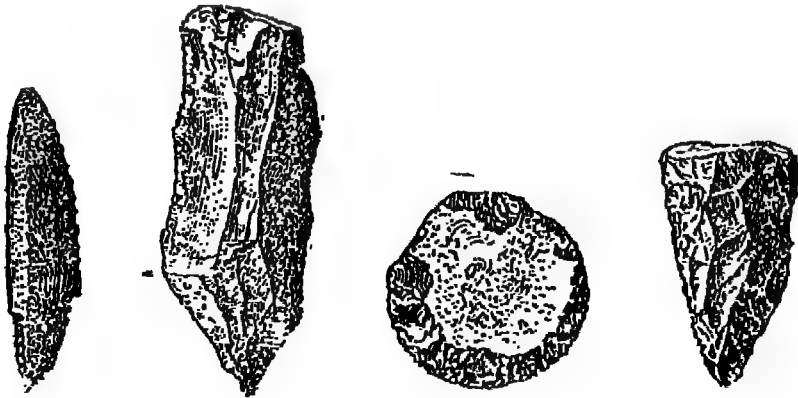
ثم حدث تغير شامل في الظروف الطبيعية ، عندما غزت غابات البلوط والبنديق والحوار والدردار أرض الشمال ، أي عندما اعتدت درجة حرارة الشتاء كثيراً ، وعندما ازداد دفء الصيف ، وعندما هبطت الأرض هبوطاً ضئيلاً في حواف شبه جزيرة إسكندياوة الجنوبية . وقد اجتذبت حدود الغابة حيوانات الخنزير والكلب والغزال والماشية الوحشية ، فأصبح الصيد عملية مجزية لمن يستطيع أن يرتاد حافة الغابة دون أن يترك التلال الرملية الجافة التي لجأ إليها الإنسان وسط أقاليم المستنقعات ودون أن يترك السهول الفيضية التي تحف بالأنهار أو البحيرات ، أو شواطئ البحر ، على الأقل فترة من الزمن . وكان عدد السكان صغيراً جداً ، مما يلائم حياة الصيد في مثل هذه البيئة وقد تسلح الإنسان حينذاك بالفتوس لقطع الأحراج ، وكان سلاح قرن الوعل ذي الحافة الحادة ضرورياً . ولكننا نشك في أن كان الإنسان -

في هذه المرحلة — قد استطاع أن يتوغل في غابة البلوط الرطبة (Queraus robur pendunculatus) وكان من الممكن لديه أن يغير نصل هذا السلاح الصواني من وقت إلى آخر ، كما أنه كان يستخدم الصوان في صنع مكاشط صغيرة إلا أن الآلات الصغيرة كانت أكثر أدوات الصوان شيوعاً في ذلك الحين ، وهي ذات حافة حادة وأخرى سميكة مثل الآلات الترونوازية ، وكان المخراز البالغ في الصغر والدقة أحد معالم هذه الحضارة في دوفنسى وقد وصف ماثياسين Mathiassen أحد أوجه هذه الحضارة المبكرة من موضع بالقرب من بعض الجداول المائية في جتلند ، ولاسيا من جودينا Gudena و هذه تمتاز بروس سهام ذات أشكال مثلثة ، كما وجد شفاتنز حضارات متشابهة لها في شارويج وهو لشتاين . وتنتشر حضارة ماجلوز عامة في زيلاند الدنمركية وفي سكانيا ، وفونن Fünen Fgen في جتلند وشمال غرب ألمانيا وبالقرب من فستولا الأسفل وهي تستعمل آلات صوانية صغيرة حادة من جانب واحد فقط ، وقوس صوانية ذات حافة قاطعة متعامدة مع محورها الرئيسي ، وبعض هذه القوس - ولاسيا الضخمة منها — مصنوعة من النواة ، بينما البعض الآخر الصغير مصنوع من الشظايا . وقد وجدت في زيلاند (دنمارك) عيّنات جيدة من الصوان الدقيق ، وهي تشبه آلات ترندواز القرية في بعض صفاتها ، ولا ريب أنها مشتقة منها ، وربما كانت قطع الصوان هذه تتركب في آلات من العظم أو الخشب ، إلا أنه ليس لدينا دليل مباشر على هذا . ومن ميزاتهما أيضاً المكاشط المصنوعة من الشظايا ، وكانت قطع الحمى تنقب من الجانين ليتمكن إمساكها بالأصابع ، وكانت القوس مصقولة وذات ثقب ، ربما لكي تثبت في عصا . وربما سبق صنع هذه الآلات الحجرية تجارب أجريت على قرون الوعل كما وجدت مجاديف خشبية ، وربما دل هذا على أن الخشب كان واسع الانتشار .

وربما لم تكن آلات الصوان المصنوعة من النواة ذات قيمة في قطع

الأخشاب ، لأن حافاتها غير المصقولة لا تصلح في ذلك ، إلا أن الفأس المصقولة تصلح كاسفين يدق في جذع الشجرة . وقد تحرر الإنسان — بعد أن تعلم فن صقل الحجر — من الاعتماد على أنواع قليلة من الصخر (وهي الصوان والنشرت ، والأيسديان ، واليوليت وبعض الكوارتز) يستطيع أن يشظيها ، فاستطاع أن يستخدم الكوارتزيت والنيس أيضاً . ولا يزال الباحثون مختلفين فيما إن كان فن صقل الصخر قد دخل شمال غرب أوروبا من الخارج أولاً . على أن فكرة الصقل هذه بسيطة في حد ذاتها ومن الممكن أن يكون الإنسان القديم قد توصل إلى إدراك أهمية صقل الحجارة في قطع الأشجار . وربما انتقلت هذه الفكرة من إقليم تغطيها الغابات .

وكانت القنوس المصنوعة من قرون الوعل وغيرها من الآلات تزين بخطوط محفورة ، أو ثقوب صغيرة ، ربما كانت صوراً تقليدية أو اصطلاحية لرسم جسم الإنسان أو الحيوان ، وربما شكل القرن كله على هيئة رأس حيوان . وقد وجدت في مولليروب وسفاير دبورج وهو لجارد في فونن رؤوس سهام مسننة مصنوعة من العظام ، وهذا وجه متأخر متخصص لهذه الحضارة .



شكر (٢٩)

آلات ماجلوزية

انتشرت حضارة ماجلوز إلى شمال فرنسا وأجزاء من الجزر البريطانية، حيث وجدت في تاكشام في برکشير وبروكسبورن في هرفوردشر، وسكس في شرق يوركشر، ووادي بان في أتريريم .

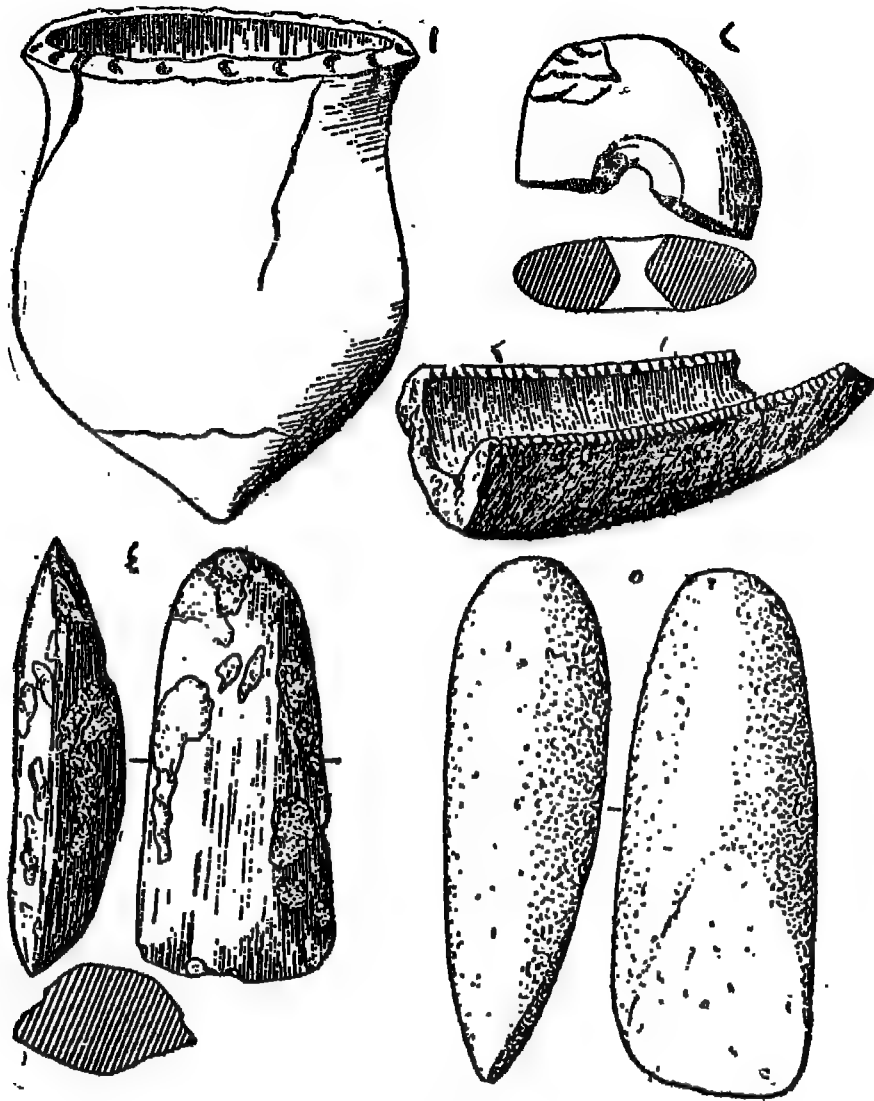
وصف الأستاذ كلارك J. G. D. Clark (١٩٢٩) بعض المواقع الأثرية في وادي جرينساند الأسفل يمرى وسكس ولا سيما بالقرب من نهر «وي» Wey وكذلك في رمال هورشام وأشداون ومن ثم استخدام تعبير حضارة هورشام ولاحظ الفرق الكبير بين الإنميط التي وجدها في هذه المواقع وحضارة ماجلوز في إنجلترا على النحو التالي :

الفنوس الآلات الحجرية القزمية في

حضارة هورشام ٢٢ أو ٢٢,٢٢ ٪ ٩٧٥ أو ٩٧,٧٨ ٪ فارتهم وسليستون
حضارة ماجلوز ١٤ أو ١١,٦٧ ٪ ١٥٦ أو ٨٨,٣٣ ٪ بروكسيورن ووادي كولن

فمناطق جرينساند الأسفل في إنجلترا هي حدود حضارة ماجلوز، حيث تتقابل مع الحضارة الترونوازية الأكثر انتشاراً نحو الجنوب والتي تمتاز بالآلات الحجرية القزمية ، وتمتد منطقة تقابل الحضارتين حتى كرزول والبنين شمالاً . وتمثل هورشام منطقة التقابل هذه .

وقد بدأ كلارك عام ١٩٢٩ دراسة ستاركار في سيمر ، سكاربره، يوركشر وهي مكان حفائر حضارة ماجلوزية أي حجرية متوسطة Meolithic حيث ظن أن المستنقعات ربما احتفظت بمواد عضوية إلى جانب الآلات الحجرية فوجد كثيراً من آلات الصوان وبقايا صناعته ووجدت مخارز ومكاشط من الشظايا وآلات صوانية قزمية وفأسين ذواتي حافة قاطعة ، ومنشار صواني واحد . وربما استخدم الحجر الرملى لصقل الآلات الصوانية ، كما وجد عدد من الحصى المختلف الأشكال . وكانت قرون الغزال الأحمر شائعة الاستعمال ، كما استخدمت نصال السهام المسننة ، وربما كانت هذه النصال



شكل (٣٠)

إرتبولة (المصر الحجرى المتوسط) فخار وآلات حجرية ، ١ مقياس ٣ : ١٦

٢٤٢ مقياس ٩ : ٣٢ ، ٤ مقياس ٣ : ٨ ، ٥ مقياس ٩ : ١٦

تركب فوق عصى خشبية ، ويبدو أن العظام كانت قليلة الاستعمال ، رغم استخدام قرون الوعل وهذا أمر غريب، إذ أن هذه الحضارة تمتاز باستخدام العظام في صنع كثير من الآلات ، كما أن أصحاب هذه الحضارة كانوا يجمعون لحاء أشجار البتولا بكثرة ويظن كلاك أن هذا اللحاء كان يخزن لكي يستخدم في صنع أوان لحفظ الماء وغيره قبل نمو صناعة الفخار ، كما كانوا يفرشون هذا اللحاء على الأرض وهذا أيضاً من مميزات هذه الحضارة .

ما أن تم الاتصال المائي بين البحر البلطي ومضايق سكاجراك Skagerrak عبر البحيرات السويدية وبلغ أقصى اتساعه المائي ، حتى أصبح المناخ أدقاً وأكثر مطاراً ، فحلت أشجار الحور والبندق والدردار والبلوط محل أشجار الصنوبر والبتولا ، وتسمى هذه الفترة المناخية بالفترة الأطلسية ، وربما كانت قد وصلت ذروتها حوالى ٤٠٠٠ ق . م وقد استمرت حضارات تلك الفترة جنباً إلى جنب مع الحضارات الأكثر تعقيداً بما فيها حضارة الزراعة التي وصلت - فيما هو محتمل - إلى شمال غرب أوروبا في الألف الثالثة ق . م . ومن الصعب أن نقرر ما إن كانت حضارات الفترة المناخية مستعارة أو معدلة تعديلاً ناقصاً من حضارات أرقى لكي تلائم الظروف المناخية والطبيعية المحلية . وتتوزع محلات هذه المرحلة المتأخرة من حضارة الماجلوز أو إرتبلة Ertebölle أقرب ما يكون بالسواحل ، وملينة في الغالب ببقايا القواقع ، وقد وجد إناؤه قاعدة مدنية ، يدل على تغلغل آراء وعناصر حضارية من الخارج ولكنها لم تؤثر كثيراً في استمرار وسائل الحياة القديمة فيها ، كما هي الحال بالنسبة للاستراتيجيين الأصليين وغيرهم في الوقت الحاضر ، وربما دلت على تطور محلي صرف .

ومن الغريب أن الشعوب المتأخرة في الوقت الحاضر ، بينما تستطيع أن تستخدم بعض الآلات التي رأتها مع الشعوب المتقدمة إلا أنها لا تستطيع أن

تعبّر الهوة التي تفصل بين مستوى الصيد والجمع والالتقاط وبين مستوى الزراعة . فالاستراليون الأصليون يستطيعون تشيئة زجاجات الأوريين ويصنعون منها آلات حادة ، كما نجد - في كثير من الأماكن الأثرية القديمة فتوساً مصقولة قد شظيت إلى آلات صوانية وقد بين استن إيفانز Estyn Evans أن بناء الهياكل الحجرية الضخمة Megaliths كانوا يعاصرون جماعات الجمع والصيد والقنص في شمال إيرلنده .

وقد بين ما نياسن أنه على الرغم من أنه عثر في ستراند جارد على رحي وقح إمر، وقح الخبز والشعير وفتوس حادة وقطع من الأواني وأقداح وعظام ماشية وغنم وخنازير إلى آخره مما يشير إلى وجود اقتصاد يعتمد على إنتاج الطعام بالزراعة وتربية الحيوان إلا أنه لم يجد دليلاً كافياً على ذلك ، غير أنه لا ريب في أن كلا من هافنليف Havnelev وستراند بجارد Strandegaard في زيلاند (الدنمارك) كانتا متعاصرتين .

وهناك أمثلة عديدة من العصر الحاضر عن عناصر حضارية اقتبستها بعض المجتمعات واحتفظت بها بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما نسيتها وطرحتها جانباً ، ونحن لا نخطئ إذا قلنا أن جماعات الصيد والقنص وجمع القوت القديمة قد أخذت بعض عناصر حضارية أرقى لم يكتمل لها فهمها ، وربما احتفظت بها بعض الوقت ، ولكن طرحتها جانباً ونسيتها دون أن تدخلها في نظام حياتها الأساسية . فالجماعون والصيادون في الوقت الحاضر قد يحومون حول مجتمعات زراعية أو تجارية راقية ، وقد تقتبس منها أشياء ، ولكنها سرعان ما تنساها . ولكن نكمل القصة لا بد أن نذكر أن بعض الصيادين أو الجماعين قد يعيشون على هامش المجتمع الأرقى ، كخدم وقد يتخذ رجال المجتمع الأرقى من نساءهم إماء يلدن أطفالاً خلاسين .

ومعنى هذا أن جماعات الصيد والجمع والالتقاط لم تختف تماماً ، فقد تندمج في المجتمعات الأرقى ولو على شكل أتباع وخدم .

لقد كانت أعقاب العصر الحجري القديم فترة طويلة من الزمن، ولكنها انتهت أخيراً بعد إدخال فكرة زراعة الحبوب من جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقية ، وما تلاها من معالم المدنية الزراعية ، وبعض هذه المعالم كان سريع الانتشار ، بينما بعضها كان بطيء الحركة . وقد وجد في مكان ما بين شمال أوراسيا في ذلك العصر ، نوع من الحيوان أنهى حياته كحيوان وحشى ، ثم أصبح أول أعوان للإنسان — ألا وهو الكلب .

لم تدرس الأدلة الأثرية عن سكان وسط آسيا وشمالها بعد دراسة شاملة . وقد وجد بالقرب من كراستويارسك تحت طبقة من اللويس كمية من الشظايا الصوانية ، كثير منها ذات حد واحد ، وقليل منها صغير جداً ، وتشتمل على عدد كبير من المكاشط المستديرة وبعض أدوات من العظام والعاج ، وآلة من قرن الوعل ذات ثقب وخروز محفورة فيها ، كما وجدت خطاطيف مسننة مصنوعة من قرون الوعل ، وآلات حجرية على شكل ورق الغاز ، تذكرنا بالحضارة السولترية . وقد وصفت مواضع تجمعت فيها فضلات المطبخ في سبييربا ، ولا سيما في الكشبان الرملية ، وهي تبين أن أصحابها كان لديهم الكلب المستأنس . ووجد في منطقة منوسنسك Minussinsk أنماط من فتوس الكوارتزيت الغير دقيقة التشظية . وربما كانت الآثار السبييرية خليطاً من آثار تميز العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى مع بعض آثار تميز أعقاب العصر الحجري القديم مثل آلات الصوان القزمية وروس النصال .

ولو كان ميلاً تكو قتش مصيباً في إرجاعه لتغيرات المناخية إلى حد كبير إلى اختلاف كمية الإشعاع الشمسى الذى تستقبله الأرض لدى خطوط العرض

المختلفة ، فلا بد إذن من وجود دفء في شمال شرق آسيا وشمال أفريقيا أى نفس خطوط العرض التى سادها الدفء في شمال غرب أوروبا . ومعنى هذا فتح باب جديد للمناقشة . فربما كان الطريق إلى شمال غرب أمريكا من شمال شرق آسيا أقل صعوبة بكثير في فترة ما بعد الجليد أى من ٥٠٠٠ ق . م إلى ٣٠٠٠ أو ٢٠٠٠ ق . م عما هو عليه الآن . كما أن ذوبان أغشية الجليد بسرعة قد ملأ الأودية الجافة في الوقت الحاضر بالماء فجرت الأنهار في ذلك الحين ومن ثم كانت البيئة التى تقع في طريق الإنسان إلى شمال شرق آسيا أسهل بكثير من عما هي عليه الآن . ولا بد أن أقدم الهجرات البشرية إلى أمريكا قد تمت خلال فترة أعقاب العصر الحجري القديم كما حدثت خلال الفترات غير الجليدية السابقة لها من قبل .

القِسْمُ الثَّانِي

تطور الحفّارة الأقبليّة

الفصل الرابع

جنوب غرب آسيا

لا نملك إلا أن نتحدث عن احتمالات فيما يتعلق ببدء ظهور الزراعة ،
فن الممكن إذا ما ألقيت بذور فوق كومه من فضلات عضوية أو فوق جسم
مدفون أن تنمو نموأ حسناً . وقد عرف عن بعض الجماعات التي لا تعرف
الزراعة أنها تنظف الأرض حول الأشجار ذات الفائدة الغذائية لها ، ويمكن
الغذاء الذى تقدمه النباتات فى جذورها الدرنية الكبيرة أو فى أوراقها
أو أعضائها أو ثمارها أو بذورها . إلا أن أهم غذاء نباتى عرف حتى الآن
هو الحبوب ، ومعظمها من عائلة الحشائش . وتشمل نباتات الحبوب القمح
والشعير وأنواع الدخن المختلفة والشيلم والشوفان والأرز والذرة .

والذرة هى الحبوب الخاصة بالعالم الجديد ، ولا يزال وطنها الأصلي
موضع نقاش حتى الآن . ومن الممكن أن تزرع بنجاح دون الحاجة إلى فأس ،
كما أن العالم الجديد كان يفتقر إلى حيوان جر المحراث .

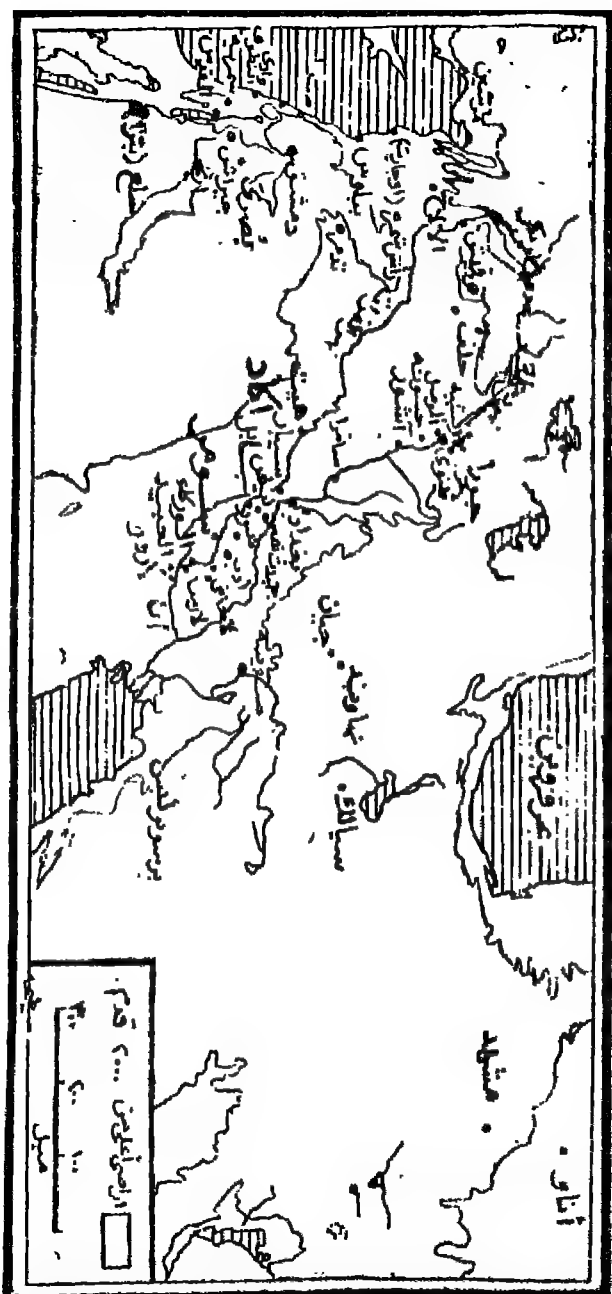
وكان الأرز يزرع فى الصين شمال نهر اليانجتسى منذ أوائل الألف الثانية
ق . م ومن المحتمل أن هذه الزراعة ترتبط بالفأس الحجرية التى تشبه الإزميل
ذات المقطع المستطيل ، وهذه الفأس ذات أهمية كبيرة فى الهند البعيدة ، ومن
ثم انتشرت غرباً إلى أسام وسانتال بارجاناس وتشوتانا جهور حوالى الألف
الثانية ق . م . ومن المحتمل أن زراعته انتشرت من الهند البعيدة أو من جنوب
الصين إلى الهند ، إلا أننا لا نستطيع أن ننفي احتمال الهند كوطن أصلى للأرز .
وقد ظهر استعمال الشيلم والشوفان كغذاء فى أوروبا فى أوائل عصر الحديد ،
ويبدو أنهما كانا إضافتين متأخرتين للنباتات المزروعة ، أما الدخن فقد زرع
فى وقت مبكر فى شمال الصين ، ومن ثم انتشر وثبتت جذوره فى وسط الهند ،
أو ما كان يعرف من قبل بالمقاطعات الهندية المتحدة ، كما زرعت فى وسط
الدكن ، ولكن ليس لدينا أدلة قبل التاريخية مباشرة عن زراعة هذا النبات
فى الهند . وتزرع الذرة الرفيعة فى مساحات واسعة من مصر وسوريا ،

كما تنتشر في جنوب بلاد العرب حيث توجد كمحصول ثانوى ولكنها المحصول التقليدى في أفريقية جنوب الصحراء الكبرى وفي الحبشة . وعلى العموم ، إذا أردنا أن نفرض وطناً أساسياً للذرة الرفيعة والدخن فإننا نقترح أن تكون هذه الحبوب قد عرفت في جنوب غرب آسيا أو مصر مع القمح والشعير ومن ثم انتشرت فيه كل مكان منذ عهد بعيد ، ولكنها احتلت مكاناً ثانوياً بجانب القمح أو الشعير أو الأرز في الأماكن الصالحة لنمو كل من هذه المحاصيل . ونستطيع أن نفترض — حسب درجة علمنا في الوقت الحاضر — وطنين أو ثلاثة أوطان أصلية لنشأة زراعة الذرة الرفيعة ، ونحن لا نعلم لماذا كانت أسبق في الظهور من غيرها في شمال الصين وإن كان المعروف عنها أنها تستطيع أن تتحمل تغيرات فصلية كبيرة في المناخ ولا سيما في كمية الأمطار الساقطة ، ولكن الذرة الرفيعة والدخن بأنواعها أقل قيمة كغذاء من الشعير أو القمح .

وقد عرف نمو القمح والشعير كأعشاب وحشية في جنوب غرب آسيا ولا سيما في تلال سوريا ، وفي أماكن أخرى من المنطقة الممتدة من تيليقيا إلى شمال فارس .

ويستطيع الشعير أن يتحمل ظروفًا مناخية أوسع مدى مما يستطيع القمح تحمله ، وكان القمح في وقت مبكر من تاريخ الزراعة ينقسم إلى نوعين أساسيين :

نوع *Triticum Monococcum* الذى يحتوى على سبعة كروموزومات ونوع إمر *Emmer* أو *T. Dicoccum* الذى يحتوى على أربعة كروموزوم، ثم عرفت في عصر ما قبل التاريخ مجموعة ثالثة من قمح الخبز *T. Vulgare* يحتوى على واحد وعشرين كروموزوما ، وهو نتيجة تهجين بين قمح إمر وقمح آخر قريب منه ويرى بعض العلماء أن وطن قمح الخبز ربما كان في أفغانستان



مسئلہ (۱۳۱)

جنوب غرب آسيا في التاريخ القديم

أو تركستان والإقليم الواقع بين النهرين والقوقاز . إلا أن الأدلة على ذلك ضئيلة جداً ، ولا نستطيع أن نقول أكثر من أن زراعة قمح الخبز عرفت في أقدم موقع لاناو Anau وفي منطقة حضارة السند .

ونستطيع حتى على ضوء معلوماتنا الضئيلة أن نقدر وجهة نظر المرحوم هارولد بيك منذ ثلاثين عاماً عن سوريا أو المنطقة التي تقع حول مرسين (قيليقييا) حتى مشهد (إيران) كوطن أصلي لزراعة القمح ، وربما خلت بعض الجماعات التي تسكن في هذه المنطقة أو حولها الخطوات الأولى من الجمع والالتقاط والصيد الذي يميز العصر الحجري المتوسط إلى الزراعة المنتظمة . ومن الخطأ محاولة تعيين مكان واحد كوطن أول لنشأة الزراعة . كما أن الأدلة التي يمكن بها تحديد تاريخ نشأتها ضئيلة جداً ، وقد اعتاد الباحثون أن يضعوا هذا التاريخ حوالى ٥٠٠٠ ق . م . إذ أن الدول المنتظمة التي قامت على أساس اقتصاديات الحبوب قد نمت في الآلاف الثالثة ق . م . ولا بد أنه مر وقت طويل تطورت فيه معرفة زراعة الحبوب وتنظيم اقتصادها قبل قيام الدول المنتظمة وهذا التقدير مفيد في الوقت الحاضر ، طالما لم نبالغ فيه .

وجدت الأستاذة دوروثي جارود في كهوف وادي الناطوف ، بجبل الكرمل أدلة على وجود شعب ترك الات خاصة بالصيد . ولكنها ترك أيضاً آلات صوانية يمكن أن تثبت في تجويف قطعة عظم ، وكانت هذه الآلات الصوانية مشرشرة ولكنها بليت بعد طول الاستعمال ، ولا بد أنها كانت تستعمل كمناجل لقطع أعواد الحشائش الغنية بالسيليكا . وكانت بعض أيادي المناجل مزينة بنقوش حيوانات محفورة فيها ، ووجدت أيضاً حجارة رحي كما وجدت حفراً في الأرض لحزن الحبوب ، ولذلك فعلى الرغم من أننا لسنا متأكدين ما إذا كان هذا الشعب قد عرف أكثر من مجرد حصد أعواد القمح البرية ، إلا أنه من المحتمل أن يكون قد عرف الزراعة أيضاً .

ولم يترك شعب جبل السكرمل القديم هذا أية أدلة على استئناس الماشية أو الضأن أو الماعزه رغم أنه وجد عدد معين من عظام الحيوانات المتوحشة .

وجدت دكتورة كينيون Kenyon حديثاً (١٩٥٢-١٩٥٣) في أريحا محلة للزراع القدماء ، دون أن تجد فيها فخاراً ، وإن وجدت تماثيل بدية لرهوس وتعرف الزراعة دون الفخار في أجزاء عديدة من جنوب غرب آسيا . وترى كينيون أن ما وجدته في أريحا لا يدل فقط على بدء الزراعة بل على بدء الحياة المدنية ، على أنها قديمة العهد ترجع إلى بعد الألف الخامسة ق . م بكثير .

وتظهر حفائر حسونة ، على الجانب الغربي لنهر دجلة وغدير بعيد من نينوى (التي قامت فيما بعد بكثير) معالم قديمة لنو الزراعة . فقد وجدت في الطبقات السفلى للتل بقايا مواقع وحفر كان القمح يطحن فيها برحى حجرية مع Hoe مع بقايا بيتومين كان يستعمل في إلصاقها بأيد خشبية . وهناك فروق ثلاثية بين آثار تل حسونة وآثار الناطوف ، فألات الصيد التي وجدت في وادي الناطوف لا تشبه لها في تل حسونة ، بينما وجدت في حسونة بقايا ماشية وضأن وماعز ، وأوان مزينة بخطوط مخرزة .

وتعتبر سيالك في إيران ، شرق سلاسل جبال زاغروس ، محلة قديمة أخرى للزراع الأوائل الذين استأنسو الضأن أيضاً . فوجدت هنا أفران وفتوس يدوية من الحجارة ، وفخار . إلا أن هذا الفخار كان ملوناً بأشكال سوداء ، مما يدل على أنها كانت توضع في الآتون ، بعيداً عن لهيبه مباشرة ، كما وجدت عظام بها ثقوب لوضع أسنان من الصوان لحصد الحبوب ، وكانت أيدي المناجل مزينة ببعض النقوش أحياناً .

وجدت إذن في إريحا وحسونة وسيالك أدلة على الزراعة القديمة ، كما وجدت بعضها أدلة على ما صاحبها من تقدم الآلات التي استخدمها الزراع .

وربما كانت الفئوس الحجرية المصقولة ذات الحافة القاطعة تراثاً من عهد سابق، ولكنها كانت تستعمل لحذش الأرض مثل السلوكه Hoe في الوقت^(١) الحاضر . وليس لدينا أدلة عن ظهور الفخار في مراحل الزراعة المبكرة في الشرق الأوسط ، إلا أن ليكي وجد في أحد كهوف أواخر العصر الحجري القديم في كينيا سلالا مبطنة بالطين وعروقة بالنار إما عن قصد أو دون قصد وبذلك أصبحت صلبة . وأصبح من الممكن تخزين القمح في بدء عهد الإنسان بالزراعة ، عندما كان يسكن محلات مؤقتة لديه ، وبذلك انتقل الصلصال إلى فن الفخار على يد النساء . وإن قبول فكرة بذر البذور في الأرض والانتظار فترة من الزمن حتى تنمو وينضج المحصول ، لا يدل على إطالة فترة مكوث المجتمع في قطعة أرض واحدة ، أكثر من فترة مكوثه وهو يعمل بالصيد فقط ، بل قبول عمل منظم تترتب عليه مسئوليات معينة ، ونشاط فصلي في العمل ، وزيادة التنبؤ بكمية المحصول . وبذلك بدأ الإنسان ينظر إلى الأمام ويتدبر غده كما يستفيد بأمسه ، بطريقة منظمة ، أكثر مما كان يفعل من قبل . وأصبح إهمال جزء من العمل المنظم الرتيب الفصلي أمراً ذا بال ، لا يلو من الكسول إلا نفسه إذا ارتكبه . وهذه هي المرحلة التي صورت بشكل مسرحي في أسطورة سقوط الإنسان Fall of Man . وعلينا رغم قلة معلوماتنا أن نقدر عمل المرأة في إرتيادها عالماً جديداً من النشاط الاقتصادي ، وهي تحاول فتح ميادين جديدة في التغذية ، وتحطم عادات الماضي وقيوده وتقدم طرقاً

(١) صقل الآلات الحجرية ، قدم للإنسان حرية الاختيار من بين عدد من المواد ، مثل البازلت والعقيق والديوريت والسينيت . . إلخ . ومن ثم لم يكن مضطراً للسكنى بالقرب من مناجم الصوان والقشور واستطاع الإنسان أيضاً أن يصنع ساقين من الحجارة ، ذات حواف مصقولة مستوية ، ويستطيع أن يحفر في هذه الحجارة النارية الصلبة لتثبيت يد خشبية أو نحو ذلك .

جديدة في إنتاج الطعام ، وربما تحدث بذلك محرمات قديمة ثابتة الأصول ، كما قد تدل عليها قصة حواء (١) .

تدل آثار وادى الناطوف على أن الزراعة بدأت قبل الرعى ، كما تدل آثار حسونة وسياك أن الرعى أضيفت إلى المراحل الأولى للزراعة ، كعمل إضافي ، حيث وجدت أراض صالحة له وكانت الضأن أهم حيوانات الرعى هذه ، وتشتمل أنواعها على غنم الموفلون Mouflon في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وجنوب غرب آسيا . و غنم الأوريال Urial على حدود مناطق العيش الواسعة في الأراضي الداخلية من غرب آسيا ، والأرجال Argal من بلاد مونغوليا . وجدير بالذكر أن غنم سوى التي سميت على اسم إحدى جزر الهبرديز ترجع بأحد أصولها إلى نوع الموفلون وبعض أنواع الأغنام الأوربية والبريطانية الحديثة ذات أصول ترجع إلى نوع الأوريال ، حيث أن أغنام الاستبس الآسيوية قد دخلت إلى وسط أوربا وغربها في أعداد كبيرة أثناء عصر البرونز الأوربي . وكانت الماعز والماشية تعيش طليقة وحشية على سفوح جنوب غرب آسيا وبذلك أصبحت الضأن والماعز مهيئة للاستئناس في هذه المنطقة . ويبدو أنها استؤنس أولاً للبهنا ولحومها ، ثم استخدمت للعمل بعد ذلك بوقت طويل . وربما بدى باستئناس الحيوان الرضيع أولاً

(١) يبدو من السياق أن الأستاذ فليز يرى أن قصة خروج آدم من الجنة نتيجة تناوله الثمرة المحرمة من حواء تنطبق على الكشف الأثرية والتطور الحضارى الذى انتقل بالبشرية من الصيد والجمع والالتقاط إلى الغذاء النباتى ، أو الزراعة التى ساهمت المرأة مساهمة كبيرة فى اكتشافها ، وهذا مجرد حدس من قبل المؤلف ومحاولة تفسير قصة آدم وحواء تفسيراً أثرياً ولا علاقة لها مطلقاً بالكشوف الأثرية أو البحث عن أصول الزراعة فالحدس والتبصير شئ والحقائق العلمية الأثرية شئ آخر . وللقارىء الحرية فى قبول أو رفض حدس المؤلف (المصرى)

وبذلك استدرجت أمه لى ترضعه ، فحبست فى حظيرة طينيه حتى تم استئناسها وكانت تطلق فى مواعيد خاصة حتى يلقحها الذكر (الوحشى) ثم تعود لتلد . أما الثور وذكر الحيوان عمرماً فلم يستأنس إلا بعد مجهود كبير .

وهناك أدلة من تل حسونة وسياك وأريحا على نمو المدينة بعد ذلك نمواً كبيراً . وكان أهم معالم ذلك تشييد المنازل القوية ، من الطين المجفف فى الشمس حيث قامت الزراعة ، وفى غيرها من الأماكن . وقد وجدت فى حسونة آثار موافد وأوانى كبيرة للتخزين ، كما وجدت فى سياك قليل من القطع النحاسية الصغيرة ، التى كانت تصهر — بلارب — فى الموقد .

بناء أكواخ كى تسكنها أسرة باستمرار ، دليل على وجود الأسرة أو العائلة داخل المجتمع ، كما أنها دليل على ظهور فكرة الملكية ، بل وعلى ظهور فروق بين بيت العامل الماهر والعامل غير الماهر . وكانت الجدران الطينية تنهار فى معظم الأحيان ، بعد وقت من الزمن ، ثم يعاد بناء المنزل فوق أنقاض المنزل القديم ، وبذلك تحولت المحلة إلى تل صغير . فأصبح هذا فى حد ذاته أمراً هاماً . لأنه مكن من قيام المحلة على حافة السهل الفيضى ، بعيداً عن مستوى الفيضان ، الذى يحدد بدوره خصب التربة .

السكنى الدائمة فى مكان واحد ، واستخدام فتوس الصخر المصقولة ، التى يمكن أن تستعمل كأزميل ، أعطى الإنسان مقدرة جديدة فى فن النجارة ، وبعد أن أضيف إليها التعدين ، أصبح لدى الإنسان مقدرة أوسع فى استعمال أدوات أكثر عدداً ووفرة من ذى قبل . وأصبح طهو الطعام من معالم الحياة المنزلية ، لاسيما بعد أن تهاى لكل منزل فرن أو موقد خاص . وبذلك قلت حاجة الإنسان إلى فك قوى لمضغ اللحم أو الجذور النيئة . غير أن الأسنان كانت قد بدأت فعلاً فى التضائل ، ونحن لانستطيع — حسب درجة علمنا أوجهنا الحالية — أن نبين العلاقة السببية بين الأمرين . وليس برهان على

انتقال الصفات المكتسبة من الوالدین إلى أبنائهما بالوراثة . كما إننا لا نعرف إلا القليل في الوقت الحاضر على تأثير الهرمونات على النمو .

ومن المحلات الزراعية أيضاً ، مرسین فی قیلقیا ، ورأس الشجرة على الساحل السوري ، ومحلة فی برسیبولیس جنوب غرب ایران ، وأقدم أدلة العمران فی نینوی ، وفي جیان بالقرب من حدود ایران الغربية بالقرب من نهاوند وجوارا شمال نینوی بقلیل . وقد حفرت فی نینوی حفرة عمقها ٧٠ قدما تحت أرضية المعابد التي شيدها مانشستوسو حوالي ٤٥٠٠ ق.م ، ووصل الحفر إلى بقايا قرية قديمة (نینوی ١) وتدل هذه الحفائر على زراعة الحبوب وصناعة الفخار المحلاة بالخطوط المحرزة أو المضغوطة وفوقها آثار (نینوی ٢) التي تمتاز بنفس الفخار ، ثم (نینوی ٣ ب) الذي يمتاز بفخار مطلي باللونين الأسود والبني . وقد ازداد العمران فی هذه المنطقة (مرسین - مشهد) مع مرور الزمن ، ولا تزال آثار بعض محلاتها تحتاج لمن يكشف عنها . وعلى العموم فقد كان الناس فی هذه المحلات يصنعون الفخار . ويجب أن نتذكر أنه لا بد من حرق الفخار فی موائد مقفلة ، حتى يمكن أن يصبح مصقولاً معداً للطلاء . أما الفخار غير الجيد فهو الذي يحرق فی موائد مفتوحة . ويعتبر تطور الموائد ، إحدى خطوات الصناعة الهامة التي رافقت زراعة الحبوب فهذا أدى إلى تطور وانتشار الفخار المطلي ، ومن ثم إلى ظهور التعدين . وبينما كانت صناعة الفخار اليدوي من عمل المرأة ، وذلك قبل اختراع عملية الفخار ، إلا أنه من المحتمل أن تكون أنماط تلوين الفخار من السمات التي تميز كل مجتمع على حدة إذ لم تكن المرأة واسعة الأسفار حتى يتسنى لها أن ترى أشكالاً جديدة أو تصميمات مبتكرة مختلفة عما تقوم بصنعه .

وكان الطلاء الذي يزين الفخار الموجود فی نینوی ٣ ب أكثر دقة من

ذى قبل كما عثر على أوان حجرية وعقود من أحجار شبه كريمة مثل العقيق، والفيروز واللازورد بما جلبته التجارة وربما جلب اللازورد من بامير وبادكشان (شمال شرق أفغانستان) .

ويعتبر تل حلف ، بالقرب من حدود العراق وسوريا وتركيا موقعا له أهمية خاصة . فقد كانت القرية القائمة عليه مكونة من مبان طينية (وربما من اللبن الأخضر) ذات حوائط مستقيمة ، تحدد طرقا معبدة بالحجارة وكان السكان يزرعون قح إمر ، والشعير ويصنعون فخاراً جيداً مطلياً باللونين الأحمر والأسود ، وكان للأواني لمعان خاص ، كما لو كانت السليكات المستعملة في طلائها مزججة . ويدل تصميم الطلاء على هيئة مربعات على أن السكان عرفوا نسج الحصر والسلال ، إلا أن شكل الأواني لم يشبه السلال .

ووجدت بعض تصميمات حيوانية وربما قامت حلف في نفس الزمن الذى نشأت فيه نينوى ٢ ب .

أما فى سامرا ، إلى الجنوب من تل حلف ، فقد كان لون طلال الأواني أسود فقط ، ويبدو أن هذه الأواني كانت أقدم بقليل من أواني تل حلف . إذا كان لنا أن نحكم من وجود طراز سامراً فى طبقات تقع تحت الطبقات التى وجدت فيها أواني تل حلف فى جزء من حسونة .

ذكرنا من قبل وجود أشياء نحاسية فى سيالك ترجع إلى أوائل عهد الاستقرار الأول فى هذه المحلة ، (سيالك ٢) كما وجد مزيد من المعدن فى تل حلف . وكان النحاس أقدم المعادن التى استعملت ، رغم أن الذهب كان يضارعه فى القدم . ويوجد النحاس فى مواضع عديدة أحياناً على شكل كتل وأحياناً أخرى على شكل عروق فى الصخر ، وأحياناً فى الحصى إلا أن خام النحاس ليس سهل الاستعمال فسرعان ما يتحول إلى مادة هشة إذا طرق .

وقد لفت كوجان الأنظار إلى ضرورة صهره ثم تبريده ببطء ثم صهره مرة أخرى إلى درجة حرارة ٨٠٠ °م حتى يمكن استعماله . إلا أن الوصول إلى هذه الطريقة كان يقتضى القيام بعدة تجارب . وقد استعملت بعض خامات النحاس مثل كربونات النحاس (الملاكيث) في وقت مبكر جداً . أما سلفات النحاس فكانت أصعب في الاستعمال . وكان استخدام الموقد من أعمال التعدين بعد استخدامه في حرق الأواني ، والبحث عن الحام ، وفهم طريقة صهره ثم تبريده ثم صهره مرة أخرى وهى خطوات متوالية في عملية تعدين النحاس ومن ثم فأننا نفترض أن استخدام النحاس قد سبقته مرحلة انتقالية طويلة . ولما كان خام النحاس يوجد في الجبال حول منطقة ديار بكر قرب الفرات الأوسط قبل أن يهبط من الجبال ، فمن المحتمل أن تكون أعمال التعدين الأولى قد تجمعت في المنطقة التي عرفت زراعة الحبوب في شمال العراق وربما في إيران أيضاً . وكان صهر النحاس وليس الذهب وإسالته وصبه في قوالب وإعداده للصناعة اختراعاً آخر ، احتاج إلى التغلب على بعض المشاكل الجديدة

يبدو لنا - في الوقت الحاضر - أن المنطقة التي تتكون من سفوح وضياف الأنهار وتقع ما بين مرسين في قيليقية إلى قرب مشهد في شمال شرق إيران كانت ذات أهمية خاصة لزراعة الحبوب الأولى ، ولنشأة مواطن الاستقرار الثابتة ، ولبدء التعدين فيما بعد بعدة قرون ، ولا نعرف ما إن كان شق القنوات لأجل الري عرف في هذا المكان أيضاً أم لا .

وإن كان هذا محتملاً ، إذ أن هذه المنطقة تهبط بسرعة من سفوح الجبال وتتشرب مياه فيضاناتها في السهول أسفل منها .

كان الرأي السائد أن العراق الأسفل قد تكون في الغالب من رواسب

حديثة تمتد جنوباً من خط ساحل البلايستوسين الذى افترض مروره عند هيت ، والذى يبعد عن خط الساحل الحالى بنحو ٣٥٠ - ٤٠٠ ميل نحو الشمال . وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن سلاسل الجبال الحديثة التى تقع عند الحدود الإيرانية كانت ترتفع من وقت إلى آخر وأن الانخفاض الذى يقع بين هذه الجبال وبين كتلة بلاد العرب القديمة قد هبط ، وهذا الهبوط أعطى مجالاً لنشاط الترسيب كى يملأه ، وربما كان ذلك راجعاً أيضاً إلى ارتفاع مستوى البحر بعد ذوبان جليد البلايستوسين ، وكان هناك تراوح بين الترسيب والطفوفان من حين إلى آخر فى العراق والخليج العربى (الفارسى) وهذا أدى إلى اختلاف مستوى البحر وخط الساحل ولكنه لم يبعد عن مستواه الحالى خلال عصر البلايستوسين والأزمة الحديثة . وقد عانى العراق الأدنى من توالى الفيضانات النهرية منذ عصر البلايستوسين ، ولا يمكن التقليل من خطر الفيضانات العامة ، وإن كان لذوبان الثلوج المفاجئ فى جبال أرمينيا نتائج مخربة .

وقد أدت الفيضانات إلى تكوين مستنقعات وبحيرات ضحلة وتغيير مجارى الأنهار ولذلك لم تكن بيئة العراق مهيأة لنشأة الزراعة الأوائل قبل أن يتعلموا فن حفر القنوات لتوزيع مياه الرى . وقد سهل هذه العملية جريان الفرات أحياناً على مستوى أعلى أو مستوى أقل من مستوى نهر دجله . وليس من الحكمة أن نحاول تقدير زمن الطوفان الذى حدث فى عهد نوح .

تقع سوسا القديمة على حافة المستنقعات ، وربما كانت نشأة تلك المحطة مقترنة بالمحاولات الأولى لضبط السهل الفيضى واستخدامه . وهناك أدلة كثيرة على ذلك جمعت من العبيد على بعد بضعة أميال من محلة أور القديمة . وقد جاء السكان الذين قاموا بتلك الجهود من شمال العراق وحملوا معهم

الفخار الملون ، ولكنهم - كما يبدو لم يحملوا معهم أدوات معدنية ، رغم أن سكان سيالك ٢ المعاصرة للعبيد وسوسا قد عرفوا المعدن وإسألته وصبه وقد قامت العبيد على بقعة جافة ، كانت في الأصل بحيرة قديمة امتلأت بالرواسب والأعشاب . وقد عرف أهلها الفخار الملون المصنوع باليد ، والقنوس الحجرية ، وزرعوا الشعير الذي كانوا يحصدونه بمناجل فخارية . وعرفوا القليل من النحاس ، وشمقوا القنوات محاولين ضبط الفيضانات بعض الشيء . وقد استمرت بلدة العبيد قائمة أكثر من قرنين أغرقها طوفان كبير ترك رواسب من الطين بلغ سمكها ١١ قدماً ، إلا أن سمك هذا الطمي يقل بالتدريج كلما اتجهنا شمالاً . ثم عاد السكان ثانية من شمال العراق بعد انتهاء الطوفان الذي يؤرخ بحوالى ٤٠٠٠ ق.م وتعرف المرحلة الثانية بمرحلة الوركاء. Uruk, Erech^(١) التي قامت على أساس حضارة العبيد ، ثم أضيفت إليها عجلة الفخارى ، وصناعة المعدن . ويمتاز فخار هذه الفترة بتفضيل اللون الأحمر أو البنى البسيط . واستخدمت حضارة الوركاء الحجارة في المباني ، وتقدمت في فن العمارة . ويرى الأستاذ ليونارد وولى أن هذه الحضارة بدأت فن إقامة أعمدة القصب التي تنتهى بعتود من أعلاه ، وأن هذا القصب كان أساس بناء السقف ثم يطلى البناء كله بالطين ، ويفرش بالحصر من الداخل . وكانوا أحياناً يستعملون جذوع النخيل بدلا من القصب كأعمدة ، ولما شاع استعمال اللبن الأخضر في البناء ، أدخل في تشييد الأعمدة ، وإن ظلت تحتفظ بتقليد جذوع النخيل . وقد استعملت حضارة الوركاء نوعاً من الكتابة التصويرية Pictograph حيث كانت تنقش الصور فوق ألواح الطين ثم تحرق في النار وربما سبق ذلك كتابة تصويرية قديمة فوق مادة قابلة للتلف .

(١) قسم ديلوجاز Delougaz فترة الوركاء . كما سماها حسب التسمية العربية ، فوضع أواخر هذه الفترة مع فترة « جدد نصر » معاً وأكد انتشار وسائل الرى التي ربما سببها تحسن في التنظيم الاجتماعى .

مبنى من الأسيرة الأولى
عكر (٣٧)



ولابد وأن الزراع الأوائل قد عرفوا قيمة استخدام الحيوان في أعمال الحقول . وكان لابد لذلك من التغلب على بعض العقبات ، فإذا كانت البقرة تستخدم في الجر أثر هذا في مقدار اللبن الذي تدره ، وبذلك يتأثر وليدها . ومن ثم كان لابد من استخدام الثور ، وهو حيوان قوى الشكيمة ، وقد حل الإنسان هذه المشكلة بخص العجول الصغيرة ، وبذلك تنمو قوية صبورة على العمل . وأدت هذه العملية إلى تقليل ما كان يفقد من قبل نتيجة قتل العجول الذكور المشاكسة في القطيع ، كما أدت إلى استخدام الثيران القوية في الجر ، رغم بطء حركتها . ثم صنع النجارون المحراث ذا النصل الحجري ، بوضع فصل من الحجارة في آخر المحراث ، ثم استبدل به نصل معدني ، وهذا أفضل من السلوك الحجري .

وكان على الزراع العراقيين أن يمنعوا سطح التربة من أن يجف ويتحجر ويتشقق بعد كل فيضان سنوي ، يحدث على أثر ذوبان الثلوج في الربيع ، ثم يتلوهم الصيف بجفافه . ولذلك استخدموا الثيران في جر المحارث ، التي تشق الأرض مرة بعد أخرى في كل عام . إلا أن الطمي الذي يجلبه الفيضان سنوياً يضيف تربة جديدة غنية بالمواد العضوية ، ولذلك يمكن قيام الزراعة في نفس المكان عاماً بعد عام إلى ما شاء الله وكانت الفأس أيضاً أداة ذات فائدة كبيرة لحث الأرض .

ولا نعلم علم اليقين متى بدأ استخدام المحراث أو خص الثيران وإن كانا خطوتين كبيرتين في تقدم المدنية الزراعية . ولا ريب أن هذا بالإضافة إلى الري على نطاق واسع قد ساعد على قيام المدنية الزراعية في تل حلفوشمال العراق وسومر وإن كنا نحتاج إلى مزيد من البرهان على ذلك . وعلى كل فمن الصعب تصور حضارة الوركاء دون المحراث ، ومن ثم فلا بد وأن عمر المحراث يرجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد على الأقل ، وربما كان أقدم من ذلك

أيضاً . وربما عرفت حضارة العبيد المحراث إذ كانت تعرف استئناس الأغنام والماشية والخنازير ، وكان أهلها يزرعون نخيل البلح والحبوب .

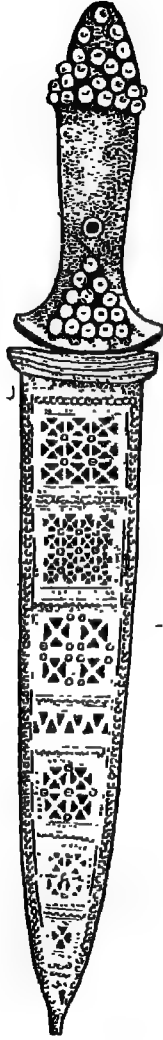
ويرى بعض دارسى حضارة الوركاء أنها قد وفدت على يد شعب جديد مهاجر وليست استمراراً لحضارة العبيد القديمة ، لأنها تمتاز بصفات مميزة خاصة عديدة . وهناك شئ من الحقيقة في كل من وجهتي النظر هاتين ، إذ أن الفخار الرمادي الذي يميز حضارة الوركاء ينتشر في تركستان وإيران ومن ثم إلى السند ، بل ووصل فيما بعد حتى الصين .

ولنا أن نضيف بعض الملاحظات فيما يتعلق بآناو في تركستان ، وإلى الشرق من بحر قزوين وشمال حدود إيران . فأهل آناو قد زرعوا قمح الخبز من عهد بعيد ولكن مراحل الزراعة الأولى لديهم لا تدل على أنهم عرفوا استئناس الحيوان ، رغم أن الماشية ذات القرون الطويلة وذات القرون القصيرة قد عرفت عندهم فيما بعد ، إلى جانب الخنازير والأغنام ذات القرون الطويلة والقرون القصيرة . ثم استعملوا النحاس في طور متأخر فيما بعد ، وعرفوا استئناس الأغنام (من نوع لا قرون له) والكلب وربما امتازوا أيضاً باستئناس الجمل . وكان الفخار الأحمر والرمادي يصنع في هذه الفترة المتأخرة كما كان يصنع من قبل ، أى كان يطلى بأشكال تقليدية سوداء فوق الأرضية الحمراء الفاقعة .

وقد تقدم فن التعدين وفن الزراعة وصناعة الفخار معاً ، فاختراع الفرن الذي تمكن به الفنان من صناعة فخار أفضل من ذلك الذي يحرقه في موقد مكشوف ، ممكنه من تلوينه ورسم أشكال عليه . كما أن الفرن ساعد على اختزال بعض خامات النحاس ، وكان لذلك نتائج مختلفة ، فقد أصبح واضحاً للإنسان — مع مرور الزمن — أن النحاس المختلط بذرات القصدير

(الكاسيتريت Casséterite) أفضل من النحاس الصرّف . فهو لا يصبح إسفنجياً بالحرارة ، ويمتاز بأنه أشدّ صلابة من النحاس الصرّف ، إذ أنه يصبح برزاً من السهل تشكيكه ، وشحذه ، وإن كان سرعان ما تلم حافة سلاح البرونز بالاستعمال ، وقد حصل الإنسان على نتائج هامة عندما تعلم صهر خليط النحاس والقصدير في أفران مرتفعة الحرارة (١١٠٠ ° م) وإسالة السبيكة المصهورة وصبها ، وكان الفنان يلجأ إلى الشمع فيصنع منه نموذجاً للشكل الذي يريد صبه بالبرنز ، ثم يضعه في الصلصال الناعم ويزج به في الفرن ، فيسبل الشمع من ثقب صغير ترك لهذا الغرض تاركاً مكانه شاغراً ، لكي يصب فيه سبيكة البرنز ، وكان الفنان يصنع النموذج الشمعي من قطعتين ، حتى يستطيع أن يفكهما ويستعملهما عدة مرات طبقاً لرغبته . وقد تطورت هذه الطريقة المعروفة في الوقت الحاضر بطريقة الشمع *Cire perdue* على أيدي الصناع في جنوب غرب آسيا ، من الألف الثالثة قبل الميلاد ، واستطاعوا أن ينتجوا أدوات برنزية متعددة الأشكال لمختلف الأغراض ولم تصل مدنية السند إلى ما وصل إليه جنوب غرب آسيا ، كما أن صناع البرنز الأوروبي لم يصلوا إلى درجة إتقان صناع جنوب غرب آسيا ، وإبداعهم إلا بعد ذلك بعدة قرون ، وسنشير في الفصل الخامس بالصين إلى مهارة الصينيين الكبيرة في صناعة البرنز ، ومقدرتهم الفائقة في صب أشكال برنزية دقيقة خلال الربع الأخير للألف الثانية ق.م. وإذا كانت شمال الصين قد بلغت درجة فريدة في صب آيات البرنز الممتازة ، فإن بلاد جنوب غرب آسيا ومصر وكانت وطن صناعة البرنز الأول ، حيث اكتشفت طرق صناعته الأولى . وقد توفر لمصر خام الملايكت (كربونات النحاس) في سيناء . كما توفر للعراق النحاس والقصدير في تلال شرق الأناضول ، بالقرب من ديار بكر . كما أنها حصلت عليه من ماجان ، التي يظنها المستريك عمان في جنوب شرق بلاد العرب . ونحن نشك في استمرار تدفق النحاس والقصدير

باتنظام إلى مركز الصناعة السورية والعراقية مما
أضطر السكان إلى الالتجاء إلى الصخر مرة بعد
أخرى يصنعون منه أدواتهم .



شكل (٣٣)

خنجر على باللازورد
والذهب ، الخنجر وغمدته
من الذهب أيضاً

البحث على النحاس والقصدير ، وجلبها إلى
مراكز للصناعة ، وتنمية المهارة الفنية في صنع
نماذج الشمع ، وفي تشكيل القوالب ، كلها تدل على
أن فن صناعة البرز كان إضافة كبرى للمهارة الفنية
والتنظيم التجارى والبحث عن المعدن لدى هؤلاء
الناس .

انتهت مدينة الوركاء فجأة على يد غزاة نعرفهم
من محلة جمدت نصر . حيث نجد الفخار يختلف
اختلافاً كبيراً عن فخار الوركاء ، ويمتاز باللون
الأحمر الغامق المزين بنقوش سوداء . ويرى
الأستاذ دولى ، أن غزاة جمدت نصر قد قدموا
من الخليج الفارسي ، ولا نريد أن نؤمن في
الحديث والتخمين ، وزى في هذا الفخار
حلقة اتصال بالفخار الأحمر الذي كان
يستعمل في شمال بلوخيستان قبيل المدن السندية
أى من وقت قريب من وقت قيام جمدت نصر ،
وكان هؤلاء الغزاة مهرة في صناعة القواقع الكبيرة ،
كما كانوا يصنعون أوانيهم من الصخر ،
مستخدمين الحجر الجيري والكالسيت الشفاف
والستيتايت ، وهم في هذا يختلفون عن مصريين
بالأسرات الأولى الذين كانوا يصنعون الأواني

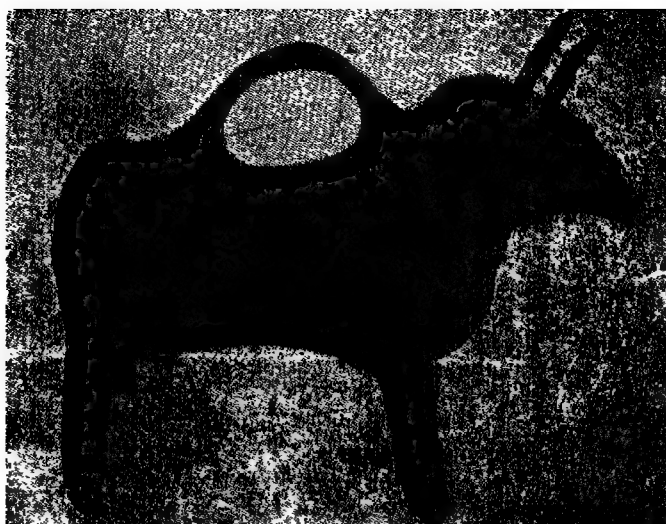
من الصخر الناري والالباستر (المرمر المصرى) ، إلى جانب الحجر الجيرى .
كما أنهم عرفوا نوعاً من الكتابة هو عبارة عن خطوط محفورة في ألواح
الصلصال ، وربما كانت هذه خطوات سابقة للخط المسهرى أو الإسفينى .
ويبدو أن الغزاة قد أفلحوا في إخضاع مساحة كبيرة من الأرض ، وبذلك
وضعوا حداً لفترة العمران البشر القديم الذى كان يمتاز بالافتقار الذاتى
بل وبالاتقلال الذاتى إلى حد كبير . غير أن حضارة الوركاء عادت فأكدت
نفسها مرة أخرى وطردت الغزاة وامتاز الفخار الذى تركته بعد ذلك بأنه كان
بسيطاً ذا لون أسود أو أحمر إلا أن الكتابة الخطية التى تركها الغزاة بقيت
بعدم ، كما بدأ النزاع حول بسط النفوذ بين المحلات المختلفة ونشطت التجارة .
ووصلت فترة التوسع الكبير أقصاها حوالى ٣٠٠٠ ق . م . وقد وجد « دولى »
في المقابر الملكية بأور أدلة على قيام حكام محليين لم يستطيعوا بسط نفوذهم إلا
على مساحات محدودة ، وهذه الأدلة معروفة ومشروحة في كتب كثيرة ولا داعى
لبسطها هنا . وهى تمتاز بالمصنوعات الذهبية والأدوات المصنوعة من الأحجار
نصف الكريمة ، منها أحجار اللازورد المجلوب من بامير وهذا بدوره دليل
على انتشار مدى التجارة . وأعجب تلك الآثار مقبرة الملكة شوباد البديعة .
حيث نجد بقايا الوصيفات والخدم الذين لحقوا بها لخدمتها في العالم الآخر ،
ووجدت بجانب كل جثة من هذه الجثث كأس السم الذى تناولته صاحبه . وتدل
هذه المقبرة على وجود نظام اجتماعى طبق (هيراركى) دقيق وتلت ذلك أسرة
« أور » الأولى (حوالى ٢٨٠٠ ق . م .) عندما احتلت مدينة الميناء مركز الزعامة
في العراق ، وكانت تلك الأسرة تستعمل عجلات حربية تجرها الخيول ويبدو
أن العجلات كانت عبارة عن أسطوانات صلبة من الخشب (تتكون كل منها
من نصفى أسطوانة مركبة فوق محور العربة) . وتدل الأبحاث الحديثة على
أن « أور » القديمة كانت تقع على نهر صغير أو جدول ، وإيسست على ساحل
الخليج تماماً كما كان يظن من قبل .

كانت الفترة التي تقع بين عامي ٢٨٠٠ - ٢٣٠٠ ق. م. بالتقريب ، كما يبدو فترة تمتاز بازدهار والتوسع الاقتصادي عامة ، وقد توج هذه الفترة ظهور سارجون الأكادي والغازي المنظم قرب انتهائها أي حوالي ٢٣٥٠ ق. م. بالتقريب ، ويبدو أيضاً أن ملك سارجون قد امتد شمال سومر وغربها ، أي من جارتها الشمالية أكاد إلى سواحل الإسكندرونة على البحر الأبيض المتوسط - وقامت في هذه الفترة مدينة الميناء أو جاريت (رأس الثمرة) وميناء بيلوس التي كانت تتاجر مع مصر وغيرها من الأقطار .

كان السير « ليونارد وولي » يحفر حديثاً الألاخ ، وهي خرائب عاصمة إحدى دول الاصطدام الصغيرة بالقرب من خليج الإسكندرونة . ولهذا العمل أهمية خاصة لأن العراق وبلاد الميناتي وسوريا ومصر والأناضول كانت على صلات تجارية مع الألاخ ، إذ كانت تستورد منها الخشب . ولذلك وجدت آثار من هذه الأنحاء جميعاً في طبقات الألاخ ، وهذا بدوره ساعد على الوصول إلى نتائج حسنة من حيث تعيين عصرها ، رغم أن بعض الآثار - بما لها علاقة بالعبارة - قد تؤدي إلى إفساد التاريخ كله ويبدو أن الألاخ كانت تتاجر مع سومر منذ أوائل الألف الثالثة ق. م. ثم ساعد بعض الفنانين من هذه المدينة على نشأة كنوسوس بعد ٢٠٠٠ ق. م. مباشرة

كما أثرت الألاخ أيضاً على قبرص . وكانت الألاخ تستخدم الميناء كخفر لها .

أصاب الاغتمحلال والتدهور إمبراطورية سارجون بعد وفاته أي حوالي ٢٣٠٠ ق. م. فشملت الفوضى والتخريب أوجاريت وبيلوس وأور وحصارك في آسيا الصغرى . كما سقطت في نفس الوقت المملكة القديمة في مصر (الأسرة السادسة) مما سبب الأسى لشعبها . وليس معروفاً حتى الآن العامل الذي أدى إلى انتشار هذه الفوضى وهذا الخراب . وربما كان السبب



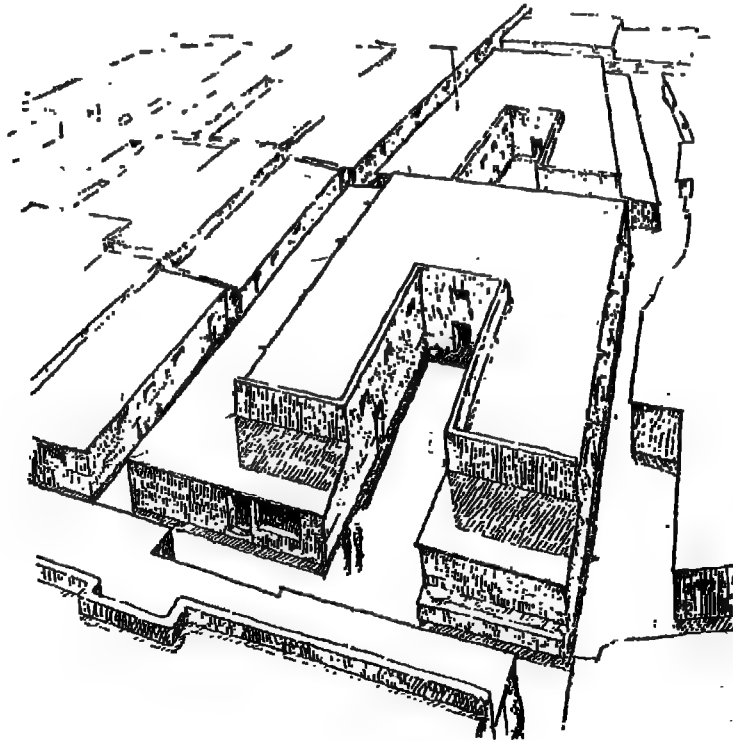
شكل (٣٤)



شكل (٣٤)

نقار من ألالاخ ، به بعض صفات الطراز القبرصي

هو عدم كفاية النظم السياسية الاستبدادية القديمة التي كانت تتخذ من الدين سنداً لها ، أمام مواقف جديدة نشأت من قيام التجارة الواسعة المدى ، مما جعل المجتمعات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها البعض الآخر وأكثر اعتماداً بعضها على البعض ، ومن ثم كان لا بد من قوانين أكثر ضبطاً وإحكاماً من ذى قبل . وكانت وسط آسيا — في ذلك الحين — قد بدأت تستيقظ وتنشط نشاطاً كبيراً داخل نطاقها الحشائش وخارجة ، وسنذكر شيئاً من ذلك في الفصل الخاص بالصين . وربما كان السبب في هذا تقدم صناعة الآلات المعدنية الدقيقة ، مما جعل في الإمكان صناعة العجلات ذات



شكل (٣٥)

مخازن المينا

البرامق الخفيفة ، ومن ثم ازدياد كفاءة العجلات الحربية ، إلا إن هذا جدير بأن يدفع المجتمع إلى فترة من الغزو والفتح والتوسع ، ولا يدفعه إلى التدهور والانحطاط ، وربما كانت وفاة «سارجون» وانهيار إمبراطوريته سبب هذه الفوضى . ويلاحظ من آثار هذه الفترة تغير في طراز الفخار في سوريا وفلسطين ، وانتشار طراز جديد يمتاز بالقاعدة الضيقة والفوهة العريضة بأنه مصقول صقلا تاما، أحمر اللون من الداخل وأسود من الخارج . ويرى بعض الأثريين أن ذلك الفخار دخل مع الغزاة القادمين من شرق القوقاز، وعرف هذا الطراز في خربة السكراك بشمال فلسطين ثم في طيارة غربى خشب .

ومهما كان وجه الحق في هذه المسألة ، فإنه يبدو أن فترة الاضمحلال قد انقشعت، وقامت الأسرة الثالثة في أور ، فترة من الزمن ، بينما نشطت أوجاريت وييلوس مرة أخرى وأنشأتا علاقات تجارية مع الدولة الوسطى في مصر ، كما نشطت حصارلك في آسيا الصغرى ، في فترة كان يطلق عليها فترة حصارلك ٢ ، عرفت بعد ذلك بحصارلك ٣ وقد سبق قيامها حين من الدهر سادت فيه الزلازل وعم الخراب ، وقامت فيه كنوسوس في كريت لتحتل مركزاً ممتازاً في التجارة الإيجية . واضمحلت أور في أوائل الألف الثانية ق.م. وكان في هذا الاضمحلال نهايتها . ويكاد يرتبط هذا ارتباطاً تاماً بامتلاء خليجها بالطمي ، فلم تعد الميناء تقوم بوظيفتها . كما ماتت أيضاً مدينة كيش Kish بسبب تغير في مجرى النهر المتعرج . غير أن بابل — من ناحية أخرى — تطورت إلى أن أصبحت عاصمة مركزية وكان حاكمها — في القرن الثامن عشر ق.م. — هو حامورابي الذي وضعت في عهده القوانين المشهورة ثم تلى ذلك عصر اضمحلال آخر ، عاصره في حصارلك فترة استمرت من ١٨٥٠ — ١٥٥٠ ق.م. لم تترك أى أثر لآى نشاط يعتد به ، وقد مرت أوجاريت بفترة فقيرة مشابهة من حوالى ١٧٥٠ — ١٧٠٠ إلى ١٥٠٠ ق.م .

وكذلك مرت بيلوس بنفس الفترة من ١٧٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. ومن الممكن أن نستطرد في ضرب الأمثلة لهذا الركود من محلات أخرى عديدة في جنوب غرب آسيا . فهذه هي فترة الهكسوس أو ملوك الرعاة في مصر ، وحلت في أواخرها فترة الغزو الهندي الأوربي للهند . أى الفترة التي ظهر فيها البرابرة الغزاة ، فوق عجلات حربية تجرها الخيل وسادوا في كل مكان من حصارلك حتى الهند ، ومن تركستان إلى النيل ، وكان غرضهم أن يتوسعوا وينشروا سلطاتهم كطبقة ارسقراطية حاكمة ، ولكنهم سرعان ما فقدوا صفاتهم المميزة بعد أن تزوجوا من فتيات الأقطار المفتوحة وكان من نتائج غزوهم انتشار الحصان وإدخاله في مصر وأجزاء من جنوب غرب آسيا وإيران و . . الخ . وبدء معرفته صهر الحديد - على ما يبدو - في آسيا الصغرى ، حيث قام به الشالوييون Chalybes وما لبثت أوجاريت وأور أن أفاقتنا من هذه الصدمة حوالى ١٥٥٥ - ١٥٠٠ ق.م. كما أفاق مصر أيضاً التي وجدت آثارها - من عهد تحتمس الثالث . في بيلوس أى حوالى القرن الخامس عشر ق م.

وخرجت مصر من عزلتها القديمة وتحولت من بلد مكتف بذاته إلى قوة توسعية ذات طموح امبراطورى ، وبسطت نفوذها على فلسطين وما وراءها شمالا ، إلا أن هذه الفترة لم تطل كثيراً ، وإن حاول رمسيس الثانى إحياءها في القرن الثالث عشر ق.م. وربما حدث زلزال في منتصف القرن الرابع عشر أدى إلى إشاعة الفوضى والخراب في آسيا وسوريا . وتأثرت بذلك حصارلك وأوجاريت وبيلوس وربما شمال العراق أيضاً .

خلال هذه الفترة الممتدة بين ١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق.م. كانت الأناضول قد وقعت تحت سيطرة الحيثيين الذين استمدوا بلاريب كثيراً من قوتهم وبطشهم من الحديد . وفن صناعة الحديد ، في حد ذاته بسيط ، وما أسرع

أن انتشر إلى شعوب أخرى بعد ذلك . وكانت مصر قد وقعت تحت سلطة كهنة آمون بعد أن قضوا على الفرعون المارق إخناتون حوالى ١٢٠٠ ق.م. وبعد أن انتهت محاولات سبتي الأول ورمسيس الثانى للتوسع الحربى . وقد أدى حكم الكهنة إلى ذلت الآراء وتقييد حرية الفكر والإبداع ، ومن ذلك الحين سارت مصر نحو الضعف . أما بابل فكانت بعيدة عن مصدر الحديد . بينما كان المستعمرون — على ما يبدو من كريت — يؤسسون ملكا لهم فى أراضى خليج أرجوس الخصبة ذات التربة الحمراء التى تغل محاصيل غذائية وفيرة تكفى عدداً لا بأس به من السكان ، قدموا إليها من شمالها . وقد عاد هؤلاء المستعمرون — كما يبدو — وحطموا كنوسوس التى ظلت ميناء كريت الأولى فى الفترة بين ٢٠٠٠ — ١٤٠٠ ق.م. ويبدو أن سكان كنوسوس اضطروا إلى الالتجاء إلى ساحل الأناضول الجنوبى وبعضهم هيم على وجهه حتى استقر على ساحل فلسطين ، وكونوا شعب الفلسطينيين الذين واجهوا هضبة يهوذا من الغرب . كما هاجم سكان أرجوس — تحت قيادة « بيت ميكينا » *Μυκηναι* الحاكم — مدينة حصار لك (التي أصبحت حصار لك) التى ازدهرت وأثرت على حساب اضمحلال كنوسوس وزوالها . وهكذا انتشر الاضطراب والقلق فى شرق البحر الأبيض المتوسط . كما أن النيران والزلازل كانت قد ألتهمت الأجزاء القديمة من أوجاريت و ببلوس ، ويقال أن شعوب البحر هى التى أضمرت فيها اليران . واضمحلت قوة الحيثيين ، ومن ثم بزغ نجم آشور حوالى ١١٠٠ ق.م. واتخذت نينوى على نهر دجلة عاصمة لإمبراطوريتها . وفى هذا الوقت حطم الغزاة الدوريون قوة ميكينا وحل السيف الحديدى محل البرنزى ، كما حل نظام النسب الأبوى محل النظام الأموى . وربما كانت قوة البحر الجديدة راجعة إلى أنه قد أصبح فى استطاعتها حوالى ١٢٠٠ ق.م. — بفض استعمال الحديد — أن تشيد سفناً أكبر وأقدر على مواجهة البحر . فلقد بدأ عصر جديد يحل محل عصر قديم ، بآلات جديدة ، وأسلحة جديدة ،

وعادات جديدة ، في إقليم حضارى عريق . واقد تغيرت معايير القوى خلال
الستة القرون التالية بين بابل ونيوى ودمشق فى جنوب غرب آسيا، بينما كان
نفوذ الأناضول أو حصارك محدوداً فى ذلك الحين . بل أن يزنطة — على
القرن الذهبى — قد حلت محل حصارك ، حيث كان الإغريق يعدون سفنهم
لعبور البوسفور إلى البحر الأسود . وأصبحت المستعمرات الإغريقية حول
هذا البحر أهم من الأناضول القارية وتمكنت أئينا بمرقثها البديع فى بيريس
أن تتخلص من فقر يئتها المحدودة الموارد ذات السفوح سريعة الانحدار ،
بأن تغامر فى البحار ، وتحصل على غذائها من سواحل البحر الأسود .

وفى هذه الأثناء سار الفلسطين فى نفس الدورة . إذ ارتفعوا إلى شأن
كبير من القوة حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. ومنعوا وصول الحديد أو الحدادين
إلى العبريين الذين كانوا يسكنون التلال من خلفهم وبدأ عصر طويل من
الصراع من الفلسطين والعبريين ، كانت الغلبة فيه أول الأمر للفلسطين ولكن
مالبت الدائرة أن دارت عليهم إذ أنهم هبطوا ساعداً لا يصلح للنشاط البحرى
واحتاجوا إلى قوة قاهرة لكى تحولهم من بحارة إلى زراع فى وطنهم الجديد .
وفوق ذلك فقد كان معظم المهاجرين يتكئون من الرجال ، فاضطروا إلى
النزوح من فتيات السكان الأصليين ففقدوا كثيراً من سماتهم الأصلية دون أن
يأخذوا شيئاً هاماً يعوضهم عن نشاطهم البحرى المفقود .

وكان العبريون ، فوق التلال ، يتكون معظمهم من رعاة من طراز
السواقة الذين يعيشون على أطراف الصحراء ، ثم تحولوا بالتدريج إلى زراع
مستقرين « كل تحت كرمته أو تحت ظل تينته » فى وقت كان المطر فيه أكثر
غزارة — كما يبدو — منه فى الوقت الحالى . وقد صحب ذلك ازدهار الحضارة
تحت ظل سليمان فى القدس ، ثم عمرى فى سمارىا (نابلس) . وصحبه أيضاً مروق
يتكرر من عبادة يهوه ، إله الرعاة إلى عبادة بعلى اله الزراع وعشطروت

إلهة الخصب وغيرهما من آلهة المنطقة . وقد أدى خضوع سميريا ، ثم القدس بعدها لقوة العراق إلى نتائج عميقة أثرت في تطورهم الفكري . إذ اتصلت الجماعات العبرية التي نقلت إلى بابل أو عاشت فيها بالفكر الزرادشتي ، رغم تمسكهم بتعاليدهم التي خلصها الملك يوشع من الشوائب البربرية . ويصور الفكر الزرادشتي العالم على أنه مسرح تتصارع فيه مبادئ الخير والشر ، بين أهورا مازادا وأهريمان بين النور والظلام ، وقد أخذت عقيدة بهوه كثيرأ من هذا الاتصال الفكري ، فظهرت — مع مضي الزمن — فكرة الشيطان لدى العبريين ، كتجسيد لفكرة الشر التي يمثلها أهريمان . ولا نعرف إلى أي مدى ساهمت فكرة زيت Set المصرية في صورة الشر لدى العبريين .

بينما تقلص النشاط البحري على الخليج الفارسي وساحل مكران ، في الألف الثالثة ق.م. إذ به ينشط ويتزايد في البحر الأحمر . ويبدو أن هذا النشاط قد احتل أهمية خاصة في مصر في عصر الأسرة الثالثة ، عندما كانت السفن تحمل إليها البخور والمر واللبان وغيره من المواد من الأقطار التي تحف بخليج عدن ، وكانت هذه المواد تستعمل في التحنيط وفي إطلاق البخور في المعابد . واستمرت تلك التجارة عبر القرون أحيانا تزدهر وأخرى تهضمحل ، ولدينا الدليل على ذلك في نقوش معبد الدبر البحري قرب وادي الملوك في مصر العليا . وهي تصور التجار ذاهبين إلى بلاد بونت وعائدين بالبخور وغيره من منتجات أيام الملكة حتشبسوت (في أوائل القرن الرابع عشر ق.م.)

وقد أدى اضمحلال مصر والاضطراب السائد فيها حوالي ١٢٠٠ ق.م. إلى نشأة طرق تجارية جديدة . فاخفت أوجاريت وبلوس من المسرح وحلت محلها صيدا ثم صور بعد ذلك ، وأصبح لهما مكانة ممتازة في التجارة ، واستخدم حيرام ملك صور سلطة سليمان في تنمية تجارة البحر الأحمر . ولا نعلم إلى أي مدى جاء الفينيقيون (ونعني بذلك التجار) من أوجاريت

أو من بيلوس ، وإن كان ثمت تجار أريجيون بينهم أو إلى أى حد كانت بعض
أصولهم ترجع إلى العراق. ولكننا نتمق جميعاً على أننا ندين للفينيقيين بطريقة
الكتابة التي تعتمد على حروف هجائية .

كما أدى ازدهار نشاط ميكنيا وطروادة البحري إلى فتح مجالات واسعة
أمام الفنيقيين بعد عام ١٠٠٠ ق م فقد غامروا بالقيام برحلات بحرية جريئة
طويلة المدى . ويدل على ذلك قرطاجه بالقرب من تونس الحالية ، وطرشيش
في بلاد الأندلس الحديثة، وقرطاجة جنوب شرق أسبانيا وإيبيزا في جزر البليار .

ويصور لنا الإصحاح السابع والعشرون أو نبوءات حزقيال صوره شاملة
لتجارة صور حوالى منتصف الألف الأولى ق. م.

وكان يعاصر الغزو الآرى لفارس فى أوائل عصر الحديد تغيرات مشابهة
فى الهند وقيام أسرة تشو ونظامها الإقطاعى فى شمال الصين، وقيام الاسكيزيين
فى عهد متأخر نسيا فى جنوب روسيا . وهذه التغيرات جميعاً تصور ضغط
سكان الاستبس فى داخلية آسيا وجنوب روسيا على السكان الزراعيين
المستقرين ، هى جميعاً متصلة بالمحاريين الذين يستخدمون الخيل والعجلات
الحربية . إلا أن غزو فارس حمل معه تصوراً جديداً للقوة . فقد كان الغزاة
من قبله يقتلون الشعوب المقهورة أو يستعبدونها أو ينقلونها قسراً من مكان إلى
آخر ، غير أن قورس Cyrus القاهرة أختار أن يكون ملكاً للملوك على أن
يكون نائباً لها . أى أن نظام الحكم فى فارس عني بإقامة نظام يعتمد على
تعاون المغلوبين مع الغالبين ، ولذلك أطلق صراحهم ، فأعاد إليهم كراماتهم
وأمنهم على تقاليدهم ومعتقداتهم وأعطاهم شيئاً من الحكم الذاتى . بل واعترف
بآلهة الشعوب المختلفة الداخلة فى ملكه . فكان ملك الملوك على استعداد كي
يقدم القرابين ليهوه وشموش (إله الشمس) أو آمون رع عندما تسمح له
الفرصة لزيادة شعوبها .

وأهتم الغزاة الفرس بتحسين سبل المواصلات ، فعبدوا الطريق الملكي من سوسا على الحدود الفارسية حتى سارديس في آسيا الصغرى عن طريق وسط الأناضول . وقد عزز هذا الطريق مزوداً بآخر يمر في طورس القليقية جنوب الطريق الأناضولى الأوسط وكان هذا الطريق مزوداً بمحطات تستريح فيها القوافل ، وتستبدل فيها الخيول . ورغم أن فارس كانت مستبدة ، إلا أنها اختارت أن يستصل إليها الشعوب المحكومة على أن تستعبد ، وقد حاولت بقدر استطاعتها أن تنشر أفكارها عن التسامح وحكم القانون ، إلا أن هذا كان يعتمد يعتمد على حكمة ملك الملوك المستبد وبعد نظرة .

ومن المحتمل أن الفرس هم الذين أشرفوا على إقامة خزانات عدن ، وأن إعادة تعمير الواحة الخارجة بمصر بعد آلاف السنين قد تم أثناء الحكم الفارسى . إذ كان الفرس خبراء المهندسة المدنية ، وفي تدبير شئون الأرض وتدل خزانات عدن على أن الأمطار الساقطة وقتئذ كانت أغزر من الأمطار التى تسقط الآن .

ولا نحتاج لتكرار القصة القديمة عن الصراع بين الفرس والإغريق وهزيمة الفرس في معركة سلاميس على يد البحارة الإغريق . فطريق الاستبداد قد يؤدى إلى اضمحلال الحكومة المركزية وهذا يؤذن بالانهيار إذا اتخذاه من هو أبعد نظراً وأكثر حيوية . فقد استطاع الاسكندر المقدونى — فى حياته القصيرة — أن يبسط نفوذه لا على الإمبراطورية الفارسية من تركستان والهند إلى مصر فحسب ؛ بل على بقايا المتمدن الإغريقية القديمة أيضاً . وتدل المدن والأمصار على مقدار حيوية هذا الفاتح وقوة بصيرته . إذ سعى فى ربط البحر الأبيض بالهند وآسيا ، فأدى هذا إلى فتح طريق للحريـر الصينى فبدأ يتدفق غرباً بكميات كبيرة ، فى أواخر أيامه أو بعد وفاته بقليل . وجدير بنا أن نلاحظ أن مجهودات الإسكندر المقدونى لم تكن بعيدة — من حيث

الزمن - عن مجهودات أزوكا Asoka المشابهة في الهند أو مجهودات شن شيه هوانج التي أعقبها قيام أسره هان في الصين . والغريب أن أمبراطوريتي الإسكندر وأزوكا كانتا قصيرتي العمر ، بينما كتب لأسرة هان الصينية أن تعمّر طويلاً إذ أنها قامت على أساس متين من تجانس السكان . ورغم قصر عمر أمبراطوريتي الإسكندر ، فقد استطاعت الثقافة الإفريقية أن تؤثر تأثيراً أبقى وأعمق في ثقافات الشرق الأوسط ، وأنشأت ثقافات بلغ من تأثيرها بالإغريق أن سميت بالثقافات المتأخرة (الهيلينية) .

وتركزت جهود الرومان بعد الإسكندر في الرغبة في حماية البحر الأبيض المتوسط من الاغارات ، ومن ثم دفعوا حدودهم إلى ما وراء حدود هذا البحر الذي كان في الحقيقة مركز لقوة برية . وقد سمحت نظم الرومان القوية ببقاء الطقوس والعبادات المحلية طالما لم تتطلب من الشعب أن يخلص لها وحدها ولأهـ . وبذلك يحجب ولأهـ عن الإمبراطورية . وقد استخدمت الإمبراطورية الفكر اليوناني والمهارة اليونانية في التجارة . وامتدت حدودها الشرقية حتى نهر دجلة أو الفرات ولكنها قصرت عن جبال زاغروس ، التي بدأت عندها قوة الفرس القديمة تحت سيطرة البارثيين Parthians كما امتدت حدودها الشمالية إلى تخوم الاستبس الروسية ، عبر دبروجه ، كما أنشأوا ولاية من ولايات الحدود حكموها زمناً ما أسموها داشيا شرق نهر تيزا Tisza وسميت فيما بعد بترانسلفانيا . وعندما أصبحت هذه الولايات أهم الولايات من الناحية الاستراتيجية ، انتقلت العاصمة إلى بيزنطة (التي سميت بالقسطنطينية فيما بعد) قريباً من منطقتي الخطر وقد تفوق الرومان على الفرس في ميدان الهندسة المدنية ولا سيما بما أنشأوه من جسور وقناطر وطرق وكباري كما أنهم كانوا في غاية السخاء في منح الجنسية الرومانية ، وأصبح القانون على أيديهم أكثر نزاهة وانتظاماً وموضوعية إلا أن الإغراق في الترف واستغلال القسوة كانت أموراً لطخت النظام الروماني فإذا أضفنا إلى هذا اتساع رقعة الإمبراطورية واختلاف أقاليمها ، التي جعلت

من الضروري قيام أوتوقراطية عسكرية أدركنا كيف حلت الكارثة بالإمبراطورية ولا سيما عندما احتكت بشعوب الصحارى التي تناخها .

علينا أن نرجع القهقري قليلا من الزمن لكي ندرس بعض معالم النشاط البشرى على طول الطرق القارية في جنوب غرب آسيا . ويبدو أن التجارة بين الخليج العربى (الفارسى) وسوريا ، وشرق البحر المتوسط والأناضول والبحر الايجى كانت مستمرة منذ الألف الثالثة ق . م . وربما كان للتجار العراقيين (من سومر) وكالات تجارية في قارا أيوك Kara Enyuk في الأناضول حوالى ٢٠٠٠ ق . م ، وكانت هذه الوكالات مثالا قديما لطراز من العمران اتخذ أهمية خاصة فيما بعد ، مع نحو التجارة في العصور الهلينستية الرومانية .

وقد ظهرت من بين محطات القوافل في الداخل مدينة دمشق ، كعلم فرد ذات أهمية دائمة وسط عالم مضطرب من تذبذب القوى السياسية والتجارية . وقد ساعد على استمرار قيام دمشق موردها المائى الذى لا ينضب ، وهو نهر بردى الذى يشق طريقه فى خائق جبل حتى يصب فى الغوطة ذات المراعى والحقول . وتقع دمشق على الطرف الجنوبى الغربى لطريق طويل يتبع سفوح التلال حتى نهر الفرات وهو طريق لا يعدم بعض المشب فى فصل الشتاء . ولا نعرف شيئا عن دمشق قبل عصر الحديد ، فهذا موضع مستمر العمران ولا يمكن أن تجرى فيه الحفائر دون إزالة مبانيه العريقة . إلا أننا لا نحتاجنا الشك فى أهميته فى بعض العصور ، وقد بلغت دمشق ذروة أهميتها فى صدر الإسلام تحت حكم الخلفاء الأمويين (حوالى ٦٦٥ - ٨٥٠ م) .

ونحن نعرف بعض المدن الأخرى مثل سابع (بتر) وبصره وجراش وتدمر معرفة تامة ، وهذه المدن بلغت ذروة قوتها فى العصر الهلينستى والرومانى ، بعد أن تأسست طرق القوافل تحت حكم الفرس . إلا أن هذه

الطرق كانت معروفة قبل الفرس ، ولا سيما بعد أن ظهر الجمل ذى السنامين (البكتيرى) فى أواخر الألف الثانية ق . م ، واستعمل كحيوان للحمل . ثم ازدادت أهمية الجمل ذى السنام الواحد فى أوائل الألف الأولى ق . م ، وحل محله فى الطرق التى تصل بين الخليج العربى (الفارسى) وشرق البحر المتوسط ، ويرى بعض المؤرخين أن الآشوريين قد أصلحوا الطرق الصحراوية إلا أن الفرس -- كما رأينا -- هم الذين قاموا بخطوات هامة نحو هذا السيل ، وتقع سلع (Petna) فى منتصف الطريق بين خليج العقبة وشرق الأردن تقريباً فى موضع دفاعى ممتاز ، محصنة بين شعاب الجبل وجروفه المرتفعة . وقد بلغت أهميتها تحت حكم الفرس ثم اضمحلت بانتهاء نفوذها ، وعادت أهميتها مرة أخرى تحت حكم الانباط فى القرن السابق للميلاد مباشرة وقد استمرت أهميتها فى أوائل عهد سوريا بالحكم الرومانى ، إلا أن بصرى ، فى شرق الأردن ، أصبحت مركز الطرق الرومانية كما قامت جيراكش جنوبها وضمحلت سلع (بتر) فى عهد تراجان . وقد اضمحلت هاتان المدينتان بدورهما فى القرن الثالث الميلادى وعادتا إلى الازدهار فى أوائل القرن الرابع باشتداد قبضة الإمبراطورية عليها . ولكنهما سرعان ماذوتا بانهايار الإمبراطورية ، إلا أن بعض المدن ، مثل جيراش استعادت شيئاً من اقتصاشها تحت حكم جستنيان (القرن السادس الميلادى) أى فى الدولة البيزنطية الرومانية .

قامت تدمر Palmyra فى موضع لا يمكن الدفاع عنه ، كمركز تجارى قرب الفرات ، بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البارثية ، ويبدو أن كلا الطرفين قد اعترف بمركزها الوسيط هذا . ومن ثم لم تخش شيئاً سوى الأغارات البدوية القليلة ، وازدهرت وأثرت ثراء كبيراً . ومن المعروف أنها كانت تتاجر فى الأقمشة الحريرية الصينية . وقد انتهت تدمر بعد صراع الملكة الزباء مع الإمبراطورية الرومانية ، صراعاً ختم باستسلامها ونفيها إلى روما حيث عاشت بقية حياتها كسيدة رومانية .

أما نصيبين فهي موقع ذو أهمية دائمة . وهي تقع شمال غرب الموصل وقامت بوظيفة قلعة تحمي النخوم بين الإمبراطورية الرومانية من جانب وبين المملكة الفارسية البارثية من جانب آخر . ولا تزال قائمة حتى الوقت الحالى .

وقد المدن القائمة على حافة الصحراء كلها — فيما عدا دمشق — تعتمد على مورد مياهها على إنشاءات خاصة تحتاج لمهارة كبيرة لصيانتها ، ومن ثم كانت الفوضى تعنى الخراب لمثل هذه المدن ، إذا ليس من السهل إصلاح نظم الري إذا أصابها خلل ، وكان لمعظم المدن — فيما عدا تدمر — قلعة Acropolis للدفاع عنها ، ولتكون حصناً يلجأ إليه سكانها وقت الخطر . ومن الخطأ أن نستنتج من انهيار هذه المدن أن المناخ قد تغير ، اللهم إلا إذا سلمنا باحتمال ازدياد الأمطار وزيادة طقيفة وانتظام سقوطها في العصر الفارسي والهيلينستي وأوائل العصر الروماني . وتزداد الأمطار من إلى آخر ، مدة كلا خمس سنوات في الوقت الحاضر ، فيؤدي هذا إلى اتساع مساحات الكلاء .

وكانت المسيحية وربما تتطلبه من وكلاء كامل لها — أحد العوامل الهامة التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية . ومع مرور الزمن أدت إلى ظهور نزعات توحيد به مطلقة أشد عدا الإمبراطورية على حدود شبه جزيرة العرب^(١) ، وقد انتشرت الدعوة الإسلامية التي لا تخضع إلا لله وحده ، والتي اعتمدت على الفتوح الإسلامية في بقايا الإمبراطورية الرومانية

(١) امل الكاتب يشير هنا إلى تأثير الدعوة الإسلامية بالمسيحية ، والمسلم يؤمن بالوحدانية المطلقة لله تعالى وحده لا شريك له . وأن الإسلام والمسيحية واليهودية هي الديانات التوحيدية الكبرى التي ظهرت في هذه المنطقة من أصل واحد (العرب) .

في جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا . وإن سرعة انتشار الإسلام في فارس وتركستان لدليل على قوة تأثير الثقافة الهيلينية أمام الاسكندر وبعده .

وكان لانتشار الإسلام الواسع آثار عميقة هامة . فقامت بغداد عاصمة عراقية جديدة ، شمال اتصال نهر دبالا بنهر دجلة بقليل . ويصل طريق نهر دبالا نحو كرمشاه ، أى أنه طريق يخترق الجبال نحو شمال العراق ، ومن ثم عن طريق مشهد إلى تركستان وهو الطريق الذهبي إلى سمرقند . وقد تلت الخلافة العباسية الأمويين في زعامة المسلمين . وقد امتازت الحضارة الإسلامية بالتأثر بالإغريق ، بالعلم الإغريقي ، والطب الإغريقي ، والفكر الإغريقي من نواح عديدة ، وشجع العباسيون الترجمة من الإغريقية إلى العربية ، وبذلك أنقذوا التراث الإغريقي الكلاسيكي للأجيال القادمة ، وتسلمت أوروبا هذا التراث عن طريق مدرسة الطب في ساليرنو . وعن طريق قرطبة في أسبانيا الإسلامية .

وعليها أن نلاحظ نحن فن الفخار الذى انتشر في الصين في عهد أسرة تانج غرباً إلى فارس ، ومن ثم وصل إلى بغداد ثم تابع انتشاره نحو الغرب عن طريق أسبانيا ، وعليها أيضاً أن نتذكر أن تجارة المحيط الهندي قد تمت في صدر الإسلام ، وأن هذه التجارة كانت مسئولة عن إدخال الموالح إلى أراضى البحر الأبيض المتوسط .

وإذا تأملنا الحجاز وسوريا والعراق وفارس وتركستان لأدركنا في الحال صعوبة تحقيق وحدة كاملة تضم هذه العناصر المختلفة ذات المواصلات الصعبة . ولا ريب أن الأمر ازداد صعوبة في عهد الحكم المطلق الذى كانت يبدأ أسرته ، يتلو بعضها بعضاً . وقد أدى الصراع للوصول إلى السلطة إلى اضمحلال بغداد وسقوطها ، ثم إلى الغزو المغولى الكبير فيما بعد ، في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، مما جلب الخراب النهائى لجنوب غرب آسيا . فقضى على نظم الرى التى أصبح من الصعب حتى القرن العشرين الفنية إصلاحها .

الفصل الخامس

شمال إفريقيا

أمتاز العصر الحجري القديم في شمال غرب أفريقية بصناعة حجرية قزمية طاملاً أطلق عليها اسم الحضارة القفصية العليا ، ونسبة إلى قفصه في تونس وقد طال الجدل حول العلاقة بين شمال وغرب أفريقية وشبه جزيرة أيبيريا من حيث صناعات العصر الحجري القديم ويتجه الرأي الآن إلى أنها انتشرت من أيبيريا إلى أفريقية . ويبدو أن صناعات العصر الحجري الحديث قد فرضت على هذه الصناعة الحجرية القزمية التي تمتاز بالنصال والسهم الدقيقة ويبدو الآن أن قصة تطور العصر الحجري القديم المتأخر في وادي النيل الأدنى مختلفة عن هذا . فأخر العصر الحجري القديم - حسب حزين - يمتاز بصناعة آلات حجرية من نواة مشطاه من كل جانب (وتسمى عادة التشظية من الوجهين) ونسبة هذه الآلات المشطاة أكبر من نسبة آلات الشظايا أو النصال أو السهم التي تشظى من جانب واحد تفصل من النواة . ورغم أن النصال والسهم كانت تصنع في ذلك العصر إلا أنها - حسب حزين أيضاً - ظلت غير متخصصة ، بينما تطورت صناعة آلات النواة . ومن ثم لم تكن الصناعات الحجرية قبل الحديثة Bre - neolithic أو طلائع العصر الحجري الحديث Roto - neolithic المصنوعة من النواة . أو التي تمتاز بالفأس ، صناعات قادمة من الخارج ومفروضة على صناعات قديمة محلية كما هي الحال بالنسبة للحضارة القفصية ، بل كانت تطوراً محلياً لم يمنع من تقبل صناعة شظايا صغيرة تسمى بالسيلية في فترة متأخرة فيما بعد . ويطلق حزين اسم الصناعة القيومية على صناعة النواة الحجرية قبل الحديثة . ويرى حزين أيضاً أنها كانت من المعالم التي ميزت حضارة السكان الذين كانوا يعيشون على مستوى بحيرة قارون المرتفع الشمالى ، عندما بدأ المطر الغزير في القلة ، فاضطر الإنسان إلى الهبوط من حافى الهضبة إلى أطراف وادي النيل الجافة ، قبل أن يبدأ في تجفيف مستنقعات وحفر قنوات الري . ولا بد وأن فيضانات النيل كانت شديدة الارتفاع ، نتيجة للأمطار الغزيرة التي كانت تسقط فوق جبال الحبشة ، ومن ثم حمل النهر كميات ضخمة من الطمي الأسود

الخصب وأرسبها في مصر السفلى . ونشأت محلات مرمدة غرب دلتا النيل وديرتاسا في مصر العليا في عهد مبكر، وربما عاصرتما أيضاً محله البدارى جنوب أسيوط . وقد وجد في ديرتاسا بعض الأواني الفخارية الجميلة التي تشبه زهرة الخزامى (التوليب) كما وجدت في أوني ديرتاسا الفخارية بقايا حبوب . وتركت البدارى أيضاً بعض الأواني الفخارية الجميلة ، ذات سطح أسود مصقول ، كما وجدت بها أواني عادية . ومن مميزات هذه الحضارة أيضاً تماثيل نسوية صغيرة منحوتة من العاج وروس سهام ذات قواعد مجوفة ومشرشرة ، وبعض نصال الصوان المصنوعة بالضغط ، وبعض ألواح الإردواز وإناء محفورة من العاج ، غير أنه وجد أيضاً دبوس نحاس ، وبعض الحلل النحاسية ولما كانت هذه الحضارات سابقة لما يسمى بعصر ما قبل الأسرات ، فقد قدرت لها تواريخ قديمة جداً وقد قدرأو بولغ في تقدير عصر ما قبل الأسرات بنحو ٢٠٠٠ سنة، وربما كان الأوفق أن يقدر له ١٥٠٠ سنة^١ أو أقل من ذلك بقليل ، ومن ثم لا نحتاج أن نفترض أن ديرتاسا أو البدارى أو مرآمده أقدم من ٥٠٠٠ سنة ق.م. ولاريب أن نغار ديرتاسا يوحى بفترة طويلة من التطور سبقت زهوره ، وربما كان ذلك في جنوب غرب اسيا وليس في حوض النيل .

الرأى السائد الآن حول أصل زراعة الحبوب والرأى يؤكد أهمية نطاق يمتد من فيليقية إلى شمال فارس ، ولا تخلق اثار تيرتاسا أو البدارى في مصر أى صعوبات في وجه هذا الرأى، إذ أنها تدل بشكل واضح على أثر حضارى اسوى . ولقد كانت تحف بالنيل مستنقعات واسعة، تنمو فيها الأقباص والحشائش ، وكانت الفيضانات العالية لا تزال تغرق وادى النيل الأدنى كل عام وتجلب إليه الطمي والغرين من هضبة الحبشة ، وكانت الأودية الجانبية تصب فيه بالماء الفصل كل عام من تلال البحر الأحمر . وكانت الدلتا غاصة بالمستنقعات ومن المحتمل أن ارتفاع مستوى الأرض ، سواء كان يفعل



شكل: (٣٦)
مصر في عصر الأسرات

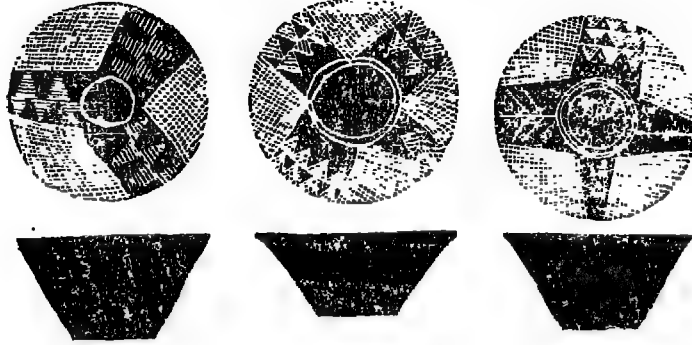
الآرساب أو بغيره خلال عصر ما قبل الأسرات أدى إلى تقلص مساحة المستنقعات بزيادة تعميق النهر لمجره . وكانت تلك المستنقعات التي تحف بالنيل الأدنى وتغطي دلتاه مليئة بحيوانات فرس النهر والتماسيح بينما كانت قطعان الخمر والضأن البريه والغزلان تمرح على جانبيه .

تمكن الأستاذ فلندرز بترى وهو يبحث جبانات ديوسيويس بارفا Diosqollo parva من أن يرتب الأواني الفخارية ترتيباً متتابعاً حسب شكل الأواني وطرق صنعها ودرجة جودتها ورقم تلك الرتب المتتابعة من ١ إلى ١٠٠ . وقد ترك من رقم ١ إلى رقم ٢٩ لما عساه يظهر في المستقبل وبدأ تاريخه المتابع من رقم ٣٠ ووضع أوائل عصر ما قبل الأسرات من ٣٠ إلى ٣٨ وأواسط عصر ما قبل الأسرات من ٣٩ - ٦٢ وأواخر عصر ما قبل الأسرات من ٦٣ - ٧٨ . أما رقم ٧٩ فيتنفق مع بدء عصر الأسرات . وتمتاز بعض المراحل بافتقار المقابر إلى الفخار . ومن الممكن أن نجد في بعض المراحل مقابر غنية وأخرى فقيرة في نفس الوقت دون أن يعنى هذا أى تتابع زمنى ، وربما غالى فلندرز بترى في طول فترات عصر ما قبل الأسرات وفي أرقام التاريخ المتتابع . وقد كان الرأى السائد - وقتاً ما - أن الزراعة وإستئناس الحيوان دخلا مصر أثناء عصر ما قبل الأسرات ، وربما في أواسط هذا العصر، ولكنه لا بد من العدول عن هذا الرأى، إذا كان أهل ديرتاسا عرفوا زراعة القمح ، وإذا كانت ديرتاسا أقدم من عصر ما قبل الأسرات . إلا أنه بما لا شك فيه أن الزراعة أنتشرت واسعاً في أواسط عصر ما قبل الأسرات ولاسيما وإن النيل كان نشطاً في حفر مجراه، مما ساعد على تهريف المستنقعات واتساع رقعة الأرض القابلة للزراعة .

كان بعض فخار أوائل عصر ما قبل الأسرات بسيطاً لونه أحمر أو أسود شديداً بما وجد في البدارى، وكما وجد بعض أواني ترينها نقوش متقاطعة ملونة باللون الأبيض بشكل يوحى بأنها صنعت على نمط السلال . ولم توجد هذه.

والأواني في الجنوب تجاه النوبة ، ومن ثم اقترحت حافة الدلتا كموطن نشأت هذه الصناعة ، ثم صعدت مع النيل إلى الصعيد . ويرى بترى أنها جاءت من ليبيا ، غير أن ليبيا كانت صحراوية لا تنفق ظروف بيتها مع أنماط السلال إلا أن بعض دارسي تاريخ المناخ ، يقولون إن قدراً لا بأس به من المطر كان يسقط قبل ٤٠٠٠ ق . م . كما أننا نعرف أن أوديه المقطم كانت لا تزال تجري بالماء على الأقل في فصل واحد ، في ذلك الحين .

ثم ظهر طراز آخر للفخار الأسود على نمط السلال ، قبل أن يحتفي هذا الصنف فجأة ويبدو أن هذا النمط الجديد جاء من أطراف الدلتا أيضاً ، إلا إن هذين النمطين لا يمت أحدهما للآخر بأدنى صلة . وقد استمر النمط الجديد طوال عصر ما قبل الأسرات . ويبدو أن فترة عصر ما قبل الأسرات الأوسط يمتاز بتقدم كبير في فن الصناعة . وقد ذكرنا من قبل أن النيل ربما كان قد نشط في تعميق مجراه مما أدى إلى إنكشاف المستنقعات واتساع رقعة الأرض القابلة للزراعة ويرى فركنفورت أن جماعات من البشر هاجرت إلى وادي النيل عن طريق الحمامات بالقرب من قنا في مصر العليا ، بينما يرى نيوبرى أن آخرين هاجروا من حافة الدلتا الغربية ، أي من منطقة مريوط التي ظلت أمدا طويلا منطقة وسطى بين الصحراء والريف المنزوعة حيث تنمو أشجار التين في رمال الصحراء الصفراء ؛ وحيث يزرع البدو - الذين يربون الإبل في الوقت الحاضر - محاصيل الشعير الضئيلة ويحيون حياة نصف بدوية وقد ترك عصر ما قبل الأسرات الأوسط أراضي فخارية غير مزركشة ذات مقابض أفقية موجهة ويقال أنها سورية الأصل ، وربما وفدت من شمال سوريا ويظن إن أصحاب هذه الحضارة وقد جلبوا معهم زراعة السكتان . إن لم تكن قد عرفت فعلا في مصر . ويذهب نيوبرى إلى أبعد من هذا فيظن أن هؤلاء المهاجرين قد اخترعوا الكتابة الهيروغليفية بعد أن استوطنوا مصر . أما المعدن - على شكل نحاس - فقد أصبح أقل قدرة من ذي قبل . إذ تركت لنا أدوات كالأزميل والخناجر مصنوعة منه . كما نمت صناعة الصوان المصقول بالضغط نموأ كبيراً ، وتميز العصر أيضاً بنمو صناعات الترف من الذهب والفضة والأحجار شبه الكريمة .



شكل (٣٧)

نحار مزين بخطوط متقاطعة

ويقال إن سكان جبال البحر الأحمر — بين مصر العليا والبحر الأحمر — كانوا أول من صنع الأواني الحجرية وقد ذكرنا من قبل أن شعب وادي الحمامات — بالقرب من قنا في الصعيد، هبط إلى وادي النيل في أواسط عصر ما قبل الأسرات، ولقد تطور في صناعة الأواني الحجرية تطورا كبيرا، وربما فضل المصريون — في ذلك العهد — المرمر (الالابستر) بعروقه الجميلة وشفافيته لصنع تلك الأواني، كما أنهم صنعوها من الحجر الجيري والسيفيت والبازالت، بل وبعض الصخور البلورية. وقد تعلم الفنان أن يستفيد من عروق الصخر وتنوع الألوان والبلورات الموجودة بين الطبقات وغير ذلك، ويدخلها في نظام زخرفته. ويعتبر إناء بللورى، ربما صنع في عهد الأسرات الأولى وليس في عصر ما قبل الأسرات، أحد السكنوز الهامة التي عثر عليها أخيرا في حفائر حلوان، على بعد بضعة أميال قليلة من القاهرة. وكانت الأواني المصنوعة من الحجر تتطلب حذاً أكبر وبجهداً أشق من الأواني الفخارية ومن ثم كانت قيمتها العظيمة، وكان بعضها يشبه البرميل وبعضها منتفخاً قرب القاعدة، وكان لكل من هذين الطرازين مقابض أسطوانة أفقية ذات ثقب لتعلق منها. وكانت بعض الأواني أسطوانية

الشكل ذات قاعدة مسطحة ، ولكن هذه لم تكن تعلق غالباً كما كانت تعلق الأواني السابقة . وربما كانت تجدل حبال حول هذه الأواني الثينة لوقايتها من الكسرة وقد شهد عصر ما قبل الأسرات الأوسط إدخال الفخار الملون (وربما أيضاً الآتون) إلى مصر أو ربما كان هذا من جنوب غرب آسيا ، إلا أن كثيراً من نماذج هذا الفخار مختلف عن فخار جنوب غرب آسيا . وقد حدث كثيراً أن انتقلت فكرة عامة من مكان إلى آخر ، ثم اتخذت لها وسائل مختلفة للتعبير في هذا المكان الجديد . فمن نماذج طلاء الفخار ، الشكل الحلزوني ، الذي يذكرنا بالحبال المجدولة الحلزونية التي كانت تلف حول الأواني الحجرية ، ومن نماذجها أيضاً أشكال القوارب بالمجاديف ، وأشكال السفن ذات المقدمة والمؤخرة المرتفعتين ، ولما كانت السفن النيلية ليست مرتفعة المقدمة والمؤخرة ، وكانت السفن السومرية تمتاز كما يقال بهذه الصفة كان لهذه الصورة أهمية خاصة ، وكان النيل في مصر وسيلة مواصلات ميسرة ، ومن ثم لم تتطور الطرق البرية أو النقل البري فيها كما تطور في جنوب غرب آسيا .

وقد أضاف المهاجرون الجدد القادمون من تلال البحر الأحمر شرق قنا ومن حافة الدلتا الغربية ، ومن الاتجاه السوري ، إضافة هامة كبيرة لسكان مصر في ذلك العهد . ويسجل هذا الصراع بين المهاجرين والأصليين ومن المهاجرين بعضهم والبعض الآخر في عصر ما قبل الأسرات الأوسط نقش على يد مدينة عاجية وجد في جبل الأراك ويمثل صراعاً بين مجموعتين من الناس .

ويرى فرانكفورت أو الأواني السورية الأصل ، ذلت المقابض المتموجة كانت تحمل زيت الزيتون من سوريا ، بينما يرى نيوبري أنها كانت تحمل البخور والبهارات . ويقال إن شجرة الزيتون لينة أكثر منها أسوية ، إلا

أن هذا الفرض لا يزال في حيز الحدس والتخمين . وقد توقف استيراد هذه الأواني في آخر عصر ما قبل الأسرات ، حتى إن هذا ليفصل ما بين عصر ما قبل الأسرات الأوسط وعصر ما قبل الأسرات الأعلى .

وقد أشير كثيراً إلى أن المطر قد قل في عصر ما قبل الأسرات الأعلى ، وكان من نتيجة ذلك أن دخلت الدلتا قبائل بدوية من الشرق ، كما أطبقت عليها قبائل بدوية من الغرب ، سميت فيما بعد بالنخو ، وكانت أميل إلى الشجرة قليلاً . ويبدو أنها استأنست الحمار ، ولا يزال الحمار في مصر حيواناً مميزاً للحياة الريفية . وازداد استخدام الأواني الأسطوانية ، كما كان الناس لا يزالون يستخدمون الأطباق الإردوآزية التي لم تعد تشكل على هيئة طيور أو حيوانات واختفت الأمشاط العاجية ، وإن كان العاج يستعمل في عمل الدبابيس . وربما كان فرس النهر أقل انتشاراً أو كان العاج يستخدم في صناعة أشياء أخرى . وقد ظهرت حفائر حلوان الحديثة وأشكال عاجية تمثل بعض مظاهر الحياة المصرية في بدء عصر الأسرات . كما أن المعدن أصبح أكثر شيوعاً وآلات الصوان أقل شأناً ، وإن كانت لا تزال تستخدم في صناعة المدى بكثرة .

شغل مصطفى عامر طويلاً بالحفر في المعادى ، ما بين القاهرة وحلوان ، وعلى حافة الصحراء بين تلال المقطم والنيل ، ولا ريب أنه عندما ينتهى تماماً من تقريره عن هذه الحفائر سيضيف كثيراً إلى معلوماتنا . ونعرف الآن أن المعادى كانت آهلة بالسكان في أواخر عصر ما قبل الأسرات . وكانت أودية المقطم على الأقل لا تزال نشيطة عندما سكن الناس المعادى لأول مرة . ووجد بها صوامع كبيرة ، وكميات كبيرة من الصوان ، معظمها مدى ومكاشط وقواقع ذات حافات قاطعة وملاكيث ونحاس وفخار ملون وغام الحديد وغيره . ويبدو أن الآثار التي وجدت في المعادى تجعلها أكثر ارتباطاً بسوريا

وجنوب غرب آسيا منها بمصر العليا . وبهنا أن نذكر هنا أن مقابر المعادى كانت لشعب قصير القامة (أنظر ما سنقوله عن هليوبوليس فيما بعد) . ولم يكن الصوان المصقول شائعاً بين الآلات القاطعة .

أما في هليوبوليس ، وهى أيضاً على حافة الصحراء والأرض المنزرعة ، فقد أجريت حفائر حديثاً ، لم يكتب عنها تقرير واف بعد . وقد عثر في مقابرها على هياكل عظمية لرجال طوال القامة . كما وجدت مقابر أخرى لا تحتوى على آثار ، لها كل عظمية لنساء بالغات صغيرات . ويقال إن هذه المحلة تنتمى إلى عصر ما قبل الأسرات ، رغم أن كمية الكربون الإشعاعى بها يدل على أنها ترجع إلى ٣٠٠٠ ق . م وتحتوى المادة العضوية الحية على نوعين من الكربون وزنها الذرى ١٢ و ١٤ على الترتيب . وهذا الأخير ذو نشاط إشعاعى ويتحول بالتدريج إلى كربون ١٢ بعد الموت . ويظن أن تحليل كمية الكربون الإشعاعى المتبقية من المادة العضوية بعد موتها يعطينا تقديراً لعمرها به احتمال كبير للخطأ . وربما عثر في هليوبوليس على محلة مصرية صميعة ، أمست على حافة الصحراء .

وستلقى حفائر حلوان ^(١) الحديثة - فى موضع اكتشفه مصطفى عامر أولاً - ضوءاً هاماً على نتائج هامة فى المستقبل القريب . وقد وجدت بها مقابر محيطة ذات جدران مشيدة بالآجر أحياناً ، أو محفورة فى الصخر المنحوت أحياناً أخرى ، ومغطاة بأسقف خشبية وقد وجدت بها أيضاً أوان حجرية بديعة الصنع منها وعاء من حجر بلورى سبق ذكره ، وتماثيل عاجية بديعة ، منها تمثال لزوجته الملك نارمر منقوش عليه اسمها بالخط الهيروغليفى

(١) بالرجوع إلى الأستاذ مصطفى عامر (يولية ١٩٦٠) علمنا أن هذه الحفائر الحديثة تقع فى وادى دجلة قرب المعادى وليست فى حلوان كما يذكر المؤلف [العرب]

ووجد في حلوان أيضاً صوامع غلال كبيرة وكثير من أدوات الصوان واللعب والقوارب المكسورة نصفين ، وكثير من أدوات النحاس. وعلى وجه العموم فنحن يازاء تقدم كبير في المباني والآلات ، لاتعادلها أى آثار أخرى وجدت في عصر ما قبل الأسرات ، إلا أنها أقل مما وجد في عصر الأسرتين الثالثة والرابعة .

بدء فيضان النيل في منف يتفق اتفاقاً منتظماً جداً مع بدء شروق نجم سوتيس (نجم الشعرى اليمانية أو Sirius) مع الشمس ، وهذه السنة الشمسية أو السوتية لاتتفق اتفاقاً تاماً مع التقويم الذى يعتبر السنة ٣٦٥ يوماً ، إذ أن دورة الشمس حول الأرض تتم في مدة أقل من $\frac{1}{4}$ ٣٦٥ يوماً بقليل . ومن ثم فإن نجم الشعرى اليمانية لا يظهر مع الشمس في الأفق إلا مرة كل ١٤٦١ سنة ، وهذه الدورة تسمى بالدورة السوتية وقد ذكر أحد كتاب القرن الثالث الميلادى أن الشعرى اليمانية أشرقت مع الشمس في بدء رأس السنة عام ١٣٩ ميلادية طبقاً لحسابنا . ومثل هذا حدث أيضاً عام ١٣٢١ ق.م. وهكذا كل دورة سوتية سابقة . وقد رأى بعض علماء المصروولوجيا (تاريخ مصر القديم وآثارها) أن بدء التاريخ السوتى طبقاً لهذا الحساب يتفق مع عام ٢٧٨١ ق.م. أو ٤٢٤١ - ٢ ق.م. ولما كان التاريخ الأول أحدث من أن يقبل ، فقد قبلوا التاريخ الثانى كبداء للتقويم السوتى المصرى القديم . ولكن رأى السائد الآن هو أن تقدير طول السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً أقدم من النظام السوتى ، وإن اختيار يوم مشرق نجم الشعرى اليمانية كبداء للعام، وإيدان لبداية الفيضان قد تم أثناء حكم الدولة القديمة في الألف الثالثة ق.م.

حجر بالرمو الشهير الذى نقش في أواخر عصر الأسرة الخامسة ، يلخص تاريخ الملوك الفرعنة مع ذكر أسمائهم ومدد حكمهم . كما أن « برديه تورين » التى كتبت في آخر فترة حكم الدولة أو الإمبراطورية الحديثة تتضمن قوائم بأسماء الملوك . وقد استخدمت تلك الوثائق لاستنباط تواريخ التاريخ المصرى .

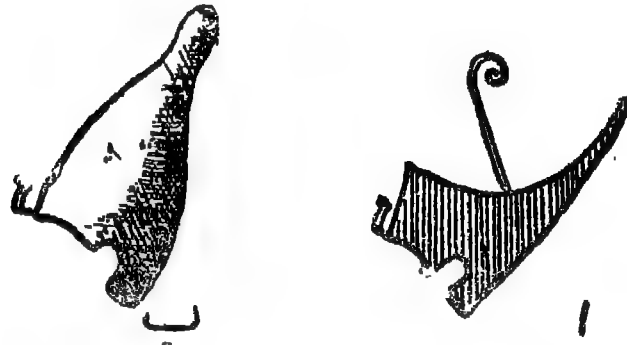
وقد استخدمنا — في المجلد الرابع لهذه السلسلة — توارنج برستد Breasted الذى يبدأ الأسرة الأولى بحوالى ٣٤٠٠ ق.م. إلا إن توارنج ماير Meyer أدنى من ذلك بقليل إذ يبدأ تلك الأسرة الأولى بحوالى ٣٣١٥ ق.م. ثم راجع تلك الحسابات وبدأها بحوالى ٣١٩٧ ق.م. بينما يقترح بوركاردت ٤١٨٦ ق.م. ولكننا أميل إلى قبول توارنج ماير أو أقل منها بقليل .

كان يعيش شمال الوادى الأدنى — بالقرب من موقع القاهرة — فى أواخر عصر ما قبل الأسرات شعب يعبد أوزيريس ، وكان موطن هذا الشعب الدلتا ، ومنها انتشروا إلى الجنوب ، ويربط بعض الباحثين أصول هذا بالسوريين . وكان أوزيريس إله الموتى يبعث إيزيس آلهة الخصب ، وهى حامل ، مرة كل عام ، ضماناً لنمو المحاصيل .

وكان الليبيون — الذين أطلق عليهم اسم التخنو على الآثار — يعيشون غرب الدلتا ، ثم أصبح ملكهم ملكاً على مصر السفلى ، يضع على رأسه التاج الأحمر ، وربما كان يعيش على حافة الدلتا الشرقية وفى الصحراء أنصاف بدو ، يشتغلون برعى الماشية .

كما كانت هناك مملكة قديمة أخرى ، تمتد من جنوب القاهرة حتى أسيوط ، وكان ملوكها يضعون التاج الأبيض فوق رؤوسهم . وربما كان الشعب الذى هبط الوادى من الصحراء الشرقية ووديان مصر العليا ، ويصنع الأواني الحجرية عبارة عن مجموعة أخرى تعبد الإله حوريس الذى كان شعاره الصقر . ثم حدث أن غزا الجنوب أرض الشمال ويبدو أن الملك نارمر أو مينا Menas قد تنوج بتاج مصر الوسطى الأبيض ، ثم بتاج مصر السفلى الأحمر ، وتزوج الأميرة ابنة ملك التخنو المنهزم . وبذلك تم توحيد مصر ، بتاج مزدوج ، وبدأ أول عهد الأسرات الثلاثين . ويتراوح تاريخ هذا التوحيد — كما ذكرنا — بين

حوالى ٣٤٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م. كما يتراوح تاريخ الملوك والأسر المتتابعة طبقاً لهذا . ويبدو أن الأسرة الثانية قابلت صعوبات جمّة ، أثارها أمراء الإقطاع المحليون في وجه الحكم الموحد، إلا أن هذا لم يمنع اتخاذ الإجراءات اللازمة نحو ملاحظة النيل وأخذ مقياسه على طول الوادى الأدنى من الجندل الأول نحو الشمال . ويبدو أن الدولة كانت تأخذ بنظام الموظفين المسكين وتدفق إلى البلاد النحاس (من سيناء) ، والذهب أما الفضة فكانت قليلة . وقد دفن كثير من الملوك السابقين في أبيدوس ، إلا أنهم ازدادوا ارتباطاً بمنف، قرب الحدود بين أرض التاج الأحمر وأرض التاج الأبيض بعبارة أخرى قرب موقع القاهرة الحديثة .



شكل (٣٨)

١ - تاج أحمر ، تاج مصر السفلى ب - تاج أبيض ، تاج مصر الوسطى

وقد وصل آخر ملوك الأسرة الثانية أو أول الأسرة الثالثة إلى العرش من طريق زواجه بابنة سلفه ، فهل كان هذا دليلاً على وجود نظام أموى في الوراثة ؟

وقد أصبح البناء بالحجارة المقطوعة في الأسرة الثالثة فناً كبيراً متقدماً ، طبق أولاً على مقابر الملوك ثم مقابر النبلاء فيما بعد . فقد اعتنق المصريون عقيدة حفظ أجسام الموتى استعداداً لليوم الآخر ، وقد ساعد على ذلك بلا ريب استيراد

الزيوت والراتنج والعسل ، والشمع . . الخ ، التي استعملت في التحنيط ، عن طريق التجارة مع البلاد الخارجية ومنها جنوب البحر الأحمر . ويدل العثور على فخار إيجي في مقابر الأسرة الثانية بأيدوس على انتشار التجارة البحرية . وفدعثر أيضاً على عينة ذهبية في هذه المقابر ، مما أثار كثيراً من الحُدس والتخمين . إذ أن هذه العينة كان يغطيها قشرة مكونة من الأتيمون لا تتكون إلا مع وجود التليريوم Tellerium ، والمكان الوحيد الذي يوجد فيه الذهب مختلطاً بالتليريوم هي جبال الكربات في ترانسلفانيا . ومعنى هذا أنه ربما وصل الذهب من ترانسلفانيا إلى مصر حوالي ٣٠٠٠ أو ٢٨٠٠ ق. م . ، إلا أن هذا الاستنتاج القائم على تحليل الذهب في الوقت الحاضر قد لا يكون صحيحاً تماماً .

وفد نشطت التجارة البحرية نشاطاً كبيراً أيام حكم الأسرات الرابعة والخامسة والسادسة .

ويرى سير آرثر إيفانز أن الليبيين (التحنو) قد هاجروا إلى كريت أيام مينا ومن المحتمل أن هذا لم يتم إلا أيام الأسرة الثالثة التي حدثت فيها تغيرات كبيرة .

وقد ازدادت أهمية منف التي تقع غرب النيل جنوب القاهرة الحديثة بقليل ، أيام الأسرة الثالثة ، ثم بدأت حافة الهضبة الغربية تصبح أهم الجبانات الفرعونية فقام زوسر ، ابن الملك الذي قلنا إنه ربما كان آخر ملوك الأسرة الثانية أو أول ملوك الأسرة الثالثة ببناء الهرم المدرج بسقارة وألحق به معبداً حجرياً كبيراً ، لا تزال بقاياه الهامة باقية حتى الآن . ويقال أن الملك مينا (الأسرة الأولى) بنى معبداً للإله بتاح ، الإله الخالق . أما تاريخ آخر الأسرة الثالثة فهو غامض مما يدل على قيام ثورات . ويبدو أن الملك سنفرؤ آخر ملوك الأسرة الثالثة أو أول ملوك الرابعة قد أعاد تنظيم المملكة المصرية

ويقال أنه شيد هرمًا في دهشور وآخر في ميدوم ، وأنه جلب خشب الأرز من لبنان . وقد بنى ابنه وخليفته خوفو (المعروف أيضاً باسم خيوس Cheops) الهرم الأكبر ، وبنى خفرع (أو خفرن Chepren) الهرم الثانى كما أنه بدأ نحت تمثال أبى الهول فى الصخر الثانى . قرب موقع هرمه . ثم بنى منقرع الهرم الأصغر بالجيزة .

وكان خليفة منقرع آخر ملوك هذه الأسرة الأفويا . الذين تم فى عهدهم بناء الأهرام ونحت أبى الهول ، وتشيد المعابد المتصلة بها ، كما أنهم تركوا عدداً من التماثيل الفخمة والصور المنقوشة التى تمثل الحياة فى ذلك العصر . ويمكن أن يعتبر تمثال خفرع المنحوت من الديوريت الأسود أحد أفخم تماثيل أو ثلاثة فى العالم .

وكانت الأسرة النبيلة تبنى مقابرها بالقرب من الأهرام . وكانت هذه المقابر إما غرفاً منحوتة فى الصخر أو مباني (مصاطب) تحتوى على عدة حجرات أو خليطاً من الإثنين . وربما كانت مقابر الفراعنة تحتوى على صور تعبر عن الطقوس والعبادات خاصة ، اما مقابر النبلاء ولا سيما فى عصر الأسرة الخامسة فكانت تزنها صور أو نقوش بارزة مستقاة من الحياة العامة ، ذات حس فى بديع . وقد ازدادت قوة النبلاء على حساب قوة الفراعنة أيام الأسرة الخامسة ، غير أن فن الأسرتين الرابعة والخامسة لم يفقه ، بل ولم يعادله أى فن آخر فى تاريخ مصر الطويل .

نقل يبي — كما يبدو — أحد ملوك الأسرة السادسة ، عاصمته إلى منف نهائياً غير أن عهد المباني الضخمة كان قد ولى ، وسادت القوضى مملكة مصر فيما بين ٢٥٠٠ — ٢٣٠٠ ق . م ، (حسب التاريخ الذى اخترناه) . وتدل نقوش الحين على الإضطراب الذى ساد البلاد ، ويبدو أن مصر تعرضت للغزو من فلسطين والنوبة ، وربما من ليبيا أيضاً ، ويبدو أن هذا عاصر أيضاً



شكل (٣٩)

تمثال خفرع (شفرن)

انهيار المدينة في جنوب غرب آسيا . إذ حدث هذا بعد وفاة سارجون الأكادي ، الذي اتبع في تاريخه التاريخ القصير المتبع في مصر . أى حوالى ٢٣٠٠ وليس ٢٥٠٠ ق.م . ، وبدأ نبلاء الأسرة السادسة يشيدون مقابرهم في مقاطعاتهم وحل حكمهم وليس في حافة الصحراء بالجيزة ، ويبدو أن هذا التقليد الخاص بدفن الموتى من النبلاء في مدافن أسرهم بمقاطعاتهم ، كان يقصد منه تقوية نفوذهم في تلك المقاطعات ، وهم في هذا يشبهون كثيراً من النبلاء في كثير من البلاد خلال فترات كثيرة من التاريخ .

بعد سقوط الأسرة السادسة سادت فترة من الفوضى والتفكك ، كثرت فيها الحروب الأهلية بين الأسرات الإقطاعية الحاكمة ، ومن ثم لم يترك لنا إلا القليل من المباني والتماثيل ، وربما شجعت أسرة هيراكليوبوليس الحاكمة (عند مدخل الفيوم) الأدب ، الذى أصبح أدباً كلاسيكياً فيما بعد في مصر القديمة . ثم بدأ إعادة تنظيم الدولة بعد ١٥٠ - ٢٠٠ سنة ، أيام الأسرة الحادية عشرة ، التى قامت في طيبة في مصر العليا ، وكان إلهها آمون ، وربما كان نتيجة اتحاد إله طيبة ومين Min وإله قفط . ويفوق مقام آمون مقام رع إله الأسرة السادسة ، الذى كان يقوم معبده في هليوبوليس ، شمال شرق القاهرة الحالية . إلا أن عبادة الإلهين اتحدت وسميت بعبادة آمون رع ، التى أصبحت العبادة الرئيسية في البلاد ، وخلفها الإله الحاكم بتاح . وقد بدأت طيبة تاريخها العتيق كعاصمة للأسرة الحادية عشرة بينما احتلت منف مركزاً ثانوياً عدة قرون ، وقد بدأ تشييد معبد الكرنك على الضفة الشرقية للنيل في مقابل طيبة ، أيام الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة .

وكانت هناك علاقة تجارية وحرية بين مصروسورية ، وبينها وبين النوبة وبينها وبين بلاد بونت (الصومال أو اليمن ؟) عن طريق البحر الأحمر . إلا أن النقوش لم تذكر ليبيا كثيراً . وكانت تجارة كريت - التى كان يقوم بها على

ما يبدو البحارة الكريتيون نشيطة فترة من الزمن. وقد وجد سير ليونارد وولى رأس حربة من الحديد في إحدى مقابر الأسرة الثانية عشرة في بوهين ، شمال الجندل الثانى بقليل ، وتساؤل ما إن كان هذا يعتبر دليلا على قيام صناعة الحديد ، فى الأرض التى تقع جنوب مصر ، والاتجار فيه مع مصر قبل ١٨٠٠ ق م .



شكل (٤٠)

إناء كرى وجد فى مصر

كان عصر الأسرة الثانية عشرة فترة نشاط هندسى فى مصر . إذ شقت قناة من وادى الطميلات تربط رأس خليج السويس بالنيل ، استخدمت من

ذلك الحين لجل التجارة ومنتجات المناجم والمحاجر من سيناء إلى مصر .
وحولت بركة قارون ، وهى البحيرة التى تحتل شمال منخفض الفيوم إلى خزان
يغذيه فرع بحر يوسف بالماء ، ثم يصرف مياهه إلى النيل شمالاً بعد ذلك
فى وقت التحريق .

ثم سادت الفوضى بعد ذلك البلاد فى أواخر الأسرة الثانية عشرة ،
أى أوائل القرن الثامن عشر ق. م. فاستمرت الحروب الأهلية زهاء قرن
من الزمان وتلاها غزو الهكسوس أو الملوك الرعاة من جنوب غرب آسيا
أو الأناضول فى فترة سادت فيها الفوضى وعم الاضطراب حوالى ١٧٠٠ ق. م.
أو بعدها ، كما ذكرنا فى الفصلين الخاصين بجنوب غرب آسيا والهند . ويرجع
هذا إلى أن الحصان كان قد دخل جنوب غرب آسيا ، يركبه محاربون مغامرون
غلبوا شعوب المنطقة على أمرها فى عصر سادته شئ من الجفاف النسبى . وقد
ارتبط أحد آلهة هؤلاء الطغاة بالإله زيت ، الذى اعتبرته مصر فيما بعد تجسيدا
لروح الشر .

حوالى عام ١٦٠٠ ق. م. ابتدأ أحد أمراء طيبة الخاضعين للهكسوس حملة
التحرير الكبرى التى انتهت بطرد الغزاة الأجانب . وقد ظن بعض الباحثين
أن الأسرة الثانية عشرة الجديدة كانت أسرة هكسوسية متمصرة . والواقع
أنهم يختلفون كثيراً عن ملوك الأسرات المصرية الأخرى . فقد أصبحت
مصر فى عهدهم دولة حربية يحكمها موظفون وليس عائلات أرستقراطية ، أى
أن المصريين تعلموا استعمال الخيل فى القتال . لقد كان المصريون فى عهود
الازدهار السابقة يجلبون التجارة براً وبحراً وربما سيروا بعض الغزوات
الحربية كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، إلا أن سياسة الغزو وبناء إمبراطورية لم
تدخل من قبل نطاق الطموح المصرى .



شكل (٤١)

سفينة مصرية متروكة في ميناء الديار البحرية

منحت الأسرة الثانية عشرة مصر المجد والقوة والترف والرفاهية تحت حكم ملوكها من تحتمس الأول إلى تحتمس الرابع وملكتها الوحيدة حتشبسوت ويقال أنها تزوجت أخيراً تحتمس الثاني والثالث ، الواحد بعد الآخر ، وكان من المفروض أن يحكما معها كزوجها ، تحت نظام الوراثة الأموى ، إلا أنها استأثرت بالحكم وحدها ، ورسمت نفسها في صورة الرجال . ولقد أزال تحتمس الثالث عندما انفرد بالحكم اسم حتشبسوت من معابد كثيرة . وتظهر على جدران الدير البحرى — الذى بدأت الملكة حتشبسوت فى تشييده — صوراً لبعثة تجارية أرسلتها إلى بلاد بونت جلبت معها البخور . وقد كان تحتمس الثالث حارباً كبيراً انتصر على الأعداء فى موقعة مجدو (أرماجدون) وقادس فى جنوب غرب آسيا . وقد امتد سلطانه إلى الرافدين وحدود الأناضول ، كما ظهر ذكر الحثيين والميتانيين مع ذكر فتوحاته . ويبدو أن الأسرة الثالثة عشرة حكمت ليبيا كما حكمت مصر وفى آخر ملك الأسرة حكم الملك أمينحوتب الرابع المعروف باسم أخناتون الذى حاول بمعاونة زوجته نفرتيتى أن يحل محل إله طيبة ، آمون رع ، عبادة أكثر تجرداً وروحية ، لإله رمز له بقرص الشمس الذى يرسل أشعته إلى كل مكان . ويرى الأستاذ «وولى» أن أخناتون كان شهباناً أكثر منه مصلحاً دينياً . وقد كاد يتسبب فى تحطيم قوة مصر ، إلا أن كهنة آمون رع والجيش بدءوا فى إعادة توطيد دعائم النظام القديم فى عهد الملك الشاب توت عنخ آمون الذى ترك كنوزاً هائلة فى مقبرته . ثم استعاد النظام القديم سلطانه مرة أخرى تحت حكم الأسرة التاسعة عشرة ، التى كان من بين ملوكها الفاتح المشهور سبتى الأول ، والفرعون رمسيس الثانى الذى كان مغرماً بالآلهة ، والذى كان أقل حظاً من سلفه فى الغزوات الآسيوية ولكنه أقاض فى تمجيد نفسه ونحت لنفسه تماثيل ضخمة . كما أنه بنى جزءاً كبيراً من معبد آمون رع الكبير فى الكرنك على الضفة الشرقية للنيل أمام طيبة . وقد امتازت هذه الأسرة بفخامة المباني وأهميتها مما لا مثيل له فى تاريخ مصر كما

أن الصناعة وصلت في عهدها إلى درجة كبيرة من الدقة . إنها أدنى بكثير من حيث التصميم عما تركته الأسرات السادسة والخامسة والرابعة ، التي ذكرناها آنفاً . وتوضع الأسرات الثامنة عشرة وما بعدها عادة في عهد واحد يسمى بعهد الإمبراطورية الحديثة بينما الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة تكونان المملكة الوسطى والأسرات من الأولى إلى الرابعة تسمى بالمملكة القديمة . وقد توسعت الإمبراطورية الحديثة في استخدام الجنود المرتزقة من ليبيا وربما من آسيا كذلك ، وكان على هؤلاء أن يدفعوا غارات المغيرين على الدلتا .



شكل (٤٧)

وزن المعادن الثمينة

فقد حلت حوالي ١٢٠٠ ق.م. فترة أخرى من الاضطراب العام ، غير أن مصر استطاعت أن تحتفظ بهيبتها فترة من الزمن تحت حكم آخر الفراعنة

العظام رمسيس الثالث ، أحد ملوك الأسرة العشرين . ثم بدأت السلطة المركزية فى الانهيار أيام الرعامسة من السادس إلى الثانى عشر . فأصبح كبير كهنة آمون رع فى طيبة هو أهم سلطة فى مصر العليا ، كما استأثر الإقطاعيون بالسلطة فى أقاليمهم المختلفة من الدلتا . وتدهور نفوذ مصر فى جنوب غرب آسيا حتى لم يعد شيئاً ، وحلت محله قوة آشور . وقد خطبت يهوذا وإسرائيل ود مصر وقتاً ما لتحميها من آشور . ثم قهر الآشوريين فى القرن السابع ق.م . (الأسرة الخامسة والعشرون المصرية) منف وطيبة ، كما نجح النوبيون فى حكم البلاد فترة من الزمن . إلا أن مصر استعادت استقلالها مرة أخرى تحت حكم الأسرة السادسة والعشرين — أى أوائل القرن السادس ق.م وذلك بمعاونة الأيونيين Ionians وغيرهم من المرتزقة ، بل أنها بسطت نفوذها على فلسطين كذلك . وكان الأيونيون وغيرهم من الإغريق يستقرون فى مدن خاصة بهم فى مصر ، كما كانوا يقومون بمعظم النشاط التجارى للبلاد . ثم دخلت مصر فى الإمبراطورية الفارسية فى أواخر القرن السادس ق.م . وازدهرت البلاد بما فيها الواحات تحت حكم هذه الإمبراطورية فالواحة الخارجة مثلاً كانت عاطلة عن أى نشاط يذكر منذ عهد ما قبل الأسرات ، وربما كان المطر أغزر أثناء تلك الفترة الفارسية ولاسيما ما بين ٥٠٠ — ٤٠٠ ق.م . إذا أنها عاصرت كما يبدو فترة امتازت بالصيف البارد المطير فى شمال غرب أوربا (الفصل السابع . غير أن مصر حكمت نفسها مرة أخرى فى ظل الأسرات الثانية والعشرين ، والتاسعة والعشرين والثلاثين حتى غزوة الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م . وبذلك انتهى الحكم الفارسى الذى لا ينظر إليه كثير من الكتاب بعين الرضا .

لم يكن نصيب شمال أفريقية غربى مصر من الدراسة وقرأ . فقد درست الكهوف التى كان يأوى إليها الناس الذين كانوا يستعملون المدى الصغيرة والصال من العصر الحجري القديم ، كما حدث فى جهات كثيرة أخرى من

العالم، وفي بعض الحالات كانت الطبقات التي وجدت فيها آلات العصر الحجري القديم يتلوها مباشرة طبقات أخرى تحتوى على فتوس حجرية مصقولة ذات قطاعات أسطوانية ، ولم يكن صقل بعض هذه الفتوس كاملاً ولذلك فهي أشبه بآلات أوائل العصر الحجري القديم ، إلا أنها جميعاً كانت ذات حافة حادة . كما وجدت رؤوس سهام صوانية واسعة الانتشار ، وكان لبعضها قواعد مقعرة ، ولأخرى قواعد ذات أعناق . كما وجدت بعض الفتوس الحجرية المشطوفة المستوية السطح . وقد تدهور استخدام آلات الصوان الدقيقة مع مضى الزمن . واستخدمت فتوس بيض النعك الملونة في بعض الأنحاء فقط . وكان المعدن نادراً في عصر ما قبل التاريخ في ليبيا وموريتانيا . وقد وجد أوريك بيتس Oric Bates في خمسة مقابر بمرسى مطروح أو أن حجرية ظننها قريبة من مثيلاتها في آخر عصر ما قبل الأسرات في مصر ، أى حوالي ٣٥٠٠ ق . م .

وتنتشر المقابر ذات النصب الحجرية الضخمة Megalithic في أفريقية من تونس حتى مراكش . وهي تقوم منفردة متباعدة في الشمال الغربي ، ولكنها فيما عدا ذلك توجد متجمعة على شكل جبانات . وبعضها ليست إلا أكواما من الحجارة مهالة فوق حفرة تتوسطها جثة الميت ، والآخر الدولن Dolmen ذات شكل مستطيل ، أى عدة جلاميد قائمة عمودياً ، تحمل صخرة أو صخرتين في وضع أفقى . وكان لبعض هذه المقابر الضخمة فتحات خاصة تصد بها - في رأى الباحثين - دخول الروح وخروجها عند البعث . وبعض هذه المقابر لم تكن سوى توابيت حجرية كبيرة ، داخل نطاق دائرى أو بيضاوى من الحجارة ، وهي في هذا تشبه مثيلاتها في أوروبا . وكان بعض المقابر على شكل كتيبان مرتفعة حتى مستوى سقف حجرة الدفن ، وكان في هذه الكتيبان طاقات منعزلة لا علاقة لها بهذه الحجرة وبعضها لها أسقف ذات تنوءات بارزة Corbelleda ووجدت في هذه المقابر أو أن مقلطحة ذات صنابير ، تشبه

مثيلاتها التي كانت تصنع أيام الدولة القديمة في مصر . إلا أنه ليس من الضروري أن تكون في مثل قدمها من تونس وغيرها . ووجد بعض الحديد في تلك المقابر الضخمة مما يدل على أنها ظلت تستعمل حتى القرون الأخيرة السابقة لليلاد — وهذا يذكرنا بالنصب الحجرية الضخمة التي عثر عليها في السودان وبعض أنحاء الحبشة ، كما وجدت في شرق الأردن وغيرها ، مما جعل بعض الباحثين يبحثون أو يتساءلون عن الصلة بين هذه النصب الحجرية الضخمة في شمال أفريقيا وشرق الأردن وغيرها وبين تلك التي وجدت في أوروبا والتي توضع عادة فيما بين ٢٥٠٠ — ١٥٠٠ ق.م ولهم الحق في ذلك . إلا أننا يجب أن نتذكر باستمرار بقاء أهمية تلك النصب الحجرية في غرب أوروبا ، حتى بعد عهد بنائها بـمدة طويلة .

تصور نقوش المملكة القديمة في مصر (أى حوالى ٢٥٠٠ ق.م .) الليبيين باللون الأصفر ، وتبينهم شقر الشعر ، زرق العيون ، وقد استمر هذا التقليد خاصاً بصور الليبيين في العصور المتأخرة بعد ذلك . ومن المهم أن نلاحظ وجود صفات الشقرة حتى الوقت الحاضر بين البربر الحديثين . ومن الواضح أن بحارة صيدا الأوائل هبطوا إلى سواحل شمال أفريقية غرب مصر ، وهذا يعنى أن ذلك حدث فيما بين ١٥٠٠ وربما ١١٠٠ ق.م وكان الحدث الهام في ذلك الإقليم هو إنشاء قرطاجة في النصف الثاني للقرن التاسع ق.م . وترى القصص أن إيليسا Elissa ، التي سميت فيما بعد ديدو — أى اللاجئة — قاومت جماعة هاربة من وجه طغيان أخيها ملك صور . وقد ربط تجوالها في البحر ، مع نمو الأسطورة ، بتجوال اينياس Aeneas بعد أن غادرت طروادة عندما حطمها الإغريق الميكينيون . وكانت قرطاجة في موقع ممتاز كقاعدة لتجارة البحر الأبيض المتوسط البحرية ، التي شملت استيراد زيت الزيتون من الساحل الشمالى المواجهة للبحر الأبيض المتوسط ، كما احتل الفينيقيون أيضاً مالطة في ذلك الحين .

قبل إنشاء قرطاجة ، كانت صور تتاجر مع طرطيسون (طرشيش)
وهي ساحل إقليم الأندلس الحالي ، قرب ميناء قادس الحالية Cadiz ثم أصبحت
قرطاجة أهم عامل تجارى في هذا الاتجاه بعد القرن السابع ق . م وقد أدت
منافسة الإغريق إلى وضع حد تقف عنده السفن الإغريقية ولا تتعداه غرباً ،
وذلك فيما عرف بقرطاجة الحديثة أو قرطاجنة . ورغم هذا فقد استمرت
تجارة قرطاجة شمال شرقى هذا الحد ، بل أنها حاولت منع السفن الإغريقية
من استخدام مياه البحر غربى سردينيا . وأنشأت محطات بحرية عديدة منها
إيبزه Ibiza في جزر البليار ، وميناء ماهون في منورقة التى أسسها ماجو
القرطاجى . ومحطات أخرى على الساحل السردىنى وغرب صقلية وشمالها
الغربى . ويحدثنا هيرودوت عن محاولات قرطاجة للإبحار فى السواحل
الإفريقية غربى عواميد هرقل (جبل طارق) وعن تجارتهم « الصامته » مع
الإفريقيين . وتم التجارة الصامته بأن يضع أحد الطرفين البضاعة التى يريد
أن يستبدلها ، ثم ينسحب إلى موقعه ثم يأتى الطرف الآخر فيضع البضاعة
التي يرى أنها تساوى ما وضعه الطرف الأول ثم ينسحب ، ويستمر هكذا
عرض فانسحاب ، إلى أن يتم قبول الصفقة أو يعود المشترون دون أن
يتجر منها .

ويحدثنا التاريخ عن المنافسة الكبيرة بين قرطاجة وروما فى أسبانيا وفى
غرب البحر المتوسط عموماً ، وعن تحطيم الرومان لقرطاجة عام ١٤٠ ق . م
وبعد هذا التاريخ حاول الملوك النوميديون حكم شمال أفريقيا .

أثناء هذه الفترة من الحروب الرومانية القرطاجية وقبلها ، كانت الأسرة
التي أسسها بطليموس أحد ضباط الإسكندر ، تحكم فى مصر التى بدأ النفوذ
الرومانى يتسلل إليها كما بدأ يتسلل إلى شمال أفريقيا عموماً ، فى القرنين
الآخرين السابقين لليلاد . واحتلت منطقة مريوط — غرب الدلتا — مركزاً

بمنازاً كركز للملكية ، وربما كانت أوفر ماء بما هي عليه الآن . وقد جاء الإسكندر الأكبر إلى مصر عام ٣٣٢ - ٣٣١ ق . م . وأسس مدينة الإسكندرية وميناءها ، التي أصبحت من أهم مراكز التجارة والثقافة العظيمة في العالم ، واحتلت تلك المكانة الممتازة فترة طويلة من الزمن . وكانت الإسكندرية هيلينستية أكثر منها مصرية ، إلا أن التقاليد المصرية والعبادات المصرية ظلت باقية في الإسكندرية عدة قرون تحت الحكم الروماني . وكانت مصر وشمال أفريقية عموماً بالنسبة لروما مجرد أمراء قمع للشعب الروماني . وأسست المدن الرومانية في شمال أفريقية إلا أن العمارة الرومانية كانت محدودة في مصر ، رغم أنه لا تزال هناك قنطرة كبيرة بالقاهرة تقوم دليلاً على قوة الرومان وحيويتهم . وانتشرت التعاليم المسيحية بعد ذلك في أواخر الحكم الروماني بين السكان الذين فقدوا جزءاً من تراثهم المصري القديم ، واستوعبوا عوضاً عنها بعض المعتقدات الإغريقية . وتلا ذلك فترة من الحكم البيزنطي الذي لم يكن في درجة كفاية الحكم الروماني ، ومن ثم كان من السهل على السكان الأصليين الذين انفصلوا عن جذورهم الحضارية المصرية القديمة أن يغلبهم الإسلام حوالي ٦٤٠ م . وانتقلت العاصمة الإسلامية إلى عدة مدن متعاقبة في نطاق القاهرة الحديثة ، يمكن تتبعها من الناحية الأثرية كما سارت الإسكندرية في طريق طويل من الانهيار ، بعد أن انكشفت تجارة البحر المتوسط ، بسبب العداء بين الإسلام والمسيحية ، إلى أن أحياها محمد علي في أوائل القرن التاسع عشر . وكان عدد سكانها المكونين من بعض الصيادين الفقراء ، يتراوح في أوائل محمد علي ما بين ٤٠٠٠ - ٢٠.٠٠٠ نسمة . وهي الآن تزيد على المليون نسمة ، وتعتق الأغلبية العظمى من المصريين الحديثين الإسلام ويعتزون بالثقافة الإسلامية كشقاقتهم الأصلية ، وينظرون إلى التراث المصري القديم على أنه شيء يكاد يكون غريباً عليهم . وهم في هذا يشبهون شعباً غريباً الشعب الإنجليزي ، الذي يربط نفسه بالتراث

الأنجلو ساكسوني ، وينظر إلى التراث الثابت لعهد الرومان كأنه شيء غريب . وفي كل من الحالتين ، تلقى التراث القديم ضربة قاضية على يد الرومان (في العهد الهلينيستي في مصر) حتى لقد أصبح من الضعف بحيث لم يستطع أن يصمد للغزو الثقافي الجديد ، الذي لم يعد مجرد غزو عسكري أو سياسي . وقد حدث نفس الشيء في شمال أفريقية حيث استوعب البربر الثقافة الإسلامية بسهولة ، فانتشر الإسلام بسرعة وسهولة في شمال أفريقية غربي مصر ، حتى وصل سواحل أسبانيا حوالي ٧١١ ق . م . وأسس المسلمون مدينة القيروان المقدسة عام ٧٦١ ق . م . وجعلوها قاعدة لحكمهم . عدة قرون . وقد واجه المسلمون العرب عداء سكان التلال الأصليين الذين أطلق عليهم اسم البربر لغرابة لسانهم بالنسبة للفاتحين ، فترة طويلة من الزمن . وظل الاختلاف بين نظم العرب والبربر الاجتماعية رغم اعتناقهم للإسلام . وعندما احتل المسلمون جنوب أسبانيا ، استقر العنصر العربي من المسلمين الأرض الطيبة في الوديان والوهاد ، بينما لجأت العناصر البربرية إلى سكنى الهضاب شبه الجافة التي أصبحت قشتالة الجديدة فيما بعد ، ومارسو حياة الرعي والهجرة الفصلية وراء المرعى . ثم نشر الإسلام نفوذه إلى الصحراء ، واعتنق الطوارق أو الملتزمون الإسلام وقد أيد هؤلاء الملتزمون إصلاحاً إسلامياً تم في القرن الحادي عشر ، وكان يهدف إلى بساطة العقيدة وبدعوا إلى الجهاد ، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على أسبانيا فترة من الزمن بوقوفهم موقف التحكيم بين أمراء المسلمين المتخاصمين ، وأسسوا دولة المرابطين قصيرة العمر . ثم قامت حركة إصلاحية أخرى بسرعة بين بربر جبال الأطلس ، الذين كانوا هراطقة مل قيسل . وهؤلاء أسسوا دولة الموحدين التي كانت في بادئ الأمر شديدة العداء لليهود والنصارى في أسبانيا ، ثم تحولت بعد ذلك وأصبحت أكثر تسامحاً وأكثر علماً . واستمر حكمهم قرناً ونصف تقريباً وأخيراً تقهر الإسلام من أسبانيا .

على كل حال فقد استمرت أحوال مصر تتأرجح بين القوة والضعف ،
ولسكنها على العموم كانت ضعيفة منذ أيام الرومان . حتى القرن التاسع
عشر ، ومنذ ذلك الحين ازداد عدد سكانها زيادة عظيمة وكانت نسبة تلك
الزيادة هائلة ، وصحب ذلك انتشار زراعة محاصيل نقدية للتصدير ، وإنشاء
الخزانات لتوفير الرى الدائم ، ورفع مستوى الصحة العام . وتبدو هذه
الظاهرة في مصر والهند والصين واليابان وجاوه ، وكلها توضح زيادة هائلة
في عدد السكان منذ عام ١٨٠٠ أو ما بعده . ومن الخطأ — رغم أن كل من
هذه الأقطار تصدر محاصيل نقدية وتستفيد من تقدم الطب — أن نظن أن
ظروف السكان واحدة فيها جميعاً . فهذه مشكلة عالمية تحتاج إلى كثير من العناية
والتحليل وهي فوق جهود علماء النفس . وجدير بالملاحظة أن شمال أفريقيا
غربي مصر لم تسلك نفس الاتجاه السكاني ، كما أن أجزاء من جنوب غرب
آسيا لا تزال مفتقرة إلى السكان ، وتستطيع أن تنتج محاصيل غذائية أكثر
وفرة لو عادت نظم الرى كما كانت ، ولو عملت الحكومات على رفع مستوى
المعيشة بين الفلاحين والحد من تكاثرهم .

الفصل السادس

بلاد البحر المتوسط الأوروبية

من أوضح الأمور المسلم بها أن أوروبا تدين بنمو مدينتها للمنطقة التي يطلق عليها عادة اسم الشرق الأوسط . ويميل الرأي السائد إلى أن يرجع الفضل في هذا إلى جنوب غرب آسيا ، حيث بدأت زراعة الحبوب ، وحيث بدأت الخطوات الأولى في عمل الفخار وطلائه ، وبدأ التعدين لأول مرة ، كما بدأت التجارب الأولى في ميدان الرى .

إن طغيان الفيضان على السهل الفيضى ، ممكن المزارعين من زراعة قطعة الأرض الواحدة التي غطاها الطمي سنة بعد أخرى ، ولم تكن الأرض القرية من النهر تعاني كثيراً من نقص الماء ، بينما ينمو العشب — في جنوب غرب آسيا — على حافة الأرض المنزرعة ، ترعاها الماشية والضأن والماعز . إلا أن هذه البلاد كانت تعاني كثيراً في سبيل الحصول على حطب الوقود ، أو الخشب اللازم لاستعمالها أو الحجارة النادرة في السهل الفيضية .

وقد تتضمن انتشار إنتاج القوت في أوروبا كثيراً من المشاكل التي لم يكن لها وجود من قبل . فقد وصلت الزراعة أولاً إلى الإقليم الإيجي ، الملاصق لجنوب غرب آسيا ، حيث تهيأت فرص جديدة تتضمن كثيراً من المشاكل . الجديدة لمن استطاع استغلالها .

وقد تهيأت الجزر الإيجية ، وسواحل بلاد الإغريق وآسيا الصغرى بمواضع فوق الدلال ، يمكن أن يأوى إليها السكان بمبدأ عن مستوى الفيضانات كما تهيأت لهم فرص صيد السمك كمورد من موارد الطعام . وكانت سفوح المنحدرات في العصور القديمة تغطيها الأشجار ، التي تزودهم بالوقود ومادة بناء السفن كما أن الرياح الآتية المنظمة الهبوب في الصيف ، كانت كافية لكي تدفع بتلك السفن — حتى الصغيرة منها — للإبحار من جزيرة إلى أخرى ، دون أن تبعد كثيراً عن الشواطىء ، ومن ثم تمت حركة التبادل بين المجتمعات ، واتصال بعضها ببعض الآخر اتصالاً لا يشوبه عدا .

وتمتاز صخور منطقة بحر إيجه بأنها إما أن تكون نارية أو جيرية . وهذه الصخور الأخيرة ذات مساحة كبيرة ، ما أسرع أن تشرب مياه الأمطار الشتوية عندما تسقط عليها . وتتدفق بعد ذلك تلك المياه من الفوالق أو مفاصل الصخور ، أى أن موارد المياه مركزة تركيزاً شديداً في مواضع معينة . وقد أدى هذا - في أقطار البحر المتوسط الأوربية - إلى تركيز السكان وتجمعهم حول الينابيع ، وكان من الطبيعي أن تنبثق تلك الينابيع قرب التلال المحصنة ، وهى فى نفس الوقت تشرف على الخليجان البحرية المستطيلة التى اجتذبت العمران من وقت طويل .

وأدى الجفاف الطويل وحرارة الصيف إلى نشاط البحر ، ومن ثم يتصاعد الماء مع المواد الذائبة فيه التى تكون غذاء النبات مثل الجير والحديد بحكم الحاسة الشعرية ، ويتعرض هذا المحلول للبخر ، فيترسب الجير والحديد ويكون قشرة صلبة فوق التربة . ومن ثم تتطلب الزراعة حرث الأرض أكثر من مرة ، وكان محراث جنوب غرب آسيا الصغير مقيداً فى تلك العملية . إلا أن الأرض لم تكن تجدد خصبها كل عام بإرساب الطمي السنوى كما هى الحال فى أرض الرافدين والنيل ، ولم يكن من السهل زراعة قطعة الأرض الواحدة سنة بعد أخرى دون اتخاذ إجراءات خاصة . وكان لابد من الالتجاء إلى دورة زراعية ثنائية فى أرض البحر المتوسط الأوربي كقاعدة عامة ، وإن كانت بعض الأراضي تلجأ إلى دورة ثلاثية ، أى تزرع الأرض مرة كل ثلاث سنوات . ومن ثم تعرض الفلاح الأوربي الصغير فى حوض البحر المتوسط للفقر . كما كان عليه إذا أراد أن يستعيد قطعة أرض للزراعة أن يحرقها جيداً بالفأس لكي يحطم قشرتها الخارجية ويصل إلى التربة الهشة ، إلا أن هذه القشرة قد تحتوى على موارد غذائية للنبات وليس من السهل استعادتها مرة أخرى .

إلا أن أمطار الشتاء واعتدال درجة حرارته ، يشجعان على نمو الأشجار الدائمة الخضرة ، ذات الجذور العميقة ، ولا سيما إذا كانت من الأنواع المحبة للتربة الجيرية ، وهذه الأشجار مزودة بأوراق صلبة أو ذات أهداب لكي تحميها من جفاف الصيف ، وتنمو شجرة الزيتون التي دخلت في زمن مبكر ربما من شمال أفريقية غربي النيل ، تنمو حسناً في ظروف البحر المتوسط الأوربي ، كما دخلت أوربا أيضاً في زمن مبكر شجرة التين وهي ذات مقدرة على النمو في التربة الرملية ، وربما كانت شجرة أصلية في حوض البحر الإيحي أو ما حوله . وكانت بيئة البحر الإيحي أيضاً صالحة تماماً لنمو السكروم التي تفضل سفوح التلال المنحدرة حسنة الصرف وذلك منذ أجيال كثيرة مضت ، وربما نشأت السكروم في أحد أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط . وهذا مما شجع الناس على إقامة المدرجات على سفوح المنحدرات ، حتى يحفظوا التربة من الانهيار ، وبذلك أسهموا في التقدم الزراعي . وقد كان حفظ التين مشكلة ولا سيما في بلاد اليونان ، وربما وضع الراتنج في التين الذي أصبح يسمى بعد ذلك رندزينا أما أنبذة جزر ساموس وساتورين وغيرها فلم تعالج بالراتنج . ومن ثم كانت شهرتها الواسعة وقد استطاع الزارع في هذا الإقليم أن يحصل كثيراً من خيرات أرضه ، طالما كان لديه ما يكفيه من أرض للزيتون والسكروم وأشجار التين وطالما استطاع أن يصبر حتى تنمو كما أن الظل الذي تسبغه هذه الأشجار على الأرض يساعد على نمو الخضروات الغضة . التي لا تتحمل أشعة الشمس القوية . ثم أضيف إلى أشجار البحر المتوسط هذه المشمش والخوخ وأشجار الموالح في العصور التاريخية ، إلا أن التين والزيتون والسكروم ظلمت أشجار البحر المتوسط العريقة .

جابهت رعاية الحيوان في إقليم البحر المتوسط الأوربي صعوبات كان لابد لها أن تحمل . فكثيراً ما كانت الحشائش التي تنمو على المنحدرات تجف ويصفر عودها تحت حرارة الشمس الجافة ، كما أن قطعان الماشية لا تستطيع أن تتخترق الحقول في فصل النمو ، كما قد ينمو محصول آخر في فصل الصيف

الجاف بعد حصد محصول الربيع . ولذلك كان لا بد من أخذ الحيوانات إلى ارتفاع كبير في الجبال بعد أن تذوب ثلوج الشتاء مباشرة حتى تستطيع أن تتغذى على الحشائش الغضة الغنية بالبروتين والتي تنمو بسرعة بعد أن تتشرب التربة بمياه الثلوج الذائبة ، وبعد أن تدفئ الشمس سطح الأرض وتمدها بمزيد من الأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية . وقد يمتلك الزارع الصغير قطعة أرض لرعى حيواناته ، ومن ثم ينفرد الزارع الكبير بهذه الميزة . والوديان في بعض أنحاء مقدونيا من العمق والضييق بحيث لا تصل أشعة الشمس إليها خلال الشتاء القارس البارد ، وبحيث تحددت أماكن العمران بارتفاع معين على جانبي الوادي ، حيث لا يمكن الحياة في بطون الأودية المظلمة البعيدة عن أشعة الشمس . وفي هذه الأودية قد يستطيع الفلاح أن يسوق ماشيته إلى بطن الوادي بعد أن تزول قسوة الشتاء ، ولكنه يعود يسوقها إلى أعلا المرتفعات ثانية في الصيف .

تستطيع الأحراج أن تقاوم الصيف الجاف الحار ، وهي تزدهر مع بقية الحشائش والنباتات وتملأ الجو بأريجها وأزهارها بعد أن تنتهي أمطار الشتاء ويحل الربيع . وهذه الأزهار والنباتات تجتذب النحل التي تكون حاشية الحياة في إقليم البحر المتوسط ، الذي يعتمد في غذائه على ما تمده به النحل من عسل ، وما تمده به الكروم وأشجار التين من مادة سكرية أيضاً ، وما تمده به الزيتون من مواد هيدروكربونية ، كما أن الفواكه المجففة مثل التين والزبيب يوالى إمداد الناس بمادة سكرية طول العام . ويضاف إلى ذلك أنواع الـ"شمالك" مثل التونة والبنيو الغنية بلحمها .

وعلينا أن نلاحظ الصخور البركانية مثل الـ"ديسيديان" في ميلوس ، والـ"سبناج" Emery في ناكسوس ونلاحظ النحاس من باروس وكريت وبصفة خاصة من قبرص ، التي أعطته اسمه في اللغات الأوروبية . وكان للإسديان أهمية فائقة في صناعة الشظايا ذات الحافات الحادة أما السبناج

(حجر الصنفرة) Emery فكانت له أهمية كبيرة في صقل الصخور وصناعة الأواني والآلات القاطعة منها . وكان النحاس معدناً في غاية الأهمية ولا سيما بعد كشف القصدير في كريسا قرب خليج كورنت أسفل دلف .

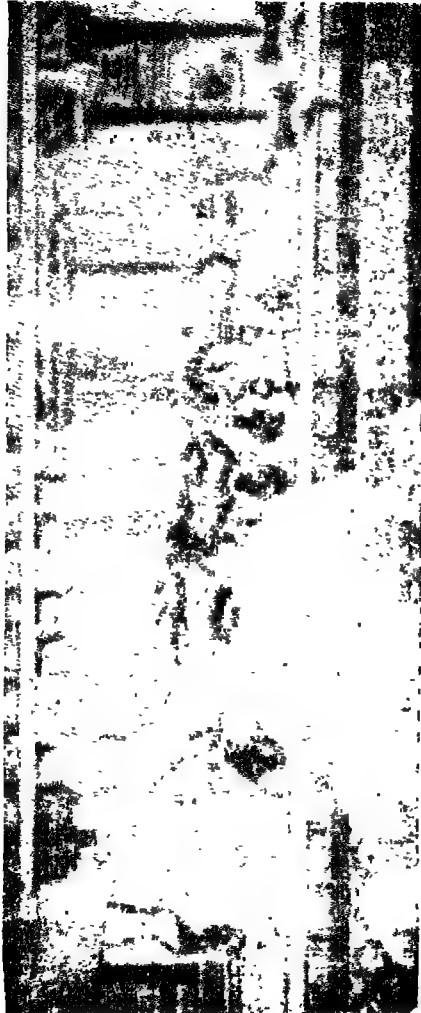
نحن لا نعلم متى بدأت الزراعة في أراضي البحر المتوسط الأوربية . وقد كان العلماء يظنون أن سمك الطبقات المحتوية على قطع الفخار تحت موضع كنوسوس القديمة دليلاً على قدمها العظيم ، إلا أنه تبين أخيراً أن هذا السمك يتراوح تراوفاً شديداً من مكان إلى آخر وأنه لا يقدم دليلاً يوثق به على تقدير عمرها . وقد وجد مع قطع الفخار المحطمة فتوساً حجرية مصقولة . ذات قطاع بيضاوى وحادة المقطع عادة ، وهى من صفات حضارة العصر الحجري الحديث الأصلية في كثير من الأقطار . ولقد قيل إن الأواني الفخارية المزينة بخطوط محززة لم تظهر إلا بعد فترة طويلة من الأواني الفخارية غير المزينة ، وهى الأواني البسيطة المصقولة ذات القاعدة المسطحة والفوهة الواسعة . ويقال أيضاً إن التماثيل النسوية الصغيرة المصنوعة من الصلصال ، قد ارتبطت بالطقوس الخاصة بالأخصاب . ويدل العثور على آلات مصنوعة من الأوبسديان في طبقات قديمة من كريت على الاتصال البحرى بجزر ميلوس في البحر الإيجهى كما أن التماثيل النسوية الصغيرة المصنوعة من الصلصال المنتشرة انتشاراً واسعاً لا بأس به في هذه الجزر تدل على الصلات التجارية التى كانت تربط الجزر بعضها بالبعض الآخر ، ولا سيما وأن بعض التماثيل التى وجدت في كريت كانت منحوتة في الرخام ، وهى شائعة في جزر بحر إيجه ولا تمت لجزيرة كريت نفسها .

ويبدو أن قوقعة بكتونكولوس Pectunculus ذات دلالة خاصة بالطقوس ، وهى قوقعة ذات شقين ، وجدت بقاياها في طبقات كريت الأثرية القديمة وقد وجدت هذه القواقع كما وجد بعض الفخار الشبيه بالكريتى أيضاً في جزيرة سردينيا وعلى الساحل الإيطالى ومن ثم فمنه نميل إلى الظن ،

إن الزراعة انتشرت مبكراً في سواحل البحر الأبيض المتوسط الغربية والشرقية معاً . ولقد كان العالم الإيجي على اتصال بجنوب غرب آسيا الذي كان يتقدم بسرعة كبيرة حوالى ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م . كما أن العالم الإيجي قد عرف الزيتون من زمن مبكر ، بينما هو لم ينتشر إلى الغرب إلا بعد ١٠٠٠ ق.م .

ضأن الموفلون *Mouflon* وأكثر من نوع من أنواع المساعز تعتبر من حيوانات العالم الإيجي الأصلية ، وربما استأنست مبكراً فيه ، إلا أنه ليست لدينا أدلة مباشرة على ذلك . إلا أنه من العسير أن نتصور شعباً على اتصالات بحرية واسعة بين كريت وميلوس وربما بغيرها من الجزر لم يكن يعرف استئناس الحيوان كما عثر على تماثيل صغيرة للحيوانات . ولاتدل الطبقات الأثرية الأولى على معرفة هذا الشعب بالزراعة ، إلا أنه قد وجدت فتوس حجرية مصقولة ، استعملت في حرق الأرض في كثير من البلاد ، كما عثر على آلات حجرية أخرى ربما استخدمت في دق الحبوب ، ومن ثم من الممكن أن نفترض ظهور الزراعة فيها .

ويجب ألا ننسى أن الإيجيين القدماء كان لديهم طراز واحد من الزراعة أو الآلات الزراعية ، فكريت قد تميزت من بعض الوجوه بميزة خاصة نظراً لسهولة الخصب نسبياً من جهة ولصلاتها بآسيا الصغرى عن طريق الجزر الصغيرة التي تفصلها عنها . كما أنها فضلاً عن ذلك ذات اتصالات قديمة بمصر . فقد وجدت أواني حجرية ترجع إلى الأسرة المصرية الثالثة (٢٩٠٠ - ٢٨٠٠ ق.م) في شرق كريت . وتدل طرق الدفن في جزر السيكليد على اختلافهم في التقاليد عن سكان جزيرة كريت إذ إن معظم الموتى كانوا يدفنون فرادى ، بينما معظم الموتى في كريت كانوا يدفنون في مقابر جماعية . ويبدو أن شبه جزيرة اليونان كانت متخلفة عن كريت في الحضارة . وقد قامت مدينة طروادة القديمة التي حطمتها قوات أجائمنون الميكيني حوالى ١١٨٤ ق.م في موضع حصار لك ،



عكس (٤٣)

منظر طقس دينة ويظهر فيه السكاهات والنموس المزدوجه ،
هاجيا ترياذا ، كريت

على الجانب الجنوبي للدردنيل . وكانت طروادة التاريخية تعرف عادة بحصارك السادسة أما الآن فهي تسمى بحصارك السابعة . وربما هدم زلزال حدث حوالى ١٣٠٠ ق.م. مدينة حصارك السادسة بعد أن ظلت قائمة ما يقرب من خمسة قرون . أما حصارك الخامسة والرابعة فكانت أقل أهمية . وقد سبقتهما مدينة هامة فى هذا الموضع يقال لها حصارك الثالثة (كانت تظن من قبل مرحلة أخرى من حصارك الثالثة) . وربما استمرت هذه المدينة من حوالى ٢٣٠٠ - ٢١٠٠ ق.م . وربما قامت هذه المدينة بعد تحطيم حصارك الثانية ، فى زمن انتشرت فيه الفوضى واضطرب الأمن فى جنوب غرب آسيا كلها ومصر ، حوالى ٢٣٠٠ ق.م . وربما استمرت هذه المدينة الثانية قرنين أو ثلاثة من الزمن . ويبدو أن سابقتها حصارك الأولى ، لم تكن ذات أهمية كبيرة . ويضعها بعض الآثرين فى تاريخ سابق لعام ٣٠٠٠ ق.م.

ويبدو من المحتمل موضع حصارك كانت له أهمية كبيرة ولاسيما خلال فترات ازدهارها . فهناك تيار بحرى رئيسى يجرى باستمرار من الدردنيل إلى البحر الإيجهى ، بينما يجرى تيار آخر أسفل نحو بحر مرمرية ، ولا يظهر على السطح إلا فى ظلال غاليبولى .

ومن ثم كانت حصارك محطة لعبور الدردنيل ، كما كانت محطة لنقل البضائع من سفينة أو أخرى ، دون معاناة عبور المضائق فى مواجهة تيار الدردنيل . ومن الممكن أيضاً نقل تلك من سفن بحر مرمرية إذا اقتضى الأمر ذلك . وعندما استعملت سفن أكبر حجماً فى عصر الحديد ، استطاعت أن تصعد الدردنيل إلى بحر مرمرية ففقد موضع حصارك أهميته القديمة ، بينما قامت - فيما بعد - بيزنطة كمرقا للسفن الإغريقية المتجهة إلى البحر الأسود والخارجة منه .

ويرى سير آرثر إيفانز ، الذى كشف عن كنوسوس القديمة (كريت) أن المهاجرين من شمال أفريقية هم الذين أيقظوا الجزيرة ونقلوها من حالة العصر الحجري الحديث الذى كانت عليه إلى مرحلة أرقى من المدنية ، كما يرى أن هؤلاء المهاجرين من شعب التحنو Tehenu الذين كانوا يعيشون على حدود الدلتا الغربية ، والذين أفرعهم تكتل المصريين وانتظامهم فى ملكة واحدة شملت أجزاء الدلتا وحوض النيل الأدنى المختلفة ، ويرى بعض الباحثين أن هذا الانتظام قد تم حوالى ٣٤٠٠ ق.م. ويرى آخرون أنه ربما بعد ذلك بقرنين . ولكن من الواضح أن مصر القديمة اكتملت نظمها تحت حكم الأسرتين الثالثة والرابعة وسارت فى هذا السبيل شوطاً بعيداً ، كما نمت فى عهد هاتين الأسرتين التجارة وشيدت المباني الشاهقة . ويؤرخ لهاتين الأسرتين بنحو ٢٩٠٠ — ٢٦٠٠ ق.م. وربما أنشأت مصر وكريت علاقات تجارية بينهما فى وقت ما خلال هذه الفترة . وقد تطلب هذا ، القيام برحلات بحرية طويلة ، ربما ساعد عليها انتظام هبوب الرياح صيفاً . وكان أهم مواضع الجزيرة فى الألف الثالثة قبل الميلاد خليج موخلوس Mochlos الصغير (شمال شرق كريت) وسهل مزارا Mesara جنوب كريت . ويسمى إيفانز هذه المرحلة بالحضارة المينوية القديمة Minoan وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام . وقد انتشر استعمال النحاس الموجود فى الجزيرة خلال تلك المرحلة وأصبح مهماً ، أما البرونز فلم يكن قد عرف بعد ووجدت أشياء من الذهب الرقيق فى مقابر مزارا وفى موخلوس ، إلا أننا لا نعرف مصدر هذا الذهب . وصنعت أوان من الحجارة على طراز قائم إلى حد ما على النماذج المصرية . وقد ظن أن كثيراً من مقابر مزارا كان بها حجرات ذات دعائم ، وقد ثبت أن هذا غير صحيح . وتشبه زينة بعض الأواني القديمة عروق الخشب وهذا عجيب . وقد كان للفأس المزودة أهمية خاصة فى الطقوس فى هذه المرحلة ، وقد ظلت تحتفظ بهذه الأهمية خلال عدة قرون ثابتة بعد ذلك .

ويفترض إيفانز أن المرحلة الكبرى الثالثة ، وهى الحضارة المينوية

الوسطى (التي قسمها أيضاً إلى ثلاثة أقسام) تقع بين ٢١٠٠ إلى القرن السادس عشر ق.م. إلا أن القسم الثالث من هذه الحضارة الذي استغرق قرنين أو قرنين ونصفاً من الزمن كان فترة تدهور في كريت ، وهي تعاصر فترة العصر المظلم الذي خيم على جنوب غرب آسيا في ذلك الوقت ، بينما كانت مصر تعاني من حكم الهكسوس أو الملوك الرعاة وتعاني المدن السنديّة هجمات البرابرة الذين ربما كانوا من طلائع الهنود الآريين . وقبل ذلك كانت كريت أكثر اتصالاً بمصر منها بأوروبا ، وكانت هذه هي الفترة التي احتلت كنوسوس فيها أهميتها الكبرى ، وهي تقع إلى الداخل من منتصف الساحل الشمالي . ويقدر تاريخها عادة بنحو ٢٠٠٠ ق.م. وقد شيد قصر كبير في كنوسوس وضعت فيه صوامع فخمة للفلال، وأوان كبيرة لزيت الزيتون والنيذ ، وهذه كانت جزءاً من ثروة الحاكم ، كما شيد قصر آخر في فايستوس Phaistos ، ويجب ألا نظن أن كريت كلها كانت تحت حكم أمير واحد إلا أن السلم الذي استتب في داخل الجزيرة يوحي بأنها كانت تسلم بسلطان أمير كبير ، وتحولت صناعة الفخار في هذه الفترة من الصناعات اليدوية إلى استخدام عجلة الفخاري ، ورغم معرفة صناعة البرونز إلا أن الأدوات المصنوعة من هذا المعدن لم تكن عديدة ، وربما لاحظنا من هذا أن صناعات الحرب والدفاع كانت ضئيلة الشأن. ومن معالم آثار كريت الأختام التي رسمت عليها كتابة تصويرية Pictograph وهي طلائع الكتابة الخطية فيما بعد . ويبدو أن الانحلال الذي أصاب كريت والذي أشرنا إليه قد وصل إلى أدنى مراحلها بتحطيم قصرى كنوسوس وفايستوس ، إلا أنه ما لبثت تلك الحضارة أن انبعثت من جديد على نفس النهج المينوي القديم . فقد شهد القرن السادس عشر حركة نهضة في كريت (الحضارة المينوية الحديثة). ثم ظهرت بوادر تشابه حضارى بين كنوسوس وحدها وبين بلاد اليونان ، وقد حل فنتريس Ventris أخيراً كتابة يعرفها طلبة الآثار باسم الخط «ب» ، وجدها في كنوسوس ، ويقال إنها إغريقية قديمة .

لقد استغلت ثروات جزر بحر إيجه من وقت بعيد جداً ، فقد وجد الأويسديان في ميلوس وحدها ، ونقل منها إلى كريت ، حيث وجد في مستويات أقدم — كما يبدو — من مستويات استخدام النحاس . كما نقل إلى تساليا ، ويبدو أن فيلاكوبي Phylakopi قد نمت وأصبحت ميناء في مينوس حوالى نهاية الألف الثالثة ق.م. كما استخدم السفبازج (حجر الصفرة) المستخرج من ناكسوس واستخدم الرخام المستخرج من جزر عديدة أخرى في نحت التماثيل النسوية الصغيرة التى ربما كانت تقرنه بطقوس المخصب . وقد نحتت تلك التماثيل فيما بعد نحتاً تقليدياً مجرداً تجريداً بعيداً مع مضى الزمن . وقد قامت محلات محصنة ومسورة في الجزر الإيجية ، وهذا بعكس الحال في كريت . إلا أن أهمية تلك الجزر — فيما عدا كريت — قد قلت في الألف الثانية ق.م. رغم أن الإيسديان ظل مهتماً حتى حلت محله أسلحة الحديد الحادة . وليس هناك في بلاد الإغريق شئ يمكن أن يؤرخ — عن يقين — قبل الألف الثالثة ق.م. وليس هناك دليل على استعمال المعدن فيها في عصر مبكر . وتوجد المحلات القديمة الهامة في أورخومينوس قرب بحيرة كوبايس وفي ديميني قرب خليج فولو ، وربما كانت هذه المحلة أحدث بقليل في نشأتها من سابقتها . وقد وجد في ديميني قليل من أدوات الذهب والبرونز في مراحلها الأولى . أما أورخومينوس فقد نمت نمواً كبيراً في أواخر عصر البرونز . وهى تمتاز بالتماثيل النسوية الصغيرة مثل تلك الموجودة في الجزر ، وهذه التماثيل قد أصبحت هنا أيضاً تقليدية مجردة ، ووجد في التل الكبير المشرف على كورنث (أ كروكورنت) فخار وآثار تدل على قيام عمران قديم .

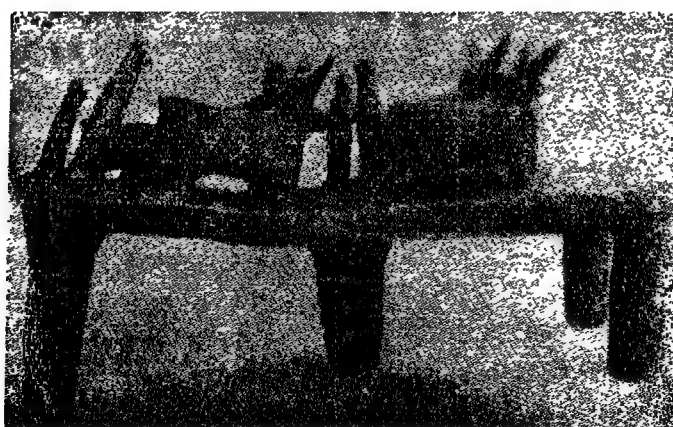
قبل أن نستمر غرباً علينا أن ندرس قبرص ، وهى حلقة الوصل بين جنوب غرب آسيا والبحر الأبيض المتوسط . وقد وجد في خيروكيثيا

بقبرص أدوات حجرية ، منها أوان حجرية وجدت في الأقيية المعروفة بالثولوس .

وهذه الأقيية عبارة عن حجرات دائرية إلى حد ما ، ذات سقف على شكل قبة مبنية بالحجارة بشكل خاص بحيث تعلو كل صخرة الأخرى نحو الداخل . ويقال إن أقيية خيروكيثيا تشبه أقيية أربشية في شمال العراق ، وهي التي وجد فيها أقدم نماذج تلك المباني . وتبنى الأجزاء السفلى من أقيية خيروكيثيا من الحجارة ، بينما الأجزاء العليا من اللبن . ويقال إن هذه المباني قد شيدت في تاريخ ما في منتصف الألف الرابعة ق.م. رغم أن الأواني الحجرية لا تدل إلا على تاريخ متأخر عن هذا ببضعة قرون قليلة . وقد وجدت أوان فخارية حمراء جيدة الصنع في مستويات حديثة في خيروكيثيا ، مما يدل على أنها دخلت إليها من الخارج .

وقد وجد في أريبي فخار أيضاً من أقيية معدلة ، شيدت أعلى حوائطها من البوص المغطى بالطين ، ويبدو أن قبة البوص هذه أقل حاجة للعناء والمهارة من قبة اللبن القديمة ، وهذا يذكرنا بما حدث أيضاً في أبنية غرب البحر المتوسط وغرب أوروبا ، وهناك أدلة من أريبي وغيرها من مواضع هامة في قبرص ، فيما عدا خيروكيثيا ، على استعمال المعدن ، إلا أن المعدن لا يوجد إلا في مستويات أريبي العليا فقط . ورغم أن هذه المحلة قديمة ، إلا أنها أحدث من خيروكيثيا .

ويرى الإخصائيون الذين درسوا قبرص أن النحاس استخرج من الجزيرة واستعمل فيها منذ منتصف الألف الثالثة ق.م. وفي أوائل عصر البرونز كانت قبرص على اتصال بالأناضول بصفة خاصة ، إلا أنها اتخذت لنفسها أسلوباً خاصاً في صناعة الفخار فيما بعد . ولم تظهر في قبرص حتى الآن أدلة على الاضطرابات العنيفة التي اجتاحت جنوب غرب آسيا ومصر



شكل (٤٤)

نماذج لمناظر عتيقة من قبرص القديمة

حوالى ٢٣٠٠ ق.م. (أى بعد الأسرة السادسة فى مصر ووفاء سارجون
الأكوى فى العراق) .

ومن مميزات قبرص الأثرية الأخرى التى ترجع عادة إلى أوائل عصر
البرونز ، أى فى أواخر الألف الثالثة ق.م. عمل نماذج تصور مناظر من الحياة
العامة ومن هذه النماذج مثلاً أزواج من الثيران تجر محاريث صغيرة ، ومنها
نموذج لمكان من أماكن العبادة ، به ثلاثة تماثيل بارزة فى الحائط ، ذات رؤوس
ثيران ، وتتعلق من أذرعها الحيات. ويجلس فى مكان العبادة أمير أو كاهن وهو
عار ، فوق عرش. وحوله عدد آخر من التماثيل الصغيرة ، من بينها أم ورضيعها
ويطل رجل من فوق حائط قرب المدخل على هذا الحشد من الناس ، ويبدو أن
هذا النموذج الذى وجد فى مقبرة يصور بعض الطقوس ، وهو لا شك فيه أثر
فريد فى نوعه ، وعلينا ألا نغفل عامل اللعب والدعابة فيه ، وازدادت الصلات
حوالى هذا العصر مع الساحل السورى ، واستورد منها كثير من الخزف
الابيض . فقد كان أوائل الألف الثانية ق.م. فترة نشاط عظيم فى أوجاريت
وييلوس وغيرها من الموانئ السورية وذلك أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة فى
مصر وفترة نشاط التجارة البابلية ولا سيما تحت حكم حامورابى . وقد مرت
هذه الموانئ بفترة تدهور - تشبه ما مر بمصر من حوالى ١٧٥٠ إلى ١٥٥٠ أو
١٥٠٠ ق.م. لا توجد فى قبرص أدلة هذه الفترة من التدهور ، كما لم توجد بها
أدلة فترة التدهور السابقة التى حدثت حوالى ٢٣٠٠ ق.م.

إذا اتجهنا نحو غرب البحر المتوسط نجد المسرح مختلفاً تماماً عنه فى شرقه
فبينما كانت قبرص عريقة فى صناعة المعدن ، نجد أن مالطة ظلت أمدأ
طويلاً لا تعرفه . ومالطة فى الواقع غامضة جداً فى التاريخ القديم . فأقدم
الآثار المالطية وجدت فى كهف ترلام حيث عثر على فخار إذا قورن بمثله

الصقلي فإنه يوضع في القرون الأخيرة للآلاف الثالثة ق.م. ولم يترك هؤلاء الدلاميون أى دليل على أنهم شيدوا مباني بحجارة ضخمة كما وجد في محار Mgarr محلة ذات مستويات مستطيلة متوالية ، حيث عثر على فخار يرجع إلى عهد متأخر ، وبما صخرى كبير (ميجالبش) فوق حجرات ثلاثية الشكل . ووجد نصب صخرى آخر في جانتيجى Ogantji بحيرة جوزو ، مشيد فوق حجرة بيضاوية مضافة إلى التصميم الثلاثى السالف الذكر أما النصب الصخرى الكبير الذى يميز مالطة فهو هال تاركسين Hal Tarxien فهو مثال رائع لهذه الأبنية الصخرية ، ويمتاز بأن له بهواً يطل على فناء أمامى قبل الدخول إلى حجرة بيضاوية ثم كوة كبيرة تقابل عمراً يؤدي إلى حجرة داخلية ، وتتكون الاجزاء السفلى لهذا البناء من كتل صخرية ضخمة مرصوفة بشكل رأسى ، وفوقها رصت صخور ضخمة أيضا ، وإن كانت أصغر على شكل صفوف أفقية ، وربما كان هناك شك في أن الحجرات البيضاوية الكبيرة كانت مسقوفة ، أما السكوى فقد كانت مسقوفة . ووجد أيضا مبنى صخرى من هذا النوع المعقد في هال سافلينى Hal Saflieni وربما استخدمت حجراته السفلية لدفن الموتى أو لجمع عظامهم ورفاتهم بعد ذلك .

وتدل التماثيل النسوية المنحوتة ، التى ربما كانت ذات دلالة بعبادة الآلهة الأم ، كما تدل أدلة أخرى مستقاة من أنواع الفخار التى عثر عليها ، على وجود اتصال بين مالطة وبين جزر بحر إيجه حوالى ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. وهو فترة التوسع الكريتى أو الميكينى . إلا أن المميزات المحلية تغلب فى التماثيل والعمارة . ولما كان الاضطراب يسود مصر وآسيا فيما بين ١٧٥٠ - ١٦٠٠ ق.م. فربما اتجه التجار الإيجيون نحو الغرب ، فإلى الوقت الذى يقع حوالى ١٦٠٠ ق.م. يرجع تشييد النصب الصخرية الضخمة فى مالطة ولا سيما هال تاركسين . وقد كان كثير من هذه المباني أقرب ما تكون للعباد منها للقبابر ، إذ كانت بها عواميد ومذابح للعبادة وربما دل الفناء الخارجى على وجود صلة ما

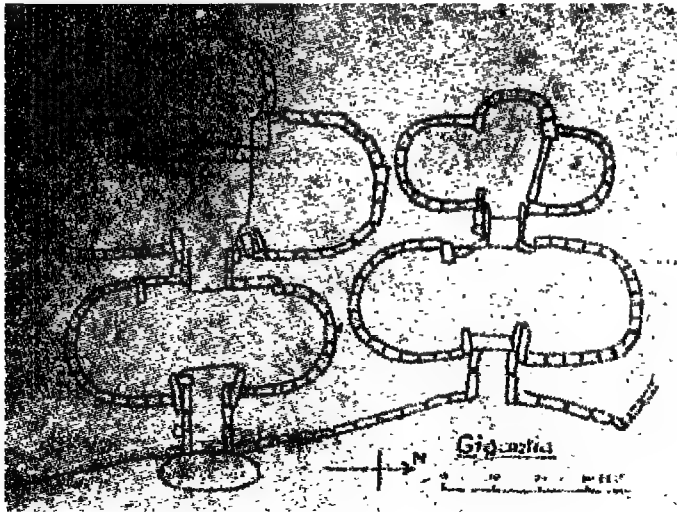
بين مالطة وبين أوروبا الأطلسية كما توجد أوجه شبه في الفخار بين فخار مالطة وفخار صقلية وأسبانيا . كما تشبه أدوات العقيق مثلاتها الغريبة عموماً . أما الحلى الخزونية وطريقة تشييد السقوف بحجارة بارزة Cerbelliug فهي حلقات تربط مالطة بقبرص من ناحية الغرب من ناحية أخرى ، ومن المحتمل أن تنحسن نظرنا وتغيرنا للعلاقات الحضارة لمالطة على ضوء ما يجحد من الكشوف ، وإن كانت الأدلة التي تشير إلى علاقات ميكنبا بالغرب تزداد يوماً بعد يوم .

إنتهت مدينة مالطة القديمة هذه فجأة حوالى ١٥٠٠ ق . م وربما تسبب غزاة يحملون أسلحة البرونز ويحرقون موتاهم ، فى هذا الانهيار أو جاءوا على أثره ويرى البعض أن هؤلاء الغزاة قدموا من سردينيا ، ولم تستعد مالطة أهميتها مرة أخرى إلا بعد أن جاء التجار الفينيقيون فى الألف الأخيرة ق . م . ويقال إن المباني الصخرية الضخمة عامة كانت طرازاً استعمارياً نشره البحارة التجار من شرق البحر المتوسط ، وبينما استعملت الصخور المنحوتة فى كريت ، إلا أنها كانت أبعد ما تكون عن الاستعمال السائد فى نصب غرب مالطة ، كما أنها لم تكن معروفة فى بعض المناطق إطلاقاً .

تقع جزر بنتلاريا على بعد يزيد على ١٣٠ ميلاً غرب الشمال الغربى لجزر مالطة ، على مرمى البصر من الساحل الإفريقى حيث لا تبعد عنه أكثر من ٥٠ ميلاً وهذه الجزر بركانية الأصل ، ذات فوهة خامده ترتفع إلى ٢٧٤٣ قدم فوق سطح البحر وتوجد فى بنتلاريا محلة قديمة يحيط بها سور مصنوع بعناية من الحجارة غير المهذبة ويزيد عرضه عند قاعدته على ٣٠ قدماً وقد وجد بها الأوبسديان الذى استخدم فى صناعة آلات معظمها خشن . أما الفخار فهو بسيط ، ولكنه من نوع جيد إلى حد ما ويدل على وجود صلات مع صقلية وجنوب شرق أسبانيا . وتوجد بالقرب من المحلة فوق



شكل (٤٥)
منظر لـحجرة في هال تاركسيان بمالطة



شكل (٤٦)
رسم تخطيطي للحجرات البيضاوية لمعبد جاتيجلي ، جزيرة جوزو قرب مالطة

أرض اللابة الوعة عدد من السيس Sesi وهي عبارة عن أكوام بيضاوية من الحجارة غير المهدبة ينتهي إليها عدد من الممرات ، وينتهي كل مر على حدة بحجرة سفلية تغطيها قبة داخل تلك السكومة ويزيد طول أكبر سيسي على ٢٠ قدما ، ويخترقها أحد عشر مدخلا أو ممرا . ولم يوجد أى أثر للبعدن في الجزيرة . وتشبه السيسى مبان مائلة لها في الساحل التونسى ، وقد قيل إن التونسيين جاءوا إلى تلك الجزيرة بحثاً عن الأوبسيديان ، ولم تصل بنتلاريا إلى ما وصلت إليه ماطلة ، رغم أنها في موقع أفضل كحلقة اتصال بين شرقى البحر المتوسط وغربية .

وربما شعرت إيطاليا وأيبيريا — كما اقترحنا في مطلع هذا الفصل — بالخافز القوى نحو بدء فن إنتاج الطعام بالزراعة ؛ في وقت يكاد يقارب الوقت المبكر الذى ظهر فيه هذا الفن في شرقى البحر المتوسط . إلا أن الزراعة التى حدثت بعد ذلك تأخر ظهورها كثيراً عن شرقى هذا البحر التاريخى العظيم أما في أسبانيا فقد استمر فن الرسم على سطح الصخور من العصر الحجري القديم حتى أوائل العصر الحجري الحديث ، الذى تعرفنا عليه من معرفة الإنسان للزراعة وإنتاج الطعام ، وهذه هى أطول فترة حضارية مستمرة في أوروبا كلها . ورغم أن أسبانيا كانت ذات أهمية خاصة في كثير من مراحل العصر الحجري القديم إلا أنه ليس هناك دليل على أن الزراعة قد نشأت فيها ، وترجع بقطة الغرب إلى مؤثرات قادمة من شرقى البحر المتوسط ، بينما حمل هذا الفن شعوبها جرت من حوض الدانوب نحو إيطاليا .

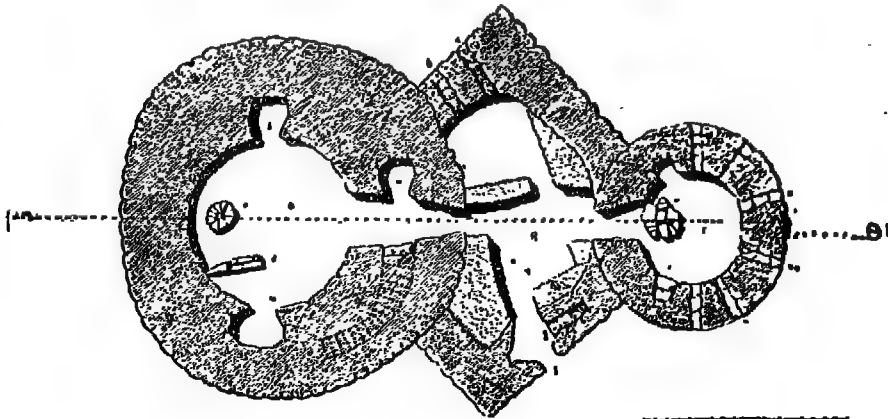
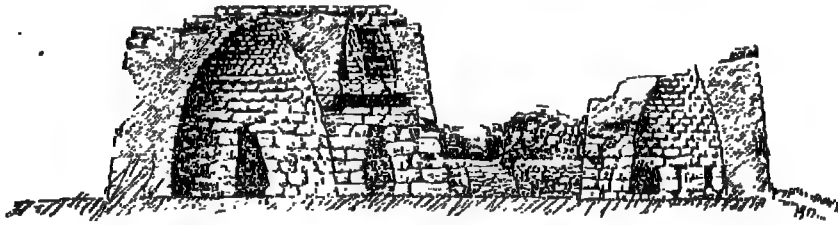
لنا أن نصف طراز النصب المشيدة من الحجارة غير المصقولة بأنه استعماري ومن ثم سميت ميغاليث Megaliths ، ومن الجدير بالذكر أن هذه النصب الحجرية موجودة بالقرب من ساحل البحر المتوسط الشرقى في فلسطين والقوقاز كما هي موجودة في جهات بعيدة مثل جنوب الهند وأجزاء من أندونيسيا واليابان وبعض جزر المحيط الهادى . وهي توجد جنوبى مصر

في السودان والحبشة ، ومن الصعب أن نقول إنها جميعاً تنتمي إلى تراث حضارى واحد . ويدل توزيع النصب الحجرى وغيرها من مباني دفن الموتى في غرب البحر المتوسط على أن بناتها لم يسكنوا المهاجرين الوحيديين الذين حضروا من الغرب وحملوا اليه الحضارة .

وتوجد النصب الحجرية في كتب إيطاليا كما تسمى أبوليا ، ولا سيما في تيرد و اترانتو Tere d'Otranto إلا أن صقلية غالية منها ، بينما وجدت فيها قبور قديمة منحوتة في الصخر ، وهذا أمر يميز لهذه الجزيرة تميزاً ظاهراً . بينما توجد في سردينيا أصناف عديدة من النصب الحجرية ، ومن بينها صنف يختلف اختلافاً كبيراً عما هو موجود في أرض أوترانتو ، وهذا أمر آخر هام . ففي سردينيا نمتاز بمقابر العملاقة — كما تسمى تلك النصب الحجرية — بفناء خارجى نصف دائرى يمتاز بأن نصفه الدائرى مسقوف ، ونصفه الآخر غير مسقوف . وينتهى هذا الفناء بدھليز طويل مبنى من الحجارة ومن ثم سميت بمقابر الدھاليز وتوجد مقابر تشبهها في أترنيم ، جنوب غرب اسكتلندة ، إلا أن دھاليزها الطويلة مقسمة إلى أقسام . وتوجد هذه أيضاً في جزيرة مان . وغرب ويلز ، وشمال غرب انجلترا ، فالى أى حد تشترك هذه جميعاً مع سردينيا في تراث حضارى واحد ، هذا أمر لا يزال مشكوكاً فيه . ويبدو أن قبور العملاقة في سردينيا كانت جبانات متصلة بقلاع محصنة ، يجرسها ما يسمى بالنورا جي Nuraghi وهى عبارة عن مبان حجرية بيضاوية أو دائرية الشكل ذات جدران سميكة جداً مثل المخروط الناقص . ويصل ارتفاع بقايا تلك المقابر إلى ٣٠ قدم ولها فتحات وكوى في حوائطها . مما لا يسمح بأى دخيل بالعبور نحو الداخل دون اعتراض الحراس أو دون التعرض للهجوم وهو يسير في ممرات ضيقة . وربما كان المدخل الخارجى إلى هذه القلاع مرتفعاً عن الأرض ارتفاعاً كبيراً ، كما أنه يمكن اغلاق ذلك المدخل من الداخل . ويدل ترتيب هذه القلاع الصغيرة حول الأماكن المحصنة ، على تنظيم دقيق وصل اليه

هؤلاء القوم مبكر آ في التاريخ ، كما يدل على ذلك ما عثر معهم من آثار ولا يزال نتساءل ما إن كانت هناك علاقة بين النوراجي في سردينيا وبين السيس في بنتلاريا .

ولا يوجد في سردينيا فخار ملون ، كما هو موجود في جنوب إيطاليا وصقلية . وأن وجد فيها بعض أوان ذات خطوط مخرزة ، ملئت بمادة ملونة . ومن الممكن أن نفهم سر وجود النصب الحجرية في أرض أوترانتو ، عندما تذكر أنها في الجانب الغربي للأدرياتي حيث يشتد ضيق هذا الممر ، أي في مقابل خليج كورنث الذي تحرسه جزر أتا كاوليوكا ، وهو طريق سلكته الحضارة الإيجية نحو الغرب . وكان على السفن التي تريد أن تعبر مدخل الأدرياتي الضيق أن تمر بخليج كورفو نحو الشمال . إلا أنه من المحتمل أن هذا الطريق لم يكن مطروقا في فجر التاريخ ، وأن النصب الحجرية على ساحل الأدرياتي حديثة العهد .



شكل (٤٧)

منظر أفقي ورأسى لقطاع المقابر في سانتا برابارا ، سردينيا

من الممكن تفسير حالة سردينيا على ضوء أهمية النحاس والرصاص في الجزيرة ، وهنا ليس من الضروري أى تكون نصبها وقلاعها قديمة العهد ، كما يظن من قبل . وربما استمر استخدامها أمداً طويلاً فيما بعد ، وتوجد في أنجيلو روجو بشمال غرب سردينيا وفي مواضع غيرها بالجزيرة مقابر عميقة في الأرض تختلف تماماً عن مقابر النصب الحجرى . ويرى Piggott أنها نشأت أولاً في أسبانيا ومنها انتشرت غرباً حتى وصلت إلى ميكينا ، ولا يزال عدم وجود النصب الحجرية في صقلية بينهما هي منتشرة في مالطة وأوترانتو وسردينيا من الغاز التاريخ . فمن مميزات آثار غرب أوروبا اشتراك منطقة واحدة في طراز واحد من المقابر . ويوجد في صقلية تولوسات Tholoi متأخرة في جانبها الشرقى كما وجدت بها بعض مقابر عبارة عن صناديق حجرية مبنية من قطع ضخمة من الحجارة إلا أن معظم مقابر صقلية منحوتة من الصخر ، ولا سيما في الصخر الجيري ، ذات مداخل تشبه الكوى ، تغلق أيضاً بقطع من الحجارة كما توجد قبور محفورة على شكل عمودى في الأرض . ومن أحسن المواضع الأثرية المعروفة في الجزيرة سنطينيللو Sentinello وهو غنى بالفخار الجيد إلا أن آلاته الحجرية ليست جيدة الصنع ، وإن كان بعضها مصنوعاً من الأبدان المستورد . ولا تزال أصول وتواريخ مراحل هذه الحضارة ضئيلة ولم تعرف بعد ، وإن كثرت عنها النقاش . ويجب أن نحترس ونتذكر أن الناس كانوا متفتق الأذهان في مراحل الانتقال من استعمال الحجارة إلى استعمال المعدن وفي فترات التوسع التجارى عندما احتاجوا إلى الدفاع عن أنفسهم ضد المغيرين . وربما تأثر هؤلاء الناس في غرب البحر المتوسط بمؤثرات قادمة من شرق الحوض ، حملت معها أساليب طلاء الفخار وبناء المقابر ، وربما وصل مهاجرون من شمال إفريقيا كما اقترح بعض الباحثين ، إلا أن رأى السائد كان ضد اعتماد صقلية في مراحل - ضارتها الأولى على شبه جزيرة إيطاليا ، ولقد أشار الكتاب الكلاسيكيون إلى السيكانى Sicani والصقليين Siculi باعتبارهم السكان السابقون للإغريق في الجزيرة ، إلا أن البحث الأثرى لم يفلح بعد إلى التعرف عليهم تعرفاً مرضياً .

وجدت في كاستلكوشيو Casteluccio بصقلىة قطعتان من قطع الزينة المصنوعة من العظام ذات حلى بارزة مستديرة ، كما وجد في صقلىة نغار على شكل الساعة المائية . وهذه الأشياء تشير إلى علاقات مع بحر إيجه ، وعلى أية حال فتفاصيل الآثار تدل على وجود علاقات مع شمال بحر إيجه وجنوبه . كما يدل على ذلك أيضاً الأباريق ذات الصنابر المرتفعة التي وجدت في كل من إقليم بحر إيجه وسردينيا . وهناك أدلة قليلة أخرى تدل على اتصالات بحر إيجه بالبرتغال . ونميل في الوقت الحاضر إلى أن نرى أن العلاقات كانت قائمة بين جزر بحر إيجه الشمالية والغرب عن طريق خليج كورنت والجزر الأيونية . وعندما أصبح المعدن أكثر شيوعاً — حوالى منتصف الألف الثالثة ق. م. ارتبطت صقلىة والغرب مع أهم المراكز الميكينية .

ووجدت في غرب صقلىة نحو الشمال ، أوان تشبه ناقوس البيكر Bell-beaker في فيلافرانتى Villafranti وفي جيراس Gerace وفي بوليرى Puleri إلى الشمال من ذلك بقليل . ووجدت في سردينيا في سانت بارتولوميو قرب كاجليارى ، وفي انجيلوروجو . وربما انتشرت هذه الآنية من أسبانيا عند بدء عصر المعدن أو قبله ، فأوانى البيكر ذات أهمية كبرى في الأندلس .

في بدء عصر المعدن ، حفزت إيطاليا هجرات عديدة من شمالها الشرقى الغربى ، ومن شرقى البحر الأبيض المتوسط . وقبل وصول تلك المؤثرات كان الشعب هنا يسكن الكهوف ، ويستقر بالقرب منها ، ويقال إن هذا الطراز من الاستقرار في مواضع قليلة في أوروبا حتى العصور التاريخية نفسها — ولم تشجع السواحل الشرقية — شمال كعب إيطاليا ، أو أوترانتو الاستقرار القديم كثيراً . فرافتها قليلة والمعدن فيها نادر والتربة فقيرة . أما السفوح الغربية لجبال الابنين فكانت أكثر اجتذاباً للسكان ، حيث أنها

تحتوى على بعض النحاس بل والقصدير ، فى نصفها الشمالى ، ثم أصبحت بعد ذلك مركزاً لتعدين بعض الحديد قرب البا . وفوق هذا فالتربة أجود والماء أغزر ومواضع الاستقرار التى يمكن تحصينها تقع بالقرب من أراض زراعية ومورد ماء أكثر توفراً . ولا بد وأن حوض البو حيث يصب نهر البو وروافده العديدة المنحدرة من الألب كان معرضاً للفيضانات العالية، ومن ثم فإن المجتمعات الإيطالية القديمة كانت تفضل سكى الركامات الصخرية جنوب البحيرات الإيطالية أو فيما بينها ، كما كانت تفضل سكى سهول أميليا بعيداً عن نهر البو .

جلبت الهجرات الرئيسية التى دخلت إيطاليا من الشمال الشرقى، وربما أيضاً من شرق سويسرة فكرة بناء القرى فوق أكوام مرتفعة ، كما جلبت معها فكرة حرق الموتى . وربما عرف الوافدون الذين بنوا قرى تيرامارى Terramare شيئاً عن المعدن . وكانوا يحبون حفر الخنادق حول قراهم وتحصينها كما شرحنا فى المجلد السابع من هذه السلسلة . وربما استمرت تلك القرى المحصنة فى بعض المواقع حتى عصر الحديد ، إلا أن بعض الكتاب يظن أنها تدهورت حوالى منتصف الألف الثانية ق .م إلا أننا لسنا واثقين مطلقاً من وجود علاقة بين هذا التدهور وبين فترة الخسوف التى مرت بحضارات جنوب غرب آسيا ، وربما أيضاً فى بعض حضارات شرق البحر المتوسط والتى حدثت حوالى هذا الوقت . وما دمننا نتحدث عن شمال إيطاليا فلا بد من أن نذكر آنية ناقوس البيكر التى وجدت فى رمديللو Remedello وبعض المواضع القليلة فى بريشيا Brescia فى لومبارديا . وهذه أشياء مبعثرة مثل أوانى البيكر القليلة التى وجدت فى سردينيا وصقلية ، ونرى أنها نتيجة بعض الاتصالات مع أسبانيا وربما مع مقاطعة الميريه بها التى بدأت فيها صناعة أوانى البيكر ومنها انتشرت إلى بقية الأندلس ومن ثم انتشرت غرباً بعد ذلك .

وجدت أعداد كبيرة من النصب الحجرية في أسبانيا والبرتغال ، كما وجدت بقايا أخرى تدل على استقرار قديم وتبادل حضارى يمكن أن يؤرخ بالجزء الأخير من الألف الثالثة والجزء الأكبر من الألف الثانية ق . م وهذا التاريخ مبدئى تماماً . فلقد كان العلماء يميلون ميلاً كبيراً إلى أن يضعوا الموضوع الذى وجدت فيه آلات حجرية دون معادن فى تاريخ سابق لتاريخ ظهور المعادن فى المنطقة التى يدرسونها . وقد تأثرت دراسة حضارات العصر الحجري الحديث وبدء استعمال المعادن تأثيراً أكثر مما ينبغى بنظرية الأصول المحلية للحضارة ، وليس بنظرية التأثير بمؤثرات خارجية ولا سيما من شرق البحر المتوسط وقد وجدت فى الأندلس أيضاً قبور على شكل حجرات مبنية من الحجارة ذات أسقف حجرية ، كما وجدت قرب مصب نهر تاجه فى البرتغال ، وقد تمثل هذه عنصراً ثقافياً دخليلاً من شرقى البحر المتوسط . وإلا فهى تعتبر مثلاً فريداً لامتزاج الآراء . وعلينا ألا نظن أن هذه الحجرات التى كانت تستعمل كقبور كانت نتيجة لما أوحى بها النصب الضخمة الموجودة فى ميكنيا وأرخومينوس . فهذه كانت قبة تطور معين فى بناء المقابر ، بدأ خطواته الأولى فى خيروكيثيا بقبرص وفى أربشية فى العراق . ويتساءل ييجوت ما إن كانت هذه الحجرات الكبيرة (Corbels) الموجودة فى ميكنيا تعبيراً عن فكرة مستوردة من الغرب .

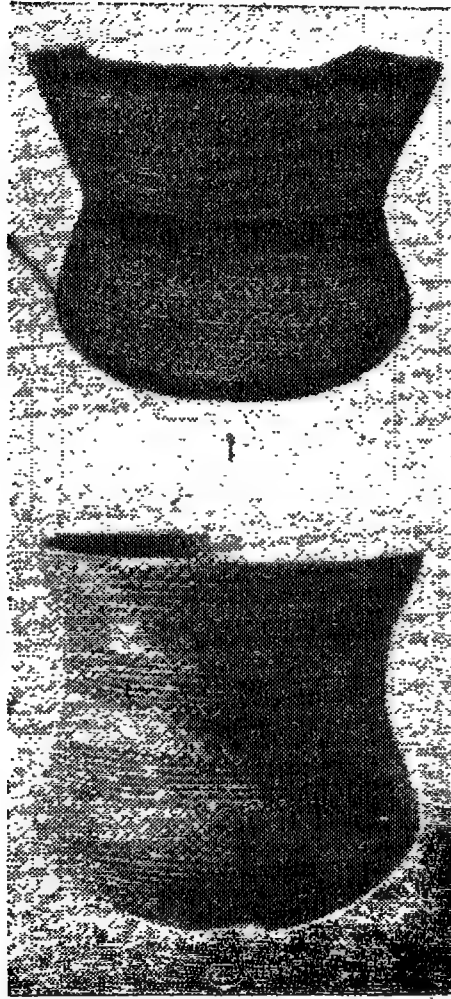
وجدت فى أسبانيا والبرتغال ، بدلاً من الأسقف الحجرية من طراز Corbel اسقف مكونة من قطع ضخمة مسطحة من الصخر تزن عدة أطنان وربما استعملت هذه الطريقة كبديل لبناء السقف على هيئة قطع صخرية ذات طنف لصعوبة ذلك الفن ، أو لوجود قطع صخرية ضخمة يمكن أن تغطي الممر من الممر الخارجى إلى حجرة الدفن ، وإذا نقص طول الممر فإن النصب يتكون حينئذ من عدد من الصخور القائمة ، يحمل كل منها صخرة كبيرة تسقف الممر ، وهذا هو شكل حجرة الدفن التى لا يمر لها أو الدولمن dolmen

البريطانية . ويظن دكتور « لسر » وزوجته أن حجرات الدفن ذات السقوف الحجرية التي تشبه الطنف أمر دخيل على المقابر الصخرية الأيبيرية الأصلية .

وقد نشر الدكتور « لسر » وزوجته نتائج حفائرهما في منطقة النصب الحجرية بجنوب أسبانيا ، ويرى هذان الباحثان أن المقابر ذات الحجرات الدائرية أكثر شيوعاً في جنوب شرق أسبانيا ، بينما ذات الحجرات المستطيلة شائعة في جنوبها الغربي . ولاحظنا أن المدافن الأخيرة ذات بمرات ودهاليز أطول . وأخيراً فإنهما يريان أن فكرة المقابر الحجرية الضخمة ربما قد دخلت كلا من جنوب شرق أسبانيا (الميرية) وغرب البرتغال حوالى ٢٢٠٠ - ١٨٠٠ ق . م . ويريان أيضاً أن المدافن ذات السقوف الحجرية دخلت شبه جزيرة أيبيريا متأخرة إلى حد ما ، كما أن أى مدفن وجدت فيه أواني البىكر دخيل على الحضارة الأيبيرية .

كانت أسبانيا في أوائل عصر المعدن تصنع أواني من نوع جميل على هيئة ناقوس البىكر . وقد نظر إليها على اعتبارها نتيجة تطور في صناعة الفخار الأسباني الجنوبي . ومن المحتمل أن تكون قد دخلت أسبانيا من الخارج . فشكل أواني البىكر قد نشأ أولاً في شرق البحر المتوسط ووجد في الأندلس في كرمونا وكورونيل كما وجد في سيمبوزيلوس Ciempozuelos وفي شمال نهر تاجه أى في قشتالة الجديدة ، كما انتشر في الساحل البرتغالي غرباً وإلى الميرية شرقاً ومن ثم ربما انتشر إلى جزيرتي سردينيا وصقلية وإيطاليا . ولم يدم زمن صنعها في البرتغال طويلاً ولكنها استخدمت طويلاً في أسبانيا حيث كانت أوسع انتشاراً مما كانت عليه شمال البرانس أو جنوبها . وقد انتشرت فكرة أواني ناقوس البىكر إلى بريتاني إما من الساحل البرتغالي أو من البرانس وسنناقش أواني البىكر مرة أخرى في الفصل السابع .

يقال إن الميرية في جنوب شرق أسبانيا قد استعملت النحاس مبكراً في



ناقوس پیکر اسپانی

التاريخ، وكان السكان في لوس ميللاريس وغيرها من الأماكن بينون النصب
الحجزية، كما أنهم في مواضع أخرى كانوا يدفنون موتاهم في حفرات في
الصخور أو في كهف أو في لحد عميق تغطيه قطعة صخرية، وإذا بطنس
حوائط اللحد بالحجارة تكون صندوق صخرى Cist. وبينما شاع استعمال
رموس النهم من شظايا الصوان الدقيقة ذات القاعدة المجوفة في أسبانيا عند
بدء عصر المعدن، أي أنها ذات حافات مشرشرة، فإن سهام الميرية كانت
ذات عنق مستطيل وحافات مشرشرة معاً. وكان عنق السهم في بعض
الحالات عريضاً حتى ليعطى السهم شكلاً معيناً مفضلماً. وتنتشر الميرية في
شرق أسبانيا حتى قطلونيا كما تنتشر في منطقة البرانس بشكل عام.

ومن الممكن أن تذكر هنا أن رأس الدبوس العاجية المزينة التي وجدت
في فورا بالبرتغال تشبه ما وجد في أنقاض مدينة حصار لك الثالثة وأنه وجد
في آثار البرتغال ١١٠٠ قطعة من خرز الكالية Calais وهو صخر شبه كريمة،
كما وجد ٢٧ قطعة من هذه المادة في قاضي كيوى قرب البوسفور إلى جانب
٨٠٠ خرزة في موربيهان بيريتاني، كما وجدت خرزة صخرية مطعمة شبيهة
بما وجد في جزر السيكليد في باليلا بالبرتغال.

ويظهر أن نماذج الميرية ولا سيما في صناعة البرونز قد انتشرت مع مضي
الزمن إلى بقية أنحاء أسبانيا، إلا أن هناك اتفاقاً عاماً على أن ازدهار أييريا
انتهى بسرعة في أواخر الألف الثانية ق. م.

لقد حاولنا أن نبين أنه حوالي منتصف الألف الثانية ق. م. انتشرت
موجة من الفوضى والاضطراب في جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا والبحر
المتوسط. وقد جد البحث عن النحاس والقصدير في كل مكان قبل ذلك
بعدة قرون، إلا أن كمية خام المعدن لم تكن كافية في كثير من الأقاليم، كما أن
استعمال الفرن المكشوف لم يكن قد عمَّ بعد، ومن ثم كان صهر البرونز
غير كامل. وكان المتبع آنذاك هو طرق البرونز اللين لعمل الأسلحة، بينما

كان جنوب غرب آسيا قد سار خطوة أخرى في صناعته وذلك بصهر المعدن وصبه على شكل السلاح المطلوب ، وعمت فيه هذه الطريقة ، ثم انتشرت منه إلى شرق البحر المتوسط على الأقل .

من الصعب أن نقول إنه وجدت في البحر المتوسط ما يمكن أن يسمى بالمدن كاملة النمو في الفترة التي تحدث عنها حتى الآن ، إلا أنه كانت هناك مجتمعات للسكان حول قصور أو حصون أو مواقع دفاعية . ولم تقم هذه إلا في المبرية في الفترة التي تحدث عنها .

سبب الفرسان المحاربون الذين اندفعوا من منطقة تركستان الاضطراب والخلع في شرق البحر المتوسط وفي حوض نهر السند أيضاً حوالي ١٧٥٠ - ١٦٠٠ ق. م . وكان هؤلاء الفرسان يتحدثون اللغة الآرية ، إلا أن هذه اللغة كانت قد ظهرت من قبل في بلاد اليونان وكريت كما يدل على ذلك أبحاث مستر فنتريس . ومالبت تلك الموجة من الاضطراب أن انحصرت ، ثم ازداد صنع أسلحة البرونز بعد ١٥٠٠ ق. م . على طريقة صب المعدن المنصهر . ومعنى هذا انتشار أفران صهر المعدن حوالي ١١٠٠ ق. م . وتمكن الصانع بذلك من إعادة صهر الأسلحة المستعملة مرة أخرى ، وهذا يغني عن البحث عن مزيد من النحاس والقصدير . ونضيف إلى هذا أن مالطة فقدت أهميتها قبل ذلك التاريخ ، أي ربما بعد ٢٠٠٠ ق. م . مباشرة . بينما ازدادت أهمية قبرص كمصدر للنحاس .

وقد استقر مستعمرون منهم العنصر الكريتي وعنصر وفد من شمال اليونان فيما بعد قرب رأس أرجوس باليونان وذلك حوالي القرن السابع عشر أو السادس عشر ق. م . وقد وجد المستعمرون في هذا المكان أرضاً خصبة ذات تربة حمراء صالحة لنمو المحاصيل الغذائية ، كما أنه قريب المنال من البحر ، وقريب من رأس خليج كورنت ، ومن ثم يمكن أن يشقوا طريقهم إلى الغرب

دون المخاطرة بالدوران حول رأس مائابان . ومن المحتمل أن يكون هذا الطريق نحو الغرب بحذاء خليج كورنت قد استعمل من قبل كما سبق أن ذكرنا . ولا يزال نجد أدلة على العمران الميكيني القديم في تل اكروكورنت الكبير الذى يطل على كورنت ، المدينة الرومانية الحديثة .

أهم مركزين للعمران في هذا المكان هنا ميكينا Mycenae وتيرنز Tiryns وقد كانت الأولى أهمية خاصة بقلعتها التى تطل على السهل والتي يصعب منالها على العدو . وربما كانت مركزاً للحكومة من القرنين السادس عشر إلى الثاني عشر ق . م . وكانت ميكينا قلعة أكثر منها مدينة ، أو قصرأ محصناً تلحق به مبان أخرى وجبانة من الحود ، ويدور حول الجميع سور ، وتظهر بوابتها الشهيرة المعروفة بباب الأسد فى كثير من المطبوعات . وقد قامت مناقشات عديدة حول التواريخ النسبية لكثير من مبانيها ولا سيما لكنوز أتريوس المشهورة التى وجدت بعيداً عن القلعة . ويتكون ذلك المبنى من واجهة ذات نقش بارز لأسد متحفز داخل إطار مثلث ، مقام على الباب الخارجى الذى يؤدي إلى قبة صخرية كبيرة ، ذات حجرة جانبية إلى يمينها . وقد ظن بعض الباحثين أن هذا المبنى قد شيد على مرحلتين ، مرحلة الممر والواجهة الخارجية ثم مرحلة القبة ، وعلى هذا فأحد الجزئين أحدث من الآخر ، إلا أن الدراسة التفصيلية التى تلت ذلك أثبتت أن هذا المبنى قد تم بناؤه جميعاً فى القرن الرابع عشر ق . م . وقد وجد الأستاذ ويس Wace ألواحاً منقوشة يمكن أن تؤرخ بالقرن الثالث عشر ق . م . تحمل لنا تفاصيل عن التجارة ، وتبين أن معرفة الكتابة كانت شائعة فى ذلك الوقت . كما أن هناك أدلة وفيرة على عظمة ميكينا فى القرن الرابع عشر ق . م . بعد أن انتهت سيادة كنوسوس إثر تخطيطها . وكانت السلطة فى ميكينا فى يد الإغريق ، الأخيين ، ومالبت طريقة النسب الأبوية أن ظهرت ، وأن حلت آلهة الأولب الذكور محل الآلهات القديمة ، اللاتى انحدرن من الآلهة الأم القديمة ، أو آلهة الخصب كما كان

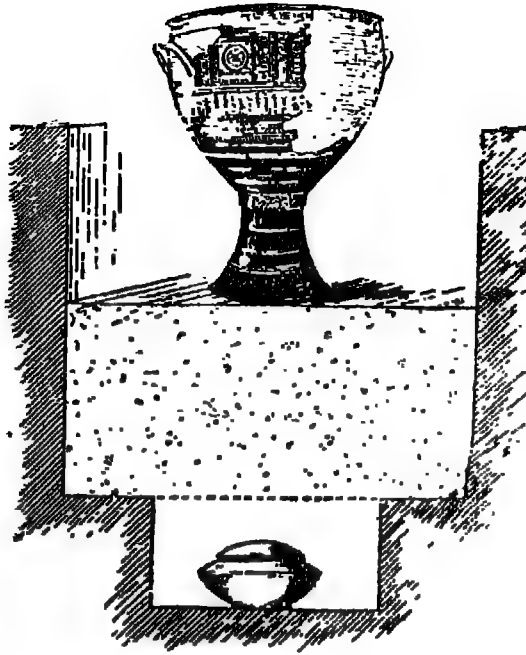
يعتقد الناس قديماً . إلا أن فكرة آلهة أنثى ، وهى هيرا ، وطريقة النسب
الأموية كانت باقية فى ميكنيا . وكان معنى النسب الأموى — من الناحية
العملية — أن من يتزوج امرأة من الأسرة المالكة ، يمكن أن يدين له الناس
بالولاء فى كل مكان ويجلس على العرش . وهذا يذكرنا باستغلال داود اسم
ميخال ابنة شاول لأغراضه السياسية فى القصة العبرية المشهورة (صمويل
الثانى ، الفصل الثالث ، ١٣) .

وقد توجت قصة حروب طروادة الفريدة ميكنيا بالنصر المبين ، إذ انتهت
بتحطيم طروادة (حصار لك السابعة) عام ١١٨٤ ق. م . طبقاً لأحدث
تاريخ .

ثم انتشرت الفوضى وعم الاضطراب حوالى ١٢٠٠ ق . م . فسقطت
رامس شمرا (أوجاريت) وبيلوس ، ودخلت مصر فى أحد أدوار ضعفها ،
وتحطمت قوة الحيثيين فى الأناضول ، ثم أعقب تحطيم طروادة انهيار ميكنيا
أما تدهور قبرص فلم يكن ملحوظاً ، كما كان الحال فى فترات التدهور السابقة
إلا أنه قلت فيها المعادن النفيسة .

ولقد كان من عوامل إشاعة هذا الاضطراب ، تحرك المحاربين من جنوب
شرق أوروبا إلى مناطق المدينة الراقية فى حوض البحر المتوسط ، وتحرك هجرات
أخرى إلى جنوب غرب آسيا ، وقد لاحظنا من قبل قيام أوتوقراطية حرية
فى نينوى تحارب القبائل الآرامية فى أوائل القرن الحادى عشر ق. م . وبدء
استعمال الجمل فى جنوب غرب آسيا .

ومن عوامل ذلك أيضاً انتشار طريقة صهر الحديد من الأناضول
وما يتبع ذلك من انتشار أسلحة الحديد . ولقد حام الشك فى الوقت الحاضر
حول دخول الغزاة الدوريين إلى بلاد اليونان بأسلحة الحديد حوالى القرن



شكل (٤٩)

جرة في قبر - مقبرة ديولون

الثاني عشر أو الحادى عشرق. م. وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نقول
إنهم اكتسبوا تلك الأسلحة بعد أن وصلوا إلى تلك البلاد . وقد أصبحت
تجارة النحاس والقصدير والأوبسديان والسفياذج (حجر الصنفرة) معرضة
للذبذبة بعد أن دخل الحديد إلى هذه المنطقة . ولا بد وأن الأدوات الحديدية
قد أثرت في صناعة التجارة ، ومن ثم بدأ الناس يننون سفناً أكبر وأقوى .
وقد أثرت كل تلك العوامل المتداخلة في تلك المنطقة التي وطدت منها الزراعة
أركانها ، وكثيراً ما كانت تتعرض التربة في بعض أجزائها إلى الانهيار ، كما
يحدث كثيراً حيث تستعمل آلات بسيطة في الزراعة . ومن ثم أصبح
المزارعون فقراء ، فتغلبت جماعة ذات تقاليد حربية شمالية وقتاً ما على
الأرستقراطية الآخية الميكينية القديمة ، وحطمت قليلاً من تراثها السابق
للإغريق .

ويذكرنا ثيوسيديد بأن أثينا القديمة كانت لا تزال تعتمد على الحبوب التي تنتجها ، إلا أن فخاز ديبلون Dipylos الذي وجد في أثينا ويرجع إلى القرن التاسع يدل على المهارة والثروة . وربما استعاد السكان الأصليون الذين تجمعوا حول عبادة الآلهة أثينا واتخذوا البومة شعاراً لهم ثقتهم بأنفسهم مرة أخرى . إلا أن كتاب المسرح المتأخرين قد تركوا لنا بصيصاً هاماً مما كان يحدث من تغير في أثينا ، وهو تفسير يتعلق بإحلال النظام الأبوي محل النظام الأموي في الوراثة .

فأثناء غياب آجامنون الطويل عن ميكينا ، استولى ابن عمه وغيره آيجستوس على كليتمنسترا . ولما عاد آجامنون أخيراً لم يجد حلاً لهذه المشكلة إلا بقتله وقتل كاسندرا التي أعطيت له بعد سقوط طروادة . وبذلك أصبح آيجستوس ملكاً - كما أصبح زوجاً لكليتمنسترا . إلا أن أورستيس وهو ابن آجامنون والسكرتيرا ابنته عارضا في شرعية ملكه وطلباً للانتقام من القاتل ، فقد كان أورستيس الوريث من ناحية الأب ، فقتل كليتمنسترا وآيجستوس . وقد عرض الروائي الإغريقي الموضوع مستعيناً بالآلهة والآلهات الذين أشركهم في هذا النزاع ، فكان أبولو بطبيعة الحال مؤيداً للتسلسل الأبوي ، بل إن أثينا أيضاً أيدت المذكور ، إذ لم تحملها أثي ، بل هي خلقت من رأس زيوس ، أما الأيونيدي أو إلهات النعمة (Furies) (١) فقد طلبن الانتقام من أورستيس عقاباً له لأنه قتل أمه ، إلا أن الآلهة هزمتها واختفت إلى الأبد ، غير أنه كتب على أورستيس ألا يقر له قرار قط . ومن النقط المهمة في هذه الأساطير أن أثينا التي ربما كانت آلهة ميكينية إغريقية

(١) Furies إلهات النعمة الإغريقية التي تخرج من طارطاروس لتعاقب الجناة (المعرب)

قد منحت نسباً جديداً ، يربطها بزيوس والبانثيون (بجمع الآلهة) الأولومبي .
فهذه أدلة توضح الصراع الطويل بين النظامين الأبوي والأموي في الوراثة .

كان المحاربون الأخيون والدوريون من أكثر الشعوب حباً لآكل اللحم إذ انحدروا من أصلاب الرعاة الذين وصلوا إلى بلاد اليونان قادمين من الشمال . أما العنصر القديم ، وهو العنصر الإيجي الأصلي فكانوا يأكلون السمك أكثر مما يأكلون اللحم . وعلى مر الزمن ، وتوالى الأجيال ، وضآلة شأن القطعان في حياة الإغريق ، اختل السمك مكاناً كبيراً على الموائد ، حتى موائد الأغنياء ، بينما لم يكن لهم إلا نصيب ضئيل من اللحم ، وهكذا أثر السكان الأصليون في الوافدين حديثاً ، وانتشرت زراعة شجرة الزيتون ، ولا سيما فوق سفوح الجبال المنخفضة في أتيكا منذ أيام صولون (أوائل القرن السادس ق . م .) ، وهذا أدى إلى وجود فائض للتصدير يدفعون به ثمن ما يستوردونه من سلع . ويبدو أن الفينيقيين قد قاموا بجزء كبير من هذه العملية في أوائل أيام أثينا ، إلا أنها بعد ذلك بنت أسطولها الذي كان يأوى إلى خليج بيرايوس (بيريه) ، وزادت من ثروتها بعد استغلال الفضة في سونيوم وبذلك خرجت أثينا من حياتها القديمة الأقرب إلى البساطة عند ما كانت تقنع بكفاية نفسها اقتصادياً إلى مركز للتجارة البعيدة المدى ، وتأسيس المستعمرات في مراقيء بعيدة عديدة . ومن أهم حقائق تاريخ الإنسانية أن أثينا وضعت حكمها في يد مجلس يتكون من رؤوس الأسر الهامة العديدة فيها — أي ديموقراطية مباشرة أو أوليغاركية في بعض الأحيان ، رغم استبعاد العبيد الذين كانوا مصدر اليد العاملة .

أثناء فترة نمو أثينا كانت الغالبية العظمى من سكانها يشتغلون بالزراعة ، إلى جانب أى عمل آخر ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً ، فسرعان ما لجأ السكان إلى التخصص في العمل ، إذ أصبح من العسير أن ينتج رب كل أسرة طعامه

بنفسه ، ومع ازدياد عدد الأسر ، أصبح نظام الديموقراطية المباشرة مستحيلاً من الناحية العملية .

وكان النظام الإغريق المثالي ، هو نظام المدينة Polis الذى نسميه بنظام دولة المدينة city-state ، ويحتل النضال والمنافسة الكبيرة بين المدن الإغريقية جزءاً كبيراً من تاريخها . وهذا هو الذى أدى أخيراً إلى خضوعها لقلب المقدونى . إلا أن المدينة شجعت الشخصية والعبقرية كما لم يشجعها أى نظام من قبل .

انتشرت فكرة المدينة فى كل مكان فى حوض البحر المتوسط ، البحر الأسود فى القرنين السابع والثامن ق . م . فقامت مدن الموانى فى أماكن عديدة على الساحل ، فى الأناضول ، وفى شرق صقلية وجنوب إيطاليا وفى ساحل فرنسا على البحر المتوسط وشمال شرق أسبانيا . وبذلك دخلت إيطاليا أولاً ، ثم بقية مناطق جنوب غرب أوروبا فى نطاق المدينة . وفى نفس الوقت عمل الفينيقيون الذين أخرجتهم منافسة الإغريق من تجارة المدن الإغريقية ؛ على تنمية صور ثم قرطاجة ومالطة وموتيا فى غرب صقلية ، وطرشيش (فى الأندلس) وقرطاجنة (قرطاجة الجديدة Carthago Nova) .

أما فى إيطاليا فقد حمل الإغريق والأوترسكان من منطقة بحر إيجة زراعة الزيتون وشيدوا مدنهم على الموانى وفوق التلال ، وقابلوا بل وتحالفوا أحياناً مع اللاتين والأمبريان Umbrians الذين وفدوا من منطقة الدانوب . وبينما نمت المدينة فى بلاد اليونان عن طريق امتصاص الغزاة الجفافة وامتزاجهم فى السكان الأصليين ، فإننا نجد الصدام أكثر مما نجد الوفاق فى إيطاليا بين المهاجرين الوافدين من مختلف الجهات وبين الأصليين ، لا سيما وأن بعض المهاجرين لهم نزعة تجارية وبعضهم لهم نزعة حربية . ويبدو أن الميراث الأصيل القديم

للسكان الأصليين أقل ظهوراً في المدن الإيطالية ، رغم أن سلالة السكان الأصليين كانت تكون الجزء الأكبر من عامة الشعب . فقد ظل الساحل الأدرياتي شمال كورفو وأوترانتو أقل تأثيراً فسترة من الزمن بالمؤثرات الإغريقية . أما في شرق البحر المتوسط فقد ظلت مصر — إلى حد ما — في معزل عن تلك المؤثرات ، إذ كانت تحت سيطرة الفرس ، هي وأجزاء عديدة من جنوب غرب آسيا . كانت روما أهم المدن التي قامت في البحر المتوسط في العصر الكلاسيكي ، فقد تأسست عام ٧٥٣ ق.م . كما تروى التقاليد وقد قامت روما على هضبة متقطعة من اللافا على جانبي نهر التيبر الأدنى ، تحيط بها عدة تلال ، وقد استقر فيها تصنيف من شعوب شتي من الأوتريكان واللاتين والأمبريان . وكانت تلك الشعوب تتقابل لكي تناقش مسائلها في ساحة تقع بين التلال ، أصبحت تعرف فيما بعد باسم النادي الروماني Forum romanum قلب الإمبراطورية الرومانية . وقد ربطت هذه الجماعات المختلفة قانون موضوع ، تطلب من الجميع التماسك التام في وحدة واحدة ، ولم يرتبط بأي جماعة معينة سواء كانت أسرة أو تقليداً أو ديانة . واتسعت المدينة لعدد كبير من الديانات طالما لم تتطلب من أتباعها الولاء الكامل لها ، فقد أصبحت إدارة المدينة وقوانينها دينوية صرفة أو علمانية . وقد اضطر الرومان تحت حكم بيتهم أن يتوسعوا في الهندسة المدنية ، ببناء الطرق عبر المستنقعات التي تحف بمدينتهم ، وتشيد الجسور فوق نهر التيبر ، ومع مضي الزمن في أماكن أخرى عبر الطرق . وكان القانون الروماني سارياً فوق الطرق كما كان سارياً فوق المدن التي تربطها هذه الطرق . وكان هذا القانون عرفاً ، فنحن نوافق بيزوجيات نظر التقاليد المختلفة ، ولم يكن كالمدينة الإغريقية التي أثرت في التقاليد المحلية تأثيراً خلاقاً . وكان هم القانون الروماني هو حفظ الأمن والنظام وليس حرية التعبير الخلاق الجديد ، وقد تزايدت ثروة الرومان في العدد والأدوات ، وانتشر الرخاء حيث انتشر الحكم الروماني ، ومع مضي الزمن ازداد الترف

والرفاهية وازداد الخمول في روما ، وهذا كان من عوامل إضعاف النظام الروماني فيما بعد ، ولا سيما وأن وسائل اتصال العاصمة بأطراف الإمبراطورية قد ضعفت باتساع رقعتها وصعب أمر الدفاع عنها ، وتعقدت أمور ولاية أمرها ، وتوارث عرشها كما يضاف إلى هذا وقوعها في أخطاء مالية ، أدت إلى إنهيار عملتها ، وتدهور التجارة والمدن ، وقد بدأت المدن الرومانية في بريطانيا في الانهيار بعد منتصف القرن الثالث ق.م. رغم احتفاظ أصحاب الضياع في الأرياف بشيء من الرفاهية . وكانت ثروة الإمبراطورية وبهاؤها عوامل إغراء تجتذب إليها المحاربين المرابطين على حدودها ، الذين كانوا يتوجسون خيفة من بطش الإمبراطورية ومحاولتها السيطرة عليهم وجذبهم إلى منطقة نفوذها . ومن ثم كان الدفاع يحتل جزءاً كبيراً من نشاط الإمبراطورية ، فتفاقمت مشاكل الدولة الاقتصادية وتهددت وحدة الإمبراطورية باستمرار . ولما كان أهم مصدرين من مصادر تهديد الإمبراطورية يأتيان من جنوب روسيا وبارثيا (فارس) فقد شيدت بيزنطة واتسعت اتساعاً كبيراً في القرن الرابع الميلادي عندما سميت بالقسطنطينية وأصبحت عاصمة جديدة على مقربة من أهم مركزين من مراكز الخطر على الإمبراطورية وفرضت المسيحية كديانة وحيدة للإمبراطورية كمحاولة لربط الإمبراطورية برباط واحد . وكانت بيزنطة مستعمرة إغريقية في القرن الثامن ق.م . لاقت حظوظاً متفاوتة تارة تحت يد اسبارطة وتارة تحت يد أثينا . ثم أصبحت مستقلة إلى حد ما ، ثم خضعت لروما ، وتحطمت أجزاء منها مرتين على يد الجيوش الرومانية ولكنها أصبحت أخيراً عاصمة للإمبراطورية وكان مرفؤها البديع مركز السفن في العصر الإغريقي ، في موقع ممتاز كمركز لتهيئة السفن التي تحمل القمح وهي غادية ورائحة من البحر الأسود .

وقد انهارت كل محاولات توحيد البحر المتوسط تحت روما أو تحت القسطنطينية وذلك بعد محاولة جستنيان القوية في أواسط القرن السادس

الميلادى . فقد انهارت العملة وتدهورت التجارة وفقدت المدن عدداً كبيراً من سكانها ، كما ازدادت سيادة الدويلات الصغيرة المحلية ، وهرع الناس يبحثون عن الأمن تحت هذا الحاكم أو ذاك . سواء كان دينياً أو زمنياً ، ولم تغلح أعمال القمع والاضطهاد لمحاولة توحيد الشعور العام وتوحيد المذاهب الدينية إلا فى إشاعة التذمر والشعور بالظلم ولا سيما فى جنوب غرب آسيا حيث التقاليد والآراء الدينية عريقة عميقة الجذور شديدة التعقد . وكل هذا منع أتباع محمد فى القرن السابع الميلادى فرصة نشر عقيدة التوحيد الذى لا يقبل أى شريك بالله ، عقيدة الإسلام ، التى حملها المجاهدون المنبعثون من حافة الصحراء ،

فقد ظهر فى ذلك الحين تناقض كبير واضح بين يثتين فى داخل حوض البحر المتوسط ، فالبلاد التى تقع جنوب خط يمتد من أرمينيا أو حلب إلى القيروان فى تونس جافة بصفة عامة ، وتعتمد فى زراعتها على أعمال الري ، وتعتبر تونس وفلسطين وسوريا منطقة انتقال بين الجزء المطير والجزء الجاف من هذا الحوض . وقد أصبحت تلك المناطق الجافة وحافة الصحراء أساس نظام الحياة الإسلامية (١) ، ومن ثم انتشر النظام من تلقاء نفسه إلى تركستان من ناحية ، حيث سبقته عملية الأغرة من قبل ، وإلى شمال أفريقية وآسيا من ناحية أخرى . وهكذا حدث انشقاق فى حوض البحر المتوسط فانقسم إلى قسمين يعادى أحدهما الآخر ، ولم تعد إيطاليا مركزاً للوحدة ، بل جزءاً ناتئاً من أوروبا فى قلب عالم معاد غير مأمون . وقد أدى هذا إلى ازدياد

(١) لا يوضع المؤلف ماذا يقصد بنظام الحياة الإسلامية . ومن الغريب أن يحاول ربط الإسلام بإقليم مناخى أو نباتى معين . وربما قصد إلى القول إن الإسلام انتشر فى عروض معينة داخل أقاليم متشابهة ومن ثم كانت الحضارة الإسلامية تتميز بتجانس إقليمي معين . غير أنه فات المؤلف انتشار الإسلام فى جهات أخرى مثل الهند وأندونيسيا (المعرب) .

تدهور التجارة والحياة الحضرية ، بل إلى تدهور نظم الصرف في الريف فهجرت الناس زراعة الأرض ، واتسعت المستنقعات وانتشر وباء الملاريا في الأماكن التي تدهورت نظم الصرف فيها ، وانتشر الفقر في أوروبا بينما انتشرت تعاليم الإسلام وبعض التراث الإغريقي ومظاهر مدنية جنوب غرب آسيا إلى صقلية وإيطاليا وأسبانيا .

وقد بدأت الصلات التجارية بين البحر المتوسط الإسلامي والبحر المتوسط الأوروبي تعود في القرن العاشر الميلادي ، ولعبت رافينا في إيطاليا الإدرياتيكية دوراً على شئ من الأهمية أثناء العصور المظلمة وبدأت أهمية البندقية وتورينيللو ، إلا أن الأولى فاقت الثانية بسرعة ، وانتقلت بعض المعرفة بالطب الإغريقي إلى سالرنو عن طريق الإسلام . وبهذا بدأ البحر المتوسط الأوروبي فترة جديدة من الازدهار وتفتح الحياة الحضرية وازدياد الثروة . ويمكن أن يقال إن الفترة الأولى استمرت من حوالى ٣٠٠ ق . م إلى حوالى ١٢٠٠ - ١١٥٠ ق . م . وإن الفترة الثانية أو الكلاسيكية استمرت من حوالى ٨٠٠ ق . م ، إلى حوالى ٥٠٠ ق . م . أما الفترة الثالثة فقد سبقها عهد من تنظيف الغابات وزراعة الممرات في غرب أوروبا أى وراء منطقة البحر المتوسط ومن ثم بدأت الحاجة للسلع الاستهلاكية تظهر في أوروبا حوالى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر ومن ثم نشطت التجارة التى عبرت البحر المتوسط فى الغرب وهذا أصبحت لمدين البحر المتوسط التجارية أسواق بعيدة فى أوروبا .

بالإضافة إلى هذا أصبحت قرطبة ، عاصمة أسبانيا الإسلامية ، مركزاً للعلوم والفنون ، يهرع إليها شبان أوروبا المسيحية النبلاء . وربما وصل فن الخزف المزجج اللامع إلى غرب أوروبا عن طريق قرطبة أو عن طريق غيرها من مدن أسبانيا الإسلامية .

إلا أن العداء المستحكم بين أسبانيا المسيحية وأسبانيا الإسلامية ، وما اعتري الأخيرة من تدهور في القرن الثاني عشر قلل من شأن قرطبة كركز للحضارة ، وما لبثت أن فقدت أهميتها في ذلك الميدان . أما في البحر الأدرياتي فقد كانت كل من البندقية وراجوزا ، المبتعدتين عن نفوذ الكنيسة على استعداد لتبادل التجارة مع الأقطار الإسلامية ، وقد أعطت راجوزا اسمها للأسطول التجاري في اللغة الانجليزية حيث عرف باسم أرجوسى Argosy غير أن جبال البلقان المرتفعة خلفها قد حد من نموها بعكس البندقية ، التي حتمت جزرها الصغيرة من الغزو البرى خلال العصور المظلمة ، بينما كانت على اتصال منظم بلومبارديا حتى ترينيو ومن ثم إلى مرموز و منها إلى الأقطار الجرمانية . التي كانت تتزايد في عدد السكان ، ويرداد بذلك استهلاكها للأسمك المملحة شتاء . ولما كان الملح نادراً في أغلب الأحيان فإن تمليح السمك لم يكن تاماً ، وهذا فتح مجالاً للفلفل وغيره من بهارات الشرق ، التي كانت البندقية تشتريها من التجار العرب ، وتبيعها كسوق هامة . ومن ثم أصبحت البندقية أهم مدن العصور الوسطى التجارية الأولى . أما جنوة التي كانت تنافسها ، فقد كانت تقع في ظل جبال الأبنين ، ومعرضة لهجمات الأمراء الإقطاعيين المحليين ، وكانت تقاسى من عبور حافة الجبال الوعرة حتى تصل إلى سهل لومبارديا ، ومن ثم كان عليها أن تجتاز ممرات الألب الوعرة ولذلك كانت جنوة أضعف عادة من البندقية في العصور الوسطى ، هذا إلى جانب عامل آخر لعب دوراً كبيراً في هذه المنافسة .

لقد كان لموقع البندقية على جزيرات صغيرة أثر في تنمية الشعور بشخصيتها المنفردة الخاصة ، ومن ثم نما لدى سكانها شعور وطني نحو مدينتهم وكان هذا من الأسباب التي جعلها زاهدة وقتاً طويلاً في امتلاك أراض على البر الإيطالى ، رغم أن هذا الأمر تغير في القرن الخامس عشر . أما تجار جنوة فربما وقعوا تحت إغراء الدخول في محالفات مع الأمراء المحليين ، وربما

أغرت جنوة بدورها بعض الأمراء للانضمام إليها كي يمنحوها الأمن والسلام .

وكانت بيزا وأمالني مدينتين هامتين وإن كانتا أقل منافسة للبندقية من جنوة . ولقد حد من نمو كل من سالرنو وأمالني اختيار نابلي عاصمة للصقليتين في القرن الثاني عشر . وبينما كانت نابلي مدينة ساحلية تحكمها أسرة مالسكة ، فإن البندقية و جنوة كانتا أوليجاركيتين تحت حكم كبار التجار ونمت ميلانو كمدينة تجارية ، وملتقى طرق تعبر ممرات الألب . ونمت فلورنسة كمدينة أوليجاركية تجارية داخلية تتجمع فيها الطرق التي تعبر أهم معابر الأبنين وأكثرها فائدة ، وقبل أن نستطرد في الحديث عن المدن التجارية الداخلية يجب أن نتحدث عن أحد عوامل نمو المدن في ذلك الحين .

أثناء العصور الوسطى وبعد أن سقطت الإمبراطورية الرومانية اشتعل خيال الناس بالقانون الروماني ، ومن ثم ازدادت هبة قساوسة الكنيسة الرومانية ، الذين أصبحوا ورثة التراث الإمبراطوري القديم وفي بدء عصر النهضة في أواخر القرن الحادي عشر أصبح القانون الروماني وعلوم اللاهوت موضوعاً هاماً للدراسات الجديدة ، وكان لابد لتلك الدراسة من تعلم اللاتينية وكان على طلبة العلم أن يملأوا في طريقهم إلى روما بمدن شمال إيطاليا بمدينة بولونيا عند المدخل الشمالي لأهم ممر يمتد إلى الأبنين نحو الجنوب ، وبذلك أصبحت مكان ملتقى طلبة العلم الذين كانوا يتلقون دروس اللاتينية والقانون على أساتذتهم في هذه المدينة . وكان هذا هو منشأ أم الجامعات الأوروبية الغربية ، ويؤرخ ذلك بحوالى عام ١١٠٠ ق . م . ولقد أضافت عوامل أخرى لنمو هذه المدينة ، كما نمت مدن جامعات أخرى على غرارها في شمال إيطاليا ، وتزعم بافيا أن جامعاتها ترجع إلى القرن العاشر إلا أنها لم تصبح جامعة بالمعنى التقليدي إلا عام ١٣٦١ . وقد نمت بافيا عند ملتقى الطرق من الشمال والغرب قرب نهر

بتشينو وقبل أن يلتقي هذا النهر بنهر البو ويغرق سهله الفيض ونشأت بادوا على الطريق من البندقية الذى يصعد نهر برنتا إلى وادى ترنتينو ، وهو الطريق المؤدى إلى بحر برنر شمالاً . ومن ثم نشأت جامعة بادوا التى لا تزال قائمة حتى الآن . ومن الصفات الهامة لهذه الجماعات التى بدأت كديموقراطيات للطلبة أنها كانت أقوى نمواً فى مدن شمال الأبنين عما كانت عليه فى مدن جنوبها الغربى .

وقد وصلت فلورنسة إلى مركز مرموق بين المدن التجارية فى العصور الوسطى . وكان من منتجاتها الرئيسية الأقمشة الفاخرة ذات الصبغة الأرجوانية التى أنتجتها بكميات كبيرة ، وكانت بعض هذه الأقمشة تستورد من إنجلترا لتصبغ وتعد نهائياً فى فلورنسة . إذ كان البابا فى ذلك الحين يأخذ الجزية من إنجلترا ، وعقدت فلورنسة اتفاقية مع روما على أن تدفع من تلك الجزية لعملاء فلورنسة فيشترون بها منسوجات وصوفاً ويصدرونه إلى فلورنسة . وكانت فلورنسة بعد ذلك تبيع الأقمشة المصبوغة وتدفع من ثمنها ما يستحقه البابا ، وبهذه الطريقة حلت إحدى مسائل تحويل العملة . ولقد نمت ثروة كل من فلورنسة وروما فى أواخر العصور الوسطى لمثل هذا السبب ، وأضافت روما إلى عمارتها مباني عديدة ضخمة ، من أهمها كنيسة القديس بطرس .

أما فى شبه جزيرة البلقان فقد أدى الصراع مع تركيا إلى تدهور البلاد ، فضلاً عن إعاقه نمو المدن ، ولم تنج من هذا التدهور إلا أجزاء ضئيلة من شبه الجزيرة .

وكانت أسبانيا مشغولة تماماً بالصراع بين المسيحية والإسلام خلال العصور الوسطى وابتداء من القرن الثانى عشر زماماً ما ، وفقدت أسبانيا الإسلامية جزءاً كبيراً من تراثها الثقافى الذى كونه فى قرطبة الإسلامية منذ

قرون مضت تحت حكم المرابطين ثم الموحيدين . وقد حاولت الثقافة اليهودية أن توفق بين الديانتين المتنافستين إلا أن نمو التعصب الديني أدى إلى محاولة طرد اليهود من أسبانيا بعد أن انهزم المسلمون فيها نهائياً على يد فردناند وإيزابيلا في القرن الخامس عشر . ولقد استطاعت سلامنكا رغم هذا ، وهي تقع عند الطرف الشمالي (أو المسيحي) للممر يخترق سلاسل الجبال الوسطى في أسبانيا ، أن تنشئ جامعة في القرن الثالث عشر ، ذات اهتمام كبير بالرياضيات ، وهذه إشارة لحلقة الوصل التي ربطت أسبانيا المسيحية بأسبانيا الإسلامية ، أما في بلاد المسيحية الشمالية فقد أنشئت الكاتدرائيات في مواضع مثل بورتوجوس وليون على الطريق إلى معبد القديس جيمس (سانتياجو دا كبو ستيلام) وهي قاعدة مقاومة الإسلام . وأصبحت طليطلة ، قلعة الإسلام الأمامية التي كانت أسبانيا المسيحية ، مدينة لها ، ترقب انهيار قوة الإسلام في أسبانيا . أما برشلونة فكان من حسن حظها أنها ابتعدت عن الصراع بين الديانتين الكبيرتين ، ونمت فيها التجارة مع مرسيليا نموأ كبيراً ، ونمت فيها أيضاً اللغة القطلونية التي دخلت فيها عناصر لغوية أسبانية وفرنسية . وهكذا نمت في أسبانيا وكذلك في البرتغال حياة حضرية ، ولكنها لا تقارن بما حدث في إيطاليا . ولقد بقي في أسبانيا جزء كبير من التراث الإسلامي في الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فلا يزال الرعاة يتحركون حركات فعلية في قشطلية الجديدة وفي إسترمادورا ، حيث كانت تعيش عناصر بربرية من شمال أفريقية ، متميزة عن الزراع المسلمين الذين كانوا يروون حدائق بلفسية .

وقد أدت الرحلات البحرية واقتحام المحيط وكشف الطرق البحرية منذ أواسط القرن الخامس عشر إلى بدء تدهور المدن الإيطالية . ولكنها منحت الثروة لوقت ما لكل من أسبانيا والبرتغال . فأصبحت لشبونة مدينة هامة ، وبشت مدريد من جديد واختيرت عاصمة متوسطة لأسبانيا ، إلا أن

الاسبان كانت تنقصهم المهارة التجارية ، وكانت البلاد تجتاحها حركات التفتيش والاضطهاد التي عرقلت نموها ، كما وجدت البرتغال نفسها منعزلة عن القارة ، تمزقها حركات الاضطهاد والتعصب الدينى أيضاً ، فانتقلت سيادة البحار إلى فرنسا وهولنده ، وبريطانيا ، وقد عانت فرنسا أيضاً زمناً ما من اضطهاد الصفوة المختارة من مفكرها بتهمة الهرطقة ومن حركات الاضطهاد والننى التي أصابت بعض عناصر الأمة .

وقد استمرت العلاقات قائمة بين البرتغال وبين أفريقية وجزر الهند الشرقية كما بقيت بعض العناصر الأفريقية الأصل في جنوب البرتغال من ذلك الحين .

لقد انطفأت شعلة الحماس الأولى في أسبانيا بسرعة ، وتدهورت التجارة وركدت المدن ، ودخلت مدريد في صراع طويل مع المدن الهامة في الأقاليم ولم تكند تصل إلى مقام العاصمة المركزية الحقبة إلا بعد عصر السكك الحديدية التي ربطتها بالأقاليم في القرن التاسع عشر . ورغم هذا فقد ظلت برشلونة أكثر من منافس لها .

وعلى العموم فقد مر البحر المتوسط في فترة اضطحلال من أوائل القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب نجاح الطرق المحيطة من ناحية ، وبسبب عجز السلطنة التركية والمملوكية في مصر . إلا أنه ينبغي لنا أن نلاحظ ظاهرة هامة من نوع مختلف . فقد أصبحت قلاع العصور الوسطى عديمة الجدوى أمام اختراع المدافع ، كما أن ازدياد التجارة جلب مزيداً من الثروات مع ما تتطلبه من الرغبة في الرفاهية والأبهة ، وازدياد المهارة الفنية في صناعة الخشب . فكان من نتيجة ذلك تقدم الاختراعات الخاصة بالآلات الموسيقية وتفاوت مدن شمال إيطاليا مثل بريشيا وكريمونا من إتقان صناعة الفيولين من أداة موسيقية قديمة تسمى الفيول . ولا تزال أسماء أجيال عديدة

من أسرة أمانى وتلاميذهم ستارديفاريوس مقدسة في كل مكان . إلا أن تقدم الموسيقى الحقيقي حدث بلا شك في بلاد شمال الألب ولا سيما بين الجرمان ، من أمثال ج . ص باخ ، ومن أبناء فينا مثل جلوك ، هيدن ، موزارت ، بيتهوفن ، فيبر ، شوبرت ، برامز ، وستراوس . وفي نفس الوقت كان التدهور يلحق بالرسمين في البحر المتوسط ، وانتقلت زعامة الرسم والتصوير إلى فرنسا وهو لندة التي تخصصت في الرسوم الدينية والموضوعات التي تعالج مظاهر الحياة اليومية ، ورسم حياة الأشخاص العاديين منذ أيام بيتر بروغيل الأكبر ، والاهتمام أيضاً بمناظر الطبيعة التي لم تعد مجرد حاشية للموضوعات الرئيسية ، بل موضوعات للرسم قائمة بنفسها .

لقد وجد القرن التاسع عشر البحر المتوسط في موقف لا يحسد عليه ، ينقصه الفحم والحديد ، ويتنازع عدد من الدويلات الصغيرة في إيطاليا ، ونظم عتيقة في الحكم والزراعة والتربية في أسبانيا ، وتمثل فيه نتائج انهيار السلطنة التركية . إلا أن هذا القرن أيضاً شهد شق قناة السويس ^(١) على يد المهندس الفرنسي دى لسبس سنة ١٨٦٩ وكان هذا أكبر حدث اقتصادى في مصر التي بدأت تنهض على يد محمد علي الكبير . فتمت مارسيليا وبرشلونة وجنوة ونابلي والإسكندرية نموأ كبيراً ، كدفن موانئ . تعيش داخل وحدات حكومية أقلية . وليست كوحدات منفردة

(١) لقد فات المؤلف أن يذكر فضل مصر في شق القناة ، لحكومة مصر هي التي منحت امتياز حفر القناة ، وكانت صاحبة أكبر عدد من أسهم شركتها ، والعمال المصريون هم الذين شقوها بفشوسهم ، قبل اختراع آلات الحفر الحديثة ، فاستشهد منهم الآلاف ، وهي فوق ذلك تجرى في أرض مصرية ، وتقديرها أيد مصرية لصالح العرب والعالم أنجع منذ أمها الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ وبذلك دخلت القناة فترة جديدة من تاريخها . (العرب)

ذات شخصيات مستقلة لها سيادة كما كانت تعيش جمهوريات مدن إيطاليا المستقلة في العصور الوسطى .

وفي نهاية القرن التاسع عشر حدثت الثورة الصناعية الثانية التي أدخلت القوة الكهربائية واستخدمت آلات الاحتراق الداخلي التي تدور بالزيت ، والتي امتازت بمشاريع الري الكبرى ، ويسكن القاهرة الآن أكثر من ١٥ مليون نسمة ، ومثل هذا العدد أيضاً يسكن في برشلونه وميلان وروما وأثينا ولاسيما بعد جلاء الإغريق عن آسيا الصغرى . أما نابلي والإسكندرية فقد وصلت الى حدود المليون نسمة ، ويزيد عدد سكان كل من مارسيليا واسطنبول وجنوه وتورين وبالرمو على نصف مليون نسمة .

إن ازدهار البحر المتوسط في عصور ما قبل التاريخ . وفي العصر الكلاسيكي وفي العصور الوسطى . يمكن أن يستأنف مرة أخرى على نطاق لا نستطيع أن نتنبأ به في الوقت الحاضر . وربما لم يعد هناك الآن محل للمدينة اليونانية المستقلة ، وربما كان الاتجاه أميل إلى سيادة الدولة الإقليمية . وربما عوض الزيت عن عدم وجود الفحم . غير أن الهوة التي تفصل الفلاح الفقير عن ساكن المدينة لا تزال عاتقاً دون تقدم هذا الإقليم .

(١) بلغ عدد سكان القاهرة في التعداد الأخير منذ نحو سنة أكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، وكذلك زاد عدد سكان الإسكندرية عن مليون نسمة (المغرب)

الفصل السابع

اوروبا شمال البحر المتوسط

يختلف تطور الحياة الاجتماعية في أوروبا شمال البحر الأبيض المتوسط اختلافاً كبيراً عنه على سواحل هذا البحر الأوروبية اختلافاً كبيراً . فبينما بدأت تظهر في حوض بحر إيجة حوالى ٣٠٠٠ ق . م . إذا بها لا تزال وقت الفتح الرومانى تحبوا في مراحلها الأولى في شمال البحر المتوسط وقد امتد سلطان روما شمالاً حتى الراين والدانوب ، ولربما وجد برايرة أوروبا خلال فترات الهدنة والسلم ، أنفسهم ينتقلون فجأة من فياني وسط أوروبا إلى شوارع مدينة مخططة ذات مبان عامة مشيدة من الحجارة . ومن مظاهر الاختلاف الأخرى بين مدن البحر المتوسط الأوروبية ، ولاسيما ثغورها الكبرى منفصلة عن سكان الريف ، الذى يعيش فى مستوى أدنى فقير ، إذ بمدن أوروبا شمال البحر المتوسط تقوم بوظيفة مركز يتجمع فيه سكان الريف لتفى بحاجياتهم كما أن الوحدات الإقليمية قد تبلورت حول لغتها المشتركة ، وقد قوى شأن هذه اللغات بدرجة كبيرة ، عندما ضعف شأن روما الذى استمر تحت البابوية فى القرن السادس عشر ، وحلت اللهجات المحلية محل اللغة اللاتينية، بينما تأثرت عقول الناس بالفكر الإغريقى الحر .

غير أن الفروق ليست شاملة بطبيعة الحال بين دولة المدينة فى البحر المتوسط الأوروبى وبين الدول الإقليمية فى الأراضى التى تقع شماله ، إذ أن حالة لوبيك فى أواخر القرن الثانى عشر والقرن الذى يليه لا تزال عالقة بالأذهان فالفرق إذن فرق فى الدرجة وليس فى النوع .

وهناك فرق آخر يتعلق بالموارد المعدنية ، إذا استثنينا أسبانيا . فلقد كانت مناطق إيطاليا والبونان لا تزال فقيرة بالمعادن ، بينما كانت بوهيميا وأيرلنده غنية بالنحاس فى العصور القديمة ، كما كانت بوهيميا وكورنثول معروفة بمعدن القصدير ، إلى جانب استخدام خشب الغابات فى صهر الحديد

في بلاد الشمال وما اكتسبته وراء ذلك من مكانة زادت ازدياداً كبيراً في العصور الحديثة بعد استخدام الفحم .

يمكن أن نقسم أوروبا شمال البحر المتوسط بطرق مختلفة يكمل بعضها بعضاً كما يصح بعضها البعض الآخر .

فأوروبا هي القارة التي تتخللها البحار بعمق ، ولقد لعب البحر البلطى وقتاً ما دوراً شبيهاً بدور البحر المتوسط نفسه وإن كان بطبيعة الحال على مستوى أدنى بكثير . فيمكن إذن أن نقسم القارة إلى السواحل من ناحية وداخلية القارة من ناحية أخرى .

وأوروبا قارة ذات بنية متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، فبعض صخورها مسامي والآخر قليل المسامية ، وأحياناً يغطي الصخور الصلبة غشاء من التربة الرقيقة وفي بعض أجزائها الأخرى تغطيها غطاء سميك من المواد المفتتة المكونة في الغالب من جلاميد وطين جليدي حملته التلججات والغطاءات الجليدية السابقة وربما لا تنمو فوق الصخور المسامية سوى أحراج متباعدة . بينما تنمو الغابات فوق التربة غير المسامية . إلا أن هذا القول يقبل الاستثناء . فربما تنحدر المياه فوق الصخور المسامية وتتجمع عند حافتها ، مما يمكن الأشجار من النمو . مثل غابات الزان التي تنمو على الحافات الطباشيرية الحادة في جنوب إنجلترا . كما أن كثيراً من الصخور غير المسامية ذات التربة الرقيقة لا يمكن الغابات من النمو . وتفسر هذه الاعتبارات توزيع العمران وخطوط المواصلات في العصور القديمة .

ولا يزال تقسيم القارة حسب التربة عظيم الأهمية لارتباطه بالتطور الاجتماعي .

شكل (٥٠)
خريطة توزيع اللويس في وسط أوروبا

كانت الرياح تهب فوق غطاءات الجليد التي تغطي القارة في عصر البلايستوسين ، وتعرى المواد المفتتة الدقيقة من فوق الركامات التي تحف بحافات الجليد وتحملها إلى أن تضطر إلى إرسابها ، أما بعد أن تنتشر فوق مساحة كبيرة في جنوب روسيا أو بعد أن تقابل عقبة مرتفعة مثل جبال الكربات . وقد سمحت تلك المواد الرسوبية للحشائش بالنمو فوقها ، إلا أن هذه الحشائش كانت لا تلبث حتى تطمر كلها ازداد تراكم المواد الرسوبية ، فإذا كان هناك قليل من الحديد أو الجير في تلك المواد الرسوبية ، كما حدث في الغالب ، فإنه يساعد على تكوين قشرة حول عيدان الحشائش أو أوراقها وهي مطمورة . فإذا تحللت الحشائش بعد ذلك تركت محلها فجوات اسطوانية عمودية الشكل . ومن ثم كانت الرواسب دقيقة الحبيبات غير أنها مسامية بسبب تلك الفجوات الاسطوانية . وتسمى هذه التربة اللويس Loess وتختلف في صفاتها حسب اختلاف ظروف تكوينها . فتربة اللويس الروسية التي جلبتها الرياح من اسكنديناوة وفنلندا كانت ولا تزال تتجمد في الشتاء ، كما أنها جافة في الصيف ولم تكن هناك عقبات مرتفعة تعترضها في طريق إرسابها . ومن ثم أرسبت التربة فوق مساحة واسعة تمتد في نطاق عريض جنوبي ، تمتد حافته الشمالية على طول خط يمتد من جبال الكربات والدنيستر حتى ما وراء قازان في آسيا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تجمد التربة شتاء وجفافها صيفاً عمل على تعطيل عملية تحلل الحشائش وتصريف ما يتخلف من هذا التحلل ، ومن ثم كانت التربة غنية بالمواد العضوية في طبقاتها العليا وسميت بالتربة السوداء أو تربة التشنوزيوم Chernoziom

أما إلى الغرب من ذلك فلم تكن فترة تجمد التربة طويلة ، كما أنها لم تعاني من الجفاف في الصيف . بل أن معظم الأمطار تسقط صيفاً على شكل أمطار إعصارية . ولذلك لا نجد التربة السوداء . وتمتد شمال الكربات تربة اللويس

في نطاق متوسط الاتساع . وتغطي معظم المجر تربة اللويس وذلك بين نهري الدانوب والتيزا Tisza ، ومن ثم فإنها تتخللها المياه ، ولا تتكون بها فجوات تهوية كافية ، وقد تكون اللويس المجرى ، كما تكون بعض تربة اللويس التي تغطي جنوب ألمانيا من فئات صخور الركامات الآلية وأغطية تاترا Tatra الجليدية . ويزداد تأثير تربة اللويس بالمطر كلما اتجهنا غرباً ويتحول إلى ما يسمى طين الهضاب limon des Plateaux في شمال فرنسا والتربة الطوية brick earth في جنوب شرق إنجلترا .

خواص اللويس التي تلخص في أنها هشة سريعة التفتت ، غنية بالموارد العضوية سهلة التهوية ، محتوية على حديد وجير ، كلها تجعلها صالحة للزراعة وكان من السهل تنظيفها من الأحراج والأشجار الصغيرة التي لا تعود غالباً للنمو فيها . ومن ثم كانت مهيئة للعمران المبكر ، وقد صلح لها المحراث الصغير من أواسط عصر البرونز أو أواخره لأنها هشة ، وقد تركت آثار التعمير منذ أوائل الألف الثالثة ق . م . إلا أن أراضي اللويس شرقي الدنبر ذات الشتاء القارس ، والصيف الجاف ، والتي تقترب اقتراباً خطراً من نطاق الإستبس الكبير ، لإقليم الرعاة المغيرين ، فقد تأخر استغلال أراضيها حتى العصر الحديث .

تغطي تربة اللوم Loam . مساحات واسعة من غرب أوروبا حتى خط عرض ٦٠° ش ، وهذه التربة تحتوى على قدر كبير من الطين ، ومن ثم لم تكن مسامية ، بل إنها غالباً مصمتة . وقد يسقط المطر في هذا الإقليم طول العام ، ولما كان البحر غالباً بطيئاً ، فإن الأملاح الذائبة في التربة تنتشر في جميع مستوياتها بدلاً من أن ترتفع إلى السطح فقط كما هي الحال في التربة الحراء في كثير من أنحاء البحر المتوسط ، وتحتفظ التربة بحجز كبير من المادة

العضوية البنية اللون ، ويزداد هذا اللون البني إذا كانت التربة أكثر مسامية وأكثر تهوية ، ويخفف لونها البني إذا كانت مساميتها أقل وتهويتها أقل ، وقد غطت الغابات معظم أجزاء التربة البنية في نطاق مناخ غرب أوروبا بعد أن انسحبت منها أغطية الجليد وتقهقرت التلاجات ، وقد غطت غابات الصنوبر فترة من الزمن هذه البلاد ، ثم انتشر بعد ذلك البلوط والدردار وبعض أشجار الزان وكان معظم هذه الأشجار ضخمة من الصعب أن يقطعها الإنسان قبل أن يستعمل الفئوس الحديدية . ولذلك لم تجتذب سهول غرب أوروبا التي تغطيها التربة البنية العمران من زمن مبكر ، ولم تقطع غاباتها قبل عصر الحديد . رغم أن أودية الأنهار التي تغطيها الحصى كانت مساحات مكشوفة كما سمح ذلك بتعمير ضفاف الأنهار التي أصبحت أيضاً مسالك للهجرة والحركة . وقد عرقلت غابات غرب أوروبا تطور الحياة الاجتماعية ، بعكس الحال في حوض البحر المتوسط وفي وسط أوروبا الشرقي ، وقد بينت ستونهنج Stonehenge وأفبري Avebury في بريطانيا ما يمكن أن يحدث في إقليم غير كثيف بالغابات . وحتى لو أزيلت الغابة من هنا أو هناك فستظل هناك صعوبة أخرى . ففي التربة البنية يتوزع الغذاء في كافة مستويات التربة ، ولا يتركز فوق المستوى العلوي فقط كما هي الحال في تربة البحر المتوسط الحراء . ولذلك لا يفلح لها المحراث الصغير الذي يقرب الأرض في حوض البحر المتوسط ، ويمنع سطحها من التشقق ، بل إنه لم يظهر في وسط أوروبا إلا في أواخر أو أواسط عصر البرونز . وتربة وسط أوروبا البنية تحتاج لمحراث يستطيع أن يشق الأرض حتى مستوى التربة العميق ، ويقربها إلى السطح ، ومثل هذا المحراث لا يصلح إلا إذا كان مصنوعاً من سلاح الحديد ، وكان ضخماً يحجره عدد من الحيوانات ، وربما صنعت محارث كبيرة في بعض الأماكن قبل عصر الحديد ، كما تدل على ذلك نقوش الصخور الليجورية ، ولكن عملية الحرث على نطاق واسع لم تتم إلا في عصر الحديد عندما أزيلت مساحات واسعة من الغابات التي كانت تغطي

الأرض الطينية . وقد اجتذب هذا مزيداً من السكان الذين تركّزوا في بقع معينة ، وتكونت مدن القلاع البربرية لتجابه الغزو الروماني الذي بدأ ينتشر في بلاد الغال وبريطانيا . ولكن رغم بدء ظهور المدن وانتشارها في الإمبراطورية الرومانية ، فإن استعمال المحراث الضخم وتنامج ذلك الزراعة والاجتماعية كانت عوامل أساسية لنمو الحياة الأوروبية في غرب القارة وشمالها الغربي ، نموأريفيأ إقليميأ في أساسه ، رغم أنه امتاز في العصور الحديثة بنمو المدن الضخمة مثل لندن وباريس وبرلين .

في شمال أوروبا ، ما بين خط عرض ٥٠° والدائرة القطبية الشمالية ، يغطي الثلج الأرض معظم شهور السنة ، وعندما يبدأ الثلج في الذوبان ، تتصرف مياهه في التربة وتحمل معها غذاء النبات ويكاد البحر يكون منخفضاً باستمرار ، ولذلك لا يرتفع إلى سطح التربة إلا قدر ضئيل من المادة المذابة ، ومن ثم كان سطح التربة بُني اللون ، ولا سيما بعد سقوط المطر ، ولا يوجد الحديد أو الجير إلا أسفلها ولذلك كانت الحاجة أشد ما تكون إلى المحراث الضخم ، غير أن المناخ أبرد من أن يسمح بنمو القمح . ولم ينتشر النظام الاجتماعي الدقيق إلا بعد زراعة الشيلم في الإقليم المعتدل الممطر شمال غرب أوروبا ، والشوفان شمال شرق القارة ، ولم يحدث هذا إلا بعد الدخول في عصر الحديد . وقد أدت صناعة قطع الأخشاب والتعدين في الوقت الحديث إلى تغييرات أخرى فوق ذلك . ومنذ أن تعلم الناس بناء السفن من الخشب ، والمخاطرة بها في البحار التي تجتاحها الأعاصير وهذا في عصر الحديد ، وإن سبقته محاولات أخرى ، أصبح صيد السمك شيئاً إضافياً في صراعا الاقتصادية . وقد لعبت السفن دوراً هاماً اجتماعياً كذلك ، فربان السفينة هو أفضل من فيها Poimus inter pares وليس رئيساً أو توفراطياً ، له الطاعة ولكنه يعتمد على معاونته رفاقه . كما أن السفينة يمكن أن تكون وسيلة فرار

من وجه المستبد ، وفوق ذلك فإن النساء كن يدربن عقولهن على التفكير باتخاذ القرارات أثناء غياب أزواجهن في رحلات الصيد . ويمكن أن نجمل القول بأن صيادى السمك الفلاحين على قدر كبير من المبادرة في العمل وعلى استعداد للثورة في وجه المستبد والفرار من وجهه . ونستطيع أن نستشهد في ذلك برحلات النورز إلى اسكوتلندة ، وأوركنى ، ففي النرويج لا يمكن تقسيم بقع الأرض الصغيرة القابلة للزراعة إلى ما لانهاية كما تقسم مساحات أرض اللويس ، ومن ثم كانت النرويج وطناً لنظام وراثته الإبن الأكبر للأرض ، أما غيره من الأبناء فلهم السفن يصطادون بها أو يغامرون بالهجرة والاستقرار في بريطانيا أو أيسلنده أو جرينلند . أو جنوبها إلى سواحل أوروبا كما فعل الفايكنج .

لم تكن في استطاعة أوروبا القطبية بثلجها الذى يجثم على التربة وقتاً طويلاً وصقيعها الدائم الذى يجمد تربتها حتى أعماق بعيدة فترة طويلة من الزمن أن تنتج محاصيل زراعية دون مجهودات علمية فائقة . فالرنة تتغذى على الطحالب والنباتات ذات الجذور القصيرة التى تنمو في الصيف ، ومن ثم كانت أوروبا القطبية أقرب إلى أن تكون حواف شمالية لأوروبا ، وليست امتداداً شمالياً لشمال آسيا رغم أن العلماء لم يتفقوا بعد على أصل شعب اللاب . وإن كاد يكون من المؤكد أنهم سلالة مختلطة مثل غيرهم من الشعوب .

سنرى من هذه المقدمة القصيرة أن أرض اللويس غربى الدينير قد لعبت دوراً في المراحل الأولى لتطور المجتمع الزراعى الأوروبي ، إلا أنه يجب أن نؤكد أن هذه الحالة خاصة بمجتمع ريفى به مناطق قليلة لتكيز السكان . إذ لم تتم المدن الأوروبية في نطاق اللويس — باستثناء المدن

الرومانية القليلة — إلا بعد القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين .
فالفرق شاسع بين هذه الحالة وبين حالة المدن الإيحية التى قامت منذ الألف
الثالثة ق . م .

اجتذبت سواحل كثيرة فى غرب أوروبا الانتباه من وقت مبكر نظراً
لأنها كانت تنتج من المعادن ما كان له قيمة . وهناك أنواع كثيرة من
الصخور الصلبة التى كانت تستعمل فى الطحن والصقل . كما كان الصوان الذى
يستعمل فى التشظية شائعاً ولا سيما فى الدنمارك ، هذا إلى أن الكهرمان كان
يوجد على شواطئ الدنمارك والبحر البلطى ، وكان للكهرمان خواص كهربية
وينظر إليه لهذا السبب كأنما به قوة سحرية ، ووجد النحاس والقصدير والذهب
فى مواضع كثيرة ، ومن ثم كانت أهمية الجزر البريطانية فى عصور ما قبل
التاريخ ، إذ كان النحاس والذهب أهم منتجات أيرلندة .

لذلك يجب علينا فى دراسة تطور أوروبا الاجتماعى بعد بدء تعلمها فنون
إنتاج الطعام أن نهتم بصفة خاصة فيما يتعلق بمراحل تطورها الأولى إلى مناطق
اللويس ، وإلى مناطقها الساحلية ، ولنتذكر فى نفس الوقت أن شطآنها
النهرية التى تغطيها الحصى والحصىاء كانت تستعمل كما ماكن أولى
للاستقرار البشرى منذ أقدم العصور ، وربما احتفظت بعض قمم
التلال العارية من الأشجار بأهميتها التى كانت لها أيام مرحلة الصيد والجمع
والالتقاط . . .

لقد كان فى مستهل الألف الثالثة ق . م . عندما شعرت جماعات جنوب
غرب آسيا المنتجة للطعام بزراعة الحبوب بأهميتها وبقية نظامها الاجتماعى
بشكل دفعها إلى أن تحاول نشر هذا النظام كما رأينا فى الفصل السادس
إلى أنحاء البحر المتوسط ، وإلى نطاق اللويس فى أوروبا كما ذكرنا فقد

انتشرت الملاحة الساحلية خلال خمسة قرون من حوض البحر المتوسط إلى شواطئ أوروبا الأطلسية .

وزحفت معها الزراعة أيضاً نحو الغرب ، مع نطاق اللويس في وسط أوروبا . ويبدو أن الزراعة الأولى هذه كانت من النوع المتنقل ، أى استخدام قطعة الأرض في نطاق اللويس غرباً . كانت أبسط من الزراعة التي انتشرت في سواحل أيبيريا وغرب أوروبا .

وتمتاز سواحل أيبيريا وغرب أوروبا بتشييد النصب الحجرية الضخمة من حجارة لم تقطع أو تهذب بعد ، وربما يصل وزن الصخرة الواحدة إلى خمسة عشر طناً أو أكثر ، فلا بد أن الأمر احتاج لمهارة كبيرة ونظام دقيق لكي يتم تشييد تلك النصب الحجرية ، وقد بين «استن ايفانز» في شمال شرق أيرلندا ، أن شعباً بسيطاً لا مهارة له كان يعيش قرب بناء هذه النصب الحجرية الضخمة ، وربما كانوا مجرد قوة عاملة للمهاجرين ، الذين جاءوا جماعات ملء السفن ، ولم يهاجروا كمائلات كاملة ، وقد سبق لنا وصف تلك النصب في الفصل السادس ولا داعي لتكرار ما سبق شرحه ؛ ولكن الإشارة هنا إلى الأمور ذات الأهمية الخاصة .

من الأمور الشائعة في طقوس كثير من الشعوب وجود طقوس خاصة لتأمين ولتسهيل الولادة ، وربما قيل إن طقوس النصب مرتبطة بنصب غرب أوروبا الحجرية على الأقل ، ويرجع معظم تلك النصب إلى ما بين ٢٣٠٠ ، ١٣٠٠ ق. م. غير أن هناك أدلة تشير إلى تقديس تلك النصب في عصر الحديد السابق للرومان وفي العصور المسيحية ، ولذلك لاندعش إذا وجدنا أدلة على تشييد تلك النصب بعد الألف الثالثة ق. م. بكثير ، ومن المعروف أيضاً أن طقوس النصب مرتبطة بهذه في الأزمنة الحديثة ، فنحن إذن لسنا يازاء شي-

قديم عني عليه الزمن تماما ، بل إزاء شيء بدأ منذ عهد قديم جدا ، ثم احتفظ بأهميته للأوروبيين الغربيين .

ويمكن أن نفترض تكملة لهذا أن عادة حرق الموتى في عصر البرنز قد غيرت المعتقدات فترة ما ، ثم عاد الناس إلى عادة دفن الموتى في أوائل عصر الحديد . وعند ما نتحدث عن الدفن أو الحرق ، علينا أن نذكر أنه ربما لجأ الناس إلى حرق جزء من الجسم ودفن جزء خاص من الجسم يعتقد أن فيه سرا حيويا ، وقد حدث - في حالات كثيرة - في أوروبا الوسيطة بل والحديثة أن كان للقلب مثلا أهمية خاصة فاحتفظ به وعولج معالجة خاصة .

ليس لدينا سوى أدلة قليلة على أن بحارة من البحر المتوسط قد وصلوا إلى شمال غرب أوروبا في الألف الثالثة أو الألف الثانية ق.م. غير أنه وجدت أصنام برتغالية من الشست الداكن في أيرلندا وجزيرة مان وغيرها، ذات علاقة بالنصب الحجرية . ويبدو أن العلاقات الساحلية مع الغرب كانت تتم من حين إلى آخر كما وجدت قطع من الكهرمان البلطي مرتبطة بالرحلات القديمة حتى فنستير في بريتانى ، إلا أنه لم يجمع أى كهرمان من النصب الحجرية المشيدة بالقرب من مورييهان التي ربما كانت أهم مركز للرحلات القديمة في غرب أوروبا ، وقد وجدت في مورييهان ما يقرب من ٨٠٠ قطعة من مادة اسمها كاليه Callais قريبة الشبه بالفيروز ، بينما لم توجد في فنستير أو جزر المانش أو الجزر البريطانية أو غربي البحر البلطي . وهذا الفرق الكبير في توزيع الأحجار شبه الكريمة يدل على اختلاف في العقائد ، بما يدل على وجود اختلاف في الشعوب نفسها . وتوجد الكالية في البرتغال (حوالي ١١٠٠ قطعة خرز) وفي جنوب أسبانيا مع بعض الكهرمان المجهول الأصل، وفي جنوب فرنسا (أكثر من ١٠٠ خرزة) دون كهرمان ، وفي المارن أيضاً دون كهرمان ، وربما جمع من جزيرة برنكيو في بحر مرمرية قرب البوسفور ٢٧

قطعه من هذه المادة ، وما زلنا نجعل منشأ هذه المادة ، وما كان يرتبط بها من طقوس وما تشير إليه من دلالة .

كانت الرحلات الساحلية تتبع أولاً سواحل أيريا وغرب فرنسا ، وربما عبرت شبه جزيرة بريتاني لتتجاشى خطر منطقة أوشانت مع ما يكتنفها من ضباب وعواصف وموجات المد المرتفعة . وربما لعبت جزر المانش دوراً كبيراً في المرحلة الثانية للرحلات المتجهة شمالاً ، في طريقها إلى كورنويل وبحر سانت جورج والبحر الإيرلندي ، وقد وجدت على طول هذا الطريق صخور يمكن أن تصنع منها أدوات حجرية كما وجد فيه ما هو أثمن من ذلك ، وهو معدن النحاس والذهب الذي كان يجمع تهره من مجارى الأنهار الأيرلندية ثم استمر الطريق شمالاً عبر بحر الشمال ، وخليج كلايد (مع اختراق برزخ كانتير Cantire) والمينش ، وأوركني ، وشتلند ، وكينش حتى جريت جلن . وهكذا استمر الطريق إلى دنمارك . فلم يعد البلطى الغربى مجرد مكان ناء ، وإن توافر النصب الحجرية والآثار فيه يجعلنا نميل إلى أنه كان محط الرحال ، هدفاً لرحلات كثيرة ، ولا نبعد عن الصواب إذا أرجعنا هذا إلى وجود مادة الكهرمان على الشواطئ الدانماركية والبلطية وما ارتبط بها في الأذهان من قوة سحرية .

من المحتمل أن طرازاً واحداً من طرز النصب الحجرية وهو المكون من دهليز تغطيه قطعة صخر واحد ويؤدى إلى حجرة مسقوفة ، قد انتقل عن طريق الملاحة الساحلية . وكانت الحجرة الداخلية أحياناً تغطي بقطعة صخرية كما كان الدهليز أقصر . كما وجد في انتريم بجنوب غرب اسكتلندة ، وجزيرة مان وشيشر وغبيرها طراز آخر يمتاز بفناء خارجى تحيط به صخور قائمة ويؤدى إلى عدد من التوابيت الحجرية المرسومة في خط مستقيم . وقد يحدث تحنين أو تبسيط مختلف على كل من هذين الطرازين . وقد كانت القبور

المسقوفة بالصخر (١) هامة في أسبانيا القديمة ، كما عرفت النصب ذات الفناء الخارجى في سودينيا ، إلا أنه يجب ألا نستنتج الكثير من أوجه الشبه بين النصب الحجرية في سردينيا وبريطانيا .

وكانت النساء يصنعن الفخار ما دامت طريقة صنعه يدوية . ولم تكن نساء المجتمعات المختلفة يختلطن بعضهم البعض نظراً لاختلاف اللغات والطقوس والعادات ، ولذلك تنوعت طرز الفخار . والأدلة المشتقة من الفخار هامة جداً ، حيث إن قطع الفخار ظلت باقية آلاف السنين ، وقد عثر منها حتى الآن على عدد لا بأس به من قطع الفخار الكاملة التى ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ .

لما كانت أوروبا شمال البحر المتوسط مجرد حافة برية للشرق الأوسط والحضارة الإيجية ، فقد كان من الطبيعي أن يصنع فخار الشرق الأدنى الملون مع مرور الزمن ، فى الألف الثالثة ق . م . فى أراضي اللويس بالمجر وغرب الدنيبر . ورغم أن المهارة فى صناعة الفخار قد انتشرت غرباً ، إلا أن فكرة صناعته لم تتوغل بعيداً . وبدلاً من هذا كان الفخار يحزز وهو لين بخطوط أو توضع عليه بصمات الأصابع أو تخدش وكانت الخطوط ترسم على الفخار بعضاً مدببة أو بضغط خيط حول الإناء . وهناك أوان فى المتحف الدانماركى زينت بضغط قوقعة معينة على سطحها قبل أن تحرق وتعتبر إحدى هذه الأوانى تحفة فى الواقع من صنع صانع ماهر ، أو دعنا نقل صناعة ماهرة ويتبع الأثريون انتشار أنماط الفخار ، وحاول أنماط محل أخرى فى أنحاء أوروبا باعتبار ذلك أهم دليل على هجرة الشعوب والعناصر الثقافية .

ومن الحقائق ذات الأهمية أنه حوالى ٢٠٠٠ ق . م . أو بعد ذلك مباشرة

ظهرت في أسبانيا وفي وسط أوروبا أنواع جيدة من الفخار أفضل مما كان معروفا في تلك الأنحاء حتى ذلك الحين . وكانت هذه الألوان عبارة عن كتوس للشراب أو بيكر ، مصنوعة من طينة ممتازة وجيدة الحرق . وطراز البيكر هذا له أهميته خاصة ، فرغم أنه بأنواعه المختلفة — لا يعيش أكثر من أجيال قليلة ، إلا أنه يمكن تتبعها في جهات واسعة من أوروبا ، في أسبانيا وفي أرض اللويس بوسط أوروبا ، إلى جانب البيكر جيد الصنع الذي وجد في بريطانيا . ومن الممكن أن نستنتج من هذا أن شعب البيكر كان كثير الحركة والانتقال ، وأنه كان في حركته لا يصطحب معه إلا عدداً قليلاً من النساء ومن ثم اضطر إلى التزاوج من الشعوب التي يحل بينها ، وهذا أدى إلى تدهور صناعة الفخار البيكر . إذ لوحظ وجود فخار مصنوع من نوع خشن من الاتصال في بريطانيا بصفة خاصة .

لقد نوقشت مسألة منشأ صناعة فخار البيكر وانتشارها منذ عدة سنوات ومن المتفق عليه — كما يبدو — أن إناء البيكر الذي يشبه الناقوس وكانت له قاعدة عريضة ، دون أن يكون كبير الارتفاع مع قطاع طولى يشبه حرف **D** كان هو الطراز الأساسى . وقد وجد هذا الطراز في بعض المقابر الحجرية الضخمة في البرتغال وأسبانيا وبريتاني . كما وجد في أراضي اللويس بوسط أوروبا . بل إنه وجد بعد ذلك في داخل أسبانيا ، حيث عثر على هذه الآنية مرتبطة بأدوات أخرى بسيطة ، كما يمكن أن نستدل من الأشياء الباقية والتي لم تحطم حتى الآن . ويرى بعض الكتاب أن آنية البيكر انتشرت من مكان ما بوسط أسبانيا إلا أن دون ذلك عدة صعاب . فن العسير تصور انتشار صناعة دقيقة الصنع من حيث لم توجد سوى أدوات بسيطة ، كما أنه لا توجد سوى أدلة ضئيلة على انتشار آنية البيكر من وسط أسبانيا إلى أرض اللويس في وسط أوروبا ، كما أن افتراض نشأة تلك الصناعة في وسط أوروبا الشرق وانتقالها من ثم إلى أسبانيا دونه صعوبات أخرى ، خاصة بالطرق التي يمكن

أن تكون هذه الهجرة قد سلكتها ، وإن لم تكن هناك صعوبات كبيرة فيما يتعلق بإنشاء صناعة تلك الآنية ، حيث إنه وجدت هذه الآنية في وسط أوروبا مرتبطة بعدد وفير من الأدوات والآلات ولا سيما أسلحة معدنية ذات صفات بوهيمية . وهناك افتراض ثالث هو أن كلا من سواحل أسبانيا والبرتغال ووسط أوروبا قد عرفت نوعاً ممتازاً من الصلصال وطريقة صنعه على هيئة ناقوس البيسكر من شرق البحر المتوسط . إلا أن التشابه بين آنية ناقوس البيسكر في وسط أوروبا وأسبانيا لا يدل على أصل مشترك . وأخيراً فإن احتفاظ هذه البلاد البعيدة بعضها عن البعض الآخر بطراز واحد معين من الأواني أمر من الصعب تصوره .

من الممكن أن نستنتج من الأدلة الأثرية أن صناع آنية البيسكر كانوا شعباً كثير الحركة ، وربما كانوا رعاة محاربين وتجاراً ، وكانت لهم طقوسهم الخاصة في وسط أوروبا . ومن الممكن أن تكون آنية البيسكر التي انتشرت كعنصر حضارية ، والصناع البيسكر كنصر اجتماعي خاص ، كانوا هؤلاء الذين طوروا صناعته في وسط أوروبا والبلاد المنخفضة وبريطانيا تطوراً خاصاً ، وصنعوا آنية بيسكر ذات عنق طويل بما يميز آنية شرق بريطانيا .

وبينما كان سكان السواحل يدفنون موتاهم في مدافن مشتركة تقوم عليها نصب حجرية ضخمة خشنة ، فإن شعب البيسكر كانوا يدفنون موتاهم فرادى في مدافن يهيئون عليها تلال مستديرة للشكل . وربما كانت هذه المدافن خاصة بزعمائهم ، وإن كانت هذه المدافن قد تتسع لدفن شخص آخر فيما بعد . وهذا يدل على اختلاف في المعتقدات بين سكان السواحل وشعب البيسكر . فهل كان الزعماء يدفنون وحدهم في مقابر منفردة ، لأنهم أشخاص تحيط بهم حالة خاصة من القدسية ، ولأنهم وحدهم لهم صفة الخلود الروحية ؟ وعلى كل حال فإنه يبدو أن شعب البيسكر قد أقلع عن فكرة الدفن الجماعي . وتماز مدافن

شعب البيكر في الأراضي المنخفضة (هولندية) بأنها محاطة بدائرة من الأعمدة الخشبية .

وربما كان في بريطانيا اتصال ثقافي وتبادل حضارى ولا سيما في صناعة البيكر أو ما يتصل بها من آنية بين الملاحين الذين كانوا يطوفون حول السواحل وبين الشعوب التي كانت تتحرك في نطاق اللويس ، لأنها تقع في الطريق نحو النحاس والذهب الأيرلنديين ، وفي طريق الكهرمان جنوب البحر البلطي وغربه . ولا شك أن هذا الالتقاء الحضارى كان مستولاً عن التقدم الحضارى الكبير الذى حدث في هذين الإقليمين . فلدينا في بريطانيا نصب أيفورى Avebury وستوننج Stonehenge ، التي صممت على أساس دائرة الأعمدة الخشبية ، واستعير عنها بنصب حجرية ، جلبت من بمبروكشير وصخور أخرى وجدت في تلال ولتشير . ولا نعلم ما إن كان قد سبق أيفورى دائرة من الأعمدة الخشبية أم لا ، إلا أنه يمتاز بدهليز طويل من الصخور القائمة ، مما يرتبط دائرة أيفورى من النصب الحجرية القائمة بما يعرف بالمعبد Sanctuary المقام فوق أوفرتون هل ، على مقربة من أيفورى . قد أعاد «سنيوارت بيجوت» تفسير تصميم حفر الأعمدة التي تحيط بالمعبد ، على أنها تدل على بناء من الخشب أعيد بناؤه عدة مرات بعد تدميره ، وأنه بعد ذلك عدل تعديلاً جزئياً عندما استخدمت الحجارة في البناء .

وتوجد في الدنمارك هياكل ضخمة من الصخر غير المصقول. تضم رفات شخص واحد ، أو أكثر من شخص ، إلا أننا لا نجد امتزاجاً في المعتقدات كما نجده مثلاً في استوننج أما حفرات أوبرى Aubrey والخذق الذى يحيط بها فإنها يمكن أن تؤرخ في حدود ثلاثة قرون قبل أو بعد ١٨٥٠ قبل الميلاد ، أو في هذا التاريخ نفسه . وقد تمكن القدماء من بناء دائرة مزدوجة من صخور زرقاء وصخور بركانية أخرى مجلوبة من برزيلي وبرومبيكشير وقطع من

الصخور الرملية من كشتون : ويبدو أن هذا مرتبط بشعب البيكر . ثم استخدمت الصخور المحلية في إقامة النصب الحجرية على هيئة دائرة مزدوجة . وتدل نقوش الفئوس البرزية فوق الصخور على أنها ترجع إلى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد . إذ أنها تمثل خنجر ميكينا ، وتطلق على طريقة إقامة الصخور المزدوجة الدائرية طريقة γ و z ولا تزال تفاصيل تلك النصب الحجرية تجمع حتى الآن (١٩٥٤) ، وتدل هذه الأبحاث على أن استونهج يمثل مزيجاً من آراء الشعوب البحرية التي جاءت مع السواحل الغربية آراء سكان نطاق اللويس الذين تحركوا أيضاً نحو الغرب كما أن دلالتها الفلكية تدل على ازدياد أهمية التقويم لهذا الشعب .

وهكذا أصبح من معالم تاريخ بريطانيا القديم اختلاط حضارتين اختلاطاً جزئياً . ولا ريب أنه اقترن بتزاوج بين المهاجرين وفتيات السكان الأصليين وما تبع ذلك من صهر الآراء الوافدة الجديدة بالآراء القديمة . إلا أننا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن هناك عمران بشري مستقر قد ظهر بعد ، يشبه العمران الذي ظهر على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط .

تضمن استخدام المعدن القيام بتجارب جديدة لم يكن للناس عهد بها من قبل . فقد كان يشوب الخامات التي تستخدم شوائب لم تكن معروفة ، وبعض هذه المواد مثل القصدير والزنبرج كانت ذات قيمة خاصة ، إذ أنها منعت تكون فقائيع الأكسجين في النحاس المنصهر ، ومن ثم لم تعد سبيكة المعدن اسمنجية والقصدير والنيكل يعملان على تقسية النحاس ، ومن ثم يمكن أن تشحذ أسلحة بطريقة أفضل ، إلا أن استعمال المعدن قد جلب معه تجارب اجتماعية جديدة ، منذ أن عرف خلط النحاس بالقصدير — أي منذ معرفة البرونز . فقد وجد تبر القصدير في غالييسيا الأسبانية وعلى ضفاف فيلين *Vilaine* في بريتاني ، ووجد النحاس من عهد مبكر في جنوب أسبانيا وفي

أيرلندة . وكان لابد من خلط النحاس والقصدير معا ، وجمعهما من أماكن تعد فيها لكي تصهر سبيكة البرنز . وهذا كان يعنى إقامة نظام المواصلات وتبادل المعادن . وعندما وجد النحاس والقصدير معا أحدهما قرب الآخر في جبال الأرز ، بوهيميا ، اكتسب هذه المنطقة أهمية خاصة في التعدين ، ويبدو أنها نظمت التبادل التجارى بينها وبين غرب البحر البلطى ، الشهير بكهرمانه . وهكذا بدأ ازدهار صناعة البرنز أزهاراً كبيراً في البحر البلطى ، الذى استخدم في بادىء الأمر نماذج صناعية بوهيمية . وتستخدم حبات الخرز كأدلة على طرق المواصلات القديمة ، حيث إنها سهلة الحمل ، وقد وجد في ٣٦ قبر في وسكس حبات من الزجاج الملون Fiance التى جلبتها التجارة الميسينية والتى يرجع تاريخها إلى حوالى ١٣٥٠ قبل الميلاد ، وقد وجد بعضها في بريتانى وجنوب شرق أسبانيا ، كما وجدت حبات الخرز المطعمة في ساتون فينى (بولشر) ووجد عقد في أودورن ، ووجد في درنت هولندة أربع خرزات من الزجاج الملون ، و٢٥ خرزة من القصدير . وأخيراً فقد عثر في تارا بأيرلندة على رموس من الزجاج الملون المطعم . وقد تعرف تشايلد إلى خنجر وجد في بلينت Pelynt عام ١٨٤٥ وقال إنه من طراز ميسينى ويرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ق . م .

عندما تعلم الإنسان حفظ سطح الآتون ملتهباً بحيث يكتفى لهيبه لصهر المعدن صهراً تاماً ، واكتسب المهارة اللازمة في خلط النحاس بالقصدير بالنسب المضبوطة (تقريباً ٩ : ١) وبذلك تحاشى تكوين فقائيع الأوكسجين في المعدن المذاب ، فإنه بذلك تقدم خطوات كبيرة أخرى لها نتائجها الاجتماعية الهامة . فبعد أن كان يصنع أدوات معدنية بوساطة طرق المعدن الساخن ، تقدم خطوة أخرى وصنعها بوساطة صب المعدن المذاب في قوالب من الطين لكي يحل محل الشمع الذى يتسرب من ثقب خاص في القالب . وتسمى هذه الطريقة بطريقة الشمع المذاب cie perdue . إذ يصنع مثال من الشمع لها

يراد صنعه ، ثم يوضع هذا المثال في الطين أو الصلصال المبلل ، ويصنع قالب من الطين يشطر نصفين . ثم يوضع القالب الشمعي مع قالب الصلصال في فرن لكي يحرق الصلصال ويصبح صلباً ، بينما يذوب الشمع ويتسرب من ثقب خاص لهذا الغرض . وبعد ذلك يملأ قالب الصلصال بالمعدن المنصهر فيتخذ الشكل المطلوب ، وقد تمكن الصانع باستخدام طريقة صب القوالب هذه أن يصنع ثقباً في الفأس البرنزى لكي يضع فيها اليد الخشبية ، أو أن يصنع تجويفاً في آخر رأس الرمح ليركبها في قناتها الخشبية ، وهذه طريقة أفضل من ربط الفأس أو رأس الرمح بوسيلة ما في قطعة الخشب التي يمسكها بها .

وتمكن الصانع أيضاً باستخدام وسيلة الصب هذه من إعادة صهر الآلات المستعملة القديمة ، وبذلك استمر استخدام سبيكة البرنز مرة بعد أخرى واستغنى عن استيراد كميات كبيرة من خامات المعادن . ووجد عمل الباعة المتجولين الذي كانوا يجمعون قطع البرنز المستعملة . وقد تمكننا من استعادة قصة عصر البرنز بعثورنا على تلك القطع البرنزى القديمة . ووضع المرحوم هارولد بيك قائمة بأكثر من ١٧٠٠٠ قطعة برنزى عثر عليها في بريطانيا ويمكن دراستها .

ثم تطور بمضى الزمن — الخنجر إلى رمح وسيف وهما من أسلحة القتال التي يستخدمها المحاربون في المركبات الحربية أو على متون الخيل ، وتزداد بعد ذلك أدلة استخدام الحصان في الركوب ، وفي جر عربات القتال التي يتطلبها محارب يستعمل القوس . غير أنه لا يوجد في بريطانيا — وهي بلد متأخر في ذلك الحين — أية أدلة على استخدام الحصان ، أو أى حيوان آخر في جر العربات ، حتى أواخر عصر البرنز . إذ عثر في جلاستون برى على أدلة تشير إلى وجود صناعة العجلات والعربات التي تجرها الخيل ، التي يبلغ طول محورها ٤ م — ٥ قدم ، وذلك منذ عصر الحديد ، في أوائل العصر

السابق للرومان . وقد ظل طول محور العجلات ثابتا ، إذ أنه الاتساع المطلوب الذى يكفى لربط الحصان المستخدم فى جر العرب ، (والغريب أن اتساع قضبان السكك الحديدية هو ٤ أقدام و ٨ ١/٢ بوصة) . وقد حل حصان داخلية آسيا (المسمى بحصان برتسفالسكى Przewalski) محل الحصان الأوروبى الغربى المسمى بحصان تاربان Tarpan (الذى كان يستعمل قديما فى جر الأثقال) . كما انتشر ضأن اليوريال Urial وهو من أنواع غرب آسيا ، فى أوروبا فى عصر البرنز ، ويرى بعض الباحثين أن هذا النوع حل محل نوع شمال أفريقيا الموفلون Moufflon المستأنس ، ولا تزال بعض أمثلة هذا النوع باقية فى سواى Soay بحجزر الهبرديز . كما انتشرت أنواع الماشية الآسيوية فى أوروبا . وهذه الحقائق الهامة تدل على العلاقات الهامة التى كانت تربط أوروبا بالإستبس الأرواسى الكبير فى عصر البرنز المتوسط . أى فى العصر الذى غزا فيه الهكسوس أو ملوك الرعاة مصر ، وأدخلوا فيها الحصان ، والعصر الذى شهد اضطرابات عنيفة فى بلاد الرافدين (العراق) والعصر الذى غزا فيه - كما يبدو - برايرة يتحدثون لغة آرية وادى السند .

وإن عدم دخول اللغة الآرية إلى الصين مع غزاتها فى ذلك الحين ليدل على أن اللغات الآرية نشأت فى أراضى الاستبس المنخفضة وليس هضبة منغوليا المرتفعة فسكان الاستبس هم الذين حملوا اللغات الآرية إلى الهند وإيران ، كما أنهم أيضا حملوها إلى أوروبا . ويرى بعض الكتاب أن اللغة الآرية قد دخلت أوروبا فى أواخر العصر الحجري الحديث ، إلا أنهم لا يعتمدون فى ذلك على أدلة قوية .

ويرى أساتذة القرن التاسع عشر أن الموجات الكلتية والتيوتونية والسلافونية المتتابعة قد دخلت أوروبا مندفعة نحو الغرب الواحدة إثر الأخرى وتدفع آخرها أولها نحو الغرب . ويبدو الآن أن الآريين القدماء قد استوطنوا

في مناطق مختلفة من أوروبا واختلفت لهجاتهم بعضهم عن بعض، بعامل العزلة إذ فصلت الغابات والجبال والمساحات المائية بعضهم عن بعض كما اختلفت أيضا بتزاوج هذه الموجات الآرية بالعناصر الأوربية القديمة . وقد وجد «سير جون موريس جونز» عناصر سابقة للآرية في لغة ويلز ، كما أن «إدوارد لويد» E. Lhuyd منذ ٣٠٠ سنة بين أن الأسماء السابقة للكلت لا تزال باقية في بعض أسماء الأماكن بويلز .

كانت لغة الكلت منتشرة في جنوب ألمانيا ، كما انتشرت اللاتينية القديمة في بعض أنحاء إيطاليا حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. ولقد نوقشت مسألة الكلتية منذ خمسين عاما ، على أساس افتراض انتشار موجتين آريتين غربا . وقد افترض أن الموجة الأولى كانت تؤكد حرف القاف (١) والكاف بينما تؤكد الموجة الثانية حروف الباء (٢) وقد رأى بعض الكتاب حديثا أن لغة كلتية أصلية أقرب إلى لغة ويلز انتشرت نحو الغرب حيث تأثرت بلهجات أيرلندة القديمة ومن معالم أيرلندة واسكتلندة الغالية Gaelic استعمال حروف القاف والكاف ، بينما الباء والفاء من معالم لغة ويلز وبريطانيا Breton . أما لغة المانكس فتنتهى إلى مجموعة القاف الكلتية ولغة كورنول تنتهى إلى مجموعة الباء ومن السهل على الأشخاص ذوى الشفاه العليا الطويلة أن ينطلقوا حروف الباء ، والفاء . ويلاحظ شيوع أسماء الأماكن التى تبدأ بحرف القاف في جنوب بريتانى ، وهو حرف هام كان شائعا في اللغة السابقة للكلتية ومن أمثلة ذلك : Quimper, Quimperle, Quinberon, Questenbert, Queven, Locambriquan, Quinipily.

وتوجد أسماء أماكن عديدة في شمال بريتانى التى أحبت اللغة الكلتية عندما

(١) مجموعة القاف والكاف تنطق حرف c كفا إلى جانب حرفي q,k (المعرب)

(٢) مجموعة الباء والفاء تشمل ١٠ ف b, p, f, v (المعرب)

عاد الكلت إليها من بريطانيا بعد الغزو الروماني ، تبدأ بحروف الباء مثل بلو - لان - بول - تر - بين Plou, Lan, Pol. Tre, Pen وبقابلها في لغة ولز بليف - خان - بغل - تري - بين Plwyf, Llan, Pwll, Tre, Pen (١) وهذه أيضاً توجد في جنوب بريطانيا . وأسماء الأماكن التي تبدأ بتري - بول - بين ، معروفة تماماً في كورنول . إلا أننا بمدنا كثيراً عن الموضوع بمناقشة ما طرأ على اللغة الكلتية بعد العصر الروماني ، وعلينا أن نعود إلى ما كنا تناقشه.

أشرنا من قبل إلى بدء زراعة القمح والشعير في نطاق اللويس في وسط أوروبا ، ولا سيما في الجر ، حيث كان الفلاحون ينتقلون من بقعة إلى أخرى ، ينظفون الأرض ويزرعونها ، ثم يهاجرون منها إلى غيرها وهكذا . وكان هؤلاء الفلاحون يعيشون في قرى تبلغ عدد منازل كل منها اثني عشر منزلاً أو أكثر ، إلا أن مساحة المنزل قد قل على أنه كان يضم أسرة كبيرة ، ويبدو أن كل قرية كانت تحتفظ بمخازن للغلال وحظائر للباشية والخنائير ، وقليل من الضأن والماعز ، ثم أصبح الصيد وتربية الحيوان فيما بعد أكثر أهمية ، كما تدل تحصينات القرى على نشوب الحروب بين الجماعات المختلفة ، وتكثر التماثيل النسوية الصغيرة في هذه القرى القديمة ، كما وجدت قواقع سبونديلوس S pondylos التي تكثر في البحر الأبيض المتوسط في أراضي الدانوب ، وبعد ذلك أصبح الضأن أكثر عدداً (وربما شاع استعمال الصوف) وربما استعمل المحراث الصغير ، إلا أن بعض الكتاب يرى في هذا تقدماً حدث في وقت متأخر قد يكون عصر البرنز الحديث أو المتوسط . وكانت الخيل (التي ربما كانت من نوع تاربان) تستعمل في الجر ، ولم يعد للتماثيل النسوية

(١) من الصعب علينا نطق كثير من حروف لغة الويلز مثلاً حرف II فهما ينطقان شيئاً بين الخاء والشين المخففة (المعرب) .

الصغيرة وجود في ذلك العهد ، وفي المرحلة التالية استعملت آلات المعدن ونشطت التجارة مع شواطئ الكهرمان على البحر البلطى ومع مواطن المدينة الراقية في البحر الأبيض المتوسط ، ولما انتشرت طريقة صب البرنز بدأ تعدين النحاس بصفة جدية ، وبدأت صناعة السيوف ، وإقامة التحصينات وتشيد المنازل القروية الكبيرة ووجدت أوان لحفظ وفات آلاف الموتى إلا أنه لا توجد أى آثار للمعابد . وليس لدينا أدلة مباشرة على ركوب الخيل في وسط أوروبا وغربها قبل أوائل عصر الحديد .

ويبدو أن الشعوب البدوية التي جلبت الضأن إلى وسط أوروبا وغربها حوالى فجر عصر المعدن ، قد نشروا معهم فكرة حرق الموتى ، ولم يكن مما يلائم هذه الشعوب البدوية أن تبنى صروحاً ضخمة لدفن الموتى انتظاراً ليوم البعث غير أن المعتقدات القديمة ظلت باقية في غرب البحر البلطى . وظلت فأس ثور Thot التي يستخدمها للقتال تحتل مكاناً كبيراً في الميثولوجيا (الأساطير) رغم سيادة عبادة أودين Odine برمح وسيفه وحصانه . ويبدو أن صراعاً نشب في وسط أوروبا بين رعاة الجبال وقلاحي السهول .

وقد تغير السكان القدماء وتغيرت لغاتهم بأسرع مما كان يتوقع عندما بدأت الكتابة والحياة الأكثر استقراراً في الانتشار . ويدلنا سفر العدد (من العهد القديم) على أن الغزوات القديمة كانت تتضمن ذبح الرجال والنساء المتزوجات ، وسبي البنات في يد المنتصرين . وقد كان وراء تلك العادة البربرية فكرة استمرار أثر الزوج الأول في رحم المرأة Telegony وهي خرافة تزعم أن المرأة أو الأنثى التي تحمل عن رجل (أو حيوان ذكر) أول مرة ، يتأثر نسلها بعد ذلك . فكان ذبح النساء المتزوجات إذن وسيلة يركن إليها الغازي المنتصر للإبقاء على نسله فقط ، والاحتفاظ به نقياً دون اختلاط أو تأثير رجال آخرين . فالذكر حسب هذه العقيدة — هو الذى يضع بذرتة في

أرحام البنات لترعاها . وكانت البنات اللاتي يقعن سبابا في أيدي المتصرين يحفظن في بيوت سادتهن بعيداً عن الاختلاط ، وكان عليهن تعلم لغة هؤلاء السادة ، إلا أنهن — دون شك — كن يعلمن أبناءهن لغة آبائهم كما تنطقها أمهاتهن بشئ من التحريف ، كما كن يلقنهم أساطيرهن ومعتقداتهن القديمة ، مع شئ من التعديل .

وقد صحب التحول من استعمال البرنز إلى استعمال الحديد صعوبات أدت إلى تأخر استعمال الحديد — رغم أن حديد الشهب وخام الماجنتايت المستخرج من رمال الأنهار كان قد استعمل في وقت متقدم ، منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد في مصر وجنوب غرب آسيا . وقد اعتمد التوسع في صناعة الحديد على العثور على الهاميتايت (الذي استخدم في بادئ الأمر كمشقوق للزينة والتلوين) أو أحد أكاسيد الحديد الأخرى . وكانت أفران حرق الفخار في جنوب غرب آسيا صالحة تماماً ليهض خامات الحديد ، إلا أنه كان لابد من إخراج كتلة الخام الإسفنجية من الفرن وطرقها وهي حامية ، وكان من المستحسن أن يهض خام الحديد مع الكربون ، الذي يسهل الحصول عليه من وقود الخشب . ويبدو أن الحصول على المطرقة والكماشة اللازمتين في صناعة صهر الحديد والاحتفاظ بحرارة الفرن وقتاً طويلاً كانت من صعوبات صناعة الحديد . وكانت أكاسيد الحديد متوافرة في الأناضول ، وما إن وافي عام ١٤٠٠ قبل الميلاد حتى كانت عملية صهر الحديد شيئاً منتظماً في هذه البلاد . وقد أدى سقوط دولة الحيثيين بعد ذلك بمائتي عام إلى انتشار معرفة صهر الحديد وصناعته في البلاد المجاورة . فوصلت إلى حوض بحر إيجه وبلاد اليونان حيث اكتسبها الغزاة الدوريون ، حسب الآراء السائدة اليوم . وكان الرأي القديم يرى أن الدوريين جاءوا ببلاد اليونان وهم يحملون معهم الآلات الحديدية من بلاد الشمال ، إلا أن الأدلة على هذا الرأي ليست كافية . وقد انتقلت معرفة صناعة الحديد إلى إيطاليا

ومن ثم إلى هالشتات Halstatt بالنمسا في القرن السابع ق . م . وهذه كانت ذات أهمية خاصة كمرکز للملح.

وكانت الفئوس الحديدية تستخدم في قطع الحطب ، كما كانت مفيدة في قطع أشجار البلوط . ومن ثم أمكن توسيع رقعة الأرض القابلة للزراعة ، وربما لم تنسح في بادئ الأمر اتساعاً كبيراً ، ولكنها ازدادت اتساعاً بعد العصر الروماني وأمكن تربية الخنازير التي ترعى أوراق الأشجار بين غابات البلوط ، وبذلك أمكن الحصول على مزيد من لحوم الخنزير المملحة . ولنا أن نتساءل ما إن كان ذلك أحد أسباب الجدد في البحث عن مصادر الملح في عصر البرنز الحديث أو أوائل عصر الحديد . وقد تحسن فن النجارة مع توفير خشب البلوط وأزامل الحديد وغيرها من الآلات الحادة ، وربما نشأت فكرة البيوت ذات الهياكل الخشبية في أوائل عصر الحديد . كما أمكن صناعة سفن أكبر حجماً وأكثر احتمالاً بحيث أمكن القيام برحلات مثل رحلات البثيا ، وانتشرت المستعمرات الإغريقية في حوض البحر الأسود ونطاق اللويس جنوب روسيا . وحلت رماح الحديد وسيوفه محل أسلحة لبرنز الأضعف شأناً ، التي سرعان ما تنفست وتصبح عديمة الفائدة . ونستطيع أن نقول إن طرق الحديد مع شيء من الكربون قد أوجد الصلب في زمن كبر بعد بدء عصر الحديد . وتتصل بهذا القصص الشعبية عن السيف السحري ، وهي قصص ظهرت مرة أخرى في العصور الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . إلا أن تحسين المحراث كان أهم تطورات ذلك العصر .

وقد ذكرنا من قبل أن غذاء النبات ينتشر في التربة البنية الأوروبية شمال لبحر المتوسط ويتخلل سمكها كله . إلا أن الأعشاب التي تنمو على السطح تمتص هذا الغذاء من التربة العليا ، كما أن آخر محصول غذائي يمتصه من التربة لها . ويقل البخر من هذه التربة البنية ، مما يقلل من احتمال صعود المواد الغذائية الدائبة في التربة السفلى إلى أعلى . ومن ثم كان من المستحسن قلب

التربة بمجراث كبير ، بحيث يظهر المستويات السفلى من التربة ويرفعها إلى أعلى . كما أن الحرث العميق أكثر ضرورة في البلاد الباردة حيث تترسب المواد الغذائية في التربة الرمادية إلى أسفل ، نظراً لازدياد تساقط المطر وقلة البخر .

أمكن إذن صنع محارث أصغر ذات أسلحة أطول بعد توافر الحديد والخشب الجيد . فأمكن صناعة أسلحة محارث حديدية تستطيع أن تتعمق في التربة . وقد أضيف إلى المحراث إضافة هامة هي قاطع يشبه السكين يوضع عمودياً أمام سلاح المحراث لكي يقطع الأرض أمام المحراث ، وذلك في أوائل عصر الحديد . ولا نعلم ما إن كانت العجلات قد أضيفت إلى المحراث في ذلك الحين أم لا . وكان لابد من حرث الأرض بالمحراث ، ثم تسوية الأرض بعد ذلك على جوانب خطوط الحرث ، ولذلك كان لابد من إضافة تحسينات أخرى للمحراث ، بإضافة ألواح رأسية للمحراث تعيد التربة المحروثة بعد قلبها مرة أخرى إلى الأرض ، وقد أضافت المحارث الكبيرة وعمليات تنظيف الغابات وقطعها مساحات كبيرة أخرى إلى الأرض المزرعة ، إلا أنها كانت أرضاً رقيقة التربة ، ومن ثم لم تتمكن عملية البخر فيها أن ترفع غذاء التربة (من المحاليل الذاتية) إلى السطح . ولهذا احتاجت الحقول إلى فترات راحة منتظمة ، أو فترات تترك فيها الأرض بوراً . وكان لابد من تنظيم عمليات الحرث والزراعة ولا سيما في حقول المحصولات التي تنهك التربة مثل القمح . وسنناقش الآثار الاجتماعية الكبيرة الأهمية التي ترتبت على هذا فيما بعد . وقد تحسنت المحارث في بريطانيا ، وهناك أدلة على وجود تحسينات فيها من الأزمنة البلجيكية أي في القرن الأخير السابق للميلاد . ولكن هذا كان جزءاً من عملية طويلة بدأت قبل ذلك الحين واستمرت بعد ذلك بعدة قرون ، كما بين ذلك « ف.ج. بين » Paine . وقد قيل أحياناً إن الألواح الرأسية قد أدخلها الرهبان السيستريسيين Cistercians في القرن الثاني عشر ، وأن

هؤلاء الرهبان قد قدموا الكثير للزراعة والحياة الريفية ، إلا أنه من الواضح أن هذا التحسين وغيره من التحسينات التي أدخلت في المحراث لتسوية للتربة بعد حرثها ذات تاريخ أقدم من ذلك بكثير، وربما ساعد الرهبان السستريين والبندكتيين Benedictines على نشر هذه التحسينات من مكان إلى آخر .

وقد اخترع المنجل الكبير scythe لقطع سنابل الحبوب ، بدلا من الشرشرة sickle الصغيرة في أوائل عصر الحديد ، وقد استخدم هذا المنجل بصفة خاصة لقطع الحشائش الجافة التي كانت تستخدم علفاً للباشية ، وذلك طبقاً لعدة طرق كانت تحاول المحافظة على حياة حيوانات المزرعة في فصل الشتاء . وقد قابل التحسينات التي أدخلت على صناعات السفن والمحاريت والمناجل وبناء المنازل وما إليها ، تدهور الأحوال المناخية في هذه المنطقة في أوائل عصر الحديد ، عندما حلت فترة انخفاض فيها درجات الحرارة صيفا وازداد تساقط الأمطار ما بين عامي ٧٠٠ - ٥٠٠ ق. م. تقريباً . فانتشرت المستنقعات الرائدة في غابات اسكنديناوة وبريطانيا وفرنسا ، وأصبحت أشجار الزان أكثر انتشاراً من أشجار البلوط عامة في الدنمارك ، وأغرقت القرى التي كانت تقيم مساكنها فوق أعمدة الخشب على ضفاف البحيرات السويسرية بعد أن ارتفع مستوى الماء في البحيرات في أواخر عصر البرنز ، كما سدت الثلوج بعض بمرات الألب التي كانت تستعمل من قبل ، وحل الفقر والبؤس محل الازدهار والثروة في سهول ترانسلفانيا التي كانت ذات نشاط تجارى مع شمال إيطاليا ، كما تعرضت البلاد لغزو الشعوب الرعوية التي تعيش في نطاق الاستبس التي نشطها المناخ اللطيف المشبع بالرطوبة ، وقد وصف هيرودوت أسلوب حياة هذه الشعوب من الاسكيديين وصفاً شائفاً . وأصبح من مظاهر الحياة الأوربية بدء ارتحال الشعوب نحو الجنوب الدافئ ، وساد في الشمال البارد فترة الشتاء الدائم Fimbulwinter كما سميت في الأساطير ، عندما كان الشتاء يتلو الشتاء دون فترة دفء تذكر بينهما ، وفترة فجر الآلهة

Twilight of Goods عندما انهارت الثقافات الأوروبية القديمة.

أدى استمرار ضغط الشعوب نحو الجنوب إلى تقوية الاستحكامات الدفاعية التي تشبه استحكامات أواخر العصر الحجري الحديث أو أوائل عصر البرنز ، وكانت تقام من جلاميد الصخر وأكوام التراب. ثم أضيف إلى هذه الاستحكامات هياكل قوية من الخشب تسمى بالحوائط الغالية *muris gallicus* تساعد على تماسك قطع الصخور بعضها بجانب البعض الآخر ، وقوى شأن سادة الأقاليم المختلفة الذين يتركزون في حصونهم ، وأصبحت تلك الحصون أحيانا مراكز للسكان ، أى بذور لمدن قادمة ، بينما ترك السكان - تحت ظروف أحسن ، كما حدث في «روان» بنورمانديا - الأماكن المرتفعة المعرضة للرياح العاتية (تل سانت كاترين) ، وهبطوا إلى السهل المنخفض (مكان مدينة روان Rouen المقبلة التي أضاف إليها الرومان ووسعوها) ، وكانت لوتيتيا Lutetia محلة قبل رومانية على إحدى جزر نهر السين بباريس ، كما كانت شارتر Chartres مركزاً سابقاً للرومان فوق تل يطل على نهر إيلود Eure .

وقد أفادت هذه الفترة من المناخ البارد الممطر لإقليم البحر الأبيض المتوسط . ولقد كانت الشعوب المتكلمة بالكلتية قد بدأت فعلا في الهجرة من جنوب ألمانيا إلى شمال شرق أسبانيا ، إلا أن هجرة كلتية أهم من ذلك قد بدأت بعد القرن السابع ق.م. عندما اجتاحت جموع الكلث فرنسا واخترقها إلى أسبانيا ، ولاسيما شمالها الشرق . حيث أقاموا استحكاماتهم الدفاعية في كيتانياس Citanius . وخرجت من شمال غرب أسبانيا جماعات محاربة لغزو ريتاني وكوربويل وسواحل البحر الإيرلندي وما يليه شمالاً في القرنين الثالث والثاني ق.م.

وتجد ذكرىات هذا الغزو طريقها في كتاب جوفري المونموثي Geoffrey of

مجموعات القرن السادس - ٢٠٠

Monmouth عن تاريخ ملوك بريطانيا الذى ظهر فى العصور الوسطى ، ويذكر هؤلاء الغزاة فى كتب الآثار البريطانية على أنهم غزاة عصر الحديد «ب» . ويفترض أنهم بناء استحكامات كثيرة ، أو على الأقل أعادوا بناءها مثل قلعة ميدن ، فى دورسيت وقلعة ميدن أيضاً فى إديزبرى (ييكرتون) شيشر . وهى من أهم قلاع ذلك العصر التى درست جيداً . وقد وجد « فارلى » فى إديزبرى Eddisbury بقايا خشب استعمل فى تشييد ما يسمى بالحائط الغالى ، ولكنه كان أقل إتقاناً ، ويبدو أن غزاة عصر الحديد «ب» تدشيدوا أو أعادوا تشييد بعض طرق الحافات ، وبعض المسالك أيضاً ، كما شيدوا جسوراً خشبية فوق أراضي المستنقعات Fens وفى الأراضي الرطبة قرب جلاستونبرى Glastonbury وربما كانوا يستخدمون قوارب كالسلال المستديرة والقوارب الجلدية فى عبور الماء ، وقد وجدت بعض قطع العملة وبعض قطع جرار النيزك من إقليم البحر المتوسط فى قلعة تشون Chun (التى ترجع الى أوائل عصر الحديد) بكورنول ، وهى دلالة جيدة على التجارة من سواحل البحر المتوسط إلى بريتانى عبر فرنسا .

ولا تزال العلاقة بين هذه الهجرات وبين مشكلة توزيع اللغات الكلتية تحتاج إلى مزيد من البحث . فحروف الثاء th الإنجليزية والذال dd فى لغة الويلز كثيرة الانتشار فى جزيرة جرسى وفى أسبانيا ، وتنتشر الثاء فى سواحل البحر الإيرلندى فى بريطانيا وفى الوسط والشمال (فى إنجلترا) أما فى لندن فهى تتحول إلى حرف ð ، وفى غرب إيرلندة إلى حرف الذال ومن ثم تنطق كلمة mother مثلاً muvver من ناحية muder ، من ناحية أخرى ، يستخدم الدانماركيون صوتاً يشبه الثاء .

ولا ريب أن الصيف المائل للبرودة الرطب لا يساعد على نضج القمح ، إلا أنه قد أدى إلى آثار أخرى ترتبت عليها نتائج كثيرة . وربما وجد الشيلم والشوفان أولاً كأعشاب وحشية فى حقول الشعير . وقد انتشرت زراعة

الجنوب في أراضي الشمال الباردة وحرثها حيث كان الشعير وحده هو السائد ، كما أدى إلى انتشار تعمير أراضي اللويس في غاليسيا البولندية وتعمير أراضي اللويس في روسيا ، وزراعته في الأراضي التي كانت تغطيها الغابات والصاهال الجليدي في بولندة ولتوانيا وغيرها . وأدى ازدياد السكان هذا إلى نشر اللغات السلافونية .

وقد ظلت أدوات الزينة تصنع من البرنز في أوائل عصر الحديد ولاسيما المشابك الكبيرة Fibulae التي تظهر في حلبيها مدى تأثير ذوق البحر المتوسط في العصر الكلاسيكي أي منذ حوالي ٤٠٠ ق. م. فانتشرت الانثناءات الحرة في الفن ، وأصبحت بعد ذلك من مميزات الفن الكلتى الإيرلندى في العصور السابقة للرومان . وقد تغيرت كثيراً أنماط المشابك في العصور السابقة للرومان . ومن ثم استخدمت لتحديد أعمار الآثار التي ترجع إلى تلك الآثار .

وجعلت هجرات الشعوب نحو الجنوب ، وانتقال الثقافة من إقليم البحر المتوسط نحو الشمال غرب أوروبا وبعض أجزاء شمالها الغربي حافات تشرق عليها أضواء شاحبة من مدينة البحر المتوسط الكلاسيكية . وقامت في الغرب شعبة كهنوتية معينة هي شعبة الدرويد Druids واتخذت لها المكان الذي قامت فيه شارتر فيما بعد كمرکز للعلم والحكم في بلاد الغال . وتروى الأساطير أنه كان يوجد في هذا المكان كهف في التلال ، وهب منذ أزمنة ما قبل المسيح لعدراء تحمل ابناً . ونصل إلى هذا الكهف الآن عن ممر سرى من كاتدرائية مريم العذراء التي بنيت فيما بعد . وقد وصف «سير سيريل فوكس» جزيرة لين كريج Llyn Cerrig في إنجلترا ، وكانت هذه الجزيرة مركزاً للعبادة الدرويدية ، وتقبل الهدايا من جميع أنحاء بريطانيا ، وهذا يدل على أن تلك الشيعة الدينية

كانت تحاول أن تكون عامة في جميع أنحاء البلاد ، وليست شيعة محلية فحسب .

وقد حفظ تمثال فريد للأُم الكبيرة أو الجدة Grand'mere في سانت مارتان بجزر نري . ومن المحتمل أن يرجع عهده إلى أوائل عصر الحديد ، وبين شكل (٥٢) صورة أخذتها مسز آيسكوف Ayscough في ليلة مظلمة ، بطريقة تسليط الضوء عليها من أسفل بشكل خاص .

وإذا أردنا أن نذكر بإيجاز شديد بعض الأمور المتعلقة بالعصر الروماني، فعلى أن نذكر أن بلاد الغال كانت أكثر تأثراً بالرومان من بريطانيا ، وأن أجزاء بريطانيا التي تقع شمال حائط هادريان إلى جانب بعض أجزاء ويلز كانت أقل تأثراً من جنوب شرق بريطانيا بالحضارة الرومانية ، بينما لم تمس تلك الحضارة إيرلندة إطلاقاً . وبذلك استمرت حضارة ما قبل الرومان بعد خروجهم من بريطانيا في الشمال والغرب . واعتبرت تلك الحضارة امتداداً — في بعض نواحيها — لحضارة عصر الحديد قبل الرومان . وكانت التنظيمات الرومانية مهتمة بالدفاع عن حدودها التي تقع على طول نهري الراين والدانوب ضد هجمات المتوحشين الذين لا يفتنون بهجومون على الإمبراطورية ويطرقون أبوابها لكي ينفذوا منها إلى أرض أفضل في الجنوب والغرب ، ويتربصون بها الدوائر ويتهمزون كل نقاط ضعفها ، وكانت المدن الرومانية تنتشر حتى بلاد الغال الجنوبية وأسبانيا حيث يمكن أن تنمو الكروم وفي بعض الأنحاء أشجار الزيتون كذلك ، ومع تقدم الفتح في بلاد الغال ، تحولت المعسكرات الرومانية في حوض باريس إلى مدن . مثل مدن: روان ، وباريس ، وسانس Sens ، وتور إلى آخره . وقد كان بعضها مثل باريس وروان محلات غالية قبل قدوم الرومان . وعندما وصل الرومان إلى نهري الراين والدانوب أصبحت كولين (كولونيا) ، وبون وكوبنز ، وبنجن ، وهينز ، وفورمز ،



شکل (۵۲)

تمثال د لاجراندمیر ، ، سانت مارتن ، جرزی

وسير، واستراسبورج، وبازل، وريجنزبورج، وباساو، وفين (فينيا) معسكرات هامة، ثم تحولت مع مضي الزمن إلى مدن. ولا بد وأن هذه المدن ذات الأبنية العامة الكبيرة مشيدة في خطوط منتظمة من الصخور المنحوتة، والشوارع المخططة ودور المحاكم، والتي يسودها النظام والفنون قد بهرت البرابرة الذين لسبب ما ربما مروا بالحدود في فترات السلام، فوققوا أمامها مشدوهين. والواقع أن المدن الرومانية كانت إحدى دعائم الهيبة الرومانية التي ظلت باقية بعد سقوط الإمبراطورية عدة قرون،

قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية سادت ديانة رميمية في أنحاء الإمبراطورية، وأصبح لكثير من المدن أساقفتها الكبار (المشرف العام Episcopus) وكان لا بد لمثل هذه المدن أن تحتفظ بكل ما تستطيع من مهابة مستمدة من التقاليد الإمبراطورية بعد أن سقطت الإمبراطورية الرومانية نفسها.

ولم تستطع الإمبراطورية الشرقية، وعاصمتها القسطنطينية وهي لا يزيد عمرها على القرن الرابع الميلادي أن تنافس روما سلطانها وهيبته في عقول الناس، فقد كان من تأثير اللغة اللاتينية في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا أن أصبحت أم لغاتها الحديثة. أما وراء ذلك فقد فرضت اللغة اللاتينية كاخة العبادة، مهما ضؤل فهم الناس لها. كما تم إحياء القانون الروماني — إلى حد ما — في جنوب فرنسا في أوائل العصور الوسطى ثم اقنيس في بعض أنحاء ألمانيا كبديل للنظم المحلية الصغيرة. أما الإغريقية فلم تنتشر من القسطنطينية إلا على نطاق محدود جداً، وترك لكل شعب من الشعوب أن تستخدم لغته ويعطى شريعته.

بل إن ضعف الإدارة المركزية وزوال النظام أدى بالتجارة والمدن إلى

الانهيار في الغرب ، وزاد الأمر سوءاً غزو المسلمين للبحر المتوسط وتعرض البلاد لهجمات النورديين المخربة . فضول شأن مدن الغال والراين والدانوب وبلدانها إلى حد كبير ، وتوقف استخدام الحجر المصقول في البناء عدة قرون ، ولم تصنع غرب أوربا القرميد فترة وصلت إلى ٥٠٠ سنة أو أكثر . ولم تهدم الطرق ولم تجدد الطرق الرومانية الصيانة الكافية ، وأهملت كما أهملت ، القوانين وتدهورت الفنون والصناعات إلا في نطاق صنع أدوات الزينة للرؤساء .

إن الكفر الذي وجد أخيراً في ستون هو ، سفولك ، في تل أقيم تخليداً لذكرى أحد الملوك الإنجليز في أواسط القرن السابع الميلادي ، ليدل على درجة كبيرة من الفن والمهارة والجمال . ويرى بعض الاختصاصيين أنه من صنع بعض الكلت ، وربما من الإيرلنديين . وقد استعمل فيه الذهب والفضة المطلية بالمينا الحمراء كما أن بعض نقوشها تشبه الأنماط الإيرلندية .

ولم تثبت دعائم المدن الرومانية في بريطانيا ، فأضاعت فوضى الإنجلوسا كسون نظام القساوسة . وقد كانت اللغة الكلتية البريطانية قد تعدلت بتأثير اللاتينية إلا أن كلا منهما كانت ضعيفة ، وزادهما ضعفاً أيضاً فرار البريطان المتأثرين بالحضارة الرومانية إلى بلاد الغال في القرن الخامس ، ومن ثم فرض الأنجلوسا كسون لغتهم . كما يجب أن نتذكر أن الأنجلوسا كسون كانوا قد وفدوا إلى البلاد في عائلات كاملة ، أي كانت السفن تحملهم وتحمل نساءهم وأطفالهم معهم . إلا أن التقاليد الكلتية ظلت قوية في غرب بريطانيا ولا سيما في إيرلندا ، حيث تطورت بعض فنونهم ولا سيما فنون الخط . ويعتبر كتاب كيلز Kells ، من أجمل المخطوطات المصورة في العالم كما يعتبر مشبك تارا وكأس ارداغ قطعتين فئتين من أروع المصنوعات الرقيقة ، وقد بسط مسيحيو إيرلندا ، بزعامة قادتهم الذين أطلق عليهم ألقاب القديسين تأثيرهم إلى حد ما

في القارة الأوروبية ، ومن الممكن تتبع تأثيرهم في بلاد الغال وسويسرة والنمسا وحوض الراين .

وقد أسس الغزاة البرابرة ملكيات محلية في غرب أوروبا ، وكانت هذه الملكيات قائمة على أساس الحياة الريفية التي نمت نمواً كبيراً في عصر تدهور المدن ، ومن ثم ظهر النظام الإقطاعي المعروف والذي لا نحتاج لوصفه هنا . خلال العصر الروماني شاع فن صهر الحديد ، واستطاعت الفتوس الحديدية أن تغزو الغابة وأن تزيد من مساحة أراضي المحصولات الغذائية والمراعي . فأصبحت إزالة الغابات وتشديد القرى من معالم الحياة الأوروبية في هذا العصر .

وقد تقبل الغزاة الفرانك اللغة اللاتينية في بلاد الغال ، بعد أن بهرتهم عراقة التقاليد الرومانية فيها ، ولا سيما وأنهم قدموا في أعداد كبيرة من المحاربين الشباب دون أن يصحبوا معهم نساءهم ، وأخذوا في الزواج من البلاد التي فتحوها . كما أن الغزو الصقلي وإزالة غابات وسط أوروبا الشرقي نشر عائلة اللغات السلافية غرباً حتى نهر الأودروبوهميا ، وشرقاً حتى روسيا وجنوباً بغرب حتى شبه جزيرة البلقان . إلا أننا نلاحظ أن اللغة السلافية اضطرت إلى أن تتحد مع إحدى اللهجات اللاتينية في ولاية داشيا ، حيث استقر الجنود الرومان في القرن الثالث الميلادي ، ومن ثم نشأت اللغة الرومانية ، وهي لغة لاتينية سلافية . وربما كان ضغط الصقلية على الجرمان أحد العوامل في هجرة عائلات الإنجليز والساكسون إلى بريطانيا .

وعلينا الآن أن نتبع بعض النتائج الاجتماعية التي تترتب على استخدام المحراث الكبير وعلى إزالة غابات البلوط من السهول المنخفضة التي ذكرناها من قبل :

أولاً : تحتاج التربة البنية - كما ذكرنا - إلى حرث عميق يرفع إلى السطح مستويات التربة السفلى ، كما أن تربة البنودسول أو التربة الرمادية في أشد الحاجة إليه . ولهذا كان من الضروري أن يكون المحراث كبيراً ، كما أن المحراث ذا السكين الإمامية التي تقطع الحشائش أمامه ، وذا الألواح الجانبية التي تساوى التربة أصبح أفضل من المحراث الصغير المعادى ، وكان هذا الحرث يجعل الأرض عبارة عن خطوط عميقة وحواف جانبية مرتفعة ، مما يسهل عملية الصرف وتقسيم الأرض إلى شرائح . وكادت خطوط الحرث أيضاً أن تصبح دائمة ، ونمت فيها الحشائش وملأها المستنقعات .

ولم يكن في استطاعة كل فلاح ، في الجماعات الريفية الصغيرة ، أن يمتلك محراثاً كبيراً مع ما يلزمه من ثيران تجره ، ولم يكن من المفيد عملياً أن تستخدم المحاريث الكبيرة في الحقول الصغيرة التي كانت تنقسم إليها الأرض في عصر ما قبل الرومان ، عندئذ عرف الناس أن الأرض يجب أن تترك بوراً لتستريح فترة من الزمن ، ويجب أن تغذى بالسماد الحيواني وأن يترك الحيوان يرعى فيها ويلقى فيها مخلفاته .

ومن ثم نشأ نظام الحقول المفتوحة ، حيث يمتلك صاحب المزرعة شرائح من الأرض مع جيرانه ، وحيث يمكن إعادة تقسيم الأرض مرة أخرى من وقت إلى آخر . وقد استخدم هذا النظام في الدورة الزراعية ، واتبعت دورتان زراعتان أساسيتان .

كانت الحقول تزرع عاماً وتترك بوراً عاماً آخر حيث توجد التربة الخفيفة ، ولا سيما تلك التي تغطيها الحشائش التي تصلح للماشية ومعنى هذا أن نصف الأرض يفتح محصولات كل العام .

أما في السهول التي تغطيها تربة اللوم ولا سيما إذا كانت قليلة الحشائش Loams

التي تصلح للماشية وكانت الماشية تتكاثر باستمرار في الأراضي البور ،
 ووجد أنه من الممكن أن تزرع الحبوب مرتين كل ثلاثة أعوام ، فيستريح
 الحقل عاما ، ثم يزرع القمح الذي ينهك التربة ، ثم ترعى الماشية في الأرض
 بعد أيام الحصاد حتى يحل الشتاء ويصبح البرد قارساً . وتحرق الأرض في
 أواخر الشتاء وتزرع الأرض شوفانا أو شعيراً (وهي من حبوب الربيع)
 وتحصد في الصيف القادم قبل أن تدخل الأرض في عامها الثاني الذي تستريح
 فيه وتترك بورا . وهذا النظام يسمح بأن تغل ثلثا الأرض محصولات كل العام
 وربما يستبدل الفول بحبوب الربيع ، وربما لم تنتشر طريقة الحبوب المفتوحة
 حيث تمتلك الأسرة شرائح من الأرض في كل مكان . بل ربما بقيت بعض
 المزارع الخاصة بالأسر هنا أو هناك .

وتتطلب أية طريقة من طرق الزراعة هذه وضع نظام خاص يفرض
 على الفلاحين . ويسمى الجرمان طريقة الزراعة هذه بالزراعة الجبرية
 (الزفانجفلور Zwangflur ومعنى Zwang القسر أو الإجبار) . فلا بد وأن
 يتم الحصاد في ميعاد معين حتى تستطيع الحيوانات أن تساق إلى الحقول ،
 ولا بد من تنظيم عملية الحرث والبذر حتى تقوم كل أسرة بنصيبها من العمل ،
 بل لا بد أيضا من تحديد عدد حيوانات الرعي وهكذا .

كل هذا أدى إلى تقوية نظام السلطة ، ولا سيما إذا كانت هذه السلطة
 تمتلك المحراث الكبير وأحيانا تمتلك الثيران التي تجره ، كما تمتلك الطاحونة
 التي تطحن فيها الغلال ، ولذلك نستطيع أن نقول إنه حيث تتبع دورة ثنائية
 أو ثلاثية في غرب أوروبا لا بد من قيام سيد لتنظيم العملية . سواء كان
 موجودا من قبل ، أو يظهره استعمال تنظيم العمل . وفوق ذلك فقد كان على
 الجماعة الريفية أن تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها ، فاقضى الأمر
 وجود قائد . ومن ثم أصبحت السيادة أو الإمارة Lordship من معالم الحياة

الريفية ، إن لم تكن من مميزاتنا وتكون نظام هرمى (هيراركى) من السيادات
يجلس على قته ملك إقليمى .

وقد تعدل نظام الدورية الثنائية والثلاثية فى بعض مناطق التربة الرمادية
(البودسول) ذات الرطوبة شديدة الارتفاع أوالتي لاتتمتع بقسط من أشعة
الشمس يكفى لنضج محصول القمح ، فازداد الاهتمام فى غرب بريطانيا الممطر
واسكتلندا بالماشية التى يمكن أن تساق إلى التلال أو الأراضى المقفرة
Moorland ، وقت نمو محصولات الحبوب ولاسيما الشوفان والشعير. ويختلف
نظام الهجرة الفصلية Transhumance هذا من مثله فى حوض البحر
الابيض المتوسط ، إذ قد تترك الماشية فى أيرلندا مثلاً ترعى الأرض ،
المعدة لزراعة الشوفان والشعير فى الصيف القادم حتى شطر من الشتاء ، وقد
أصبح من الممكن زراعة قطعة الأرض الواحدة سنة بعد أخرى ، ماذا دامت
تستفيد من السماد الحيوانى الطبيعى ، وتسمى هذه الأرض بالحقول الداخلية
in-fields وهى غير الحقول الخارجية out-fields وهى قطعة من الأرض
تنظف من الحشائش والأحراج تزرع عدة سنوات متتابعة ، وتقع عادة
بعيدة عن القرية أو المزرعة ، ومن الممكن أن تقوم أسرة واحدة أو عدة
أسرات تربطها صلة القرى أو التزاوج بهذا العمل . وتسمى هذه المجموعة
بالكلاشان Clashan فى أيرلندا ، وكان يسمح للكلاشان أو الأسرة الواحدة
أن تزرع من الأرض بقدر ما تستطيع .

وقد تكون الكلاشان المتجاورة أعضاء فى قبيلة واحدة ، ولاسيما فى
إسكتلندا ، تحت زعامة قائد حربى ، الذى لم يكن يشبه تماماً سيد الإقطاع
Lord of the manor إذ يجب عليه أن يحصل على رضا وولاء أتباعه ،
إذ كان القانون فى الغالب يعتمد على المسئولية الجماعية Vendetta ، وكان من
المهم فى ذلك الوقت الذى كثرت فيه الحروب الصغيرة وحوادث أخذ الثار

أن يجمع الزعيم عدداً من الاتباع الموالين له ، بينما كان سيد الإقطاع في أراضى الدورة اثلاثية أقرب ما يكون لسيد اقتصادى يبسط نفوذه على عدد من رقيق الأرض أو الاتباع على الأقل . وعندما حل النظام وحكم القانون محل الفوضى والمشاحنات في اسكتلندة بعد منتصف القرن الثامن عشر لم يكن الزعماء في حاجة إلى عدد كثير من الأنصار . وعندما ازدادت حوادث طرد الفلاحين من أرضهم اضطروا هؤلاء الضحايا أن يستقروا على السواحل التى تغطيها المستنقعات ، وعملوا في زراعة البطاطس والصيد ، وهذا لم يكفهم بمدى بالقوت الضرورى حتى أتت أمراض البطاطس على محض ولطم الرئيسى واقترن ذلك بفتح باب الهجرة على مصراعيه إلى أراضى العالم الجديد ، وخرجت جموع الإيرلنديين عبر المحيط ، فى أواسط القرن التاسع عشر واستمرت موجات الهجرة لمدة سنتين . ويجب أن تذكر أن برد الشتاء فى مرتفعات اسكتلندة بل وفى جزر هيرديز كان من القسوة بحيث لم يسمح ببقاء الماشية طويلاً فى العراء . وكان علف الماشية قليلاً . ومن ثم كان لابد من حمل الماشية المشرفة على الهلاك جوعاً إلى المراعى فى الربيع المبكر . وقد زاد الأمر سوءاً أن حجرت غابات خاصة لصيد الغزلان ومساحات معينة من البرارى ليقضى فيها زوار مرتفعات اسكتلندة وقتهم فى الصيد ، مما أدى إلى انخفاض عدد السكان فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

أما فى النرويج فقد أدت العوامل الطبيعية إلى توجيه العادات وجهة أخرى ، فمن الممكن استعمال المرتفعات فى فصل الصيف ، عندما ينمو النبات بسرعة بعد أن يذوب الجليد وتنشرب التربة بالماء . وتكون الفيوردات خلجاناً طويلة عميقة تطل عليها المرتفعات الشاهقة ، وتحف بها قطع قليلة من الأرض التى يمكن أن تزرع هنا وهناك . وبعد أن تعلم الناس بناء سفن أكبر بمساعدة الآلات الحديدية تكونت مجتمعات من صيادى السمك الفلاحين حول الفيوردات ، إلا أن هذا يتضمن وضع قيود معينة على تقسيم الأرض المنزرعة الضئيلة

المساحة . فتأسس نظام توريث الابن الأكبر ، وكان على الأبناء الآخرين أن يغامروا (i-viking) في البحر . وقد ساعد على هذه المغامرات بناء سفن قوية خاصة ، يخطى كل لوح فيها ما يليه ، ونشر الشمالون (النورزمن Norsemen) الرعب على طول سواحل غرب أوروبا ، ثم اتحدوا بعد ذلك تحت نظام الهانزا وقتاً من الزمن ، ثم كونوا في المائة سنة الأخيرة أسطولا تجارياً كبيراً ، وقد أدت محاولات هارولد فيرمير (في أواخر القرن التاسع) وغيره لتنظيم سكان الفيوردات الى كثير من المقاومة والتدمير ، وكان نتيجة ذلك نزوح كثير من النرويجيين نحو شتلند ، وأوروكني وكيثنس وهيردينز ومان وشرق أيرلندة وأيسلندة وجرينلندة ، وقد تركت بمالك النورز في هيردينز ومان بعد ذلك للسيادة الإنجليزية والإسكتلندية ، إلا أن النورز قد تركوا في أماكن سودر (سودرتير أو هيردينز) ومان ذكرى أيام حكمهم .

وقل نجاح زراعة الشوفان الى الشرق من ذلك ، في شمال أوروبا ، بصفة عامة ، وأصبح الشيلم هو المحصول الرئيسى منذ أوائل عصر الحديد حتى الوقت الحاضر ، وهو أقل حاجة للشمس من القمح ، وللبطر من الشوفان ، ويمد دقيق الشيلم الجسم بحرارة كبيرة ، ومن ثم كان مفيداً في هذه المناطق ، إلا أن نمو السكان كان بطيئاً بسبب ظروف البيئة القاسية ، مثل الشتاء البارد الطويل والغابات الصنوبرية والحيوانات المفترسة (ولاسيما الذئاب) ، فقد كان الجليد يغطي الأرض فترات طويلة كل عام ، ثم يذوب الجليد فتغطي فيضاناته الأرض بالمستنقعات والطين ، وما يصحب ذلك من تكاثر الحشرات الحاملة لجراثيم المرض ، في فصل الصيف القصير . وقد لعبت طوائف الرهبان الأرثوذكس في شمال أوروبا الشرقى دوراً كبيراً ، يعادل ما قامت به طوائف الرهبان الأخرى في غرب أوروبا .

هذا التخطيط العام المختصر لتاريخ أوروبا قد أوصلنا إلى حدود التاريخ

المكتوب ، ولا يبقى إلا أن نضيف بعض نقط هامة في عقد المقارنات مع الظروف السائدة في الأزمنة الحديثة .

ولا بد أن نقول إن انفصال الكنيسة الرومانية نهائياً عن الكنيسة الأرثوذكسية كان حدثاً كبيراً على قدر عظيم من الأهمية ترتبت عليه آثار جسيمة . فقد أوجد نطاقاً من الصراع الدائم بين شرق أوروبا وغربها ، وسهل تغلغل الإسلام في هذا النطاق . ويجب أن نلاحظ أن بولسدة والمجر وإلى حد ما بوهيميا ، في نطاق اللويس كانت ضمن نطاق الغرب في العصور الوسطى .

وقد ذكرنا من قبل تدهور المدن الرومانية في غرب أوروبا خلال العصور الوسطى ، وقد نمت التنظيمات الإقليمية الإقطاعية في العصور الوسطى إلى وحدات أكبر بالتدريج ، وقل خطر غارات النورزمن ، كما بدا للناس إمكان التبادل الحضارى مع المدينة الإسلامية بعد أن زال خوفهم منها . وهذا كله أدى إلى نمو المدن مرة أخرى . ولم يكن مقصوداً على بلاد البحر المتوسط فحسب ، بل حدث أيضاً في البلاد التي تقع شماله ، ابتداء من أواخر القرن العاشر ، ثم ازداد نمو المدن في القرن الحادى عشر والثانى عشر بصفة خاصة ، وقد نمت المدن الفرنسية أساساً كراكز لاقليم زراعية أو pays كما يقول الفرنسيون في حديثهم الدارج ، ولا سيما إذا كانت للمدينة أسقفا أو مطراناً في أثناء العصور الوسطى ، عندئذ تصبح الكاتدرائية هى محور المدينة ونواتها ، وحولها أرض فضاء يعقد فيها السوق ، وربما تطلق أسماء الحرف المختلفة على الشوارع ، إذ يتركز أصحاب كل حرفة في شارع ويعملون على تلبية طلبات الزبائن ، وليس للسوق العامة . وأحياناً تشرف قلعة على المدينة ، مثل قلعة فاليز Falaise النورماندية إلا أن قلاع النبلاء في فرنسا كانت أميل إلى أن تحمل التقاليد الفرنك الريفية . وكانت الكاتدرائية مكاناً للجمعات العامة ، وتقوم بدور اجتماعى آخر

غير الطقوس الدينية ، إذ قلما كانت توجد في فرنسا — إلا على حدودها
الفلمنكية — قاعات بلدية قديمة .

ولعبت التجارة البعيدة المدى دوراً أكبر في الفلاندرز وأرض الراين
بما لعبته في كثير من المدن الفرنسية، ومن ثم وجد بها كثير من التجار الأثرياء.
أصحاب النفوذ الذين كانوا على استعداد لإقراض المال للنبلاء المحتاجين له ،
أو للقساوسة ، ويحصلون في مقابل ذلك على امتيازات عديدة . وقد أدى
عدم وجود أحجار البناء ولاسيما في الأراضي المنخفضة إلى إعادة فكرة
حرق القرميد ، وما لبثت هذه الصناعة أن انتشرت بسرعة . ونجد في
الفلاندرز قاعة المدينة town hall كما نجد دار النقابات guildhall أو دور
نقابات تجار الصوف woolhalls شائعة جنباً إلى جنب مع الكاتدرائية، ويصور
ذلك بوضوح وعظمة أيضاً القصر الكبير في بروكسل رغم أنه حديث النشأة
نسبياً ولا يرجع إلا إلى القرن الخامس عشر ، ونلاحظ هنا أن كاتدرائية سان
جو دييل الجميلة بعيدة شتاً ما عن هذا القصر الكبير .

كما أن الكاتدرائية في كولن تبعد أيضاً عن مركزها القديم ، الذي كان
يوجد به عدد كبير من المباني ذات الأهمية التاريخية الكبيرة ، حتى تهدمت
في الحرب العالمية الثانية ، وقد أدى الخلاف بين القس والتجار في كولن إلى
أن ينتقل مركزه إلى بون فترة طويلة من الزمن ، وتقل سيطرة الكاتدرائية
كثيراً على المدينة في إقليم الراين عنها في حوض باريس .

كان الماء الساقط يستخدم كمصدر للقوة الميكانيكية في بريطانيا الرومانية
كما كان أوسع استخداماً في القارة ، ولم يضاف سوى القليل إلى هذا بعد سقوط
الإمبراطورية الرومانية بعدة قرون ، ثم استعبدت الآلات التي تدور بقوة
الماء الدافعة في أثناء حركة النهضة العامة في أواخر القرن العاشر وما بعده ،

وكان معظمها عبارة عن طواحين الغلال ، إلا أنه استخدمت هذه القوة في أواخر القرن الثاني عشر لإدارة منافخ كبيرة ، تدفع تيار هوائى دائم مستمر إلى أفران الصهر . ومن ثم أصبح من الممكن صهر الحديد ، وإن ظل الصانع يعتمدون إلى طرق الحديد المحمى إلى أن أمكن صهر الحديد على مقياس كبير في القرن التاسع عشر .

ومن مظاهر التقدم الصناعى في القرن الثانى عشر والثالث عشر بناء المداخن التى أصبحت تشيد بالقرميد ، وتعتبر المداخن خطوة هامة في إمداد الحجر بالدفء والنظافة ، وهى في هذا تفوق كثيراً طريقة ترك فجوة للدخان في الحجر كما كان يتبع قديماً . وكان يعنى هذا أيضاً إمكان تشيد مدافئ في كل حجرة ، مما شجع على حب الغزلة في حجرات خاصة ، هذه كانت خطوة نحو الرقى الاجتماعى .

كانت مدن فرنسا تنمو بصفة خاصة عندما كان السستريسيون يساعدون في إزالة الغابات وتأسيس القرى ، فنشأت المدن والقرى حيث يمكن القيام بكل أعمال الزراعة طول الشتاء . وكانت الصناعات الريفية أقل تقدماً في هذه الأقاليم منها في الأقاليم ذات الشتاء الطويل الذى يتساقط فيه الصقيع ، ومن ثم كانت القرية والمدينة أكثر ارتباطاً بعضها ببعض الآخر في فرنسا منها في معظم أنحاء ألمانيا .

نمت المدينة الألمانية وراء الراين شرقاً ، ووراء الدانوب شمالاً منذ القرن العاشر . وكانت المدينة تقوم أحياناً في ظل حماية قلعة ، حيث كانت تهتم بصناعة الحدادة وتجارة الأسلحة . وأحياناً تقوم المدينة بحول مركز دينى أنشأه أسقف أو راهب من الإرساليات التبشيرية . وأحياناً كان التجار يستخلصون امتيازات من بعض النبلاء لتشيد مدينة بقصد التجارة خلاصة . ونشأت متاهة من الدويلات الصغيرة التى لاحصر لها في الأرض ذات التضاريس

المعقدة من الوديان والتلال والممتدة شرق الراين من ميتر إلى كولن، وانتشرت فكرة المدينة شرقاً على طول نطاق اللويس، فقامت براغ وكراكاو، ونشأت فيها أول وثاني جامعة على الترتيب شمال الألب وشرقي فرنسا. وكانت مدن براغ وكراكاو وبوزنان وغيرها من المدن التي قامت في المحيط السلافي تيسل إلى أن تكون شيئاً مختلفاً عن المحيط القروي من حولها. وقبل أن تنشأ المدن كانت تتناثر في السهل الأوربي ولا سيما في نطاق اللويس البولندي تحصينات ترابية يلجأ إليها الفلاحون، ثم أصبحت بعض هذه التحصينات نويات لقيام مدن كاتدرائيات، جلبت إليها التجار الألمان كما جلبت إليها المهاجرين اليهود، ووضع التجار تخطيط مدنهم الكبرى، بما فيها من المباني العامة مثل قاعة المدينة townhall في ميدان فسح يعقد فيه السوق، وكانت الكاتدرائية تقوم في الجزء المخصص من المدينة (الفاغل Wawel في كراكاو). وكانت هذه المدن تجتذب إليها اليد العاملة بين الريف الصقلي، ومن ثم نشأت في المدن عدة أحياء مختلف بعضها عن البعض الآخر، حتى استقر اطي ومركز تجاري، وحتى صقلي، وممزل (جيتو ghetto) يهودي.

ولم يكن نمو المدن في البحر الباطي مختلفاً كثيراً — في بعض نواحيه — عن نموها في البحر الأبيض من زمن بعيد. فقد كون صيادوا السمك التجار عصبه مدن الهانزا التجارية وأصبحت لويك زعيمة تلك المدن، ويرجع الفضل في ذلك إلى موقعها الممتاز، على بعد ٢٠ ميلاً من مصب نهر ملاف، وفي مأمن من غارات القراصنة من ناحية، وإلى أنها كانت تمتلك مورداً كبيراً من الملح في لوينبورج هرايدة، وفي جنوبها من ناحية أخرى، ومن ثم استطاعت أن تقوم بتسليم الرنجة التي يصناد معظمها من جنوب شرق السويد، وكانت لويك في مركز حسن يمكنها من أن تبعية للندن الألمانية كي تستهلك في موسم الفصح. إذ كانت الكنيسة حكيمة في تحريم أكل اللحوم في هذا الموسم حتى تمنع الفلاحين من ذبح الحيوان في ذلك الموسم. وكانت قاعة المدينة

Rathaus وكنيستها تشرافان على لويك ، وكانت الكاتدرائية الجميلة تقع على أحد أطراف المدينة يحيط بها خندق مائي ، وقد حاولت مدن الهانزا الأخرى تقليد هذا التخطيط الذي أصبح من معالمها . ومن أهم الحقائق الهامة في هذا الموضوع أن المدينة أصبحت مستقلة استقلالاً ذاتياً إلى حد ما ، إلا فيما يتعلق بدخولها في عصبة أو اتحاد مع المدن المائلة الأخرى ، وكانت كل مدينة تعج بالحركة التجارية البحرية ولا سيما في تجارة السمك والفراء والملح .

ولنذكر تدهور عصبة المدن التجارية هذه باختصار - إذ يرجع هذا التدهور إلى وقوع نوفوجورود مركز فراء مدن الهانزا في قبضة سلطة موسكو ، ولذلك أضحت تجارة الفراء تتحاشى العصبة ، ومالت إلى إرسال بضائعها براً وعن طريق الأنهار إلى ليسبج ، التي بدأت تعتنى بسوقها الدولية الشهير ، وبجامعتها الكبيرة وبنشاطها في نشر الكتب منذ القرن الخامس عشر .

ونشطت تجارة الملح أيضاً في جزيرة أوليرون على خليج بسكاي في فرنسا وذلك بتبخر ماء البحر . وكان هذا الملح ينقل إلى البحر البلطي بمرأ عن طريق ككونهاجن ، التي ازدادت أهميتها بينما ضوكت أهمية لويك وغيرها من مدن عصبة الهانزا . ويضاف إلى هذا هجرة الرنجة التي كانت تتكاثر جنوب غربي السويد إلى سواحل هولندة وجزرها منذ القرن الخامس عشر . فتمت المدن الهولندية خارج تقاليد الهانزا . وفي القرن السادس عشر أصبحت الملاحة المحيطية أكثر أهمية ، ففقد كل من البحر المتوسط والبحر البلطي جزءاً كبيراً من أهميته ، ورغم أن هامبورج وبريمن وهما من مدن الهانزا السابقة قد نمتا فيما بعد ، إلا أن هذا النمو كان راجعاً إلى التجارة المحيطية التي ساهمتا فيها ، كما كان خارج نطاق الهانزا ، وأخيراً فقد

تحرر الحكام المحليون - ولا سيما ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى - أنفسهم من سيطرة الهانزا . وهكذا لم يكتب لفكرة مدينة الدولة إلا عمر قصير مزدهر على البحر البطل ، إذا ما قورنت بازدهارها السابق في حوض البحر المتوسط .

لقد ذكرنا توا الملاحة المحيطية ، التي صحب تطورها الأول تطور آخر ، وهو اختراع الطباخة ، التي جددت معرفة الناس بأداب الإغريق وأعطتهم بصيرة جديدة في التراث الكلاسيكي . وقد أدى انتشار معرفة القراءة والكتابة ولو انتشاراً محدوداً ، مع انتشار الكتاب المطبوع ، وازدياد الحاجة إلى الكتاب المطبوع ، وازدياد الحاجة إلى الوثائق التجارية المكتوبة إلى تسليط النقد على نظم العصور الوسطى . فقد أصبحت خرائط العصور الوسطى قديمة لا تصلح للاستعمال ، وأثبت كوبرنيكوس وأتباعه خطأ النظريات الفلسفية القديمة ، وأدى سوء استخدام الكنيسة الرومانية للسلطة إلى ثورة دينية كبرى ، أعظم انتشاراً وأقوى أثراً من الانتفاضات الثورية التي كانت تظهر من حين إلى آخر في العصور الوسطى . وقد استخدمت تلك الثورة الجديدة سلاحاً جديداً ماضياً ، وهو ترجمة الكتاب المقدس إلى اللهجات المحلية العديدة . ومن الشيق - من وجهة نظرنا - أن نلاحظ أنه لم يبق في نطاق الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا إلا الأقطار التي كانت داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية القديمة ، بينما تخلصت كثير من الأقطار التي كانت خارج الإمبراطورية الرومانية قديماً من ولائها للبابوية . ورغم أن إنجلترا كانت داخل الإمبراطورية إلا أنها كانت أقل تأثراً بالرومان من بلاد الغال ، ولذلك فقد قطعت علاقتها بالبابا ولكنها اقتبست نظاماً كنسياً قومياً يختلف عن الكنيسة الرومانية بدرجة أقل من اختلاف الكنيسة الاسكتلندية عنها مثلاً . أما في أيرلندا فقد اقترن الولاء للبابا بمقاومة الحكم البريطاني .

وظلت هناك جزر قليلة متناثرة من الكشلكة في ألمانيا شرق الراين وشمال الدانوب ، ولا سيما حيث نشأت مراكز الإرساليات التبشيرية القديمة في القرنين العاشر والحادي عشر وقد قوى توزيع مراكز الكشلكة واللوثرية ، هذه بعد انتشار مبدأ أن لكل إقليم ديانته ، ubi regio, ibi religio الذى يمكن أن يقال إنه كان أحد أسباب حرب الثلاثين عاما (١٦١٦ — ١٦٤٨) العامة والتي تركت أسوأ الآثار في الحياة الألمانية . وقد احتفظ البابا بسلطته في جزء كبير من نطاق اللويس ، وهى الآن تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا وسيليزيا العليا التى ظلت كاثوليكية ، أما بولندا فقد احتفظت بكشلكتها بسبب الدور الكبير الذى لعبته في مقاومة المغول والأتراك .

ورغم هذه الاستثناءات ، فإن استقلال شمال غرب أوروبا من سلطة الكنيسة الرومانية ، وفناء هذه السلطة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية السابقة ، حقيقة كان لها أكبر الأثر حتى في التطورات الهامة التى حدثت في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

ولا نستطيع أن نضيف إلا القليل عن التطورات الأوروبية الحديثة . فقد انتشرت طواحين الهواء في هولندا بصفة خاصة في القرن السادس عشر ، وذاع استعمالها في كل مكان وتنوعت طرق استخدامها ، ولا سيما في رفع الماء من الأرض . فاستصلحت مساحات كبيرة من الأرض وزرعت بالمحصولات الدرنية في أوائل القرن السابع عشر . وقد فتحت هولندا أبوابها للقارين من وجه الاضطهاد والكاثوليكية ، ومن ثم دخلتها نخبة من المفكرين ، الذين يمتازون بقوة الإبداع ، فازدهرت الفنون الجميلة في هولندا في القرن السابع عشر ، كما ازدهرت العلوم والآداب وتقدمت البلاد تقدما اقتصاديا كبيرا . وقد بدت على وسائل الدورة الزراعية الثلاثية والثنائية القديمة دلائل الضعف وظهرت عليها نتائج القسر الوخيمة ، واستمر حكم العادة على هذه

النظم استمرار اليد العجفاء الهزيلة ، وتخلص الفلاحون من هذه النظم وبدءوا في استغلال أراضيهم استغلالاً يلائم أغراضهم الخاصة ، وكان الجزر يزرع في غرب أوروبا في العصر الروماني كمحصول حدائق ، ولكنه انتشر بعد ذلك ، ونظراً لأنه كان يبق في الحقول حتى الخريف فقد عطل انطلاق الماشية للرعي في الحقول بعد الحصاد . ومن ثم فرض سادة الإقطاع عرفاً يقضى بأن يحصل الفلاحون على إذن خاص من السيد قبل أن يخصصوا قطعة أرض لهذا المحصول . ومن ثم فقد انتشرت زراعات الجزر واللغث المختلفة مثل Mangel wurzels وهي النباتات الجذرية الألمانية ، مما أدى إلى تدهور رعي الحقول بعد الحصاد ، وكان لهذا أثره على صغار الفلاحين ، ولكنه منح كبارهم حرية كبيرة في التصرف واستغلال الأرض . إلا أن النظام الزراعي القديم بقي في أوروبا - بشيء من التعديلات - حتى أوائل القرن التاسع عشر .

وقد ساهم الهولنديون والبريطانيون في تحسين صناعة السفن ، وفي تسهيل الملاحة ، وحرية حركتها في الأقاليم ذات الرياح المتغيرة الاتجاه ، (وذلك ببناء سفن لها شراع للقدمة وآخر للؤخرة) ، وفي تقليل المياه الآسنة التي تتجمع أسفل السفينة والتي كانت مصدر خطر فتاك في الرحلات البحرية الكبيرة وهكذا أحرزت كل منهما نصيب السبق في الرحلات العابرة للبحيطات وبدأتا تتعلبان كيف تمدان البحارة بالغذاء المناسب الذي لا يصعبهم بالأسقربوط ، وقد نشط الفرنسيون أيضاً نشاطاً كبيراً في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٥٠ وأسسوا مستعمرات جواديلوب ومارتينيك وكندا الفرنسية وسان لويس في السنغال والرفيون وماوريتيوس ، إلا أن نظام البوربون الاستبدادي عرقل من تقدم الفرنسيين ، فقد كانت جهود البوربون متجهة إلى أوروبا بصفة خاصة ، رغم جهود دوبليكس (١) Dupliex في القرن الثامن عشر ، كما عرقلت

(١) جوزيف فرانسوا دوبليكس ١٦٦٤ - ١٦٩٧ حاكم الممتلكات الفرنسية العام في الهند ؛ حاول توسيع رقعة الممتلكات الفرنسية في الهند وحارب تقدم البريطانيين في هذه البلاد ولكنه فشل .

الاضطهادات الدينية قوى الإبداع وساقى النخبة الممتازة من المفكرين إلى
النقى أو زجت بهم إلى غياهب السجون . وكانت التجارة تجلب السلع من كل أنحاء
العالم إلى القارة - ولاسيما بريطانيا - لكي تصنع في أواسط القرن الثامن عشر ،
ومن ثم قامت تجربة الثورة الصناعية الكبرى ، التي جمعت شمل المستضعفين
من الفلاحين في مدن المصانع . ونمت تلك المدن نمواً كبيراً ، حتى عفت يد
النسيان على الأسس الريفية التي قامت عليها المدن في كثير من مناطق
بريطانيا ، وطفئت المدن الكبرى في مناطق أصلها ريفي .

الفصل الثامن

الحضرة

لقد ازدادت معرفتنا عن الهند في ربيع القرن الأخير ، حتى أصبح من المحتمل جداً أن تتطور آراؤنا بعد ذلك عن هذه البلاد . وتقع المنطقة الهندية جنوب النطاق الجبلي العظيم الذي يمتد من الشرق إلى الغرب ، في النصف الشمالي للعالم القديم ، كما أن معظم شبه جزيرة الهند يقع جنوب مدار السرطان . وقد عرفت جبال الهملايا خمس فترات جليدية في عصر البلايستوسين غير أن سهل السند والجانب وشبه الجزيرة الهندية لم تعرف الجليد . وتدل قطع الحصى والشظايا الخشنة على أقدم آثار إنسانية في الهند . ومعظم هذه الآثار وجدت - حتى الآن - في مدرجات نهر سوان Soan في شمال شرق البنجاب ، ومن ثم تسمى بالحضارة السوانية ، وقد وجدت خلال الفترة غير الجليدية الثانية أو الكبرى ، وهي تعادل إلى حد ما فترة « مندلس » غير الجليدية في أوروبا ، غير أنها استمرت فترة طويلة . كما أجرى البحث عن آثار الإنسان القديم في منطقة بومباي شمال ناربادا ، وأجزاء من وسط الهند وجنوبها الشرق . إلا أن كثيراً من هذا الحصى وآلات النواة من صنف ردى . ثم تطورت الصناعة الحجرية ، واستعمل ضغط الخشب والعظام وقرون الحيوان في تشكيل آلات النواة ، مما يدل على تشابه مواز بالصناعة الأشولية في غرب أوروبا وأفريقية ، وربما دل أيضاً على وجود علاقة بينهما . كما استخدمت في عصر أحدث من هذا الآلات المصنوعة من العظام ، وأحياناً من عظام حيوانات بائدة لاجود لها في الوقت الحاضر . وقد كان منجن Menghin يظن يوماً ما أن الهند وطن آلات النواة ، ولكنه عدل عن هذا الرأي فيما بعد ، والرأى السائد الآن هو أن شمال أفريقية والأقطار المجاورة لها مباشرة في آسيا هي الوطن الذي بدأت فيه صناعة آلات النواة بمهارة . ومن المحتمل أن يكون هذا الفن قد وصل الهند من الغرب ، مرتبطاً ، من عهد بعيد ، بنوعنا البشرى ، الإنسان العاقل ، وليس بأى نوع بشرى آخر . غير أنه لم يعثر بعد في الهند على جماجم أو عظام بشرية قديمة .

ولما كانت الهند — فيما عدا شواهن الهملايا — لم يجثم عليها كثير من الجليد خلال عصر البلايستوسين ، فإن هذا يعنى أن الإنسان استطاع أن يعيش في هذه البلاد في أثناء الفترات الجليدية التي اجتاحت غيرها ، ومن هنا ننظر أن نجد بقايا جماعات قديمة هاجرت إلى شبه جزيرة الهند من أقدم العصور وظلت معمورة بها . ومن الحتمات الأخرى الأساسية عن الهند أن غاباتها كانت كثيفة وضخمة منذ زمن مبكر جداً ، ومن ثم استطاعت الجماعات البشرية التي لا تزال تحتفظ بمستوى حياتها البسيط البدائي أن تجد في هذه الغابات أماكن تقهر إليها . ولا سيما وأنها بدأت لا تشجع على اجتذاب الشعوب القوية الغالبة التي تنسلح بأدوات وآلات أفضل ، والتي تفضل الجهات المكشوفة . ومن ثم تمثلت في الهند أنماط متناقضة لأساليب الحياة ، والفكر ، بين الجماعات المنحطة التي تعيش عادة في الغابات والأحراج والجماعات الأخرى التي تعيش على مستويات أعلى مختلفة في الأراضي المكشوفة . ويبدو أن البحر والملاحة البحرية لم تكن — إلا في فترات قليلة — ذات أهمية تذكر في تشكيل نمو الهند .

عندما تقهرت الثلجات وانكشفت غطاءات الجليد نهائياً في أواخر البلايستوسين طغت مياه الطوفان على السفوح الجنوبية للهملايا ، وتركت بلاشك آثارها ، إذ حملت كميات ضخمة من الحصى والحصى والطين وأرسبتها على قاع ما هو معروف في الوقت الحاضر بسهول السند والجانج ، مكونة طبقات غاية في السمك ، وغطت الغابات الكثيفة هذه السهول كما غطت سفوح الجبال المنخفضة ، ومن ثم فمن المحتمل أن عدد السكان كان ضئيلاً جداً .

وتنحصر في شبه جزيرة الهند مساحات صخرية فوق السهول ، وهذه الصخور لم تغطها الغابات مطلقاً . وكان يسكنها بعض الشعوب التي تصنع آلات حجرية من الشظايا الصغيرة . من طراز واسع الانتشار في إفريقيا

وآسيا وأوروبا ، حيث يسمى بالصناعة التردنوازية أو حضارة الشظايا
القرمية . وربما كانت هذه الآلات الصغيرة (الصوانية أو الكوارتزيتية أو



(شكل رقم ٥٣)

آلات ترجع إلى أواخر العصر الحجري
القديم من الهند

الكوارتزيتية) تتركب فوق قطع من
الخشب أو العظام أو القرون . والرأى
السائد أن هذه الآلات الصوانية ظلت
سائدة في شبه جزيرة الهند كلها حتى
حل محلها الحديد خلال الألف
الآخيرة السابقة للميلاد . وعلى كل
حال ، فإنه لم يعثر إلا على قليل من
الآثار تدل على وجود حضارات
متوسطة بين الشظايا القرمية وأوائل
عصر الحديد . ومثل هذه الآثار لم
توجد إلا في إقليم أوريسا الذى يقع
في الشمال الشرقى للهند ، فهناك من
الأدلة ما يربطها بالشرق ، وأما عن
باكستان فالأدلة تربطها بالأراضى
التي تقع قربها .

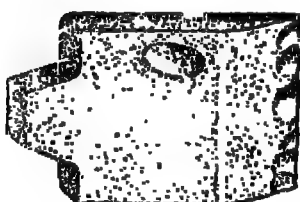
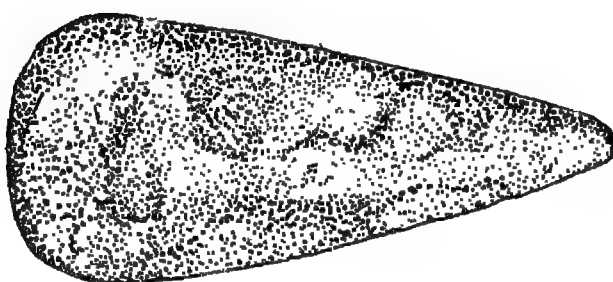
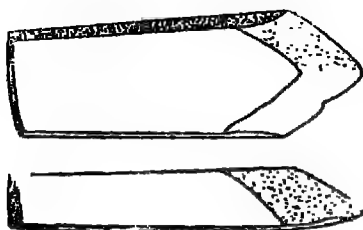
وكانت الآلات الحجرية تصنع
في الهند (١) البعيدة وأندونيسيا وتشظى
فيها من جانب واحد ، ويرى البعض
أن هذا الطراز من الآلات قد ظل
واسع الانتشار في هذه البلاد حتى

(١) يسمى المؤلف هذه الانحاء البعيدة Further India ويعنى بها شسبه
جزيرة الملايو والصين الهندية كما يظهر في سياق الحديث في هذا الفصل (المعرب) .

الآلاف الثانية أو الأخيرة قبل الميلاد، مع وجود درجات انتقالية نحو طراز يتكون بوساطة الضغط أو الصقل ، وقد وجدت فتوس حجرية مصقولة ، تكاد تكون أسطوانية الشكل ذات قطاع عرضي بيضاوى في أما كن عديدة من شمال الهند وجنوب الصين . وهذه الأداة الحجرية الحديثة أصلا ، قد انتشرت إلى اليابان عن طريق فرموزة ، كما انتشرت إلى الفيليبين ، وشرقي أندونيسيا وميلانيزيا ، ولكنها قليلة الانتشار في الهند البعيدة ، ولم تصل جاوة مطلقاً ، ومن الجائز أن تكون قد انتقلت من جنوب غرب آسيا إلى شرق آسيا وجنوبها الشرقي ، كما أنها كانت واسعة الانتشار في أوروبا في العصر الحديث .

وقد ظهرت في الهند البعيدة قرب منتصف الألف الثانية ق . م . فأس حجرية مصقولة ذات عنق طويل ، ومنها انتشرت إلى جنوب الصين ، ويسمى الألمان هذه الأداة بالفأس ذات الكشفين Schulerbeit ثم انتشرت هذه إلى الهند فوصلت أوريسا Orissa ؛ ووصلت جودافارى Godavari (حيث عثر على عينة واحدة منها) وأسام وشوتا ناجبور والبنغال ووجدت عينة واحدة منها أيضاً في الله آباد .

وهناك بعض أدلة - ليست قاطعة - على ارتباط زراعة الأرض بالشعوب التي كانت تستعمل هذه الفأس . فإذا صح هذا فإن الأرض يعتبر أصيلاً في الهند البعيدة كنبات يزرع . ثم تطورت بعد ذلك الفتوس الحجرية الجيدة الصنع ، وهي مصقولة صقلاً تاماً ، ولها قطاع عرضي مثلث . ويرى بعض الباحثين أنها انتشرت من الصين نحو الجنوب أو الجنوب الشرقي . ومن ثم تسلمت إلى ساتال بارجاناس وشوتا ناجبور ، ويقال إن هناك علاقة ثقافية بين هذه الفتوس الحجرية وبين الشعوب التي تتحدث لغة الموندا Munda في شوتا ناجبور حتى الوقت الحاضر .



شكل (٥٤)

رؤوس قنوس حجريّة هندسيّة:

- ١- ذات مقطع مستطيل . ب - ذات مقطع بيضاري . ح - فأس ذات حافة

وقد وجدت في باكستان أدلة أوفر عن الحضارات القديمة القائمة على إنتاج القوت كما هو متوقع من موقعها بالنسبة للوطن الأصلي لزراعة الحبوب والقمح والشعير وربما الدخن أيضاً ، في جنوب غرب آسيا . ويبدو أنه بعد أن تمت معرفة إقامة فرن مقفل لطهى الطعام ، ولحرق الفخار الملون ، وصهر النحاس والبرونز صهراً بدائياً . بدأت ممارسة زراعة الحبوب في الانتشار إلى تلال شرقى بلوخيستان ومن ثم وصلت إلى سهل السند وفي ذلك الوقت كانت جنوب غرب آسيا قد تقدمت كثيراً في فنون الصناعة وعرفت صب البرونز وطرقه ، وعرفت طريقة صنع الرماح بحيث تتركب فيها للعصى . ويبدو أن الذين هاجروا من هذا الإقليم نحو الشرق لم يحملون معهم كل ماوصل إليه وطنهم الأول من تقدم صناعة ، إذ ظلت صناعة صب البرونز عملية غير دقيقة في باكستان . وقد كانت حضارات عصر البرونز في غرب آسيا آثار عميقة على كل من الصين وأوروبا إلى جانب حوض البحر المتوسط أيضاً ، غير أن أفريقية جنوب الصحراء الكبرى والحبشة لم تعرف قط عصر البرونز وهذه حالة متطرفة لم يحدث لها مثيل بالضبط في الهند رغم وجود بعض أوجه المقارنة بين الهند وأفريقية الإستوائية ، التي ترجع إلى نقص الخبرة السابقة بالنحاس والقصدير ، وإلى وجود غطاءات الغابات الكثيفة وإلى موقعها الجنوبي بالقرب من خط الاستواء فأننا نجد بها بعض أساليب الحياة البشرية القديمة التي لم يعد لها وجود في غرب آسيا أو أوروبا أو الصين . غير أنه وجدت في الهند آثار عمرانية وحضارية راقية ، لا تقل شأن عما وجد في أوروبا أو الصين .

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية افتتح فصل جديد في تاريخ الهند القديم . فلقد كانت خرائب مدينة هارابا قد اجتذبت إليها الانتباه فعلاً منذ عام ١٩٢٢ . وخص مستر ر. د. بانرجي هيكل بوذى في خرائب مدينة أخرى ووجد أنها قائمة على بقايا شيء أقدم بكثير من آثار بوذا . وهذا أعطى

سيرجون مارشال بصيصاً من النور، فبدأ عملية الحفر العلمى المنظم التى استمرت بعد ذلك تحت إشراف المرحوم أرنست ماكى Mackay فى مكان اسمه موهانجودارو . ثم أمتد الحفر بعد ذلك إلى جهات أخرى ، بإشراف المرحوم بريجادير روس وستيوارت ييجوت وسير مورتيمر هولير ، بينما زار جوردون تشايلد هذه المنطقة وساعد فى تفسير بعض الآثار .

ويبدو الآن أن منتجى القوت كانوا يسكنون عدداً من القرى فى حوض السند الأدنى وشرق بلوخرستان ، وربما كان ذلك قبل عام ٣٠٠٠ ق . م . ، ثم تكون بعد ذلك تنظيم اجتماعى سياسى على نطاق أكبر فى السند ، وأنخذ هارابا عاصمة له فى البنجاب وتنظيم آخر فى الجنوب وعاصمته موهانجودارو على بعد ٣٥٠ ميلاً منها ، وذلك حوالى ٢٥٠٠ ق . م .

ووجدت آثار الحضارة القديمة ريفية قرب ممر بولان ، وسميت بحضارة كوتا Quetta نسبة إلى مدينة قامت بعد ذلك قرب الطرف الغربى للبر ، وقد وجد فى مواضع هذه القرى القديمة فخار صقيل ملون بخطوط هندسية بنية قرمزية اللون . وهذا الفخار أقرب إلى فخار فارس (المرحلة الثالثة لسيالك) وجنوب العراق (المرحلة الأولى لسوسا) أى إلى ٣٠٠٠ ق . م . ، منها إلى فخار منطقة السند . وتدل نقوش الفخار وغيرها من التفاصيل على وجود علاقات بين هذه القوى القديمة وبين السند الأدنى وشرق بلوخرستان منذ زمن مبكر ، أما العلاقات وبينه وبين مدن السند الأخرى فقد تمت فيما بعد . وربما تمت تلك الصلات القديمة بحراً عن طريق مكران وأور . وقد تتبع روس تتابع الحملات فى رانا فوانداى (وادى زوب Zhob) وقد ظهر منها أن أقدم مستوى يحتوى على هشيم يدل على مواضع موافد النار ، كما وجد فيها أواني مصنوعة باليد (وهى فى أعدا إناء واحد غير ملونة) . ونصال صوانية ورؤوس سهام عظيمة . غير أنه لم توجد آثار مبان ، وربما دل هذا

— ٣٠٠ —

على أنها كانت محلات مؤقتة يسكنها شعب نصف بدوى ، يرعى الثور ذا السنام والضأن والحمار ، ومن الغريب أنه وجد في ذلك المكان أربعة أسنان لحیوان وجد أنه حصان مستأنس ، ولا نستطيع قياسا على تاريخ المراحل الأحداث لرأينا عند أى أن تورخ هذه المحلة إلى ما هو أحدث من أوائل الألف الثالثة ق . م . وربما كانت أقدم من ذلك ، ومن ثم فهذه هى أقدم أسنان لحصان مستأنس عرفت حتى الآن .

ووجدت في مواضع قرى في جنوب بلو خستان والسند أو أواني ناعمة الملمس ، معظمها مصنوع بعجلة الفخارى ، جيدة الصنع جدا ورقيقة ومغطاة بشریط أبيض دقيق ، تزيينه في بعض المواضع « نوندارا » رسوم حمراء اللون ذات تصميمات متنوعة . وكانت الألوان المرسومة على الأواني في موضع آخر « وهونال » إلى الشمال من ذلك في جبال براهوى ، تتضمن الألوان الزرقاء والصفراء والخضراء إلى جانب الحمراء . إلا أن هذه الألوان الإضافية لم تثبت تثبيتا جيدا . وتستوحى أشكال أواني « نال » تصميماتها من النباتات والحيوانات والدوائر المتداخلة .

ووجدت في كولى Kuili وغيرها من المواضع في جنوب بلو خستان تماثيل نسوية صغيرة أعنتى بها الفنان بحلى النساء مثل الحلقات والاساور والعقود وغيرها أكثر مما أهتم بتقاطيع وملامح الأشخاص أنفسهم . كما وجدت أواني صغيرة منحوتة من الصخر اللين ، وربما كانت خاصة بحفظ المحتويات الثمينة مثل العقاقير ومواد التجميل . وربما استمرت القرى في كثير من الحالات حتى أيام قيام مدينتى هاربا وموهانجودارو ، حيث أننا نجد في بعض القرى مثلا قطع من نماذج « أو لعب » لعربات ، وهى من معالم آثار المدن .

أما في مواضع وادى ذوب فقد كانت الأواني الفخارية ناعمة الملمس في بادىء الأمر ، أو مصنوعة من الصلصال « الطين النضيج » ، ثم بعد ذلك بوقت

طويل أصبحت حمراء اللون ، وهذه الأواني الحمراء التي وجدت في المواضع الشمالية تختلف كثيراً عن الأواني التابعة التي وجدت في قرى السند وجنوب بلو خستان . ولما كانت هذه المواضع تصنع أواني حمراء ، فلا بد أنها كانت أكثر اتصالاً بقرى بولان والزوب منها بقرى الجنوب ،

ولا يزال — على أية حال — قيام المدن محفوفاً بالمخاطر ، وليس من الحكمة الآن أن نعتمد اعتماداً كبيراً على قيام أية علاقات معينة .

ووجد في القرى القديمة أيضاً قدر لا بأس به من البرونز الى جانب النحاس . ويدل تحليل قطعة اخفذاً من فأس عثر عليها في نال على أنها لم تحتو على القصدير ، بل كانت تحتوى على النيكل والرصاص . ويوجد النيكل مختلطاً بنحاس النحاس في شمال الهند وأفغانستان ، إلا أنه من المحتمل أن تكون نال قد حصلت على ما يلزمها من معدن من بلو خستان . وكانت أدوات البرونز التي وجدت في المدن غنية بالنيكل ، إلا أنها أيضاً كانت تحتوى على الزرنيخ الذى وجدت منه بقايا ضئيلة في فأس «نال» التي سبق ذكرها . كانت الاختام التي كانت تختتم بها الأواني الفخار على ما يبدو مهمة جداً في المدن ، إلا أنه لم يوجد فيها في نال سوى خاتمين ، أحدهما من الصخر اللين (ستيتايت) والآخر من النحاس ، إلا أنه من المحتمل أن يكون حديثاً جداً ، ولا صلة لمطلقاً بأية آثار وجدت في المدينة . هذا إلى أن المدن استخدمت القرميد استخداماً واسعاً ، وهو غير موجود في القرى القديمة التي نتحدث عنها ، حيث يسود استعمال الحجارة واللون ، وقد كانت القرى القديمة على صلات تجارية بالمدن ، عندما تمت فيما بعد ولكن المدن لم تبسط نفوذها الحضارى على القرى .

ويبدو — بصفة عامة — أن أقاليم السند وشرقي بلو خستان كانت أقل جفافاً في آلاف الثالثة ق.م. عنها في الوقت الحاضر ، ويتقدم ستوارت ويجوت بفكرته الرائعة عن احتمال اتساع نطاق الرياح الموسمية التي استطاعت

أن تتوغل مسافة أكبر الى الغرب مما تصل اليه الآن ولاتزال مسألة الرياح الموسمية قيد البحث سواء أكانت أقوى مما هي عليه الآن، أم كانت قد تزعجت شرقاً . إلا أنه من الجائز أن يكون الاحتمال الأول صحيحاً ، وكانت المدن السندية تستخدم الحجر استخداماً واسعاً ، وهذا لا يدل على وجود أخشاب لازمة لحرق اللبن فقط ، بل يدل على قيام الحاجة الى حماية المنازل من الأمطار الغزيرة الساقطة أيضاً ، التي كانت جديرة بأن تحرق المنازل المبنية من اللبن . كما أن نظام المجارى في المدن يدل على سقوط المطر وارتفاع فيضانات الأنهار ، التي تغلبوا على خطرهما باقامة السدود . وأخيراً فإن وجود البير وليس الأسد في الاختام يدل على أن البيئة كانت بيئة أحراج وليست بيئة حشائش مكشوفة شبه جافة . وربما وجدت في بعض أنحاء هذا الاقليم غابات قديمة نشأت تحت ظروف البلايستوسين أو أعقابها الممطرة ، واستمرت دون أن تستطيع تجديد نفسها عندما أتلقت . وهذه حالة معروفة في بعض مناطق اللويس الأوربية ، رغم أن الآجام والأشجار الصغيرة تنمو مرة أخرى بعد إزالتها في بعض المناطق .

إن هاربا وموهانجودارو هما أكبر مدينتين ، نالتا حظاً كبيراً من الدراسة والاهتمام . ولاتزال هناك بعض المدن القديمة الأقل أهمية لم تدرس بعد وهي تقع في منطقة جافة جنوب غرب البنجاب تسمى منطقة باهاولبور Bahawalpur قرب مجرى نهر قديم جاف وهو نهر ساراسفاتي Sarasvati المشهور في الآداب الهندية القديمة .

وتبعد كل من المدينتين الكبيرتين عن الأخرى بنحو ٣٥٠ ميلاً . وتقعان معاً على نهر السند ، حيث لـبـكـل منهما واجهة نهرية كبيرة ، وكانت يتبع كل منهما عدد من البلدان والقرى ، غير أنه لا يوجد أى عمران آخر على طول المسافة النهرية الطويلة التي تفصل بينهما . ويبدو أن كلا من موهانجودارو

وهارابا كانت تكمل الأخرى أكثر مما تنافسها ، وبرى هويلر وبيجوت أنهما كانتا عاصمتين للسند إحداهما في الجنوب والأخرى في الشمال على الترتيب . وهنا لا نجد الاستمرار في الأرض المزروعة الذي نجده في مصر بين عاصمتي مصر العليا ومصر السفلى . وتشبه كل منهما الأخرى في التخطيط ، إذ تمتازان بشوارع متعامدة ، شمالية جنوبية ، وشرقية غربية ، ولكل منهما قلاع يقي مكانها في الوقت الحاضر أكوام وتلال على مستوى أعلى من مستوى بقية المدينة . وقد نهبت هارابا للأسف واقتلع منها الآجر والطوب لتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية . كما بنى هيكل بوذى حوالى ٣٠٠ ميلادية بوذية فوق تلال موهانجودارو ، ومن ثم لم نستطيع أن نعرف الآن ما كان موجوداً أسفل منه . وكانت قلعة هارابا تتكون من مصطبة كبيرة من الطين ، يتوسطها مركز مشيد من اللبن ، تحيط به أسوار من الآجر ، وكان للقلعة مدخلان أحدهما شمالى والآخر غربى ، تؤدى إليهما الطرق الواسعة التى كانت تسلكها المواكب . وقد وجد هويلر أن واجهة المصطبة وحوائط القلعة تجددت بعد ذلك خلال تاريخ المدينة وحينئذ أغلقت البوابة الغربية ، وربما دل هذا على مرور المدينة بفترة اضطراب في ذلك الحين ، ووجد في موهانجودارو قرب المنطقة التى بنى فوقها الهيكل البوذى حمام كبير مجهز بمحجرات لخلع الملابس . ومبنى كبير حول فناء واسع ، يقول عنه هويلر إنه ربما كان معبداً أو مجمعاً كبيراً . ورغم أننا لانزال في انتظار ما ستخرجه الحفائر تحت الهيكل البوذى ، ألا إننا لانشك في أن القلعة كانت مركز السلطة في المدينة . وقد وجد هويلر ما يمكن أن يكون مخزناً للذلال تحت رقابة الدولة ، مجهز برصيف طويل للشحن والتفريغ . وكانت أحسن البيوت مجهزة بمحمامات ، كما كان بعضها مكون من طابقين وله سقف مسطح . كما كانت مزودة بمزاريب تحمل الفضلات والقمامة وتلقى بها في عنادق : اصة في الشوارع ، ثم تجمع منها بعد ذلك . وكانت أنابيب تصريف المياه القنطرة توضع داخل جدران المنزل ، وتنتهى بمجارى مبطنة بالآجر ومغطاة تسير تحت الشوارع حيث تلقى بما تحمله من فضلات في حفر خارج

المدينة . وكانت المجارى ذات أغطية يمكن ازاحتها لتأمين نظافتها بما لا مثيل له مطلقا في أية مدينة قديمة ، وكانت الشوارع موازية للجهات الأربع الأصلية ، ومن ثم كانت مربعاتها ذات أشكال متوازية الاضلاع أو مستطيلة . وكانت المنازل تولى ظهرها للشوارع ، أى ذات حوائط لا نوافذ لها ، إلا في الطوابق العليا وقد ظل هذا الطراز المعماري باقياً لم يتغير عدة قرون . ووجدت قرب أهراء الغلال مساكن صغيرة ذات حجرتين ، تشبه الثكنات ، وربما كانت مساكن العمال المستعبدين ، الذين كان بعضهم يعمل في طحن الغلال ، في مطاحن ذات هاونات ضخمة ثقيلة وجسدت عصبها في موهانجودارو . ونحن نعرف أنه سبقت هارابا محلة صغيرة وجد فيها أواني فخارية حمراء أقرب إلى قرى بلو خستان الشمالية منها إلى قراها الجنوبية . ربما كان الشعير أهم محصول حبوب ، إلا أنه استخدمت أيضا حبوب قمح الحنظل . وليس ثمة دليل على زراعة الأرز بينما زرع القطن ، ووجدت أدلة على نسجه ، وربما كان سلعة تجارية ، غير أن نسيجه المعرض للفساد والتلف بسرعة ، لم يبق لنسجه . وكانت الماشية مهمة جداً ، وكان منها الثيران المخصصة المخصصة للعمل . وكانت هذه الماشية من النوع ذى السنام المسالوف في الهند ، إلا أنه وجدت أيضاً أنواع قصيرة القرون غير ذات سنام . وعرفت أيضا الضأن والماعز والخنازير والجاموس والخمير ، وربما عرف أيضاً استئناس الفيل ، وربما استؤنست الدواجن أيضا أو تركت في حالة شبه وحشية . ووجدت بعض عظام للجمل ذى السنام الواحد وللحصان ، وهذا على عكس ما وجد في الآلاف الثالثة ق.م في العراق ، التي لا توجد بها أية دلائل على وجود هذين الحيوانين . وهذا يدل على أن الجمل استؤنس أولاً في مكان ما بوسط آسيا الداخلية وليس في بلاد العرب الذي أصبح فيما بعد من معالمها الرئيسية . ويرى بعض الباحثين أن الجمل البكتري Bactrian ذا السنامين استخدم في العمل في العراق قبل ظهور الهجين ذى السنام الواحد .



شكل (٥٥)

شارع مزود بمجار من الطوب — موها نيجودارو

ويبدو أن سكان المدن الهندية قد خرجوا للبحث عن النحاس شرقاً والرصاص في راجبوتانا ، حيث تعلبوا شيئاً عن صهر النحاس والقصدير لعمل البرونز ، إلى جانب قليل من فن صب المعدن ، وكان النحاس الذي يحدونه يحتوي على كميات لا بأس بها من الزرنيخ وهذا يسهل عملية الصب ، حيث أن قليلاً من هذه المادة أو من القصدير يمنع تكون فقاعات الأوكسوجين في القالب المفقول الملى . بالنحاس المذاب بعد صهر خام النحاس . وكان يظن أن الصانع لم يكونوا واثقين من الحصول على ما يكفيهم من مادة القصدير . وقد أعلن أول باحثين في هذا الموضوع ، وهما مارسال وماكي أنهما وجدوا ١٩ فأساً برونزية فقط بينما وجدوا في مقابل ذلك ٣٤ فأساً نحاسية . إلا أن الآثار البرونزية التي عثر عليها فيما بعد تحتوي على النسبة الصحيحة من القصدير . ومعظم الفئوس النحاسية مسطحة ، كما أن رؤوس الحراش والسنانير ورؤوس الرماح بسيطة في الغالب . غير أنه توجد إلى جانب هذا أشياء أكثر تعقيداً في صناعتها ، مثل مرآة ذات يد على شكل جسم امرأة ، بينما سطح المرآة المعدني نفسه يكون رأسها على مقياس كبير بالنسبة للجسم . ونموذج لعربة مقفلة تجرها الثيران ، وعدد من الأواني ، وتمثال لفتاة راقصة ذات ملامح بلوخية جنوبية . ورغم هذه الآثار ، فلازلنا نحقق إذا قلنا بصفة عامة إن فن المعدن لم يصل مطلقاً إلى درجة كبيرة من الإتقان في حوض السند . فلم تعرف طريقة عمل حلقات لتركيب الأيدي ، إلا في حالة نموذج من الطين فقط ، كما أنه لم تعرف طريقة عمل فجوات لتركيب العصى (في الرماح مثلاً) رغم أن العراق عرفت تلك الطرق في الوقت الذي ازدهرت فيه مدن السند . وكان معظم الأشياء المصنوعة بطريقة الصب غير جيدة الصنع ، كما كان الصانع يعدل بعد ذلك ما صنعه بطريقة الطرق .

وصلت العلاقات الخارجية لمدن السند إلى مواد أخرى غير المعادن والخشب التي ذكرناها حتى الآن . فن المعتاد أن نعثر في الحفائر القديمة على

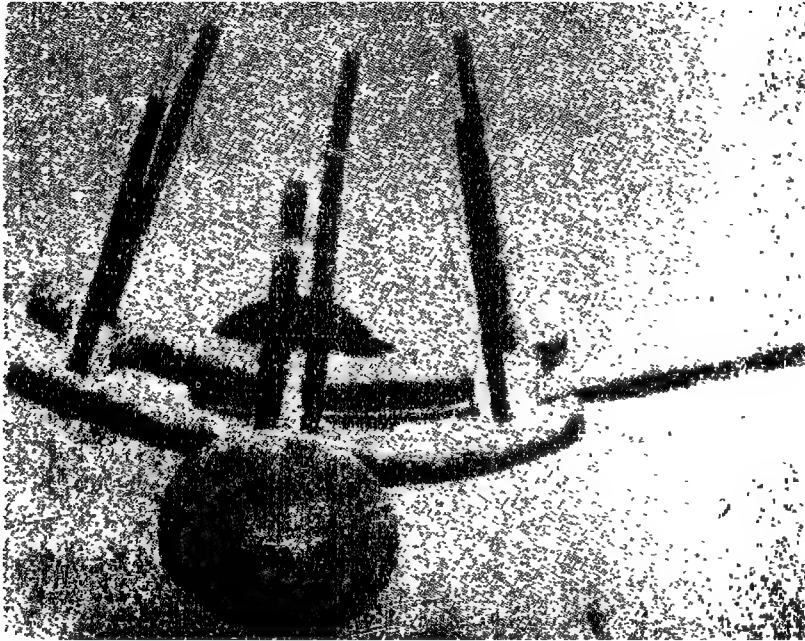


شكل (٥٦)

تمثال برنزي صغير لفتاة راقصة

كثير من أنواع الخرز الذى كان ينبغى أن يحتل جزءاً أكبر من مناقشتنا فقطع العقيق ، وبعضه مهذب ، يدل على ما يبدو على وجود صلات بالعراق ، حيث أنه لم يهذب العقيق كما يبدو إلا فى هذه المنطقة وفى السند . ويبدو أيضاً أن اللازورد جلب من فارس والبامير أو بادكشان شمال شرق سلاسل جبال أفغانستان إلى كل من العراق من ناحية والسند من ناحية أخرى ، ولكن السند كانت أقل من العراق بكثير فى استعماله . أما اليشم فربما جاء من التبت أو شمال بورما كما جاءت الفضة من فارس ، والفيروز وغيره من الحجارة شبه الكريمة من أفغانستان وأحياناً من شبه جزيرة كاثياوار Kathiwar التى كانت مصدر القواقع البحرية أيضاً . وربما جلبت بعض هذه الحجارة أيضاً من جنوب الهند ، كما جلب منها صخر أخضر كان يستخدم فى صنع الكشوس . ويقال إن الذهب كان يجمع من مجارى المياه الفارسية ، كما كان يجلب حجر الدم (الهيماتيت) الأحمر الذى كان يستخدم فى الصباغة ، من الخليج الفارسى . ويبدو أن قرون الوعل التى كانت تستعمل فى العقاقير كانت ترد من كشمير . وتحتل دلتا السند الساحل ، ولذلك لم تكن صالحة للعمران أو التجارة ، ولذلك كان التجار يقطعون جنوب بلوخستان ويتخذون من سوتكا جندور Sutkagendor محطة محصنة على مقربة من مكان هبوطهم بالساحل . وتوجد محطات شبيهة لذلك فى غرب أوروبا ، وهى سانتياجودا كومبوستيلا وكانتربرى وسانت ديفيد . ولا بد أن وصل التجار براً إلى فارس وأفغانستان وتركستان وربما إلى التبت أيضاً كما ذهبوا إلى راجبوتانا ويحتمل أن يكونوا وصلوا إلى جنوب الهند . وقد تعرف الباحثون إلى محلات تدل على اتجاه هذه الطرق بصفة مبدئية .

وليس معروفاً طرق نقل البضائع بالتفصيل . فربما استخدم الخالون كما استخدم حيوان النقل ، وربما استعملت العربات التى تجرها الثيران فى المسافات القصيرة القريبة من المدن . ويبدو أنهم كانوا يستعملون عجالات مصمته ، تجرها



(شكل ٥٧)

نموذج لعربة — ربما كانت لعبة

أزواج من الثيران . فقد وجدت نماذج لهذه العريات ، أو لعب على هيئة نماذجها في موهانجودارو وعلينا أن نفسح المجال في تفكيرنا ونحن في انتظار الأدلة الأثرية للمدى الذى استخدمت فيه الخيل والجمال كحيوانات للعمل . إذ يبدو أنه لا يوجد براهين على استعمال الخيل كحيوان للجر في مدينة السند .

وكانت الأواني الفخارية غير الملونة وغير المزينة تصنع بجملة الفخارى بكيات وفيرة في مدن السند ؛ أما عندما تلون فكانت تلون باللون الاسود فوق أرضية حمراء وهى بذلك أكثر صلة بقرى شمال بلوخرستان منها بقرى جنوبها . غير أن أواني المدن أقل انتظاما وأقل إتباعا للمألوف في زينتها من أواني القرى القديمة ، وكانت تحلى بصور النباتات والحيوانات ؛ ولكنها لم تكن جيدة التكوين . وهناك حالات قليلة من الأواني متعددة الألوان والتي يدل على اتصال بنال في سلسلة جبال براهوى البلوخرستانية كما ذكرنا من قبل . ويدل بعض الفخار غير الملون على وجود اتصالات مع مواطن الفخار الرمادى المعروف في غرب آسيا (تركستان) . ولم يتغير الفخار في هذه المدن السندية إلا قليلا سواء في الطراز أو النوع طوال تاريخها — ويبدو أن قارئ الفخار كانت تصنع خارج المدن ؛ وهذا طبيعى خوفا من خطر الحريق ؛ إلا أنه في أيام الأزمات والتدهور كانت تقام القهائن داخلها ، أما لضعف السلطة وإما خشية المغيرين ، وهذا مالا نعلمه . ووجدت تماثيل صغيرة عديدة معظمها لنساء أو ما أشبه ذلك ، وبعضها ذات رؤوس أو أجزاء أخرى منفصلة ويمكن تركيبها على بقية التماثيل ، وبعضها كان لعبا أو تماثما لجلب الخصب أو دفع الحسد . وتمتاز تلك المدن أيضا بالاختام المنقوشة ، ورغم أنها وجدت في محلات بلوخرستان متصلة بالمدن ، إلا أنه وجدت اختام عديدة في سومر في أماكن يمكن تحديد تاريخها ، ومعظمها يقع في القرنين أو ثلاثة القرون الأخيرة من الألف الثالثة ق . م . وقد تدل هذه الاختام على أن التجار الهنود أو عملاهم

كانوا يتاجرون مع أور وغيرها من المدن السومرية، وربما يكون عدم وجود اختتام من بلوخستان على أنهم في بلوخستان كانوا ناقلين للتجارة السندية دون أن يكونوا تجاراً، إلا أنه من الأوفق ألا ترتب نتائج كثيرة على عدم وجود آثار . وكانت الاختتام في الغالب مستطيلة ومعدة لحتم مواد لينة، وهذا يشبه طريقتنا في وضع علامات بحجر خاص على الممتلكات المختلفة . وكان الخاتم عادة محلى بنقش خاص محفور بعناية، سواء كان صورة جانبية لثور ذي سنام أو ببر أو فيل . وإلى جانبه نقش يقتصر على علامات قليلة . ولم تتغير أنماط صناعة الاختتام أو اللغة المنقوشة عليها . وهي لم تقرأ بعد - طوال القرون . ولم يكن بالمدن نقرش طويلة أو تماثيل عامة أو نصب كبيرة تشبه ماهو معروف في الوقت الحاضر . ولم يوجد بها معبد أو هيكل كما هو معروف الآن ولكتنا لا نعرف ماهو موجود تحت هيكل بوذا في موهانجودارو أو ما حطم تماماً في سبيل الحصول على الأجر من هارابا .



(شكل ٥٨)

خاتم يظهر به صورة أور

ويبدو أن المدن كانت تراعى غاية الدقة — بدرجة غير مألوفة — في مسائل السكيل والميزان . وكانت تستخدم في الغالب تكرار أرقام ٢ و ١٠ و ١٦ وهذا أيضاً لم يتغير خلال القرون .

وهذا يدل على إتباع المدن السندية نظم الإنتاج والتجارة بمنتهى الدقة ، دون أن يسمح بأحداث أى تغيير ، وربما كانت هذه المحافظة الدقيقة على النظم والقوانين أمراً مقترناً بحكم الملوك السكينة الذين يقرضون على قوانينهم شيئاً من القداسة الدينية .

ومعظم السكان ، خلال القرون الأولى على الأقل ، كانوا من السلالة التى يسميها سيرجى بسلالة البحر المتوسط ، أو كما أطلق عليها إليوت سميث السلالة السمراء . وهى تمتاز بصفة خاصة بالرأس الطويل والوجه البيضاوى والأنف البارز إلى حد ما ، والأجسام النحيلة . ويختلف هذا الطراز فى الوقت الحاضر فى لون البشر ، من البشرة الشاحبة البياض عند الأوربيين إلى البشرة السمراء فى لون شمال إفريقية وبلاد العرب والهند ، كما يمتاز بالشعر المموج . وتنتشر فى غرب آسيا ، ووسط أوروبا فى الوقت الحاضر سلالة عريضة الرأس ، كما توجد أيضاً فى الهند . وكانت موجودة كذلك فى مدن السند .

وقد جمعت جماجم من طراز آخر من مدن السند ، وهى من طراز يمكن أن يسمى بالأصليين وتمتاز هذه الجماجم بالرأس البالغ فى الطول والحاجب البارز ، والجهة المتقهقرة والأنف الصغير العريض ، والقمم الواسع . ويبدو أن هؤلاء الأصليين كانوا يمتازون بالبشرة السوداء الداكنة ، والشعر المموج أو المجعد ، وهذا الطراز كما تدل الآثار ، كان موجوداً فى مدن السند أيضاً . وتمثل هذا الطراز تمثال صغير لراقصة بلوخية . وربما عرفنا الكثير عن هذه

الأنماط البشرية عندما تنشر تقارير حفائر الجبال الحديثة . غير أن طراز السكان الأصليين شيق جداً فيما يتعلق بنهاية مدن السند . ويمهد ستيوارت وهويل الطريق لإعادة تفسير قصائد ريج فيدا Rig Veda التي يعرف عنها في الوقت الحاضر أنها لمدينة السند ، وقد تكون هذه القصائد ميداناً شيقاً للبحث عند طلبة اللغة السنسكريتية في مستقبل الأيام . وقصائد ريج فيدا تحتقر شعب الداسيوس Dasyus المغلوب وتعيّره بسواد بشرته ، وبأنوفه الفطساء . فهل معنى هذا أن هؤلاء الأصليين كانوا وفيرى العدد في السند في ذلك الوقت ، أم أن الشاعر ركز همه على أوجه الخلاف بين الغالب والمغلوب وجعله موضعاً للاحتقار والامتهان . وتذكر الريج فيدا أيضاً أوجه الخلاف في المعتقدات والطقوس بين الغالبين والمغلوبين . وإذا لم تكن في مدن السند فعلاً معابد أو هياكل فلا بد وأن طقوسها كانت تتم عائلياً في المنازل . ويقول مارشال إنهم عرفوا إلهاً له ثلاثة أوجه على الأقل ، وربما كان هذا الإله شكلاً قديماً للإله سيفا الهندوكي . وقد اتخذت طقوس سيفا ، والآلهة الأم ، وعبادة الأشجار والحيوانات وفكرة اليوجا Yoga أو التأمل وتركيز الفكر ، أشكالها الحالية في الهندوكية بعد الفتح الآري . وربما بعث الآراء والعقائد القديمة بعد انتهاء موجة الغزو واستقرار الغزاة إذ أن إندرا Indra سيد الحرب في الريج فيدا الذي يشبه ياهويه في سفريوشع ، يترك مكان الصدارة زمناطويلا ، كما فعل ياهويه في إسرائيل ، عندما تنافست طقوس الزراع الخاصة بطلب الخصب والنماء للزراع مع طقوس الرعاة الذين قدموا من قبل كغزاة فاتحين .

وكان من الطبيعي أن تؤكد مدينة السند ، مثل المدن الزراعية الأخرى ، طقوس الإخصاب والجنس . فكانت أشكال الذكر والصخور المخروطية الشكل المشتقة منها رموزاً هامة ، أما من ناحية الأنثى فكان يرمز لعضو التناسل بحلقة صخرية كبيرة . وتنتشر تلك الحلقات الصخرية في الطقوس إذ تعتبر من معالمها الرئيسية . وهي غالباً توضع في ممر وتستخدم في طقوس التطهير ، إذ كان المتعبد

يزحف ويمر من تحتها (رمزاً لولادته من جديد) . وكان الغزاة الفاتحون يحبون أكل لحوم البقرة ويقدمون القرابين من الحيوانات للإله لنسدر وغيره ، (مثل إله النار ، والسماء ، والعاصفة ... إلخ) وكانوا أيضاً يحرقون طقوس الزراع ، وسكان المدن ، ولكنهم رغم ذلك كانوا يتخذون من بناتهم زوجات ، وعن هذا الطريق ، وبعد أن استقرت عدة أجيال منهم في الأرض وقعوا تحت تأثير شكل جديد من الديانة القديمة .

وكانت تلك الديانة السنديّة القديمة غنية بالصور الكثيرة التي كانت ترمز للنساء، والحمل وما شابه ذلك ، كما كانت لديها إلهة أم ، تختلف على ما يظهر عن آلهة الأرض التي تسمى بريثيفي Prithivi ، والتي كان يعبدها الغزاة البرابرة ، من المتحدثين بالآرية .

طغى الغزو البربري الذي لم يعرف تاريخه بعد على مدن السند ، وربما وقع هذا الغزو فيما بين ١٧٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. وهي فترة اضطراب الشعوب في جنوب غرب آسيا ، كما عادت فترة الفوضى والاضطراب مرة أخرى فيما بين عامي ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م.

وتدل أنقاض مدينة شانودارو في إقليم السند على تعرضها للاحتلال البربري عدة مرات متعاقبة : . ويبدو أن هؤلاء القادمين قد استوعبوا بقايا من الحضارات القديمة ولاسيما من عناصرها البلوخية الأقرب إلى الصفات الريفية . ولكنها تدل أيضاً على وجود اتصالات ثقافية بجنوب غرب آسيا تظهر آثارها في الاختتام وغيرها من التفاصيل . ويؤكد الأستاذ هاني جلدن في محاضراته غير المنشورة (١٩٥٢) العلاقة بين هذه الاختتام واختتام أخرى كان يستخدمها الحيثيون في الأناضول حوالي ١٢٠٠ ق.م. ويشير أيضاً إلى أوجه التشابه بين آثار متفرقة وجدت في شمال غرب الهند وأخرى وجدت فيما وراء القوقاز والأناضول وكوبان وغيرها ، وهي يمكن أن تؤرخ بنحو ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م.

لغنى لو كانت الغزوات البربرية قد بدأت تحطم حضارة السند قبل عام ١٥٠٠ ق.م. فإنها استمرت أو تسكررت مرة بعد أخرى خلال عدة قرون سبقت عام ١٠٠٠ ق.م. بوقت طويل . وخير لنا ألا نحاول أن نخمن في الوقت الحاضر إلى أى مدى بدأت اللغات الهندية الآرية تطورها . وقد جاء الغزو البربرى ومعه قرائن من فنوس القتال ذات الحلقة التى تمسك بها العصا . وعجلات القتال التى تجرها الجياد . وقد ذكرنا أن الجياد عرفت من وقت طويل ، ولكن يبدو أنها اكتسبت أهمية أكبر ، وأصبحت أوسع انتشاراً ، عندما استعمل الرماة العرب في القتال ، وقد وضع المقاتلون الذين كانوا يركبون العربات الحربية حداً لحياة مدن السند ، وخلفوا وراءهم آثار القتال والتخريب .

وكان الغزاة البرابرة سريعى الحركة ، وإن لم يكونوا بدوا تماماً ، ولم يتركوا وراءهم إلا القليل الذى ينبى عن تاريخهم القديم ، إلا أنهم دون شك تخصصوا في صناعات نسج الصوف ، والفراء ، والجلد ، وكلها أشياء قابلة للتلف .

وكانوا قد بدوا يعرفون شيئاً عن السيف كسلاح ، وعلى شك معرفة الحديد . إلا أن انتشارهم من منطقة الاستبس الكبيرة ما بين بامير وديسبر كانت له آثار لغوية هامة . فمن المحتمل أن يكون قد شاع بينهم تشابه لغوى كبير ، لم يشبه أى تعقيد إلا في وقت متأخر ، ونحن نلاحظ وجود تشابه كبير بين اللغات الآرية القديمة في الهند (السانسكريتية) ولغات أوروبا ، وبعض لغات الأناضول وإيران فهى جميعاً ترجع إلى أصل واحد مشترك أو ترجع إلى مجموعة لغات ذات أصول مشتركة . ولدنيا بالنسبة للهند آراء أحد علماء القرن الثامن عشر سير ولیم جونز ، وأحد علماء القرن العشرين سير جورج جريسون الذى يضع اللغات الآرية في قسمين : المائة الداردية ويتحدث بها بعض سكان جبال الحدود الغربية ، وسكان فطاق يمتد فيما بين سهول الجانج وبين شبه جزيرة الهند والعائلة الفيدية Vedic في حوض السند والجانج . أما

اللغة الداردية Dardic فهي غير واضحة ، هل تعتبر لغة آرية الأصل أو تعتبر نتيجة تأثير متبادل بين اللغات الآرية واللغات الأقدم منها مثل العائلة الدرافيدية أو عائلة لغات الموندا . وإذا صححت النظرية القائلة بأن الغزو البربرى قد تكرر عدة مرات خلال قرون طويلة ، فهذا معناه احتمال حدوث موجتين أو ثلاث من الموجات الآرية ، وهذا يؤيد افتراض جريرسون .

وقد افترض أن شعب المدن السندية كان يتحدث لغة درافيدية ، ولا تزال إحدى لغات هذه العائلة باقية حتى الآن في تلال شرقى بلوخرستان ، وهي اللغة البراهوية في تلال براهوى Brahui . ولا تزال اللغات الدرافيدية موجودة في شبه جزيرة الهند التي لم تتأثر كثيراً على ما يبدو بحضارة السند . ومن ثم يمكن أن نفترض أن اللغات الدرافيدية التي يبدو أنها ذات أصول عراقية ، وصلت بحراً إلى شبه جزيرة الهند في الألف الثالثة ق.م. ولما كانت بلوخرستان مهتمة بالتجارة بين المدن السندية وبين العراق ، فمن الممكن قيام علاقات لغوية بين العراق، وكل من بلوخرستان في تاريخ مبكر وبين شبه الجزيرة الهندية بعد ذلك . ويجب أن يوقف كل حكم في هذه المشكلة إلى أن تحمل رموز الكتابة السندية ، وحتى لو تم ذلك فإنه لن يلقى ضوءاً كافياً على المشكلة ، لأن مدينة السند لم تترك نصوصاً طويلة أو أدبا . بل تركت نصوصاً قصيرة فوق الأختام . ويبدو أن معظم الغزوات الآرية لمنطقة السند كانت تحركات محاربين برابرة ، في جحافل كاملة من الرجال والنساء والأطفال . يغيرون على جماعات من التجار والمزارعين الذين كانوا يعيشون في مدن فقدت مجدها القديم من زمن طويل ، ويبدو أن هؤلاء المحاربين البرابرة كلما توغلوا في داخل الهند وجاسوا خلال قرى الفلاحين ، وطرقوا مدن شرقى السند ، تمزقت جماعتهم وتفتتوا إلى أسر تهيمن على الفلاحين وتبسط سيادتها عليهم ، ولكنهم في نفس الوقت احتاجوا إلى مراعاة تقاليد سكان القرى الهندية ومعتقداتهم . ونلج بعض أحداث الفتح في المهابهاراتا مثلاً ،

عندما اقتحم أحد المحاربين امرأة لم ير لها مثيلا من قبل . ونسمع عن تكيف الغزاة لظروف البيئة الاجتماعية الجديدة ، بينما كان من الواجب تضحية الحيوانات ولاسيما الماشية على مذابح الآلهة ، إلا أنه لم يبق شيئا ضروريا اتقاء لغضب الشعب .

وقد اعترف الغزاة الآريون بالكهنة ، والجنود والشعب الآرى نفسه أى البراهما Brahmin ، والكاشتريا Katriyas والفايسا Vaisyas أما الشعب المحكوم فهم عبيد ، سودرا Sudra . ولم يأت الغزاة بنظام طوائف كامل النمو ، ولكنهم جلبوا معهم بذوره في هذا التقسيم ، ولاسيما إذا تذكرنا ازدراء الآريين لسواد البشرة الذين لا أنوف لهم ، وإشفاق الغزاة ، بعد أن أصبحوا معزولين في عشائر صغيرة متفرقة ، من أن يغمرهم طوفان التزاوج بالسكان الأصليين . وهذا الخوف هو الذى قوى قواعد منع الاختلاط والتزاوج مع الأصليين ، والذى وضع قوانين انتقال المهنة بالوراثة .

وتظهر في الأدب الهندى بعد انقضاء عهد الفتح بوقت طويل ، معتقدات عن إله مثل سيفا الهندى ، وإلهة أم ، وعبادة الشجرة ، واليوجا (التأمل) والذكر والأنثى وتناسخ الأرواح . وهذا كله إحياء — بشئ من التعديل — للمعتقدات الهندية السابقة للفتح ، وهى معتقدات أكبر الظن أنها كانت موجودة في المدن السندية .

وطبقة البراهما أو الكهنة تتكون كما يحدث كثيرا في بقاع العالم الأخرى من هؤلاء الناس الذين استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على كل من الحساک والمحكوم ، وذلك بتكييف ما لم يستطيعوا طرحه من المعتقدات والطقوس القديمة المحلية ، ومن ثم أصبحوا سدة التقاليد القديمة والحديثة معا ، وربما تسلسل بعض كهنة الديانات القديمة في كهنوت الديانات الجديدة التى جلبها الغزاة

معهم . وقد ظلت طائفة السكينة قوية ، عمات على تقوية مركزها ، لدى كل من الآريين والسابقين لهم من السكان القدماء . ولا ريب أنه كانت توجد جماعات منعزلة في الأحراج — كما هو موجود في الوقت الحاضر — وهؤلاء وغيرهم هم البارياه Pariah كما يسمون الآن . وبعض السكان كانوا في منأى تام عن هذا النظام حتى إنهم سموا « بالآخرين » .

أما الكاشتريا أو المحاربون فقد فقدوا صفاتهم كطبقة ، وأصبحوا مجموعة من العشائر الحاكمة ، تعرف في التاريخ بعشائر الرجبوت Rajput وكانت أكثر الطوائف تعرضاً لفقد صفتها كسلالة ، هي عامة الشعب الآرى ، الفاسيا الذين خرجوا سريعا من عزلتهم واختلطوا بالصناع والشعب المحكوم . وتزوجوا معهم ، ولا سيما وأن بعضهم كان أرقى منهم فنا وصناعة . ثم فقد الفاسيا صفاتهم كمجموعة بعد ذلك مع تطور المجتمع الهندي .

وكان مطلوب من الشبان أن يتزوجوا من داخل جماعات محددة ، أى أن يتزوجوا داخل الطائفة Gnyat التي تقوم أساساً على المهنة أو الدين أو كليهما . مما في نطق القرابة . وفي الوقت نفسه كان زواج الأقارب الأقربين محرماً فالشباب يجب ألا يتزوج داخل الجوترا Gotra . أما الفتاة فعليها ألا تحط بقدر أسرتها وتجلب لها العار بأن تتزوج من هو في طائفة أدنى منها . فكانت عملية الزواج إذن أمر أمن الصعب ضبطه ومن ثم كان المثل الشائع « زوجة من الشرق وزوج من الغرب » ، ومعنى هذا أن سلالة الغزاة كانت تميل إلى أن تختار زوجاتها من سلالة المغلوبين . أو من سلالة سبقتها في الاختلاط . وتتجه البنات عادة إلى أن يغالين في شروطين ، بل إنه من العسير أحيانا على طبقات البراهما العليا أن تجد لفتياتها أزواجا يناسبونهن .

لقد لجأ الهنود إلى هذا النظام الهرمى الاجتماعى مع ما يلزمه من محاولة

لتثبيت درجات الناس في المجتمع بالوراثة لكي يتعاشوا النتائج المكروهة أو الخطرة للاندماج . وتميل الطبقات الدنيا إلى إهمال النظافة في مساكنها الحقيبة . ومن ثم يتعاشى جيرانهم من الطبقات الأعلى الاختلاط بهم خشية أن تصيبهم عدوى الأمراض التي قد تنتقل من الآبار التي يشربون منها أو من وسائلهم القذرة في إعداد الطعام أو من طعامهم . وهناك خطر خاص من تناول اللحوم في مثل هذا المناخ الحار ، ذى الفصل الطويل حار الرطب .

ثم امتازت الهند بظهور بعض أفراد من الطبقات العليا يمتنعون عن تناول اللحم عامة ، وقد نجحت هذه المقاطعة عندما عمت زراعة الأرز وأنتجت الهند منه كميات وفيرة وأصبح من الممكن لإعداده بشكل نظيف دون اللجوء إلى وسائل الطهى المعقدة .

ارتفعت إذن الجماعات التي تراعى طقوس النظافة والعناية التي حرمت اللحم على نفسها في السلم الاجتماعى ، ولا سيما عندما صبح ذلك القيام بأعمال لا تدعو إلى قذارة الأيدي . ومن ثم اكتسب الهرم الاجتماعى ، بطريقة ما ، نوعا من المرونة ، رغم أن الهند تعاني من محاولة تثبيت المهنة التي يقوم بها الفرد في النظام الوراثى ومن تحديد التأخى تحديداً شديداً ومن تقييد فرص الزواج .

تعيش خارج طوائف البراهما والكاشتريا والفاسيا والسودرا المعترف بها ، كما ذكرنا ، طائفة البارياء أو المنبوذين وهؤلاء هم الذين جلبوا العار لأنفسهم بشكل ما أو سلالة سكان الأحراج الأصليين ، ولكنهم يحومون حول من هم أفضل منهم . ولا ريب أن أصل تقسيم الناس إلى طوائف قديم جداً ، إلا أنه أصبح بعد ذلك نظاما موضوعا بعد تفكير واسع ، إثر الفتوح الآرية ، عندما ظهر للناس اختلاف السحن والألوان ، وبروز الفك وشكل

الأنف . وقد اعترف في هذا التنظيم الاجتماعي بمركز البراهمي الكبير ، رغم تقسيمها بعد ذلك إلى أقسام كثيرة معقدة طبقاً للمهنة والطبقة الدينية ، وقد قسم السودرا أنفسهم أقساماً ، متدرجة أيضاً في السلم الاجتماعي لاحتصر لها إلا أن التأثير بالآوريين جلب فرصاً كثيرة للتعليم أمام بعض أفراد المنبوذين ، وأصبحوا فيما يختص بأصول النظافة والصحة أفضل بكثير من بعض أفراد الطوائف العليا أنفسهم .

ولم تقل آثار الفتح الآري من ناحية الفكر عن آثارهم الكبيرة في تقسيم الناس إلى طوائف اجتماعية . فقد وجدت عقيدتان تواجه إحداهما الأخرى :

(١) عقيدة أبناء الفاتحين الرعاة ، الذين وطنوا أنفسهم على تقبل النظام الزراعي والاستقرار في الأرض ، دون أن يستخدموا الحصان الذي لعب دوراً كبيراً في حياة أسلافهم .

(٢) عقيدة الزراع التي فرضت نفسها على الأمراء والحكام المحليين . وكان لابد من الصدام بين العقيدتين ، بين عقيدة الزراع وعقيدة الرعاة ، إلا أننا نجد في الهند — كما هو موجود في غيرها من الأماكن — حافزاً على التفكير ، ومحاولة التوفيق بين وجهتي النظر المتعارضتين . فبدأ ظهور طبقة من المفكرين المتنبئين خلال خمسة أو ستة قرون من الفتح الآري ، فبعضهم كان يميل إلى أن يقتبس كثيراً من التقاليد القديمة ، وبعضهم كان يقلل من هذا الاقتباس . وكان أشهر هؤلاء المعلمين ، هو جاوتاما بوذا Gautama Buddha ، الذي لم يفكر في الآلهة والإلهات وإنما ركز جهده في النوع البشري ، و انتهى إلى تصور فلسفة كاملة ، وصل إليها

باسم الزفانا Nirvana . وقد قبل بوذا استخدام الاعتقاد القديم عن تناسخ الأرواح ، بما في ذلك تناسخ الأرواح في أجساد حيوانات أو أجساد بشر . وكان الشكل الذى يتجسد فيه روح الشخص يتوقف على سلوكه في الحياة . ويستطيع كل الناس أن يصل إلى مرحلة الزفانا^(١) في النهاية ، ولذلك كان على المؤمنين ألا يقوموا بفعل ما يعوق الروح من التسامى في طريقها العلوى ، وهذا يتضمن أن يمتنعوا عن قتل الحيوان أو أكل لحمة ، وربما كان هذا الامتناع عن أكل اللحم مما قوى الهنود على الامتناع عن قتله ، وقد أصبح الامتناع عن أكل اللحم أحد معالم الحياة الهندية بغض النظر عن الاعتقاد في البوذية أو القيام بطقوسها في الوقت الحاضر .

وحكم الهند بعد ظهور بوذا بقرنين حاكم عظيم يسمى أسوكا الذى بسط نفوذه على شبه الجزيرة كلها ، فيما عدا ترافانكور والشمال ، وحاول أن يفرض تعاليم بوذا السلية . فأمر بتشديد بناء شاخ تخليداً لذكرى بوذا في سانشى Sanchi الذى تزوج منها زوجته المحبوبة . وهذا البناء للشاخ المكون من قل تغطية قطع الحجارة الضخمة ، ويقوم قوته بناء مقدس ، وتحيط به قلعة صخرية ذات بوابات ، شيق من نواح كثيرة ، فهو يشبه أعمال النجارة منفذة بالحجارة ، إذ تدخل أعمدة الصخر في فجوات خاصة كأنها عروق الخشب وبما هو جدير بالذكر أن هذا البناء يشبه من هذه الناحية نصب ستونهنج ، إلا أن قطع الصخر في سانشى مصقولة بعناية كبيرة ، والبوابات

(١) الزفانا هي مرحلة هدوء الروح وسكينة النفس التى تصل إليها روح المؤمنين في الآخرة ، وإن كان البوذى يستطيع أن يصل إليها في الحياة الدنيا إذا حافظ على عفاف النفس ولم يسرق ولم يقل باطلا ولم يقتل ولم يغتصب شيئاً ، ولم يقل خشاً ، وامتنع عن ملذات الحياة الدنيا ولم تعطر ولم يزين بالذهب والفضة ولم ينم على سرير عريض أو مرتفع . [المعرب]

ذات مجسمات منحوتة في الصخر أحياناً تشبه رعاة الاستبس بملابسهم التقليدية، وربما قصد منها أن تمثل الرعاة الآريين ، إلا أن هذا البناء الذي يسمى ستويا (أو هيكل بوذا) أقيم بعد الفتح الآرى بنحو ألف عام . فلا ريب أنه أقيم في القرن الثالث ق . م . فهل سبقته ستويات أخرى كانت مشيدة من الخشب ؟ هذه أسئلة نتركها للبحث في المستقبل . إلا أننا في الوقت الحاضر نستطيع أن نفترض أن الناس أيام أسوكا كانوا على شيء من العلم بشعوب الاستبس ، وربما ببعض التقاليد الباقية من أيام فتحهم للهند قبل ذلك بوقت طويل .

علينا الآن أن نعود القهقري في الزمن لندرس شبه جزيرة الهند . ويبدو أن الشعوب المنحطة كانت تعيش في شبه الجزيرة في أسلوب العصر الحجري القديم الأعلى Epi - palaeolithic ، يستخدمون آلات صوانية صغيرة مركبة فوق قطع من الخشب أو العظم ، وقد استمرت تلك الآلات — كما كانت الحال في أوروبا مستعملة أمداً طويلاً . وليس ثمة قرائن على اتصال هؤلاء الناس بشعوب وادي السند وحضارته ، أو بحضارة عصر البرنز رغم وجود معادن النحاس والقصدير والذهب في شبه الجزيرة . غير أن قدوم الحديد إلى البلاد أحدث تغيرات كبيرة فيها ، ولا سيما النصب الحجرية الضخمة ، إلا أننا يجب ألا ننجزم بأن هذه النصب الضخمة لابد أن كانت ذات علاقة بالنصب الحجرية التي وجدت في غرب أوروبا فاستخدام قطع حجرية ضخمة أمر طبيعي واكتشاف بسيط يمكن أن يظهر في جهات مختلفة من العالم مستقل بعضها عن البعض الآخر .

ولاسيما أن الطقوس المتصلة بها بدأت في الظهور في أوقات مختلفة جداً بعضها عن بعض في الألف الثالثة ق . م . في الغرب وأوائل الألف الأولى ق . م . في الهند . وعلينا أن نتذكر في نفس الوقت أن الطقوس المتعلقة بالمقابر الحجرية الضخمة استمرت في الغرب حتى بدء عصر المسيحية بل وبعد ذلك في

بعض الجهات . وربما ظهرت قرائن جديدة تدل على استمرار تشييد النصب الحجرية في الغرب بعد بدء عصر تشييدها بوقت طويل .

وربما كان من الضروري هنا أن نشير إلى النصب الحجرية الضخمة المشيدة عند خاسيا Khasia وغيرهم من شعوب أسام ، وهي عبارة عن مجموعة من الأحجار القائمة ، ولاسيا الدوائر الصخرية ، ومن ثم فهي لاجل علاقتها لها بالنصب الحجرية التي كانت تستخدم كمقابر في شبه الجزيرة .

ونقص إحدى الأساطير قصة «فوران المحيط» على يد إله يتسلح بالحجارة الضخمة . وهذا يدل على أنه ربما وصل إلى شبه جزيرة الهند عن طريق البحر إلى حد ما أقوام يحملون معهم شعائر النصب الحجرية ، ونشروا بها استعمال الحديد والفخار .

ونستطيع أن نقول إنه عندما وصلت هذه الآراء الجديدة إلى شبه الجزيرة ، اتصلت شعوبها بالشمال واكتسبت قدراً كبيراً من تقاليد الديانة ، أو على الأقل قدراً من العناصر الدينية القديمة الأولى . فانتشرت في الجنوب في ذلك الحين أو ربما بعد ذلك الهندوكية السايفية ، وقد ذكرنا من قبل أن أسوكا بسط نفوذه على شبه الجزيرة كلها فيما عدا ترافانكور حيث كان الناس — طبقاً لوثائق معاصرة — يعملون في التجارة عن طريق البحر ، وربما حاول نشر البوذية في الجنوب كما حاول نشرها في الشمال ؛ وربما كانت الهندوكية السايفية (أى عبادة سيفا Siva بوجه خاص) ردأً مضاداً لجهوده هذه ، إلا أنه ليس لدينا قرائن حتى الآن عن هذا .

ومع مضي الزمن كان عهد النبوة قد انتهى من الهند ؛ وهو عصر يمثل بهوذا أوضح تمثيل ، وحل محله عصر الطقوس والشعائر ، ويمثله رجال يحترفون الدين أى نظام كهان وراهبة . وقد تسلمت البوذية بهاتين الأداتين وانتشرت .

إلى سيلان وبورما والهند البعيدة كما انتشرت إلى التبت وداخلية آسيا والصين واليابان، ويسمى انتشار البوذية إلى سيلان وبورما والملايو بالبوذية الصغرى (هينيانا Hinayana) بينما يسمى انتشارها الآخر بالبوذية الكبرى (ماهايانا Mahayana). إلا أن البوذية ذات الطقوس والشعائر لم تستطع أن تصمد في الهند ذاتها أمام الطقوس الزراعية القديمة، ولذلك اختفت فعلاً كعبادة مستقلة غير أننا نجد أن بوذا يحظى بالتقديس في كل مكان بالهند، رغم اضطهاد البوذية نفسها بضعة قرون فيها.

بعد ظهور الإسلام في جنوب غرب آسيا انتقل الفتح الإسلامي إلى الهند نتيجة للنزاع على السلطة بين بعض الأمراء والمسلمين، وكانت أهم الغزوات الإسلامية هي غزوة محمد الغزنوي (من أفغانستان) التي دخلت الهند من الشمال الغربي في القرن الحادي عشر الميلاد وقد تأثر الفتح الإسلامي بالغزوات المغولية في أوائل القرن الثالث عشر. إلا أن هذه الغزوات المغولية لم تنوغل في الهند، غير أن الموجه الثانية من الغزوات المغولية، التي حدثت في أواخر القرن الرابع عشر أدت إلى تأسيس إمبراطورية المغول التي استولت على مدينة دلهي قرب مدخل حوض الجانج من الشمال الغربي واتخذتها عاصمة لها. وقد كان أول الغزاة المغول وثدياً، ولما كان الثاني مسلماً فالإمبراطورية المغولية في الهند إذن كانت إسلامية، ومن ثم قامت إدارة إسلامية في حيدر آباد الدكن، أهم الإمارات الصغيرة في الهند. وأصبحت رئاسة الدولة في حيدر آباد وراثية، كما قام أمراء مسلمون آخرون على حكم ولايات أخرى في الهند، إلا أن معظم الأمراء كانوا من الهندوس، الذين حافظوا على سلطانهم أو استعادوها عندما ضعف شأن الإمبراطورية المغولية. والغريب أن يحكم حاكم هندوكي ولاية معظم سكانها من المسلمين وهي ولاية كشمير، وقد انتشر الإسلام انتشاراً كبيراً في بنغال الشرقية، ونشأ عن تعدد الأديان في الهند أن قام تعارض شديد في الطقوس الدينية بين الطوائف الدينية المختلفة.

وأسس الأوروبيون منذ القرن السادس عشر هوان تجارية في الهند ،
وأصبحت التجارة البحرية مع البرتغال وفرنسا وبريطانيا جانباً هاماً في الحياة
الهندية ، التي ظلت أمداً طويلاً منطوية على نفسها ، مكتفية بذاتها ، أو تستقبل
مؤثراتها القوية عن طريق البحر .

أصبحت الهند تحت هذه الظروف الجديدة منتجة إلى حد كبير للواد
الأولية ومصدرة لها ، إلى بريطانيا واليابان في القرن العشرين حيث تصنع ،
وأصبحت موانئ كالكتا ، وبومباي ، ومدراس أكثر المدن الهندية ازدهاراً
بالسكان ، ولا تزال هكذا حتى الوقت الحاضر .

وأدت نهضة الهند الحديثة إلى إعادة تأسيس دلهي كعاصمة لإحدى الدولتين
المستقلتين اللتين قامتا في شبه القارة ، وهي الهند . بينما أصبحت ميناء كراتشي
عاصمة الباكستان الغربية وميناء دكا عاصمة الباكستان الشرقية . وقد قامت
في البلاد صناعات حديثة على النمط الأوروبي ولم يعد تصدير المواد الأولية أهم
ما في الحياة الهندية .

وإن تقدم المواصلات الحديثة بالسكك الحديدية والعربات إلى جانب
السفن البخارية والطائرات ، وازدياد العلاقات التجارية على نطاق واسع ،
قد أثر تأثيراً كبيراً في بناء المجتمع الهندي وفي نظام الطوائف في الهند ، مما
أدى إلى حدوث تغيرات بعيدة المدى من ناحية ، ورد فعل عدائي من أصحاب
العقول المحافظة في الهند وباكستان من ناحية أخرى .

الفصل التاسع

الصين

كان رأى السائد إلى وقت قريب من هذا القرن ، حتى في الصين نفسها أن تاريخ الصين قبل عام ٨٥٠ ق . م . ليس إلا خرافة أسطورية . إلا أن تيريان دى كويبرى Terrien de la Couperie قد أعلن من قبل اعتماداً على أدلة ضئيلة ، أن الصين قد تقبلت أصول حضارتها من جنوب غرب آسيا، وأن دراسات ف . فون ريتشوفن Richtofen الشهيرة للصين قد أعطانا ملخصاً لتاريخ الصين الأسطوري منذ قبل ٢٠٠٠ ق . م . وقد علق هذا المؤرخ أهمية كبيرة على هذه الأساطير ، كما أبدت الحفائر الأثرية منذ عام ١٩٢٨ وجهة نظره هذه . وهكذا ظهر من الصين كما ظهر من كريت وطروادة والهند وبريطانيا قبل التاريخ وغرب البحر البطي ، أن الأسطورة تتضمن جانباً كبيراً من الحقيقة مختلطاً عادة بالخرافات .

ويرى كثير من الباحثين أن فن الزراعة أو على الأقل زراعة الحبوب نشأ في مكان ما ، أوفى عدة أماكن ، بين بحر قزوين والصحراء الغربية في مصر ، وأنه انتشر من هذه المنطقة إلى كل مكان قامت فيه الزراعة بعد ذلك ، ويتفق رأى الباحثين جميعاً على أن الزراعة قامت فعلاً في وقت مبكر جداً (قبل ٥٠٠٠ ق . م) في هذه المنطقة ، وأن قيامها في غيرها من المناطق قد تأخر إلى حوالي ٣٠٠٠ ق . م . على الأقل ، غير أنه لا ينبغي أن نمنع في فرض نظرية الأصل الواحد للزراعة ، انتشارها من هذا الموطن الأصلي الواحد إلى غيرها من الأقاليم فالقرائن على ذلك قليلة .

ويبدو أنه في أثناء عصر تقهقر غطاءات الجليد في فترة البلايستوسين ، بل ربما أيضاً في العصر غير الجليدي الأخير ، بدأ الناس ينتشرون في مختلف الأقاليم . وتعلم هؤلاء المهاجرون في المناطق المشجرة كيف يقطعون فروع الأشجار بفئوس حجرية ذات حافات حادة ، وكيف يشكلون الآلات الحجرية بوساطة الضغط ، وربما استخدموا تلك الأدوات في نبش الأرض لاستخراج جذور

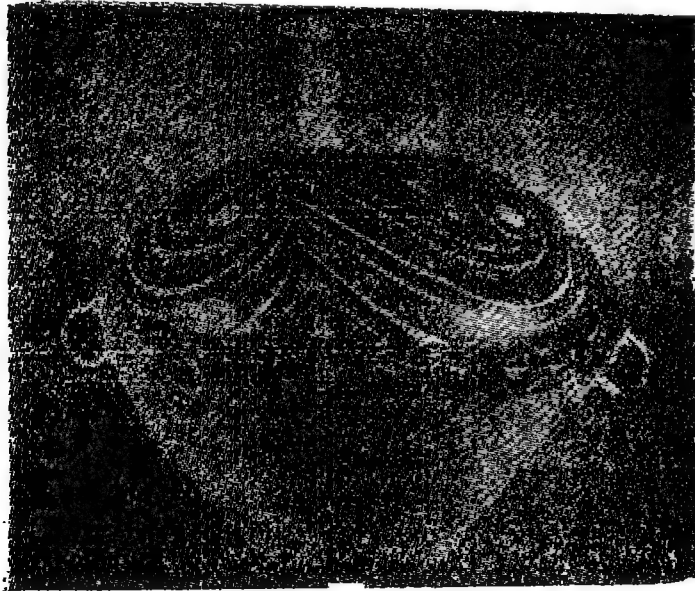


الشرق الأوسط

النبات الذى كانوا يأكلونه (انظر الفصل الخامس) . ويسمى هذا الدور الاجتماعى بأواخر العصر الحجري القديم Epi-palaeolithic أو العصر الحجري المتوسط Mesolithic . ومن المحتمل أن حاول هؤلاء النابشون عن الجذور أول محاولات في الزراعة ، وربما نشأت الزراعة إذن في مواطن كثيرة ، ومن الأفضل إذن أن نقول إن إقليم مصر وجنوب غرب آسيا كان وطناً لزراعة معينة ، هي زراعة القمح والشعير ، اللذين ظلا أهم حبوب غذائية في العالم منذ أمد طويل . ومن الأمور المسلم بها أن زراعة الحبوب في أوروبا بدأت نتيجة وصول مؤثرات ثقافية من مصر وجنوب غرب آسيا . وربما كان هذا أيضاً صحيحاً بالنسبة لحوض السند ، أما بالنسبة للصين ، فالأمر ليس بمثل هذا الواضح ، إذ أن أول حبوب زرعت هنا كانت الدخن .

لقد كانت الصين في عزلة كبيرة عن الغرب خلال معظم تاريخ البشرية ، حتى عصر البخار . ولقد كانت داخلية آسيا في عصر البلايستوسين تغطيتها غطاءات كثيفة من الجليد تجثم فوق مرتفعاتها ، ولا بد أن ذوبان هذا الجليد كان بطيئاً ومن ثم كانت بيئة داخلية سيئة جداً ، ولا سيما فوق مرتفعات التبت وبالقرب منها . بل إن الصين كان يحدها من الجنوب تلال مرتفعة في شمال بورما وشان . ولا تزال ذكريات طريق بورما في الحرب العالمية الثانية تذكرنا بتلك الصعوبات ، وهذه الأسباب الجغرافية كانت الصين إقليماً مستقلاً في تطوره خلال الخطى الأولى للبشرية ، إلا أنه من الصعب تطبيق هذه النظرية على زراعة الحبوب . وقد وجدت في كهوف شوكونين Chou-Kou-Tien على بعد ٣٠ ميلاً جنوب غرب بينج (بيكين) بقايا أفراد كثيرين من البشريات Hominid (أو أشباه الإنسان) نسميهم إنسان الصين Sinanthropus . وكان مع حفرياتها آلات حجرية بسيطة . ولم يعثر على أية بقايا لإنسان بالصين ترجع إلى أية فترة تالية لأوائل عصر البلايستوسين . غير أنه هناك

حقيقة غريبة وربما كانت أيضاً في غاية الأهمية ، وهي أن كثيراً من المغول
الحديثين والصينيين ، بل والهنود الأمريكيين وإنسان الصين القديم يشتركون
جميعاً في بعض الصفات ومنها صفة معروفة تماماً ، وهي القواطع التي تشبه
الجاروف ، ومعنى هذا أنه من الممكن ، إن لم يكن من المحتمل أن يكون لإنسان
الصين قد أسهم في الميراث الفيزيائي للصينيين والمغول ، كما ساهم إنسان فيا تدر تال
في الميراث الفيزيائي للأوربيين الحديثين . وعلينا إذن أن نكون حريصين في
إبداء الآراء عن الأصول المشتركة للبشر ، وتدل الطبقات العليا في كهف
شوكوتين على وجود شعب يشبه الأوربيين في ذلك الوقت ، كما أنه يسكن
هوكايدو (شمال اليابان) شعب الأينو — الذين يمتازون بالجسم المشعر ،
والبشرة البيضاء ، والشعر المموج ، والرأس البالغ الطول ، مما يدل على وجود
علاقات عريقة مع أوروبا .



(شكل رقم ٦٠)

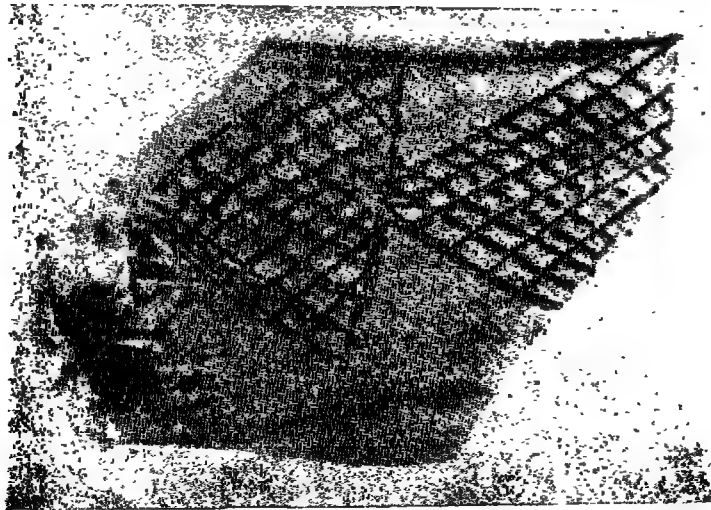
إناء مطلي يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ — الصين الشمالية

وبعد نقاش طويل نشأ رأى سائد وإن لم يقبله جميع الباحثين ، يؤيد نظرية تقول إن آلات العصر الحجري الحديث وفنون وصناعة الفخار قد دخلت الصين من الغرب . ففي الألف الثالثة ق.م. انتشر فن تلوين الفخار ، من موطن نشأته الأولى في شمال العراق أو ما يجاورها من الأناضول إلى كل مكان ، فانتشر شرقاً إلى كانسو وشنشى بل وإلى هونان . ويمتاز هذا الفخار في الصين بأنه من نوع ممتاز ، يتميز بأشكال لولبية واضحة فوق أرضية مجردة بسيطة ، وهو طراز يدل على المهارة والذوق . ولقد سار تطور أنماط الفخار الملون في غرب آسيا والصين في مراحل متشابهة ، وأية مقارنة بين فخار كل من المنطقتين أمر معقد للغاية ، ولكن أوجه التشابه فيهما كافية لأن نقوى الفرض العام الذى يقول إن موطن هذا الفخار الأصلي هو غرب آسيا والهند البعيدة . حيث حفرت الحلية على الفخار بخطوط محززة بعد أن كانت مرسومة بالألوان ، رغم أن تصميم الحلية لم يتغير . ويرجع الفخار الملون في شمال الصين إلى ٢٣٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م. وانتشر حوالى منتصف الألف الثانية ق.م. بشئ من التعديل إلى الهند البعيدة .

ويبدو أنه انتشر أيضاً بعد ذلك فخار رمادى من منطقة تركستان شرق بحر قزوين نحو الشرق ، حوالى نهاية الألف الثالثة ق.م. أو بعد ذلك . وقد عرف هذا الفخار بصفة خاصة في هونان وشانتونج في الصين ، أى إلى الشرق من منطقة الفخار الملون ، ولهذا السبب ، ولأن بعض الفخار اتخذ صفات مميزة اعتقد بعض الباحثين أن هذا الفخار الرمادى من أصل صينى ، وإن اقتبس بعض حوافر من الغرب ، إذ أنهم أخذوا أموراً أخرى في الاعتبار .

إن فخار جنوب غرب آسيا الرمادى والأسود المصقول يرجع إلى الألف الخامسة ق.م. ، كما أنه يرجع في الأناضول إلى الألف الرابعة ق.م. وقد حل فخار حلف الملون محل الفخار الرمادى في العراق ، إلى حمما ، غير أن الفخار

الرمادى استمر يصنع فى الأناضول وشمال العراق ، ومن ثم انتشر إلى جنوب شرق أوربا ، وإلى سومر (حيث ساهم فى حضارة الوركاء) وإلى منطقة شرق بحر قزوين فى الألف الثالثة ق. م. ومن ثم نشر تأثيره حتى مدن السند وبعد ذلك وصل الصين بعد الفخار الملون بفترة من الزمن . فأشكال الأواني ، وصقلها ، وملبسها الناعم ، ورقتها الدقيقة ، كلها تربط غرب آسيا بالفخار الصينى الرمادى . ولم يوجد حتى الآن إلا قليل من الفخار الأسود الدقيق مع الفخار الرمادى فى غرب آسيا ، بينما هو متوافر فى الصين . ووجد فى الصين أيضاً فخار رمادى وأنماط قريبة منه فى شانسى وشنشى وكانسو ، وستشوان كما وجد فى أنهواى وسيكيانج . وتوجد فى بعض المواضع فى طبقات تعلو الطبقات التى وجد فيها الفخار الملون ، وفى غيرها من المواضع ، كما وجدت مختلطة .



(شكل ٦١)

قطعة شفاقة عليها حوز محفورة

بعض أشكال الأواني تنفرد بصفات صيفية مميزة . فثلا هناك الشكل الثلاثي لطرزلى Litripod الذى صنع بوضع ثلاثة أوان ذات قاعدة مدببة ، إحداها لصق الأخرى لتسند بعضها بعضا . وطرز هسين Hsien وهو يتكون من جزء سفلى وهو عبارة عن إناء عاوى منتفخ له فوهة واسعة ، وجزء علوى له قاعدة ذات ثقب ، حتى يتخللها البخار فينضج ما هو موجود فى القدر العلوى . ويبدو أن هذه الأنماط الخاصة بشمال شرق الصين لم تنتشر إلى جنوب الصين أو الهند البعيدة وكان الفخارى الأسود الجميل الذى ذكرناه آنفا كما كان بعض الفخار البنى يصنع بوساطة عجلة الفخارى .

يبدو أن أقدم الزراع فى شمال الصين كانوا يزرعون الدخن . ولقد بحث عما إذا كانت هناك أنواع من الدخن لم تزرع فى هذا الإقليم ومع بضى الزمن أضيفت زراعة القمح والشعير وربما انتشرت زراعة الأرز فى وقت انتشار الأواني الفخارية والرمادية أو الملونة شمالا إلى الصين حتى حوالى خط عرض ٣٠° شمالا ، وحد الأرز الشمالى فى الوقت الحاضر هو خط عرض ٣٢° ش . وكانت الماشية مهمة فى الزراعة أما البرنز فلم يدخل الصين إلا فى أواخر عصر الفخار الرمادى .

من المحتمل أن يكون الحصان قد انتشر من داخلية آسيا إلى العراق فى تاريخ غير بعيد عن ٢٠٠٠ ق.م . وربما استأنسه الإنسان فى مكان ما داخل آسيا قبل ذلك التاريخ ، وهذا بما يزيد التبادل والتداخل الحضارى بين الإقليمين . وربما استوردت الصين ، فيما أخذته من مؤثرات ثقافية ، الفخار الجميل المصنوع بعجلة الفخارى ، بما فى ذلك بعض الفخار المصنوع من الطين الأبيض الدقيق (أى الخزف الصينى) ، والماشية المستأنسة والخيل ، ومن المعروف أن سلالات الضأن انتشرت فى ذلك الوقت أيضاً من داخلية آسيا إلى أوروبا (الفصل الثامن).

ويظهر أن الصينيين في هذه المرحلة ، بل في مرحلة متأخرة عن ذلك أيضاً ، لم يكونوا على علم بالقرميد ، ولم يقيموا سوى أبنية قليلة من الحجارة ولكنهم برعوا في البناء بالخشب وبالطين الذي يتخذونه من تربة اللويس . وكان لهم محلة محصنة ، تحيط بها تحصينات من الطين ، في شمال غرب شانتونج قرب الموقع الذي قامت عليه تسبتان فيما بعد ، ولا ريب أنه يمكن العثور على غيرها من المحلات المحصنة الأخرى .

ويتحدث التاريخ الأسطوري عن أسرة هسيا Hsia وتؤرخ عادة من حوالي ٢٣٠٠ ق.م. — ١٧٦٥ ق.م. بعد تحويل التاريخ الصيني إلى تقويمنا . ولا نعلم ما إن كانت حضارة الفخار الملون أو الفخار الأسود مرتبطة بها ، أو مرتبطة بالأسرة التالية لها — أسرة شانج Shang التي تضعها التقاليد فيما بين ١٧٦٥ — ١١٢٣ ق.م.

ومن الممكن تقصير هذه التواريخ قليلاً (إلى حوالي ١٥٥٠ — ١٠٠٠ ق.م.) إلا أن هذه التواريخ مفيدة في الوقت الحاضر . وربما وصلت الصين إلى مرحلة تكوين دولة في الوقت الذي أنتجت فيه الفخار الأسود ، وشيدت التحصينات . ويبدو أن مبانها لم تكن جديرة بشعب هذه مهارته . ولا تزال كذلك ، في نفس أقاليم الصين القديمة . وليس هذا التناقض غريباً ، فله ما يشبهه في كثير من أنحاء العالم ، مثل إنجلترا في أوائل العصر الانجلو ساكسوني .

قبل أن نستطرد ينبغي أن نشير إلى التناقض الكبير بين شمال الصين والهند ، فالهند تقع جنوب النطاق الجبلي الكبير في نصف الكرة الشمالي في العالم القديم ، أما الصين فيقع معظمها شمال الشمال الشرقي لهذا النطاق . وقد رأينا أن الإنسان العاقل ربما نشأ في أوائل عصر البلايستوسين وصنع قنوس الأشول اليدوية ، وربما انتشر من شمال إفريقيا وجنوب غرب آسيا . وربما كان وصوله إلى الهند أمراً سهلاً نسبياً ، عندما كان مستوى البحر أدنى منه

في الوقت الحاضر ، وكانت المياه تنحمر عن سهول جنوب بلاد العرب الساحلية . وكانت سهول بلوخستان تمتد وتشغل جزءا من المحيط الهندي الحالي ، كما امتدت سواحل الهند الغربية نحو البحر العربي ، وذلك عندما كانت أغلبية الجليد تغطي شمال أوروبا . وربما ظهرت حافة اللغات الغربية في الهند في أواخر البلايستوسين أو في العصر التالي للبلايستوسين عندما حدثت حركة ارتفاع في الأرض صاحبها الفوالق . فاستطاعت الهند إذن أن تستقبل هجرات بشرية قديمة من الغرب ، كما أن هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يقفوا في وجه منافسة هؤلاء المهاجرين ، كانوا يستطيعون أن يلجئوا إلى مناطق يعتزلون فيها ويلجئون في الغابات والأجام . وكان في الهند مناطق عزلة كثيرة لأبناء المهاجرين القدامى ، ولاتزال الهند حتى الوقت الحاضر بلاد المتناقضات الاجتماعية حيث توجد القبائل البدائية التي لا تعرف إلا الزراعة البسيطة في الأجام ؛ بل والتي كانت حتى وقت قريب لاتزال تعيش على الجمع والإلتقاط والصيد ، على طرف النقيض مع الفلاسفة المتأنفين في تفكيرهم ، ويتراوح بين الطرفين تدرج كبير من الصعب تحليل نظامه المعقد .

أما الصين فلم تتقبل إلا القليل من هؤلاء المهاجرين الأوائل من الغرب وربما استقبلت شيئا من ميراث إنسان الصين البائد . وأهم من ذلك أن تذكر أن مدخل الصين كان عن طريق هوانج في كانسو ، وكذلك روافد واي هو في شنسي ، حيث تمتد منطقة اللويس دون غابات كثيفة ، وحيث تقوم الزراعة بوساطة الري لأسلوب الحياة الرئيسي . فلا بد أن السلالة الأصلية والشعوب المهاجرة ، في هذه المنطقة قد خضعت لظروف واحدة ، ولم يكن أمام الشعوب البدائية الأصلية إلا فرصة ضئيلة للاختباء حتى ولوطنى عليهم المهاجرون ، فلم يوجد في شمال الصين إذن إلا قليل من المتناقضات التي تميز الهند ، ولا تزيد المتناقضات فيها على الفروق بين الغنى والفقير في نفس

الوحدة الاجتماعية . وبعبارة أخرى لم تكن الأخراج عاملاً اجتماعياً له أية أهمية في الصين .

وطبقاً للتاريخ الأسطوري ، أدخل يو ، مؤسس أسرة هيا ، فكرة الري بالقنوات في الصين في وقت قريب من ٢٣٠٠ ق.م. أى بعد أن عرفت هذه القنوات وانتشرت على مقياس كبير في النيل والفرات . ويرى بعض الأساتذة أن هذا ليس إلا فرية اخترعتها الدعاية أيام أسرة تشو ، إذ ليس لدينا أى دليل حقيقى نستدل منه ، على أية نتيجة هامة . وأن الخنزف الفائق الجمال الذى صنع بوساطة عجلة الفخارى ، والماشية (بما فى ذلك الجاموس المحجب للماء) والخيول ، والتحصينات الطينية . وربما أيضاً قنوات الري قد تدل على تقبل الآراء من الخارج ، غير أنه هناك رغم هذا عناصر أصيلة بلغت من الجودة والإتقان ما وصلت إليه شعوب هذه المنطقة وحدها .

وكانت عمليات الري على نهر الهوانج هو فى كازسو وشانس والواى هو فى شنشى تتضمن بصفة خاصة رفع الماء إلى الأجزاء المنزرعة من اللويس . أما فى الهوانج هو الأدنى والسهل الساحلى فهى تتضمن صرف المياه الزائدة من الأرض التى يغرقها الفيضان فى بعض المواسم . وهذه المنطقة الأخيرة تفتقر إلى انتظام الأحوال الموجود فى أرض النيل والفرات .

معالم الحياة الصينية القديمة والحديثة الأخرى مرتبطة بهذا الاعتماد التام على الزراعة الكشيفة لأرض اللويس ، أو الطمى المنقول من اللويس إلى السهول الساحلية . فحيث يمكن جلب الماء إلى اللويس ، وحيث توجد هذه التربة فى كميات لا تنفد ، فإنه يمكن زراعة نفس قطعة الأرض سنوات كثيرة متتابعة ، إذ يمكن تجديد خصب التربة بنقل أرض اللويس إلى الأرض المزروعة من أحد الجروف القريبة . ويجب تطهير القنوات التى تشق السهول الفيضية .

وهذا يتم بتكوين الطين الغنى فوق الأرض ، وهذا يساعد على رفع مستوى السهل الفيضى . فارتباط الفلاح بأرضه إذن قديم جداً ووثيق للغاية ، تحيط به هالة من التقاليد والطقوس ، فهناك إله الأرض يقاله إله فى السماء . وكان الإمبراطور المقدس ، حتى آخر الحكم الإمبراطورى ، يبدأ موسم الحرث الربيعى لأرض الصين باحتفال مهيب . والاهتمام ياله وإمبراطور يضع الصين على طرف نقيض مع البلاد الزراعية العريقة حيث كانت تعبد إلهة أم . . ولا نعلم ما إن كان هذا راجعا إلى تأخر دخول نظام الرى فى الصين أم لا .

إن استمرار الزراعة لآلاف السنين الحرفة الأساسية ، التى تكاد تكون وحيدة فى السهول الفيضية الرتيبة ، ذات الأشجار والأحراج المغروسة ، عرض رقاع الأرض الصغيرة لخطر التفتت كلما ازداد تكاثر الأسر . ومن ثم كان ترابط الأسر وتكاثفها وإعراضها عن تقسيم الميراث . فكانت عاطفة الأسرة أهم مظاهر الحياة الصينية ، وعن طريقها قامت الصين بكل ما هو فى استطاعتها ، فصنع آلات الزراعة وإصلاحها مثلا ، يتم من مواد يمكن الحصول عليها من المزرعة بيد أفراد الأسرة أنفسهم ، فظلت الأدوات التى يستعملها الصينى بسيطة ، ولكنها على درجة كبيرة من الدقة وذات مستوى رفيع . فأصبحت الأسرة بهذا الشكل فى الحياة الصينية ظاهرة مختلفة تماما عما هى عليه فى الغرب . فهى أسرة متداخلة مكونة من الأب وأولاده وأزواجهم وأطفالهم وفى البيوت الغنية تتكون من زوجة رسمية ، وعدد من المحظيات لرب الأسرة ، وربما لبعض رجال الأسرة أيضا . وقد ترسل الأسرة الكبيرة أحد أبنائها ليشغل إحدى وظائف الحكومة وليصبح عالما كذلك ، ولكنه يعود إلى الأسرة عندما يتقاعد أو تحمل به كارثة . فالأسرة إذن هى أساس التقاليد والأخلاق الاجتماعية فى الصين . وأصبح الولاء للأسرة أسبق وأهم من الولاء للوحدة الكبرى ، للإمبراطورية مثلا . وتحمل الزوجة الرئيسية فى الأسرة مكانا هاما ولا سيما إذا أنجبت أولاداً ، فأصبحت العامل المحافظ الذى يربط

وشائج الأسرة بعضها ببعض الآخر ، بينما تترك رئاسة الاحتفالات والطقوس لزوجها أو ابنها الأكبر ، الذى يتمتع بسلطة كبرى على بقية أفراد الأسرة .

ومن المسائل الشيقة أن تعرف لماذا شاهدت القرون الأولى للألف الثانية ق . م . أحداثاً فى غاية الأهمية وتطورات كبيرة فى داخلية آسيا . وقد تصور الزورث هنتنجتون منذ وقت طويل حدوث دورات مناخية فى آسيا ، تبادلت فيها فترات المطر وفترات الجفاف . إلا أن الدراسات التالية بعد ذلك لم تؤيد هذه النظرية . فلا بد أن انتهاء أحوال الجليد فى عصر البلايستوسين كان يعنى طفيان ذوب الجليد على نطاق واسع فى فترات مختلفة . وربما تؤرخ طوفان العراق أو طوفاناته بحوالى ٤٠٠٠ ق . م . وذلك التاريخ يعتمد على أسس سليمة . وربما حدثت فترات أخرى من الطوفانات نتيجة ذوبان الجليد فى داخلية آسيا من وقت إلى آخر .

وعلىنا أن نتذكر انه من المحتمل جداً أن يكون رعاة الحيوان فى هذه المنطقة كانوا من سلالة المزارعين الذين فقدوا أرضهم واستطاعوا أن يظلوا على قيد الحياة عندما استطاعوا أن يتبادلوا مع الزراع ما ينتصهم من مواد غذائية . ولا يكاد يفصل الرعاة فصلاً تاماً عن الزراع إلا فى بعض حالات خاصة فيما عدا المنطقة القطبية وشبه القطبية حيث تتعذر الزراعة فعلاً . وحتى فى هذه الأصقاع بجمع الرعاة بعض الأغذية النباتية حيثما وجدت . ومن الممكن بل ومن المحتمل أن يكون للناس شئ من الخبرة بالزراعة قبل أن يستطيعوا الاستقرار والانتشار فى داخلية آسيا ، أى أن الجماعات لم تتخصص فى الرعى فى زمن مبكر . وربما انتقلت بعض الجماعات فى هذه المنطقة بالتدريج من الصيد والجمع والالتقاط إلى الرعى .

وربما لامت ظروف المناخ فى آخر الألف الثالثة ق . م . رعاة داخلية آسيا

مما أدى إلى استئناس الخيل ، وإن كانت قد استؤنست من قبل فربما اتخذت .
حيقتد حيوانات للركوب ، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية من ناحية
تكوين طبقة أرستقراطية .

ولا مندوحة أن يكون الرعى ، في الأزمنة الحديثة ، نشاطاً قليل الأهمية
فوق سهول شمال شرق الصين الفيضية ، حيث الأرض الزراعية ثمينة جداً ،
وحيث يعيش الخنزير على الفضلات والنفايات ، فلا يحتل حيزاً كبيراً منها .
فالفرق كبير إذن بين الفلاح الصيني في أراض الرى والمزارع الذى يربى
الماشية أو البدوى الذى يرعاها في مناطق الحدود الجافة . والبون شاسع
والتناقض على أشده لأن الانتقال سريع ومفاجئ . عندما تصعد في أعلى وادى
واى هو ووادى هوانج هو . والرعاة ، ولا سيما أيضاً من البدو ، على أهبة
الاستعداد دائماً للقتال دفاعاً عن ماشيتهم في أى وقت ، فهم جيش متحرك له
قيادته الخاصة . والفلاحون مسلمون بطبعهم وإن كانوا في غاية الغيرة دفاعاً
عن أنفسهم ، ومعرضين للانفجار والركون إلى العنف أحياناً .

وقد غزا الرعاة الذين يعسكرون على الحدود الجافة شمال الصين مرة بعد
أخرى خلال التاريخ ، وأسسوا ملكهم فيها ، وبعد أن يستقروا ويكونوا جماعة
إدارية لا تلبث أن تفقد مميزاتها ، وعزيمتها على القتال ، وتعرض لأن تصبح
مخكومة هي بدورها . ويبدو أن تلك العلاقة بين الرعاة الغزاة والفلاحين
المغلوبين على أمرهم قد أصبحت دورة عادية مقررة ، عندما تشتد قوة الرعاة
الحربية اشتداداً كبيراً باتخاذ الخيل للركوب ونشر استخدامه لهذا الغرض ،
حوالى نهاية الألف الثالثة ق . م .

علينا أن ندرس العلاقة بين الصين وجنوب شرق آسيا أيضاً ، كما درسنا
العلاقة بينها وبين منغوليا وداخلية آسيا . وقد امتاز العصر الحجري الحديث

في الصين ، مثل غيرها من المناطق ، باستعمال الفخوس الحجرية المصقولة ذات القطاع العرض الميضاوى . ومن الممكن تتبع توزيع هذه الآداة عن طريق جنوب الصين وجنوبها الشرقى إلى فورموزا والفيلبين وشرق أندونيسيا (ولكن ليس في جاوة) وميلانيزيا . وقليل منها موجود في الهند البعيدة حيث انتشر طراز متأخر انتشاراً واسعاً هاماً . وهذا الطراز يمتاز بالعنق الطويل العريض ذى الشكل المستطيل ، وتسمى هذه الفأس عادة ، بسبب الزاوية المحصورة بين الفأس وعنقها بالفأس ذات الكتف . وانتشرت هذه الفأس إلى جنوب يونان وعن طريق ساحل جنوب شرق الصين إلى فورموزا والفيلبين وشمال شرق كوريا واليابان حتى يزو شمالاً ، وإلى شمال سيليبين . كما توجد في نيوزيلندة . أما في الهند البعيدة فهي توجد مختلطة غالباً بطراز آخر ، له قطاع عريض مستطيل ، ولكن ليس له عنق . وهذا الطراز الأخير واسع الانتشار في الصين ، ويبدو أنه مرتبط بالفخار الملون . كما انتشر إلى حوض ميكونج وعثر عليه في أماكن كثيرة من بولينيزيا .

وانتهى طراز الفخار الأسود من شمال الصين حوالى الألف الثانية ق.م. ولم يوجد بعد من الأدلة الأثرية ما يربط المرحلة التالية بهذه المرحلة رغم أنه يبدو أنها امتداد لها . فالشعب الذى كان يصنع الآنية السوداء سلم فكرة صنع الآنية الثلاثية من طراز Li-Triped إلى المرحلة الثالثة ، كما سلمها أيضاً فكرة حرق العظام واستقرار شقوقها التى حدثت نتيجة الحرق في التنبؤ بالمستقبل . وقد كثرت العظام والقواقع وظهور السلاحف التى كانت تتخذ للتنبؤ في الفترة التى تقع بين ١٤٠٠ - ١١٠٠ ق.م. والتى عاصرت أواخر أسرة شايخ في التاريخ الأسطوري للصين .

وقد تقدم علماء الصين كثيراً في قراءة الكتابات التى نقشت على عظام



(شكل ٦٢)

قطع عظام كان العرافون يستوحونها في عهد أسرة شافج

التنبؤ . وربما انخذ هذا دليلا على استمرار الحضارة الصينية منذ أيام أسرة شانج حتى العصر الكلاسيكي الصيني والعصور الحديثة .

تؤرخ التقاليد أسرة شانج كلها فيما بين ١٧٦٦ - ١١٢٢ ق.م. وتؤرخ الفترة الأخيرة منها من حوالى ١٤٠٠ - ١١٢٢ ق.م. إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أن أى تاريخ سابق لعام ٨٤٠ ق.م. فى الصين إنما هو تاريخ تقريبي ، وإن لم يبعد عن الحقيقة بأكثر من قرن واحد .

وتوضح حفائر آنيانج فى هونان التى أجريت فى رأس دفاعى بارز فوق المجرى القديم لنهر هوانج على حدود هونان المقابلة لهوباي Hopie ، الفترة التى تبدأ من ١٤٠٠ ق.م. فقد عثر فى هذه القاعدة الملكية للملك أسرة شانج المتأخرين على قرائن عن الحضارة والمهارة الفنية بما فى ذلك صب البرنز فى أشكال معقدة ، يمكن أن تؤرخ بنحو ١٤٠٠ - ١١٠٠ ق.م. ويدل طريقة صب هذه الأدوات البرونزية على خبرة فائقة ، إلا أننا لم نعثر بعد على نماذج للبراحل الأولى لهذا الفن . وقد وصل صب البرنز أيام شانج إلى قمة من الإتقان لم لم تسد تصل إليه أية منطقة أخرى فى العالم حتى وقت أحدث من ذلك بكثير . وحتى الآن ، لدينا كل حق فى أن نفترض أن صناعة البرنز قد أدخلت إلى الصين فى مراحلها الأولى وقبل أن تتقن هذه الصناعة . ولكن فى وقت متأخر بكثير عن وقت اختراعها فى جنوب غرب آسيا ومصر حوالى ٣٠٠٠ ق.م. إذن فمن المحتمل أن تكن فنون التعدين قد وصلت إلى شمال الصين من الغرب ، ولكن ، رغم أبحاث الدكتور أندرسون ، لم تصلنا بعد أدلة من كانسو ، وهو الطريق التقليدى الذى تعبده الأشياء القادمة من الغرب ، على مراحل البرنز الأولى ، من الممكن أن تملأ الفجوة الكبيرة الموجودة بين مرحلة الفخار الأسود فى العصر الحجري الحديث وبين مرحلة برنز شانج فى انيانج ، عندما تظهر الحفائر يوماً ما ، فى مكان آخر ، ما تخبئه الأرض



(شكل ١٣)
إناء التطهير (الوضوء) من عهد أسرة شانج

-- ٣٤٦ --

من اذن . ولتقنع الآن بأن نرى أن أعمال البرنز ، مثل الخزف الملون في وقت أسبق من ذلك بكثير ، قد أدخلت إلى الصين ولكنها وصلت إلى درجة فريدة من التعبير الفني في شمال الصين . وما زلنا نجعل طريقة صب البرنز التي كانت على درجة كبيرة من الكفاية والدقة .

لم تكن البلاد أيام أسرة شانج في درجة ازدهارها بالسكان كما أصبحت منذ ذلك الحين ، وكان سادة تلك الأيام يصطادون الغزال والخنزير البري إلى جانب الفيل والسكر كدن والنمر . وربما عرفت المدن في تلك الأيام شيئاً من الأرصفة الحجرية كدرجات أو كدعائم لأعمدة خشبية ، إلا أنها كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على استخدام الطين والخشب في المباني ، مع استخدام البرنز كقواعد للأعمدة . ورغم أن أحسن الخزف كان يصنع بواسطة العجلة ، إلا أن قدرأ كبيراً من الخزف كان لا يزال يصنع باليد . وكانت العربات تستخدم في القتال ، كما كانت تستخدم في الطقوس ، وكانت العربات يجرها زوج ، ثم بعد ذلك زوجان من الخيل ، ويقف وسطها رجل ممسك برمح طويل . ولكن ليس هناك دليل على استخدام الفرسان أو السيوف في الحرب . وكان القوس والسهم ، ولا سيما القوس القوية المزدوجة ، هما السلاح الواسع الانتشار ، إلا أنهم أيضاً عرفوا استعمال الفأس والخنجر البرنزي . وكانت الحجارة الصلبة المعروفة باليشم تصقل وتستخدم في الزينة .

ويبدو أن الرجال وليس النساء هم الذين كانوا يقومون بأعمال الزراعة اليومية إلا أن النساء اشتغلن بتربية دود القز ، وربما ارتبط استخدام الحرير بالدرجة الرفيعة التي وصلت إليها الفنون الأخرى ، وليس لدينا حتى الآن دليل على أن الصينيين أيام أسرة شانج عرفوا المحراث . ومن غير المؤكد أنهم كانوا يعبدون الإلهة الأم المرتبطة بالزراعة ، وهذا أحد أوجه الخلاف بين

الصين وبين جنوب غرب آسيا . وكانت القرابين من الحيوانات ومن الأسرى تقدم على مدى كبير ، وكانت الزوجات والخدم أحياناً يدفنون لمرافقة سيدهم إلى العالم الآخر .

وبينما انتشرت اللغات الآرية من السهوب المنخفضة في داخل آسيا إلى أوروبا وفارس والهند ، وإلى جنوب روسيا ، فإنه ليس هناك ما يدل على حدوث مثل هذا في الصين . وليس من المؤكد ، أن تكون لغة شانج ، مثلها مثل الخنزف وغيرها من المعالم الحضارية قد اشتقت من الشعب الذى صنع الفخار الأسود، وإن كان هذا أمراً محتملاً قياساً على مرحلة ما ورثته الصين أيام شانج . وقد تطورت لغة شانج بعد ذلك ونمت وأصبحت اللغة الصينية . وقد عرفنا الكثير عن هذا الموضوع من النقوش التى تركها الكهنة فوق القواقع وظهور السلاحف رداً على أسئلة كان يلقيها الملوك على الكهنة كما ذكرنا من قبل .

وقد وجدت مجموعة من المقابر الملكية في آنيانج ، وقيل إنها لآخر اثني عشر ملكاً من ملوك أسرة شانج . وكان القبر الأخير غالباً ، وربما أعده آخر ملك من ملوك هذه الأسرة . وتروى الأساطير أن هذا الملك كان ضعيفاً متخاذلاً ، قتل في ثورة دبرها المحاربون من الشو Chou الذين زحفوا من الحدود المنغولية إلى الصين واستقروا في وادى واى هو (جنوب شنشى) واكتسبوا قدراً كبيراً من حضارة شانج . وربما كانت هذه خرافة اختلقها الغزاة الشو . وقد مات الغازى من الشو ، بعد ذلك بأعوام قليلة ، تاركاً حديثاً صغيراً لم يضطلع بأعباء الحكم . وتولى عنه وصاية العرش وقبض على مقاليد الحكم حاملاً لقب 'دوق الشو' ، وقد كان هذا الوصى من أبرز الحكام في تاريخ الصين بأكمله كما كان رائداً من رواد الفلسفة . ونقل هذا الحاكم عاصمته إلى مكان بالقرب من بويانج في غرب هونان ، وعين حكماً

وأمراء لمقاطعات الصين المختلفة من بين أمراء أسرة شانج وشو ، بعد أن أقسم يمين الولاء لملك شو . وقد أدى هذا النظام الإقطاعى بطبيعة الحال إلى محاولات الاستقلال بحكم الإقطاعات مما عرضها للغزو الخارجى . ومن ثم تدهورت هبة أسرة شو بعد أجيال قليلة ، رغم محاولة بعض الحكام الأقوياء استعادة تلك الهيبة ، وقد تكون اتحاد مؤقت صغير فى شمال الصين بعد عام ٧٠٠ ق.م . مباشرة حتى آخر حكم أسرة شو ٢٢١ ق.م وعلى أية حال فقد حقق ملوك أسرة شو شيئاً من الوحدة تحت سلطانهم الذى مارسوه عن طريق نبلاء الإقطاع على رقعة أكبر بكثير من الرقعة التى كانت تحكمها أسرة شانج . ونبالغ فى تقديرنا إذا قلنا إن سلطان هذه الأسرة شمل أجزاء من شنشى وشانشى ومعظم هونان وشانتونج وشيه لى (هو بى) . وقد أعطانا منشيوس Mencius فى القرن الثالث ق.م . صورة مثالية للنظام الذى كان سائداً أيام أسرة شو فقال إن أية بقعة أرض كانت تقسم إلى تسعة أقسام ، توزع ثمانية منها على الأتباع المحليين بينما يشتركون جميعاً فى زراعة القسم التاسع لسيد الإقليم . وليس من المعقول أن نعتقد أن مثل هذا النظام كان ينفذ بدقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول إن نوعاً من التقسيم كان سائداً بين الشيئة Shi'ih أو السيد وبين الأتباع . وكان النظام مستتباً والأمن والسلام منتشرين فى معظم عهد أسرة شو ، أكثر مما كان أيام أسرة شانج السابقة . وليس هناك دليل على القرا بين البشرية أيام تلك الأسرة ، كما لا نجد دليلاً على التضحية بالآرامل فى جناز أزواجهن . كما أن هناك أدلة على قيام العلماء بالحكم أيام الملوك الصالحين ، كما أن هؤلاء العلماء لم يكونوا دائماً أو بالضرورة من الأرستقراط ، أى أن الفوارق الاجتماعية كانت أضعف قليلاً عن ذى قبل . ويبدو أن ملوك أسرة شو كانوا يحاولون جعل سادة

الإقطاع معتمدين عليهم . يستمدون منهم سلطتهم على أنهم صنائع الملك ، وليسوا حكماً للمقاطعات بحكم حقوقهم الوراثية ، إلا أن هذه الفكرة ظلت نظرية في كثير من الحالات .

نحن لا نعرف في الوقت الحاضر ولا ينتظر أن نعرف ، ما إن كان صهر الحديد قد عرف في الصين مستقلاً عن كشفه في الأناضول ، غير أن ظهور هذا الاختراع في عهد أسرة شو ، على ما تدل عليه الآثار حتى الآن ، أى بعد أن كان قد ظهر فعلاً ، فقد كان في الغرب من قبل ، يرجح فرض انتشاره من الغرب حيث كان قد ظهر فعلاً ، فقد كان صهر الحديد صناعة بسيطة يمكن أن تنتشر بسرعة ، كما انتشرت في أوروبا . وقد عرّف الناس في ذلك العهد استعمال المحراث . ونحن نعرف من التاريخ الأسطوري أن بعض السكان في عهد أسرة شو لم يكونوا قد استقروا بعد نهائياً ، إذ تحكى القصص أن هجرة كبيرة من الناس اتجهت نحو الشرق تحت ضغط سلالة من قبيلة الشياطين هسيونغ Hsiung Na . ومن الممكن أن يكون معنى هذا أن بلاط الإمبراطور ، وما يتبعه من حشود الخدم هم الذين قاموا بهذه الهجرة . وترك الفلاحون يقومون بأعمال الحقل المختلفة ، مثل قطع الأخشاب ، والبناء ، وصيد حيوان الفراء ، والنسيج وجمع أوراق التوت وما إلى ذلك لحساب سادتهم . إلا أنه في أوائل عهد أسرة شو ساد شئ من الأمن والعدل ، بما في ذلك العناية بالمسنين .

وازدهرت المدن ، التي تبادلت التجارة مع بلاد بعيدة ، وتقدم النقد ووسائل الراحة والرفاهية ، رغم أن هذه الأسرة فقدت قسماً من هيبتها بعد أن ركنت للترف ، أى حوالى القرن السابع ق.م. ومرت في مرحلة معقدة قابلتها فيها الصعاب التي خلقها تطور الأحداث التي سبقتها . وقد ذكر الأستاذ هاينى — جلدن Heine-Geldern في محاضرة حديثة له في لندن: أن

النشاط البحري للصين جنوب هونان قد أصبح مهماً جداً بعد القرن السابع ق.م. وأنه من الممكن تتبع الأسلوب الصيني في أشياء كثيرة داخل المحيط الهادى نفسه .

وربما انتشر فن زراعة الأرز المغمور في أحواض مقفولة تغمرها المياه في شرق آسيا بعد ٧٠٠ ق.م. أو بعد ٤٠٠ ق.م. ولا بد وأن نسجل أن هذا مرتبط بانتشار الحضارة الصينية في أقاليم تقع جنوب هونان . وليس من شك أن هذا التقدم في أساليب الزراعة لم يعمل على ازدياد السكان فحسب ، بل أدى إلى امتداد قوة الصين الهندية في القرون الأخيرة السابقة للسلاد .

في هذا الوقت قام المعلنون الكبار ، في فترة معاصرة لظهور أمثالهم في الهند . ومن المهم بصفة خاصة أن نلاحظ أن هؤلاء المعلنين الصينيين والهنود ولاسيما لاوتزو Lao-Tzu ، وكونفوشيوس وبوذا ، لم يهتموا كثيراً بفكرة الإلهية ، بل أن كونفوشيوس تحاشاها تماماً عن عمد . وقد اهتم بوذا بصفة خاصة بمصير الإنسان ، وكانت فكرة النرفانا أى الحلول النهائي بالكون ، الذى يسير إليه البشر واحداً بعد واحد ، قد تفكيره . أما المعلنون الصينيون فقد اهتموا اهتماماً خاصاً بالمجتمع فقال لاوتزو إن الناس يجب أن يعيشوا في انسجام مع الطبيعة ، أى يجب أن يستمروا كما كانوا يعيشون أيامه ، أو على الأقل هذا ما ينبغي بالنسبة للناس البسطاء وهاجم التعقيد والحركة ، واشتهاء السلطة ، والثراء ، وتدخل المجتمعات بعضها في شئون البعض الآخر . وكان يرى أن هناك طرقاً ووسائل كثيرة مختلفة تهدف إلى الحقيقة . كما أن لها مظاهر مختلفة ومن ثم فإن الحقيقة تفرض على الناس أن ينظروا باحترام متسامح إلى مختلف العقائد . أما كونفوشيوس فكان أساساً الحكيم المحافظ . يبحث في الماضى

عما يهديه إلى السلوك السليم في الحاضر ، في مجتمع هرمي ، الفضيلة فيه من خصائص النبلاء .

وكان من المفروض أن تنتقل المهارة الصناعية من الوالد إلى ولده . ومن ثم كان على الوالد أن ينسج على منوال أبيه ، ويقوم بمهمته . ولذلك كان الفرق بين النبيل والعاذى أى بين الغنى والفقر فرقاً واضحاً كبيراً . غير أن هذا لم ينعكس وضع نظام طوائف كما كان معروفاً في الهند ، والسبب في هذا بلا شك هو كما أوضحنا في الفصل الخامس ، بالهند ، عدم وجود فوارق كبيرة بين الناس في الصين كما كانت في الهند . حيث الفرق كبير وواضح بين الأمراء المتحدثين بالفيلية الآرية وبين سكان الأجام والأحراج .

صحب تدهور أسرة شو ، كما صاحب تدهور أسرة شانج من قبل ، ضغط من الحدود الجافة المنغولية . فاستقل عدد كبير من حكام ولايات دولة شو السابقة بحكم ولاياتهم . وأنسلخ الشينيين Ch'ins بحكم التخوم الغربية . وتجمعت في يدهم مزيد من السلطة في ٢٢١ ق. م. وأعلن شن شيه هوانج تي Chin Shi'eh Hwang Ti نفسه حاكماً على معظم الأجزاء الشمالية للصين . بعد أن نقل الشو عاصمتهم شرقاً . بعيداً عن طريق زحف الشينيين المباشر وقد أراد الحاكم الجديد أن يحكم حكماً استبدادياً . وأراد أن يدمر الكتب التي تحتفظ بالوثائق التاريخية وأن يقضى على كثير من تعاليم الحكماء . ويكتب كل نقد لحكومته . وألغى فكرة تقسيم الأرض تقسيماً تساعياً . كما ألغى النظام الهرمي للمناصب . وأخضع الجميع لسلطة الإمبراطور وموظفيه وأخضع الجميع للخدمة العسكرية . وكان يعتقد أن التاريخ وما قد يحويه من هبر شيء مفضل . وأنه يجب أن يقتصر الفكر على حدود معينة . ومن ثم يجب أن يحدد الاتصالات بين الصين وغيرها من البلاد . وعلى هذا فقد أمر بأن يقوم الجنود والمجرمون ومعارضوه من السياسيين والمفكرين ببناء سور الصين العظيم :

وكان بعض الحكام السابقين على عهد حكم أسرة شو قد أقاموا أسواراً لحدود مقاطعتهم . ولكن سور الصين العظيم فاقها جميعها في ضخامته وقوته . وربما أدخل بعض الأسوار القديمة داخل بنائه في بعض المواضع ، وكان هذا السور يمثل الحد الواضح بين الأرض الخصبة المزروعة والأرض المجردة الجافة ومهد الفاتح الجديد أيضاً طرقاً كثيرة داخل إمبراطوريته تشبه ما قام به الرومان في وقت متأخر بقليل عن هذا في إمبراطوريتهم .

وحكم جزءاً كبيراً مما سمي بعده بالصين وربما أضاف إليها جزءاً كبيراً من شرق شبه الجزيرة التي نسميها بالهند البعيدة . ولا بد وأنه كان على قدر كبير من الكفاية الإدارية والقوة التنظيمية الصارمة . غير أن نظامه انهار في عهد حكم نجله الذي قتل في ثورة قامت في أسرة هان عام ٢٠٦ ق . م . وربما كانت هذه الثورة رد فعل لحافظ ، أعاد شيئاً من النظام الإقطاعي للبلاد وبعد فترة من السلام والازدهار أمكن استخدام الثروات المتراكمة في توسيع رقعة الإمبراطورية التي بسطت نفوذها غرباً حتى التركستان الصينية (سينكيانج) .

في ذلك الوقت كان الغرب نشيطاً ، واستطاع الإسكندر الأكبر أن يمد سلطانه وفتوحاته إلى ما يسمى اليوم بالتركستان ، كما استطاع قواده وخلفاؤه أن يؤسسوا المدن والأمصار . وقد استطاع التجار الصينيون في عهد أسرة هان أن يتبادلوا التجارة مع هذه المدن ، ووصل الحرير أسواق الغرب عن طريق التجار الذي ساروا في طريق الحرير . كما أن سلطة هان استطاعت في نفس الوقت أن ترد قبائل هسيونج نو Hsiung-Nu الرعوية على أعقابها ، فاستدارت قبائل الهون Hun هذه غرباً نحو أوروبا وعانت فيها فساداً عندما كانت روما تختصر . ومن المحتمل أن تقدم التجارة هذا ، مع ما رافقه من إنشاء الطرق وإقامة المحطات التجارية حتى قلب آسيا الداخلية ، قد جاء معاصراً

لفترة انكشفت فيها ثلاثيات الجبال ، مما أضاف قليلا من موارد الماء للسهول الجافة . وكما توافرت لدينا أدلة على وجود فترة امتازت بالصيف البارد والمطير في أوربا حوالى ٥٠٠ قبل الميلاد. وإن هذه الأحوال انتهت بعد مرور قرنين من الزمان تقريبا ، فإنه من الممكن أيضاً أن تكون الرطوبة المشتقة من الجليد الذائب في داخلية آسيا حوالى ٢٠٠ ق.م قد زادت. وأن هذه الظروف الأكثر رطوبة قد استمرت بضعة قرون أخرى قليلة .

وسارت أسرة هان كما سارت سابقتها في مراحل الترف والرفاهية ثم الانهيار نتيجة ثورة قامت عام ٢٠٨ م ،

في أوائل عصر أسرة هان، قد سمح تعاليم كونفوشيوس ووضعت في مكان الصدارة ، ونسخت نسخاً جديدة من الكتب المقدسة افترض أنها صورة مما نجا من أوامر تشن شبنية هوانج تى التى قضت بإبادة الكتب ، ولكن ، كما هي العادة ، كانت هذه التعاليم قد فقدت روحها ، وأصبحت شكلية وطمست الطقوس معانيها الحقيقية ، ولا سيما في أثناء تدهور أسرة هان وبعد انهيارها ، عندما مرت البلاد في فترة طويلة تقدر بنحو ٣٦٠ سنة من الانحلال والتفكك والتعرض لهجمات البدو .

وقد أدى اتحاد البلاد تحت حكم إمبراطور يسمى يانج إلى القيام بمشروع القناة الكبرى ، الذى حقق وحده وطنية عظيمة القيمة بين نهري هوانج هو وبانجيتسى ، ولكنه تكلف قدراً كبيراً من المال والأرواح . وقد أدى إسراف يانج في هذا المشروع وفي غيره من مظاهر الطرف والآبهة إلى سقوط أسرته. وقامت أسرة تانج Tang عام ٦١٨ م ، لتبدأ مهمتها الجبارة . وقد بدأ أيام يانج تطبيق نظام جديد لشغل الوظائف العامة بعد اجتياز امتحان ، في تعاليم كونفوشيوس ، وقد وضع هذا النظام ليقضى على قوة حكام الولايات

الوراثيين وبعد التوسع في زراعة الشاي في الأنحاء الدافئة من الصين، ولا نعرف إن كان للشاي وطن واحد أصلي أو أكثر من وطن، ولا نعرف إن كان له وطن واحد، ولما كان هذا الوطن هو سفوح الهملايا في آسام ودارجيلنج أو في غير ذلك من الصين. وكان للشاي قيمة كبرى في تغيير نكهة الماء المعكر المستخرج من القنوات التي تملؤها الطين أو البرك والخزانات، وكان له أثر ضئيل في تخفيف حدة الآلام الروماتيزمية التي يغاثي منها زراع الأرز وهم يعملون في حقوله المغمورة بالماء، غير أن الفلاحين وجدوا راحتهم الكبرى في تعاطي الأفيون.

في أوائل عصر أسرة تانج حفرت حروف يمكن قراءتها على قطع مستوية من الحجارة، ثم غطى سطح الحجر بالجير وترك الحفر دون جير، وبهذا أمكن طبع عدة نسخ بوساطة حروف بيضاء ذات أرضية سوداء. ويبدو أن هذا كان أول اختراع للطباعة. وبعد ذلك، ربما في نهاية هذا العصر استخدمت قطع خشبية لحفرها وطبعها بدلا من الحجارة، ثم صنعت قوالب الحروف من الطين أو من مادة أخرى يمكن حرقها، وبذلك أمكن صنع حروف سهلة للطباعة. وبعد ذلك بوقت من الزمن صنعت تلك الحروف من المعدن. ولا نحتاج إلى أن نقول إن حروفنا الهجائية في الغرب على الرغم من عدم جمالها، من السهل حفظها وتعلمها كما أنها أسهل وأسرع في الطباعة من النظام التصويري البالغ التخصص الذي حفظته التقاليد الصينية، وبذلك جهود لا حصر لها في سبيل تبسيط وتخطيط عشرات الألوف من أشكالها (١).

(١) الكتابة الصينية تستعمل أشكالا Characters لا حروفا في الكتابة فالكلمة المكتوبة عبارة عن شكل تصويري أو أكثر، ولا تتكون من حروف صونية مجردة كما نستعملها نحن. (المعرب).

ومن المعروف عامة أن صناعة الحروف قد دخلت من الصين إلى أوروبا في أواخر العصور الوسطى .

وشهد عصر تآنج أيضا تقدما كبيرا في الشعر ، ورسم المناظر الطبيعية ، بما في ذلك العصور الكييزة المرسومة على أبواب الحرير ، وعمل تماثيل الخيل والرجال من الصلصال ثم حرقها ، وعمل الخزف الصيني . وتوضح تماثيل الخيل والرجال دراسة دقيقة للأنماط البشرية والحيوانية وما كان يجز به الرجال والخيل من أدوات وأسلحة ، وهى على درجة كبيرة من الدقة والجمال إلا أن هذه الفنون سواء كانت من الرسم والتصوير أم من عمل التماثيل الخزفية لم تنتقل من الصين إلى الغرب . إلا أنه بعد ذلك بعدة قرون انتقل الخزف الصينى من الصين إلى هولندا خاصة وإلى أوروبا بصفة عامة .

ثم تدهورت أسرة تآنج أيضا ، وانهارت عام ٩٠٧م وبعد فترة قصيرة من الحكم المضطرب ، تأسست أسرة سونج Sung ولكن على أساس واحد ، تضمن نهضة برايرة الشمال الغربى . وفى عهد هذه الأسرة عدل نظام السخرة ، وسمح للأفراد بدفع إتاوة نظير عدم تسخيرهم فى العمل . واتجه الفن اتجاها انطوائيا أو تأمليا Introspective بعد أن كان نشطا فعلا هلى يد فناني أسرة تآنج ويمتاز فن عصر سونج بأنه رائع جداً رقيق الألوان والأشكال ، ويمثل شعر هذا العصر قمة الإبداع فى هذا الفن . غير أن التخوم الشمالية ظلت تهاوى فى يد المغول ، يوما بعد يوم ، كلما سارت الأسرة نحو التدهور . وقد استطاعت أسرة يونج ، التى قاومت هذا الضغط المغولى فترة فى الجنوب ، أن تنمى التجارة البحرية التى انتشرت جنوب شرق آسيا ، بل وأن تنشر الخزف الصينى (أوانى كيلادون) حتى شرق إفريقيا وجنوبها .

فوجدت آنية من طراز أسرة سونج بصفة خاصة فى ميناء جيدى الإسلامية

شمال شرق بمباسا . كما وجدت مس كشيون تومبسون بعض قطع خزفية في أرضية زمبا بوي بروديسيا . وكانت التجارة البحرية في غاية النشاط خلال آخر أيام حكم الأسرة المغولية ، كما حكى لنا ماركو بولو ، كما كانت الطرق البرية بين الصين والغرب مطروقة ومعروفة تماما . واستمر شيء من هذا النشاط أيام أسرة منج Ming منذ القرن الرابع عشر ، ولم تحمل هذه الطرق التجارة فحسب ، بل حملت المهاجرين إلى جنوب شرق آسيا وأندونيسيا . ولذلك فإن بعض السكان الذين يتحدرون من أصل صيني أو شبيه منه في هذا الإقليم يرجعون إلى عهد قديم ، رغم أن معظم المتحدثين بالصينية في هذه الأنحاء قد هاجروا حديثاً إلى الملايو وأندونيسيا .

ساعدت صفات الأسرة المركبة المحافظة ، ومحاولتها سد جميع حاجاتها من الأرض التي تملكها ، وحياتها المكتفية بذاتها ، على جعل الحياة الصينية عتيقة المظهر ، تطفخ أدوات مصنوعة في بيتها ، وتقديس الأسلاف وطرق حياتهم . غير أن نظام الأسرة المركبة هو أجد القوى العظيمة في المجتمع الصيني . فقد تردد الأباطرة كثيراً في تقليل سلطة الأب في منزله ، حتى لقد قيل إن الصين هي أقل البلاد التي تمارس فيها الحكومة عملها إذ ترك الكثير في يد الأسرة . ولم يكن ثمة مفر — في كثير من الأحيان — من أن يضحي الموظفون بالمصلحة العامة في سبيل الأسرة ، غير أن هذه ظاهرة شائعة الحدوث في كل أنواع الحكومات .

ولقد كان مصير الأسرات في الصين الواحدة بعد الأخرى ، الانهيار بعد أن تبدأ عهدها بداءة مبشرة ، تحت قيادة زعيم قوى قادر ، ولم يكن هذا الزعيم في الصين دائماً من أصل أرستقراطي . فلقد كان من أسباب انهيار الحكم مرة بعد أخرى دسائس القصر التي تحيكتها الحريم وما يحيط بهن من

الأخصياء . حريم باللغة العربية نساء، ولكنه أطلق على مجموعة من زوجات الحاكم وما ملكت يمينه من قيان ومحظيات . إذ تسعى الجارية المحظية في أن تنقل ورائة العرش إلى نجلها ، وتستطيع أن تحكم من وراء ستار ، وأن تمارس السلطة دون أن تتحمل أية مسئولية . وربما طمع الخصى الذكي الذي لا عقب له يفكر فيهم في أن يمارس السلطان فتحالف كل من الجوارى والأخصيان على جلب الشر والمصائب بسبب سوء استغلالهم للسلطة ، غير أنه كانت هناك استثناءات قليلة لهذه الحال .

وبما هو جدير بالذكر أن الصين قد ساهمت بطرق مختلفة في حياة العالم . فكلنا يعرف الحرير والشاي : الموالح (الحضيات) في أثناء عصر أسرة تانج أو قبلها ، وحجر المغناطيس الذي يقال إنه عرف في عصر أسرة شانج ، وهو أصل إبرة البوصلة التي يستخدمها البحارة والتي عرفت في أوروبا في عصر توسع الصين في نشاطها التجاري البحري ، والخزف الصيني ، والبارود ، الذي أصبح في يد الغرب أداة المفرقات ووقود المداقع ، والطباعة والورق وربما أيضا العملة الورقية ونظام الامتحانات . أما فول الصويا فهو شيء حديث أخذناه من الصين . وربما لم يؤثر في الرسم الذي تقدم تقدما عظيما في الصين إلا قليلا في الفنون الأوروبية . ومن ناحية أخرى من الصعب أن نجد شيئا ماديا ملبوسا ساهمت به غرب أوروبا في الصين قبل اختراع البخار والآلات الميكانيكية . وأما من الناحية الفكرية فقد حاول الجوزيت الأوائل أن يربطوا تعاليمهم بتعاليم الصين التي تقدس الأسرة ، ويتمجد كونفوشيوس وتعاليمه الأخلاقية . غير أن الكنيسة الرومانية أوقفت هذه الجهود لأنها محاولة في التوفيق بين المسيحية والديانات غير المسيحية .

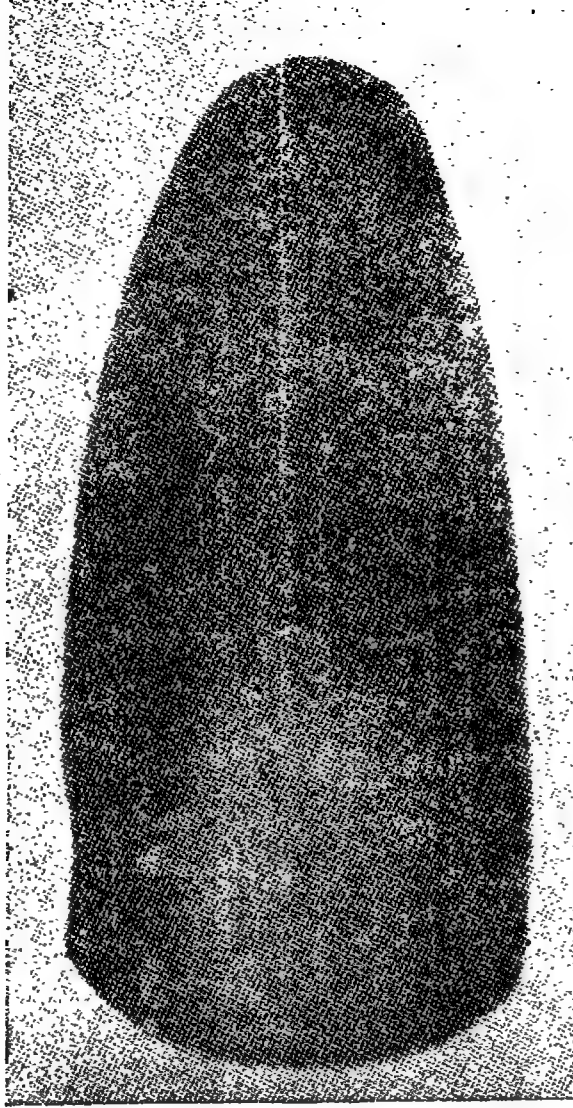
الفصل العاشر

جنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ

هناك قرائن تدل على استعمال أسلحة ونصال حجرية في فترة سابقة للعصر الحجري الحديث بمعنى الكلمة في جنوب شرق آسيا، كما أن هناك قرائن على استعمال أدوات من طراز النواة، تشبه ما كان يستعمل في شمال إفريقيا، غير أنها مشظاة من وجه واحد فقط .

وجد فون ستاين كالينفلز في جوالاوا وبوديونيجورو في جاوة آثاراً فسرهما هايني جلدرن بأنها رؤوس سهام قديمة . وقد وجدت في هذه الأماكن دون أن يكون معها أية فتوس حجرية حديثة . كما استنتج من شكلها ومن طرق تشظيتها أنها وصلت إلى جنوب شرق آسيا من اليابان . وقد قيل أيضاً إن بعض الجماعات في الملايو كانت تستخدم أدوات مصنوعة من النواة ومن الشظايا المستخرجة منها .

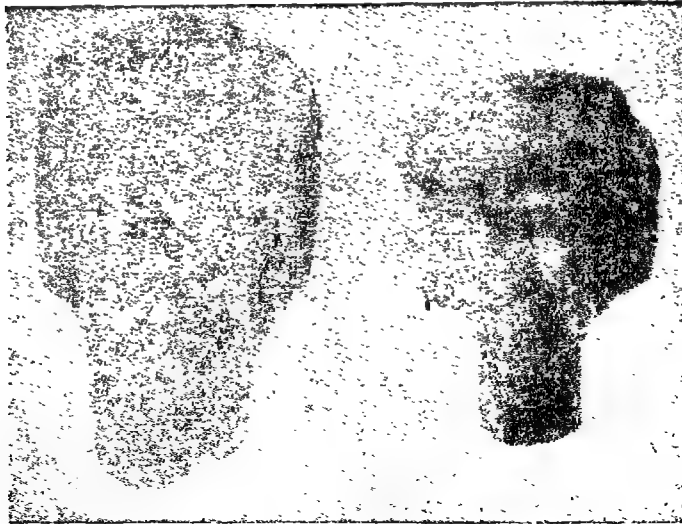
إذا تركنا هذه البدايات المتناقضة المختلطة ، وبدأنا ندرس الآثار والآلات التي وجد شبيه لها في كثير من أنحاء العالم وتنتمي إلى حضارات العصر الحجري الحديث بمعنى الكلمة ، وجدنا أنها مكونة من فتوس حجرية شكلت أسطحها وحوافها بالصلقل وذات قطاعات عرضية بيضاوية الشكل ، ويسمى الأساتذة الألمان هذه الفتوس باسم Walzenbeil . وهي معروفة تماماً في الهند والصين واليابان . ووجد بعضها في الهند البعيدة (الهسنية) . غير أنها سلكت سبيلاً أهم في انتشارها من جنوب الصين عن طريق فرموزا إلى الفيليبين ومن ثم إلى شرق أندونيسيا وإلى ميلانيزيا ، وربما وصلت إلى نيكرونيزيا وما وراءها . ومن الغريب والمهم أيضاً أن هذا الطراز لم يوجد في جاوة حتى وقت قريب على الأقل رغم جمع عدد كبير من فتوس العصر الحجري الحديث منها . والرأي السائد أنه لم يصل إلى جنوب شرق آسيا حتى عام ٢٠٠٠ ق . م أو ربما بعد ذلك ، ولذلك استمرت فترة ما قبل العصر الحجري الحديث وقتاً طويلاً في هذه المنطقة . ويمكن أن نستنتج أن هؤلاء الذين صنعوا تلك الفتوس قد مارسوا أيضاً الزراعة .



(شكل ٦٤)

فأس حجرية قديمة - من بورنيو

أما الطراز التالى من حيث العمر لفثوس العصر الحجري الحديث فى جنوب شرق آسيا فىمتاز بأنه أكثر استواء ، وله عنق أعنيق من الفأس نفسها ، وتشبه هذه العنق عندما تلتقى بالفأس ، عنق الإنسان بين كستفيه . ومن ثم سميت تلك الآلة بالفأس ذات الكتفين ، وكانت العنق تربط بالسيور حول العصا ، ويبدو أن الهند الصينية كانت الوطن الأول لهذا الطراز ، كما وجدت فى أوربا ، وشوتا ناجبور ، والبنغال وعلى ضفاف نهر الجانج حتى « الله آباد » كما وجدت واحدة منها فى جودافارى ، ولما كانت قد عرفت أيضا فى أسام ، فإنه يبدو أنها وصلت الهند عن طريقها . غير أن طريق أسام شاق صعب ، بسبب الغابات واعتراض الحواجز الجبلية ، ومن ثم فإنه يستحسن أن نتردد فى قبول هذه النتيجة التى تعتمد على قرائن ضئيلة . كما أن هذا الطراز من الفثوس انتشر شمالا حتى دخل يونان والساحل الصينى قرب هونج كونج . وربما انتشر من هذا المكان إلى فرموزا وكوريا واليابان ، وربما توغل شمالا حتى يزو ، كما



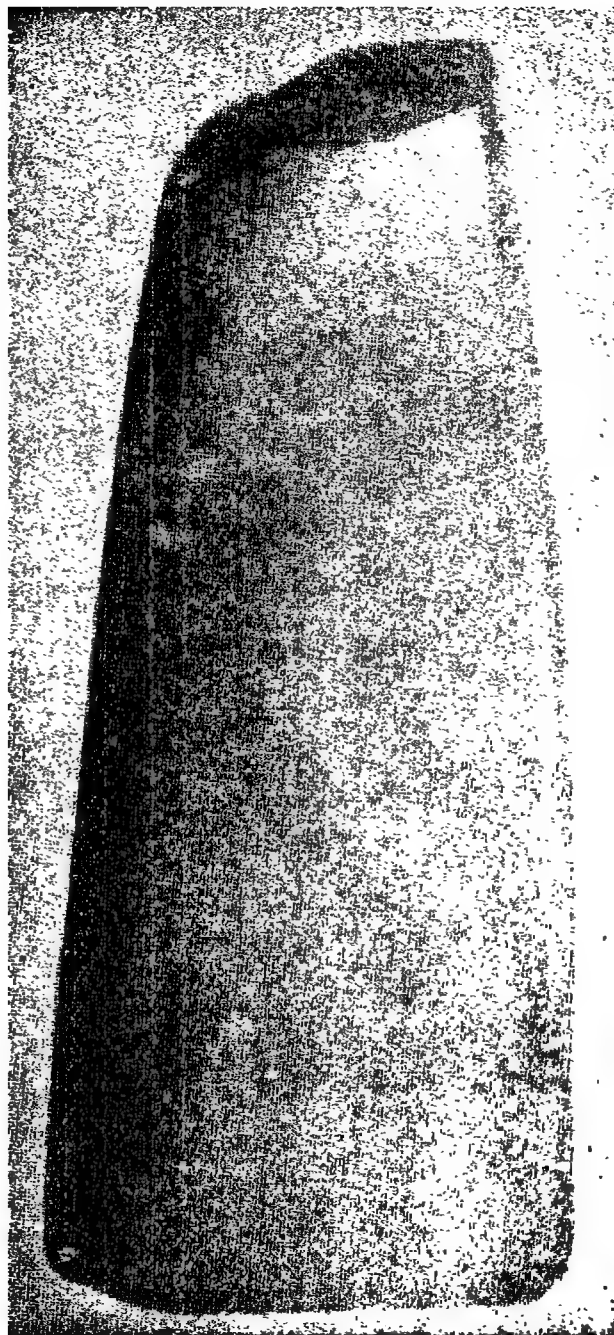
(شكل ٦٥)

فأس حجرية ذات حافة - أنام

انتشر إلى الفيليبين والجزء الشمالى من سيليبز (شبه جزيرة ميناهاسا) وشمال بورنيو . ويبدو أنه لم يصل إلى جنوب الملايو مطلقا ، حيث لم يوجد سوى فأس واحدة منها في باهانج ، وكان الناس الذين يستعملون الفأس ذات الكتفين من الزراع ، غير أنه تفقنا أدلة على استئناسهم للحيوان . أو حتى الخنزير أو الكلب ، ولم تعرف الفأس ذات الكتفين في سومطرة أو جاوة . إن توزيعها في جزر المحيط الهادى ل ذو أهمية خاصة وسنذكره فيما بعد ، وكان أصحاب تلك الحضارة يقدرون قيمة كبيرة للألى ، كما كانوا يصنعون حلهم من الأصداف وغيرها .

أما الطراز التالى لفتوس العصر الحجرى الحديث فهو أكثرها أهمية ، ويمتاز بأنه ذو شكل يشبه الأزميل ، وله قطاع عرضى مستطيل الشكل ، ولكن لم تكن له اكتاف وهو يميز الصين تميزا كبيرا . بما فى ذلك كانسو ، وهونان وشنش وشاتونج ، وفنجتين ، ويونان . وقد انتشر من جنوب الصين إلى الهند البعيدة ، بما فى ذلك توتنجكينج ولاوس ووادى ميكونج والملايو ، وانتشر من إحدى هاتين المنطقتين (الصين أو الهند البعيدة) إلى الهند ، حتى شوتا ناجبور وسانتال بارجاناس ثم انتشر من الملايو إلى سومطرة وجاوة حيث أصبح طرازاً مهما ، وحيث توجد بعض الفتوس ذات قطاع مئاث الشكل تقريبا ، من كثرة صقل جوانب الفأس التى كانت مستطيلة فى الأصل . ومن شرق الصين انتشر عن طريق فرموزا إلى الفيليبين واليابان ، ومن جاوة انتشر إلى شرق أندونيسيا ولسكنه لم يصل مطلقا إلى ميلانيزيا ، وبهذه هذه الفتوس التى وجدت فى بورنيو وشرق أندونيسيا لها حافة مرتفعة على طول أحد وجهيها ، وقد جمعت بعض هذه الفتوس الأخيرة من يسيخيم فى غانة الجديدة الهولندية .

ويبدو أن هذه الفتوس وانتشارها فى جنوب شرق آسيا أقدم عهداً من استعمال البرنز ، الذى بدأ فى تاريخ متأخر . وهى مقترنة بالفخار الملون فى



(شكل ٦٦)
فأس حجرية على شكل أزميل — جاوة

شمال الصين ، وبالفخار الحزق في الهند البعيدة . وربما انتشرت مرحلة حضارية معينة من الصين إلى جنوب شرق آسيا ، حيث عمرت عدة قرون ، بعد أن انتهت وانقضى أجلها في الشمال . وقد وجدت في الصين أوان ثلاثية ، عبارة عن ثلاثة أران ملتصقة لكل منها قاعدة مدببة ، وتستخدم كل منهما الأخرى ، كما وجدت أران ذوات قسمين ، قسم علوى وقسم سفلى ، استخدم لتأطير الطعام وساطعة البخار المتصاعد من الإناء السفلى إلى الإناء العلوى . عن طريق ثقوب في قاعدته .

ولما كانت هذه الأواني لم توجد في جنوب شرق آسيا ، فمن الممكن إذن أن تكون هذه الحضارة الشمالية قد انتشرت عن طريق سنشوان أو منطقة بعيدة غرباً حيث لم توجد هذه الأواني . غير أن الأواني الثلاثية معروفة أيضاً في جبر فيجي .

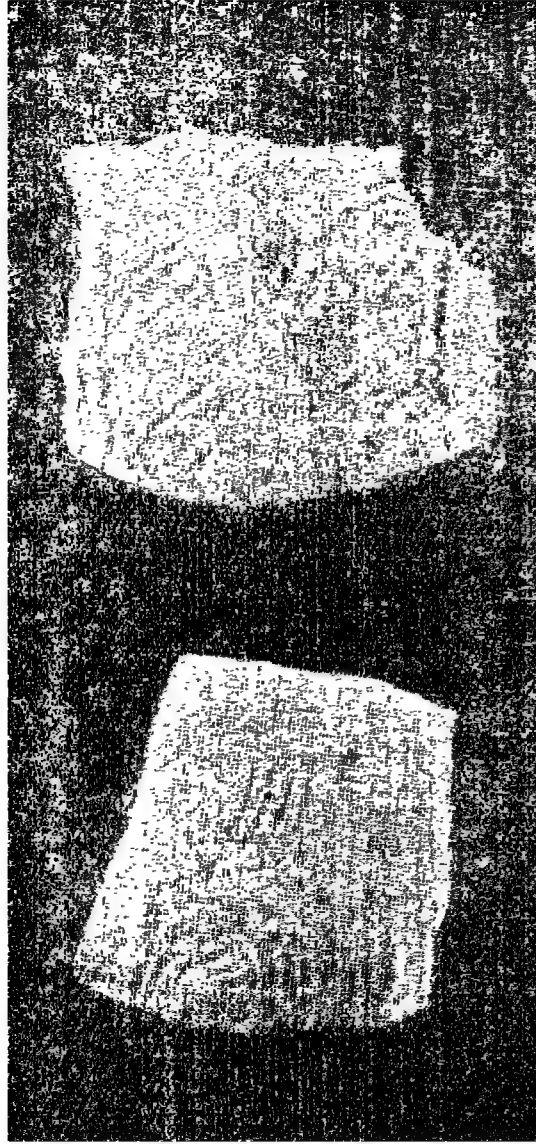
ويبدو أن سناع الفئوس الحجرية ذوات القطاع المستطيل كانوا يحفرون حوزاً عميقة في كتلة صخرية ، ثم يضربون الصخر من المكان الحزق ، ويفصلون الفأس عن كتلته الصخرية ، وقد انتشر هذا الطراز من الفئوس إلى أمريكا وإلى بولينيزيا . وكان هؤلاء الناس يربون الماشية والخنزير في جنوب شرق آسيا ، كما كانوا يزرعون فعلاً الأرض ، ولكنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد طريقة زراعته الرطبة (أى في أحواض تغرق بالماء فصلياً) وعرفوا أيضاً زراعة الدخن ، وقد حدد الباحثون أن تكون القوارب المستطيلة Canoes ذوات الحافة المزدوجة كانت من الوسائل التي اخترعت للاستعمال في أنهار الهند البعيدة خاصة ، فإن كان الأمر كذلك ، فربما اخترعها أصحاب الفئوس الحجرية ذوات الأكتاف ، وذلك قبل صناعة الفئوس الحجرية الأدق شكلاً ، ذوات القطاع المستطيل ، أو الثلاثى . وربما أدت الحواف المزدوجة للقوارب إلى استقراره في الماء ؛ ولكنه كان صعب

القيادة ، ومن ثم كانت القوارب ذوات الحافة الواحدة أوسع انتشاراً . وقد رأى بعض الكتاب أن أصحاب الفئوس الحجرية ذوات الأكتاف ، كانوا نشيطين في نشر مجموعة لغات الموندا ، ويدل على هذا بقاء هذه اللغات في شوتا ناجبور بالهند .

من الواضح أن الهند لم تؤثر كثيراً في جنوب شرق آسيا ، بل لقد ظلت شبه الجزيرة الهندية في حالة متأخرة حتى عصر الحديد وعلى كل فقد انتشرت جماعات هندية في أوائل العصر الميلادي إلى كبوديا وجاوة ، ثم شيدوا في وقت تال لذلك معابد انجكورفات في كبوديا وفي برابودور بجاوة .

وقد أشرنا لإشارات عارضة فيما سبق إلى اليابان . فقد وجدت أنماط سابقة للفئوس الحجرية المصقولة ذوات القطاع البيضاضى في اليابان بأعداد وفيرة كما وجدت أيضا الفئوس ذوات الأكتاف ؛ والفئوس التي تشبه الأزميل . وربما وصلت هذه الأنماط إلى اليابان عن طريق كيوشو ؛ وجزر ريوكيو ؛ وفرموزا من جنوب شرق آسيا أو من أندونيسيا وإن كان هذا احتمال أقل ويجب أن نذكر إمكان الملاحة التي يسيرها تيار كوروسيو Kuro-Siwo فلقد قامت علاقات ثقافية بين الهند واليابان عن طريق كوريا ، على الأقل في العصور المتأخرة ؛ وإذا صدقنا الأسطورة فرمما حدث هذا الاتصال الحضارى عن طريق كيوشو .

وتشتمل آثار ما قبل التاريخ في اليابان على نصب حجرية تشبه نظيراتها في جنوب شرق آسيا وأندونيسيا ، ولما كانت هذه الآثار قد انتشرت من أندونيسيا إلى جزر هيرديز الجديدة ، كما انتشرت شبهاً إلى جزر كارولين فن الطبيعي أن نجد لها في اليابان أيضاً . ويبدو أن هذه النصب لم تظهر في الهند وجنوب شرق آسيا قبل انتشار الحديد في الألف الأخيرة السابقة للميلاد ، كما أن بعضها حديث العهد جداً في ميلانيزيا ؛ ولذلك فإن نصب اليابان الحجرية ليست



شکل (۶۷)
خار محفور (محور)

أقدم عهداً من عصرنا الميلادى . وهناك نمط يابانى معين لهذه النصب يسمى Misasagi . وهو يتكون من تل دائرى أو مثلث الشكل متداخل بعضه فى البعض الآخر . ويحيط به خندق أو خندقان . ويحتوى هذا الميساساجى على عقد من الحجر غير المقطوع أى أنه كان فعلاً نصباً حجرياً dolmen أو حجرة ذات سقف حجرى معقود . وكان الوصول إلى هذه الحجرة يتم عن طريق ممر مسقوف بقطع ضخمة من الحجارة . ومن المفيد مقارنة شكل هذه المساساجى بالمقابر الضخمة ذوات النصب الحجرية التى شيدت فى عصر ما قبل التاريخ فى شبه جزيرة إيبيريا وبريتانى وإيرلندة وشمال اسكتلندة . ويقال إنه لا توجد قرائن على وجود عصر البرونز فى اليابان ، سابق لدخول الحديد إليها ، وهذا شئ غريب إذا تذكرنا نمو صناعة صب البرز فى الصين فى عهد أسرة شانغ إلا أننا نذكر بهذه المناسبة قلة الآثار البرزية فى أجزاء الهند التى وجدت فيها نصب ضخمة من الحجارة من غير المقطوعة فى عصر الحديد . فهذه نقلة جديدة بالذكر .

ويضع المؤرخون اليابانيون تاريخ أول إمبراطور حكم اليابان فى تاريخ نستطيع - بمقارنته بالتاريخ الميلادى - أن نضعه حوالى ٦٦٠ ق . م . وقد عرف هذا الإمبراطور بذلك بعدة قرون باسم جيموتينو Jimmu Tenno وتقرنه بعض القصص بالعصر الصينى الجنوبى أو الأندونيسى ، ويقال إنه دفن فى ميساساجى .

وتحكى قصص العصر القديم (حتى حوالى عام ٥٠٠ م) حوادث قتال مع سكان اليابان الأقدمين ، الذين بقى منهم شعب الآينو حتى الآن . ويختلف هؤلاء الآينو الذين يعيشون الآن فى يزو (هوكايدو) وشماله وجزر كوريل الجنوبية اختلافاً كبيراً من اليابانيين . فهم يمتازون بالرأس الطويل - أحياناً بالرأس البالغ الطول - والقامة القصيرة حيث يعتبر من يبلغ طوله ١٦٠ سم (٥ أقدام و ٣ بوصات) رجلاً طويلاً ، غير أنهم يختلفون عن بقية اليابانيين

قصار القامة بالقامة الرنمسة ، ويغطي رجالهم شعر غزير ، فوق رؤوسهم ووجوههم وأجسامهم وأطرافهم ، بل ويغطي الشعر أطراف النساء ، وأن لم يوجد فوق أجسامهن ، ويمتاز هذا الشعر بأنه أسود خشن وتميل أطرافه إلى التموج بينما يمتاز شعر اليابانيين بأنه دقيق مسترسل ناعم ، وأنوف الآينو ذوات جذر عميق ، وعظام خدودهم مرتفعة ، إلا أن وجوههم ليست مسطحة كوجوه معظم اليابانيين . وعيونهم عسلية وتشبه عيون الأوربيين ، ولا يكاد يبدو فيها سوى أثر ضئيل للثنية المغولية التي تميز جفون عيون المغول . فالآينو بصفة عامة إذن يختلفون اختلافا كبيرا عن عامة سكان اليابان وأوربا والصين فهم ليسوا مغولا ، ويدل هذا إلى جانب انزعالمهم في أقصى شمال اليابان ، وثباتهم على أسلوب الحياة الذي كان سائداً في أواخر العصر الحجري القديم معتمدين على صيد السمك والقنص ، على أنهم بقايا شعب قديم ، ويجد هذا الرأي تأييداً ضئيلاً من العثور على جماجم تذهب إلى آخر العصر الحجري القديم في المستويات العليا للكهوف في شو كوتين في شمال الصين . ولا يزال هناك أفراد يحملون آثار الآينو منتشرين في كافة أنحاء اليابان . وستكون قصة غزو المهاجرين من كوريا أو جنوب الصين أو منهما معا للجزر اليابانية وقهرهم الآينو ، جزءاً كبيراً من تاريخ اليابان .

وتسجل الأساطير أو التواريخ القديمة قصة غزو اليابان لكوريا وهي تحت حكم إمبراطورة حوالي عام ٢٠٠ م إلا أن التاريخ الصيني لا يذكر هذه القصة ، ومن ثم كانت مشكوكاً فيها . ولا بد أنه كانت هناك علاقات حضارية - إن لم تكن حرية - مع كوريا وشمال الصين قبل عام ٥٠٠ م بكثير . ومن ثم فلا نستبعد الغزو العسكري تماماً ، كما أن التاريخ السكوري يذكر فعلاً أن الحروب مع اليابان القديمة . ويتحدث الصينيون في ذلك العهد عن النساجين اليابانيين . ويبدو أنهم عرفوا استخدام الحديد في صناعة الرماح والسيوف

والمدى والسناير والمناجل . وربما أدخل الحرير ودود الحرير من الصين إلى اليابان قبل عام ٥٠٠ م . كما أن زراعة الأرز كانت قد رسخت أقدامها تماما . وكان اليابانيون يلبسون معاطف واقية من المطر منسوجة من قش الأرز ، كما كانوا يلبسون أردية مصنوعة من جلود الحيوان وفرائها وأخرى منسوجة من خيوط الجوت . ويبدو أنهم كانوا يستخدمون الخيل في الركوب ، كما عرفوا المشاية ، ولكنهم لم يعرفوا الضأن أو الخنزير . وتقدمت صناعة بناء السفن ودخل فن الكتابة من الصين إلى اليابان قبل عام ٥٠٠ م بوقت ليس بطويل جدا . ومن معالم الحضارة اليابانية الغربية أنه رغم تقدم صناعة الخزف في الصين تقدما كبيرا منذ حوالي ٢٠٠ ق . م . ورغم إدخال عجلة الفخاري من زمن قديم إلى اليابان ، فإن اليابان لم تبدأ بإنتاج آيات فنية من الخزف إلا بعد إدخال عادة شرب الشاي حوالي ١٢٠٠ . وفي هذا الوقت كانت الصين تهتم بخزف سونج الجيسل .

في القرن السادس الميلادي انتشرت البوذية عن طريق كوريا إلى اليابان وازداد معها نفوذ المدينة الصينية ، كما تقدمت الفنون والصناعات بما في ذلك العمارة .

ووضعت القوانين في القرن السابع الميلادي ؛ كما بدأت أول محاولة لإنشاء نظام إداري ؛ بينما تجددت عادة إقامة مقابر ضخمة للنبل في كثير من أنحاء اليابان .

وفي القرن الثامن اختفت عادة تشييد قصر جديد أو عاصمة جديدة لكل عامل يتولى الحكم ، واستبدل بها مركز ثابت ، فأصبحت كيوتو العاصمة الوطنية لليابان حتى نهاية هذا القرن . ولقد كان التحول من عاصمة متنقلة إلى عاصمة ثابتة علامة من علامات تطور كثير من الشعوب .

وكان الصراع الطويل المرير الذي تركز في كيوتو ضد الآينو الأصليين

وغيرهم من العاصر صراعا في جبهة ضيقة ، أى كان مجهوداً مركزاً ، وهذا أسهم في نمو الروح القومية ذات القاعدة العسكرية ؛ وفي خلق الساموراي وهي طبقة الفرسان الحربية الوراثية . وبهذه الوسيلة اختلف نمو النظام الاجتماعى اليابانى اختلافاً قوياً أساسياً عن تطور النظام الاجتماعى الصينى وهذا أدى إلى اختلاف كل من القطرين اختلافاً واضحاً عن الآخر في تطوره .

ومن الممكن تتبع التطور الحضارى لجنوب شرق آسيا في النصب الحجرية الموجودة في هذه المنطقة ، وهي نصب من الصعب بطلها بالحضارات المختلفة التى تعرفنا عليها عن طريق ما تركته من آلات حجرية . أما هذه النصب التى يمكن أن تربط بمثيلاتها في غرب أوروبا فهي موجودة في أسام وغرب بورما ؛ وقد استمرت عادة تشييدها في أسام حتى العصور الحديثة وقد ارتبطت في لاوس وتونجكينج بالطقوس القديمة وهي لا توجد في جزر نيكوبار بينما توجد في بعض أنحاء شبه جزيرة الملايو وسومطرة وجاوة . وتقع أمام الساحل الغربى لسومطرة سلسلة من الجزر ، من بينها جزيرة نياس التى تمتاز خاصة بنصبها الحجرية . ولكنها لا توجد في جزر هذه المجموعة الجنوبية التى تعرف بجزر ميلناري . وهذه النصب الحجرية معالم هامة في شرق جاوة ، في سومبا وفلورين وفي بعض أنحاء بورنيو والفيليبين .

وتشتمل هذه النصب على ما يعرف في غرب أوروبا باسم الدولمن أى كتل حجرية ضخمة مقامة أفقياً فوق عدد من الحجارة المنتصبة الضخمة وفي بعض الحالات ؛ صفت الحجارة المنتصبة بشكل خاص بحيث ترك فتحة يضاوية للهيكل وأحياناً كانت تنحت هذه الفجوة في الصخر ؛ وقد سميت هذه الفتحة باسم فجوة الباب ، وتفضل التسمية الألمانية لها Seelenloch إذ أنها — كما يتفق الكتاب عامة — كانت بقصد السماح لروح الميت ، أو أرواح الموتي المدفونين فيها بالدخول منها يوم البعث .

وعندما تحدثنا عن الهند ذكرنا النصب الحجرية التي أقيمت فوق مدافن شبه الجزيرة ، والتي وجدت في بعضها آثار ترجع إلى أوائل عصر الحديد أى ما بعد ٨٠٠ ق.م. تقريباً ومن الجدير بالذكر أن إليوت سميث منذ زمن طويل قد ذكر أنه حوالى هذا التاريخ انتشرت فكرة إقامة النصب الحجرية إلى الهند من الأقطار التي تقع إلى الغرب منها ، وفي رأيه أن مصر الأسرة الحادية والعشرين كانت مصدر هذا الانتشار ، الذى كان جزءاً من نشر حضارة عبادة الشمس Heliolithic وقد ساعدت على هذا الانتشار التجارة الفينيقية ، وأنها في انتشارها كانت تجمع مظاهر متعددة في طريقها . ومن المعروف أن نظرية إليوت سميث لم تقبل بحذافيرها بعد ، ولكن هذا كان دافعاً أكبر لنا كي نذكر النقط التي يبدو أنه كان على حق في بعض أجزائها .

تختلف آثار مقاطعتي ناجا وغاسى في أسام اختلافاً كبيراً عن آثار شبه الجزيرة الهندية . فهي جزء من السلسلة التي وجدت في جزر الهند الشرقية ، وليس من المؤكد قط أن أسام كانت مصدر الانتشار الحضارى جنوباً شرق فن المحتمل على الأقل أن تكون الحضارة انتشرت في الاتجاه المقابل لذلك . إذ تشمل الآثار الحجرية الضخمة في أسام وجنوب شرق آسيا أيضاً على مقابر فوقها نصب حجرية (دولمن) وتوابيت حجرية ونصب حجرية قائمة (تسمى منهير Menhir في غرب أوروبا) . وكانت هذه الأحجار الضخمة تقام في مجموعات لكي تؤلف صفوفاً مستقيمة ، أو دوائر أو تكس بعضها بجانب بعض فوق تل صناعى ، وربما كانت تقام على النمط الأخير لتخليد ذكرى ذبح الأعداء وكان كل حجر يمثل عدواً قتل . وكان هؤلاء الناس يصطادون رؤوس الأعداء لكي يتزودوا بقوة روحية ، ويضيفوا أساساً روحياً لجماعتهم يساعدهم على البعث ، ومن ثم كان لدينا هنا نوعاً جديداً من عبادة النصب يشتمل على الموت ، أما الحجارة المرصوة في شكل دائرى ، فربما كانت أماكن للعبادة

أو أما كن يعقد فيها رؤوس الجماعات اجتماعاتهم ، فكانو يجلسون على صخور الدائرة لغرض انتخاب زعيم لهم أو للتشاور في أمور يجتمعهم .

وقد لاحظ هتون Hutton أربعة أنماط للآثار الحجرية بين ناجاس الأنجامي Angami Nagas ، هي الدا هو dahu وهي عبارة عن هرم مثلث الشكل ، يمكن أن يستعمل كمتراس دفاعي ضد هجوم قرية أخرى . ويسدو أن هذا الهرم كان يقام فوق مقبرة رؤساء أسلافهم ، ومن ثم كانت له قداسة خاصة ، ويرى هتون أن الهياكل الصخرية الكبيرة الموجودة في تباهاوانا كو وسا كساهوامان في بيرو تشبه هذه الأهرام المثلثة . أما التهوبا Tehuba فهي رصيف مرتفع مسطح للرقص ، قد يحاط بدائرة من قطع الصخر المكعبة الشكل ، لكي يجلس عليها الرجال ويتناولوا الشراب وغالبا ما يحدد هذا الرصيف حائط من أحد جوانبه ، حيث يصف عدد آخر من المقاعد كما قد تنحت كوي في الحائط كي يضع فيها الرجال كتوسهم . وقد يعد جناحان آخران من الخشب

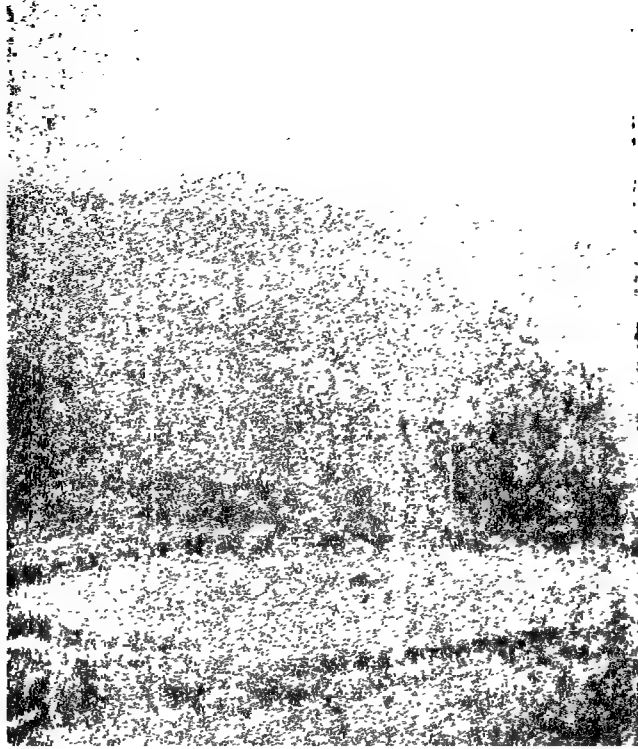


(شكل ٦٨)

بجمع هرمي لينايم

لهذا الحائط ، حتى يتسع لعدد أكبر من المقاعد . وقد لاحظ كثير من الباحثين ما يقابل الداهو والتيهونا في جزر بولينيزيا .

ولاحظ هتون أن المقطع هو hu مرتبط بالمبانى الحجرية الضخمة في جنوب شرق آسيا وبولينيزيا وبيرو . والكويهو Kwêhu كوم من التراب مسطح القمة ومحاط بحائط دائري ، وكانت قته ترصف أحيانا وربما وضع تمثال خشبي للبيت الذي أقيم الذهب لتحليل ذكراه (فهو نهب تذكاري أكثر منه قبر) ، ولذلك كانت توضع قطعة من الصخر خلف الصورة الخشبية لاستمرار تحليل ذكراه بعد تحلل الخشب ، ويوجد ما يشبه هذا الكويهو في جنوب الهند وفي شمال إفريقيا وفي إيطاليا الأتروسكية . أما النمط الرابع فهو البازي bazi وهو اسم لا يشتمل على المقطع « هو » ، وهذا النمط عبارة عن رصيف حجري مستطيل يرقى إليه بدرج ، وقد توضع مقاعد حول قته ، أو عدد من المقاعد في صفوف متدرجة أحدها أعلى من الآخر ، وقد يكمل البناء بالخشب ، وقد يقام كله من الخشب أحيانا . ويتساءل هتون ما إن كان لدينا هنا مثالا مما هو موجود في كثير من أنحاء العالم الأخرى (سانشى Sanchi في الهند ، والبارثيون في أثينا وستونهج في بريطانيا . . إلخ) لبناء خشبي عدل فيما بعد وأقيم من الصخر ، وإننا هنا بإزاء حالة لا يزال الخشب مستخدما فيها وإن هذا هو السبب لعدم وجود المقطع هو في اسمها . وقد لفت هنرى بلفور نظرا من أمد طويل إلى بعض أوجه الشبه بين الداهو عند الناجاس الأنجاس وبين الآهو ahu في جزيرة إيستر . كما توجد في جزر ماركويساس أما كن للرقص الرسمي تسمى تاهوا . وهي لا تختلف كثيرا عن المراقص التي تسمى رتيهوبا التي وصفناها من قبل . ومن ثم فربما كانت هناك حلقة بين هياكل بولينيزيا وجنوب شرق آسيا . ومن المشكوك فيه أن ترتبط هذه الحلقة بساحل أمريكا الغربي (حيث وجدت مليمي بالهير داهل) .



(شكل ٦٩)

منصة (تهبوا) فوق مقبرة

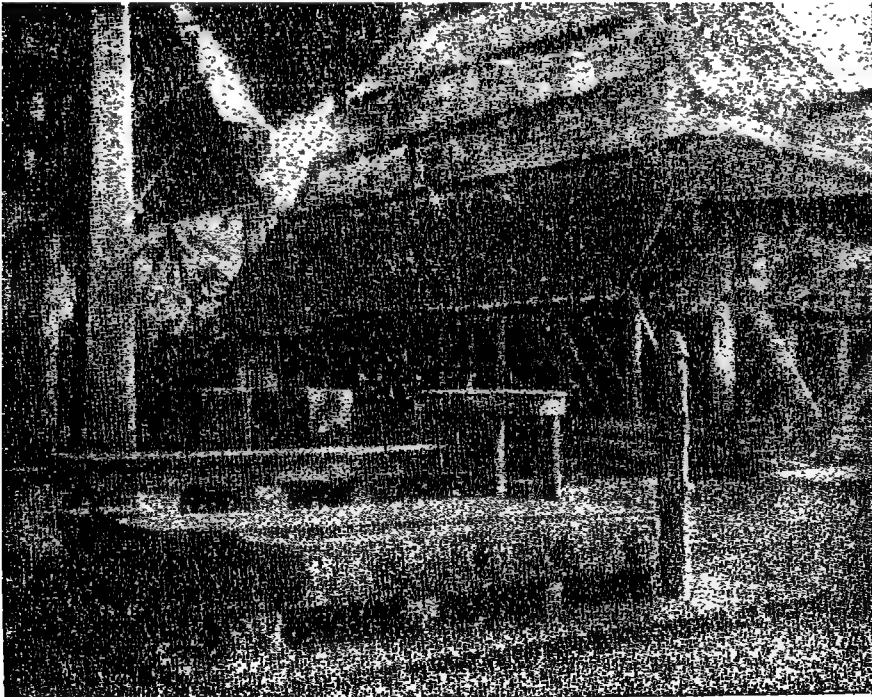
وربما وجدنا في بولينيزيا وغرب أمريكا تداخل معقد لعناصر حضارية كثيرة . تعتمد اعتمادا أساسيا على تراث حضارى جاء من جنوب شرق آسيا وسنذكر فيما بعد الطرق والوسائل التي اتبعتها تلك العناصر الحضارية في انتشارها .

وقد أدت معالجة رفات الموتى عند الخاسى فى أسام إلى تشييد طراز آخر من الآثار . إذ يحرق جسم الميت أولا . ويحفظ الرفات فى قبر منفرد . ثم ينقل بعد ذلك إلى مقبرة الأسرة . ثم أخيرا ينقل الرفات إلى مقبرة العشيرة . وقد تبعد مقابر الأسرة عن مقابر العشيرة . وعندما ينقل رفات الميت من مقبرة إلى أخرى . تمنح روحه فترة راحة فى الطريق . فى مكان مقدس يتكون من

صخرة قائمة تحيط بها عدة مقاعد حجرية تستريح فيها أرواح الموتي ، وقد تقام نصب حجرية تذكارية فيما بعد ، وقد يصل عددها إلى ١١،٩٠٧،٥،٣ يتوسطها أعلى الأحجار جميعاً . وقد تطرح بعض الصخور أفقياً فوق دعائم ترتفع إلى قدمين ونصف قدم فوق مستوى الأرض . ويقال إن الأحجار القائمة تمثل أحيانا أقرباء أم الميت من الذكور كما يقال إن قطعة الصخر المطروحة أفقياً تمثل أم العشيرة الأصلية ، وتليها جدة الأسرة ، وقد لوحظ تمثيل النوعين من ذكر وأنثى بقطع من الصخر مختلفة الأوضاع في جزيرة جلبرت في المحيط الهادى ، كما لوحظت في جزيرة مدغشقر جنوباً بغرب وإن تخصيص أقارب الأم الذكور بالذات ليدل على وجود رابطة ما بالنظام الأمي ، إلا أنه أحيانا يقال إن الصخر الأوسط يمثل الأب ، والصخور الأخرى تمثل الإخوة . وهكذا بما يدل على نظام أبوي ربما كان أقدم في رأى البعض ، من النظام الأمي ، وهذه آراء متعارضة. وتوجد في الملايو صخور مفردة من الجرائيت ذوات أرسفة مقامة أمامها . ومن العسير معرفة عمرها ، وإن كان هناك اتفاق عام على أنها سابقة لظهور أو انتشار الإسلام في هذه المنطقة ويقال إنها نصب تذكارية أكثر منها شواهد قبور .

وقد أصبحت نياس ، غربي سومطرة بجزر الهند الشرقية موضع الاهتمام نظراً لأنها لا تزال تحتفظ بكثير من صفاتها القديمة ، التي تعبه دون شك تلك الصفات التي تحدثنا عن وجودها في أسام ، ولكنها على درجة كبيرة من التعقيد والإتقان غير موجودة في هذه المنطقة الأخيرة ، وتشمل هذه المعالم القديمة عدداً كبيراً من النصب الحجرية المكونة من الحجارة المقطوعة بعناية ، ذوات الحلي المنحوتة ، وهي في الأصل نصب تذكارية ، وتعتبر الصخور القائمة ذكوراً ، بينما النائمة إناثاً . ويتكون كل نصب تذكاري عادة من زوج من الصخور ، وقد تكون الصخور النائمة مقاعد للأرواح ، أو الأحياء أحيانا عندما يجتمعون في مجالسهم . وبعض المقاعد الحجرية الموجودة خارج منازلهم

كبيرة ومغطاه بمظلة أو منحوتة بعناية . وأحيانا توضع الصخور القائمة خلف تلك المقاعد للأرواح كي تنكى . عليها . وعلى ضوء ملاحظة هتون عن المقطع « هو ، الذى ذكرناه من قبل ، من المناسب أن نضيف هنا أن هذه الصخور التى أقيمت لتكنى . عليها أرواح الموتى اسمها بلغة النياس تدور هولو . وقد تستخدم بعض المقاعد الحجرية التى تحدها نصب حجرية من جانبيها كعروش وفى هذه الحالة تشكل النصب الحجرية بعناية . وتوجد مقاعد حجرية ذوات حجارة بسيطة دون تشكيل لدى ناجا الكونياك (Konyak Nagas) التى تروى تقاليدهم أنهم وفدوا من بلاد تقع جنوب وطنهم الحالى فى شمال شرق أسام . ويحمن النياس قراهم ويرصفون الطرق الصاعدة إلى التلال . كما يفعل الناجا فى إقليم أسام . إلا أنهم أكثر دقة وعناية بعملهم من الناجا .



(شكل ٧٠)

فاوروس حجرى كبير أمام منزل زعيم - نياس الجنوبية - أندونيسيا

وينتشر البناء بالصخور الضخمة ، أو كان منتشرا في الماضي في جزر الهند الشرقية . وهذه الأبنية تشمل عادة الأنماط التي ذكرناها من قبل عند الناجا والنياس ، غير أنها ليست موجودة في معظم أنحاء بورنيو والفلبين ، كما أنه توجد فجوات أخرى في نظام توزيعها ، ومن المتفق عليه عامة أنها عنصر حضارى حملته إحدى الهجرات التي دخلت البلاد في الماضي . ويقول هاين جلدون Heine Geldern وهو أحد الثقات المتخصصين في هذه المنطقة ، إن النصب الحجرية الضخمة في أندونيسيا وجنوب شرق آسيا تقترب من نظيراتها في غرب أوروبا اقتراباً كبيراً ، ويذكر كوى الكثوس أو فتحات الباب أو ثغرات الأرواح Seelenlöcher في النصب الحجرية من نمط الدولان في كل من الإقليمين ، وإن هذا التقارب ليشير كثيراً من الصعوبات أمام من يربط بينها جميعاً ويربط بين معظمها في غرب أوروبا بالجزء الأخير من الألف الثالثة ق . م . إذ أن تاريخ النصب الحجرية في الهند يوضع عادة في داخل الألف الأخيرة السابقة للبلاد ، ولا توجد لدينا أية قرائن على أنها ترجع إلى عهد بعيد في أندونيسيا ، إلا أننا إذا تذكرنا أن النصب الحجرية ظلت أحيانا مراكز للطقوس والعبادات في أوروبا حتى العصور الوسطى وأن تاريخ تشييد كثير منها غير معروف ، فإن العلاقة الممكنة بين هذه النصب الحجرية في كل من غرب أوروبا وجنوب شرق آسيا لا تثير صعوبة كبيرة . إلا أننا يجب أن نتذكر أن رجاس Reggasse يرى أنه لا توجد أية علاقة بين النصب الحجرية الضخمة المقامة في جبانات شمال إفريقيا وتلك المقامة في غرب أوروبا ، وأن هذه الجبانات ترجع إلى القرون الأخيرة للألف السابقة للبلاد إن لم توجد في بعض الحالات أحدث من ذلك . فهي إذن تكاد تكون معاصرة ، واقتربت معظم النصب الحجرية الموجودة في جنوب شرق آسيا في تاريخ إنشائها من تاريخ معظم النصب الحجرية الموجودة في غرب أوروبا . ونستطيع أن نضيف إلى هذا أن مقاعد المجالس والرؤساء وغيرها أشياء تختص بها نصب جنوب شرق آسيا ، وأنها لا تعرف في غرب أوروبا .

ويوجد في نصب جزيرة سومبا عدد من المقاعد الحجرية ذوات النقوش الدقيقة . بينما تركت غيرها ساذجة . ويقال إن الأخيرة كانت شواهد لقبور العامة ، بينما أقيمت الأولى لتخليد ذكرى الرؤساء ، غير أن هذا من قبيل الحدس والتخمين فقط . وهناك حدس آخر يؤكد أهمية وجود زوج من الشواهد الصخرية لكل قرية في بعض المناطق مثل منهاسا (شمال سبلييز) ، واحد قائم (ذكر) وآخر نائم (أنثى) وهي تقام عادة فوق دعام صخرية .

وإذا انتقلنا إلى المحيط الهادى ، فإننا نلاحظ أولا أن فأس العصر الحجري الحديث الأسفل (ذات القطاع البيضاوى) قد انتشرت من آسيا عن طريق فرموزا والفيليبين إلى شرق أندونيسيا وميلانيزيا ، ووجدت أبعد من ذلك في تونجا ، بنيوزيلندة وفي توبواى (بحزر استرال) وفي بتكيرن Pitcairn .

وتوجد الفأس ذات الأكتاف في توبواى . مع وضع عنق الفأس عند أحد جانبيها وليس في وسطها ، ووجدت مثل تلك الفأس في بتكيرن وجزر سوسيتى . أما الفأس ذات العنق الرفيع الموجود وسط قاعدتها فهي منتشرة انتشارا كبيرا في المحيط الهادى ، بما في ذلك نيوزيلندة وجزر شاتهام وجزر نيوى (جزيرة سافيج) ، وجزيرة كوك ، وتوبواى وجزر سوسيتى ، وماركوياس ، وبتكيرن ، كما توجد أيضا في تيكوييا التي تقع شرقي الممر البحرى بين جزر سانتا كروز وجزر هيرديز الجديدة (ميلانيزيا) .

إن توزيع الفأس الحجرية الحديثة في المحيط الهادى وانتشار توزيعها في شمال بورنيو ومنهاسا (شمال سبلييز) فقط من جزر أندونيسيا ، ووجودها في الفيليبين أيضا يدل على أنها لم تصل إلى بولينيزيا عن طريق ميلانيزيا ، بل على أنها وصلت تيكوييا عن طريق بولينيزيا .

أما الفأس ذات القطاع المستطيل فهي تنتشر عامة في أندونيسيا وفي بولينيزيا .

ويوجد قليل منها في ميلانيزيا . ويبدو أن الشعب الذي اتخذها ضمن أسلحته كان يستطيع الإبحار إلى كل مكان تقريباً .

ووجد في فيجي الفخار الثلاثي (اللامع غالباً) ، غير أن فن صناعة الفخار إما أنه لم يصل إلى معظم جزر بولينيزيا وإما أنه اندثر بسرعة وراء جزيرة تونجا كما اندثر من معظم جزر هيرديز الجديدة ، ولا يوجد فخار في ساموا . إذ أن عدم وجود الفخار أو ضياع هذا الفن في جزر المحيط الهادى أمر ملاحظ جداً ، ويستعاض عن الألوان الفخارية عادة بالأوانى الخشبية والأوانى المصنوعة من الألياف المجذولة ، والقرع والأوانى الصخرية أحياناً . ومن معالم هذه الجزر أيضاً عدم معرفة أهلها بالنسيج أو ربما نسى أهلها هذا الفن . وتستخدم نساء جزر كارولينا الأنوال ، ولكن نساء جزر مارشال وغلبرت وماراها لا تعرف الأنوال . ولا يعرف النسيج في بابوا أو في ميلانيزيا إلا في جزر سانتا كروز ، حيث يقوم الرجال بالنسيج ، بينما تجمل النساء الألياف ولا ينسجن .

ومن المعالم الأخرى انتصار استعمال الفستوس والسهم على مناطق قليلة متناثرة فسكان جزر الأميرالية يعرفون الأقواس والسهم في الصيد فقط . بينما هى تستعمل استعمالاً واسعاً في جزر ميلانيزيا ، وتفتقر جزر بسمارك (التى تسمى الآن جزر بريطانيا الجديدة ، وإيرلندة الجديدة .. إلخ) إلى هذه الأسلحة ، كما تفتقر جزر كاليدونيا الجديدة إليها أيضاً ، غير أنها موجودة في سانتا كروز ، وفي تاهيتى ، وكانت تستعملها جزر تونجا في القتال ، غير أن سكان جزر ماركويساس يستخدمون الهراوات في القتال .

وينتشر في جزر المحيط الهادى الجنوبية فن دق الحاء أشجار التوت وعمل غطاءات عريضة منها (تابا) ، تستخدم في اللباس .

ويعيش في الأجزاء الداخلية من جزر بابوا وسليمان شعوب سوداء البشرة .

قصار القامة ذوات شعر مفافل ، ويسدو أنهم ، مثل التسمانيين ، ذوو نسب .
 لبقايا الأقزام الآسيويين (النجريتو) في جزر أندمان ، والملايو (السامنج) .
 والفيليبين (الآيتا) . كما توجد شعوب أطول قامة ذوات بشرة داكنة ، لهم
 تقاطيع غليظة وشعرهم مجعد أو مموج أكثر منه مففلا كما تنمو لذكورهم لحى
 ولهؤلاء علاقة نسب بالآستراليين الأصليين ، وكل من هذين الأصليين يدل على
 انتشار قديم لبعض السلالات عندما كان المحيط أدنى مستوى بما هو عليه الآن
 أى عندما كانت هناك كتل ضخمة من الماء متجمدة على هيئة غطاءات جليدية
 خلال فترات مختلفة من عصر البلايستوسين . ويرى وودجوز أن الصدء حملت
 التسمانيين من ملائيزيا . غير أن أتكنسون (١٨٩٠) قد صور بعض الآستراليين
 الأصليين من شمال كوينزلاند ، كما جمع تندال بعض صور شبيهة لهؤلاء من
 الغابات الرطبة التي تغطي منطقة بالقرب من كرينز Crains ودرسها مع بيردسل
 Birdsell ، ويقال إنها قريبة لعناصر موجودة بين السلالة التسمانية الأصلية
 البائدة . كما يقال إن التسمانيين الأصليين والآستراليين الأصليين لا يمتنون إلى
 سلالة واحدة .

والعنصر القزم الآسيوى (عنصر النجريتو) أقوى ما يكون فى بابوا ،
 بينما العنصر الأسترالى ملاحظ جداً فى ميلانيزيا ، ولا ريب فى انتشار هجرة
 بشرية من بابوا نحو ميلانيزيا ، وأن هذه الهجرة استمرت بعد انتهاء
 عصر البلايستوسين وارتفاع مستوى البحر .

فلا ريب إذن مما قلناه حتى الآن فى أن فكرة الفخار والقوس والسهم قد
 انتشرت عبر ميلانيزيا حتى فيتى ليفو وتونجا .

كما انتشرت الفأس المصقولة ذات القطاع البيضاوى خلال ميلانيزيا إلى
 فيتى ليفو وتونجا ، كما وجدت بعض تلك القنوس فى نيوزيلندا ، مما يدل على
 إمكان حدوث اتصال حضارى مع ميلانيزيا . غير أنه يجب أن نتحدث بحذر

عندما نناقش مسألة انتشار الفئوس الحجرية ، إذ قد يستمر استعمال نمط ما بين هذه الفئوس مدة طويلة ، كما أنها سهلة الحمل .

أما القول الذى ذكرنا من قبل أن فساء كاروليناجزر ميكرونيزيا يستعملنه وأن رجال سانتا كروز فى جزر بولينيزيا يستعملونه ، وأنه غير معروف فى جزر مارشال وجلبورت أو فى جزر بابوا وميلانيزيا (فيما عدا سانتا كروز) فربما انتشر من بحر سيليبز شرقا وجنوبا بشرق ، إذ أن هناك تياراً مستمراً من الماء يمر من بحر سيليبز شرقاً نحو جزر كارولينا معظم أيام السنة ، كما أن التيار الاستوائى المضاد يمر شرقاً من هذه الجزر الأخيرة ، فهذا — من الناحية النظرية — طريق يمكن نحو المحيط الهادى ، وقد لا يبدو من الخرائط العامة التيارات البحرية أن الطريق من جزر كارولين إلى سانتا كروز ملائم ، غير أنه فى الواقع يوجد نطاق يقع بين مجرى التيار الاستوائى الجنوبى والتيار ضد الاستوائى يمكن أن تسلكه القوارب . وربما كانت الرحلات البحرية من بحر سيليبز أو جزر كارولين إلى مجموعة سفن سانتا كروز مغامرة كبرى أمام البحارة من السكان الأصليين ، وأن الملاحة بإزاء الجانب الجنوبى الغربى لجزر سليمان ، طبقاً للخرائط العامة ، أقل تعرضاً للتيارات المضادة من الملاحة بإزاء الجانب الشمالى الشرقى .

من الممكن أن نقدم لموضوع النصب الحجرية الكبيرة فى جزر المحيط الهادى بما قلناه عن سماتها الحضارية القليلة العامة ، فلقد وجدت نصب حجرية من هذا القبيل فى كل من ميلانيزيا وبولينيزيا ، وإن كانت كل منهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كبيراً فى نصبها الحجرية ، وقد درس لا يارد نصب هيردين الجديدة بشىء من التفصيل ولا سيما تلك التى وجدها فى جزيرة مالىكولا . وقد لفت الأنظار بصفة خاصة إلى وجود قطع حجرية مفردة (Monoliths) قائمة يرى أنها تمثل الذكر ، ووجد دولمن (قطعة مسطحة من الصخر قائمة فوق صخرتين منتصبين) تمثل الأنثى ، وتتصل الأولى بمبدأ التسلسل الأبوى ، بينما

تصل الثانية بمبدأ التسلسل الأسمى ، غير أنه قد يوجد هذان الخطان معا ، كما
قد توجد أيضا مقابر مبنية .

ووجد بالقرب من ساحل جنوب ماليكولا قطع حجرية مفردة ودوائر
من القطع الصخرية الصغيرة ، كما قد نحتت بعض الصخور المفردة لتمثل وجوها
بشرية ووجدت في وسط شمال هذه الجزيرة ، على الجانب الغربى لبرزخ صغير
يربط شمال الجزيرة بجنوبها دوائر صخرية ودهاليز تحف بها صخور قائمة .
أما الجزر الصغيرة التى تقع بالقرب من الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة ماليكولا
فوجدت بها دولينات وصخور مفردة في بعض مواضعها ، وأرصعة مبنية
من الصخر ، غير أنه لم توجد بها دوائر من الصخور . أما في شمال ماليكولا
فقد وجدت أصنا أو صخور مفردة ودولينات . ويبدو أن الصخور المفردة
قد سبقت الدولينات في الظهور في آتشين Atchin حيث قد تأسس نظام
أبوى قوى ، وحيث تحتفظ الأسر بقوائم نسب طويلة ، بينما كان هذا النظام
الأبوى أمراً مستحدثاً في جزيرة فاو (إحدى الجزر الصغرى) ، ومن ثم كان
عدد الدولينات قليلا وقوائم النسب قصيرة . أما النصب الحجرية المميزة
لجزر سبريتوسانتو وبانكس فهى من نمط الدولينات . وتسمى الطقوس
الرئيسية بها بالماكى Makki وهى قائمة على أساس فكرة البعث . ومن
المحتمل أن يكون النظام الأبوى للجمع قد امتد من تلقاء نفسه شمالا من
جنوب ماليكولا . ويروى سكان هذا الإقليم أن شعبا أبيض البشرة وفد
إلى هذه الجزيرة يحمل إليها الحضارة ثم غادرها وأقلع عنها ، وقد دفن أحد
حملة الحضارة هؤلاء . في جنوب غرب جزيرة ماليكولا في قبر مستدير ،
وإذا قارنا هذا القبر بمثله في أوروبا ، وجدنا أنه مقبرة مستديرة ، ومزودة
بمقعد حجرى يجلس عليه هذا الزعيم ، موجود داخل دولن يغطيه كوم من
التراب وتتناثر فوقه قطع من الحجارة .

من الممكن الوصول إلى جزر كارولين كما قلنا عن طريق تيار يتجه من

بحر سيليبيز وتوجد في هذه الجزر نصب حجرية ضخمة . ويوجد في جزيرة نان مائال الصغيرة التي تحف بالجانب الشرقى لجزيرة بوناب وهي أم جزر كارواين ، مدرج من كتل البازلت ، التي ترتفع أكثر من ست أقدام فوق مستوى الماء الضحل ، وفوق هذا المدرج بناء من الكتلة الحجرية الضخمة ، به « صخور قائمة وأخرى نائمة » ، (أى صخور رأسية وأخرى أفقية) . وهناك بهو يؤدي إلى هيكل يرتفع ٢٥ قدما على الجانب الأيسر ، ويبلغ طول هذا الهيكل ١٨٥ قدما وعرضه ١١٥ قدما ، ويبلغ سمك جدرانه ١٥ قدما ويبلغ ارتفاعه في بعض جهاته ٤ قدما . وهناك سلالم تؤدي إلى هيكل آخر مقام في مدرجات . ويبلغ ٨٥ قدما وعرضه ٧٥ قدما ، وسمك جدرانه ٨ أقدام وارتفاعه ١٥ — ١٨ قدما . وداخل هذا الهيكل الداخلى قبر له قبو ، يشوى فيه ملوك بوناب .

أما هياكل بولينيزيا فتتكون من مصاطب حجرية ومنابر صخرية ، وهي تشبه الهرم المدرج الناقص ، ويمكن أن تقارن بهياكل المسايا في أمريكا الوسطى وهياكل بيرو القديمة .

أما ساموا فقد شيدت بعناية شواهد صخرية مثلثة الشكل فوق مقابر رؤسائها . وقد تغطي تلك الشواهد بالحصى الأبيض (الكوارتز أو الصوان) أو القواقع البيضاء .

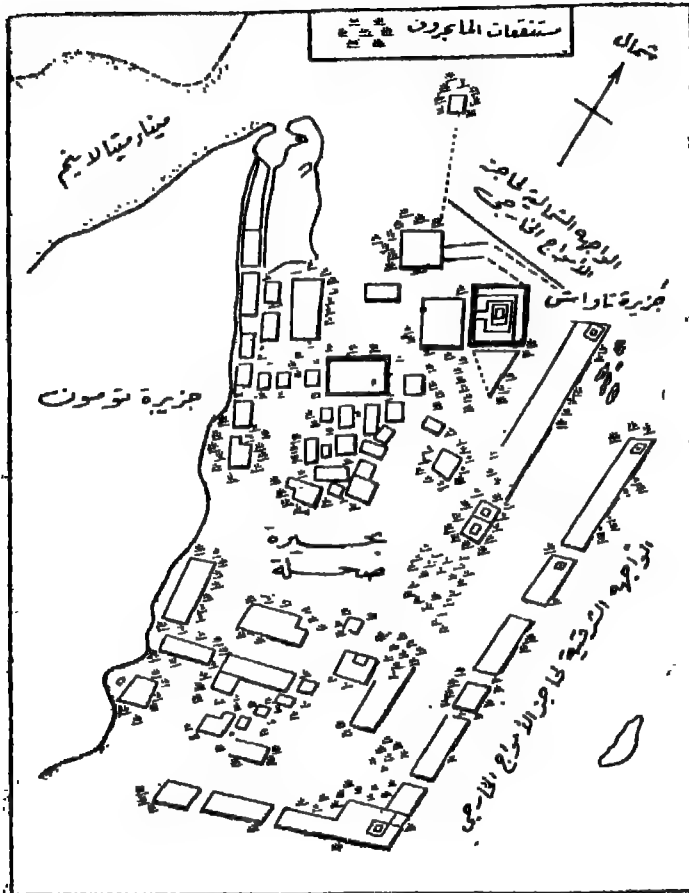
وتوجد في تونجا أكوام من الصخور المرجانية المسطحة التي كان يحيط بها حائط صخري فوق المقابر ، وكان لبعض المقابر كتل صخرية موضوعة على شكل مدرج يرتفع إلى ١٥ — ٢٠ قدماً . كما وجد في تونجا شواهد صخرية ثلاثية ، مكونة من قطعتين رأسيّتين من الصخر وثالثة أفقية .

وتوجد في كثير من الجزر آثار صخرية تعرف باسم مراى Marae, Marai



شکل (۷۱)

ضد کبیر — نان تاواش



شكل رقم ٧٤ تان مائال ، احدى الجزر على الجانب الشرقي
لبنان (جزر كارولين)

وهي تتكون عادة من حجرات مستطيلة ، لها سور مكون من الصخور القائمة ، التي تترك بينها فجوات صغيرة .

أما في جزيرة توبواى (في جزر أسترال) فيكتفي بثلاثة أضلاع المستطيل الصخري ، أما الضلع الرابع فيترك فراغاً وهو عادة يواجه أكبر صخرة في السور ، أما في جزيرة راروتونجا (بجزر كوك الجنوبية) ، فإن الحجرة المستطيلة لا يحيط بها سور صخري ، ولكن يحيط بها مقاعد صخرية ذوات مساند خلفية مصفوفة في صفوف كما يوجد بها صخرة تستخدم كذبح للضحايا البشرية ، وصخرة مرتفعة تستخدم في الطقوس .

وكان المستطيل المقدس في تاهيتي ، يحيط به سور من ثلاثة أضلاع أما الضلع الرابع له فهو هرم مدرج مثلث الشكل ، وكانت شواهد الصخر التي ترمز لروس العائلات مصفوفة في صفوف داخل تلك الحجرة ، التي كانت تستخدم كمقاعة للاجتماعات والقضاء ، وتوجد في تاهيتي أيضاً حجرات صخرية أكبر تسمى آهر Ahu وهذه تشتمل على هرم مدرج ، يصل بعضها أحياناً إلى ١١ درجاً وطول قاعدته ٧١ متراً وعرضها ٢٦ متراً وارتفاعه أكثر من ١٣ متراً ، ويبلغ طول الآهو الكبير في ماهايايا ١١٠ أمتار . كما يوجد في هرمة قبر مقدس خاص ، وتوجد في تاهيتي وماركوياس وجزر إيستر ما يمكن أن يعتبر أعظم الهياكل والآثار الصخرية في بولينيزيا .

وتوجد في ماركوياس بقايا مقابر مبنية من قطع البازلت الصخمة ، وعليها تماثيل حجرية ، وقد وصف . د . كريستيان عام ١٩١٠ عدداً كبيراً من الجزر الصناعية الساحلية ، التي تحيط ببعضها أسوار يصل ارتفاعها إلى ٣٠ قدماً وبسمكها ١٠ أقدام ويسمى بعض آثارها الصخرية باسم آهو أيضاً وبعضها يسمى ميئ Me'ae كما توجد بها أيضاً هياكل من نمط النوهوا ، وهي أماكن للرقص وغيره من الطقوس ، وتتكون هذه المراقص من مسطحات مرصوفة وأرصفة ترتفع درجاً بعد درج يجلس عليها المتفرجون أحياناً حول أحد أضلاع المستطيل أو حول جميع أضلاعه .



(شكل ١٣)
تمثال قديم من ماركويساس

وأور جزر إيستر أحيانا على شكل مثلث ، كما لو قطع الشكل المستطيل التقليدي إلى نصفين بخط القطر . وقد يرتفع مدرج طوله ١٠٠ متر وعرضه ٣ أمتار ارتفاعا تدريجيا حتى يصل إلى ارتفاع ٥ أمتار ، ثم يصل إلى حافة شاهقة ، تواجه جرفا مرتفعا يهبط فجأة إلى البحر ، وتقوم تماثيل صخرية ضخمة فوق تلك المصاطب .

وتوجد النانجا Nanga في جزر فيتي ليفو ، وهي حجرات مستطيلة يحيط بها سور من الصخور القائمة ، تتخلله فتحات ضيقة كثيرة ، وتقسّم الأهرام المدرجة الناقصة تلك الحجرة إلى ثلاثة أقسام (طبقاً لوصف أحد الدارسين) .

وإن انتشار النول إلى جزر كارولين وساتنا كروز وعمل الرجال فقط عليه (وربما دل هذا على أنهم تعلموا ذلك من بحارة مهاجرين) ليدل على استخدام تيار بحري للإبحار به من بحر ليبيز إلى أرخبيل كارولين ، غير أنه يستحسن ألا ننسرك في الطريق الذي سلكه البحارة إلى ساتنا كروز . وربما انتشرت الفأس ذات الأكتاف من سواحل بحر سبليبيز عن نفس الطريق إلى بولينيزيا ، حيث تحتل مركزا هاما بين آثار عدد كبير من الجزر (انظر صفحات ٣٧٩ — ٣٨١) . إلا أنها لم توجد في جزر كارولين ، حيث استخدمت حافات القواقع البحرية الحادة .

وقد منح النرويجي هيراداهل^(١) Heyerdahl مسألة البحث عن الحضارة البولينية روحا جديدة وذلك بأن قام برحلته الجريئة فوق أحد الأاطواف البدائية المصنوعة من البازا وهو خشب لين يتشرب الماء ينمو بكثرة في غابات أمريكا الجنوبية الاستوائية . وقد اتبع هذا النرويجي طريقة أهل بيرو القدماء في صناعة هذا الطواف فربط كل الخشب طوليا ببعضه البعض الآخر ، بحبال من القنب ، ثم بتلته بأعواد البوص ، ثم وضع ألواحاً من

(١) كون تبيكي . . . مجلة الألب كتاب .

خشب الأشجار الصنوبرية بشكل عرضي على السكتل الوسطى ليتم صنع هيكل القارب ، ثم صنع له عمودا للشرع من خشب المانجروف الصلب ، كما اتخذ له مجدافا من هذا الخشب أيضا ورفع شرعاه فوق القارب ، وبذلك لم يستعمل مسمارا معدنيا أو سلكا واحدا ، حيث إنها يمكن أن تتعرض للصدأ في البحر وقد أتم هذا الرويحي رحلته البحرية فوق هذا القارب العجيب من كالاول إلى تواموتو في الجزر المنخفضة ، أى مسافة ٤٠٠٠ ميل ، متبعا تيار بيرو ، والتيار الاستوائي الجنوبي وفرعه الجنوبي نحو الجزر المنخفضة . وبذلك أيد هيراداهل تأييدا كبيرا إمكان خروج هجرات من الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية إلى المحيط الهادى ، ولكنه يشك في إمكان قيام البولنيزيين برحلة في الاتجاه المضاد ، في وجه الرياح والتيار المائى ، وقد لاحظ أن البطاطا التى تسمى كومانرا تنتشر انتشارا واسعا في بولينيزيا ، وهو يقول إنها جاءت من أمريكا الجنوبية . ويرى أيضا أن فكرة المباني الصخرية الضخمة الموجودة في تياهوآناكو فوق هضاب بيرو قد انتقلت من أمريكا الجنوبية إلى جزر المحيط الهادى .

وعندما ناقش هيراداهل مغامرته البحرية ، وضع هذا المؤلف نقطة أخرى للبحث إذ قال إن الملاحين ربما كانوا قد اتبعوا تيار كوروسيو الذى يمر باليابان ويدور إلى سواحل أمريكا الجنوبية ، حيث تنمو على سواحل كولومبيا البريطانية غابات الصنوبر الضخمة وهذه أصلح ما تكون لنحت قوارب مستطيلة ، وتفوق في ذلك أية أخشاب موجودة في جنوب شرق اسيا . ولابد أنها استخدمت في الرحلات البحرية إلى هواى ومنها إلى جزر بولينيزيا عامة ، وربما اضطرت إلى ذلك جماعة لقيت الهزيمة على يد أعدائها . ويرى هيراداهل أن هذه الرحلات تمت حوالى عام ١٢٠٠ م ويرى أن هذه الهجرات ألحقت الهزيمة بهجرات سابقة كانت قد غزت الجزر وجاء أصحابها من بيرو فوق أرماث كالتى سافر عليها هيراداهل .



(شكل ٧٤)
سلاح من القواقع - جزر كارولينا

وقد اهتم هيراداهل كثيرا بمسائل أصول الحضارة البولينية ، غير أن مشكلات تلك المسألة لم تحل بعد . ويدور من المحتمل — على ضوء معلوماتنا الحالية — أن البحارة قد سلكوا السبل الآتية : عن طريق ميلانيزيا ، وعن طريق بحر سبلييز وجزر كارولين ، وعن طريق غرب أمريكا ، وربما زار البولينيزيون ما يحاورهم من جزر ميلانيزيا وميكرونيزيا .

ومن المحتمل أن أسلاف الأستراليين الأصليين قد وصلوا أستراليا عندما كان مستوى البحر منخفضا في بعض فترات البلايستوسين ، وربما في أواخره ومن الممكن أن يكون أصحاب الشعر المفلقل قد انتشروا في بابوا وأجزاء من ميلانيزيا في عصر البلايستوسين أيضا . وقد ذكرنا من قبل رأى وود جونز الذى يقول إن التسمانيين كانوا شعبة من الميلانيزيين ، غير أن الرأى السائد يقول إن التسمانيين هجرة سابقة دخلتها من أستراليا ، وربما وصلت بعض سلاسل قليلة إلى أستراليا قبل أن تنفصل عن القارة الآسيوية بارتفاع مستوى البحر ، ويدل على هذا معرفة الأستراليين الأصليين في شبه جزيرة رأس يورك بالقوارب ، ووجود بقايا ضئيلة لما يمكن أن يعتبر حضارة حجرية حديثة بينهم .

والرأى السائد أن انتشار الحضارة الحجرية الحديثة بكامل مميزاتها من آسيا إلى أندونيسيا سبق الألف الثانية ق. م. وأن فن بناء الهياكل الصخرية الضخمة قد انتشر في جنوب شرق آسيا وأندونيسيا في الألف الأخيرة السابقة لليلاد . ويبدو أن هذا الفن قد صحب الرحلات البحرية الكبيرة في غرب أوربا ، ولنا أن نظن أن المقدرة المعمارية التى أتت بهذه الهياكل كان يصحبها أيضا مقدرة فنية في نواح أخرى مختلفة ربما كان منها أيضا بناء السفن والملاحة . ومن ثم فليس هناك أى داع لى نظن أن جزر المحيط الهادى البعيدة قد استقبلت هجرات بشرية في عهد أبعد من عصرنا الميلادى

إن لم يكن هذا في حد ذاته عهدا بعيدا . ومن ثم فإن التواريخ التي اقترحها هيراداهل لا غبار عليها ، ومن أحسن الرحلات المعروفة لنا ، رحلات أساطيل الماوري إلى نيوزيلندة في القرن الرابع عشر الميلادي .

ويبدو أنه لا ريب في أن فنون الفخار والنسيج لم تعرف قط ، أو أنها نسيت من عهد بعيد في بولينيزيا وأن البولينيزيين قد تقدموا في فنون طرق لحاء شجر التابا وصنع الملابس منه ، وصنع ملابس الفراء ، وبناء السفن ونحت الصخر والخشب رغم أنهم لم يستطيعوا المحافظة على عددهم داخل المجتمعات الصغيرة المتناثرة في الجزر . وليس من المؤكد - في العهد السابق للأزمة الحديثة - أنهم استطاعوا أن يحسموا أنفسهم من خطر التناقص ، رغم أن بعض الجزر كانت مزدحمة بالسكان (بالنسبة لحالتهم الاقتصادية) عندما بدءوا يتصلون بالسفن الأوروبية . وقد جلبت تلك السفن الأوروبية أوبئة لم تعرفها جزر المحيط من قبل ، فارتفعت نسب وفياتهم ولا سيما بعد انتشار الأمراض التناسلية بينهم ، ولذلك ومن أجل هذا السبب فقط نقص عدد سكان الجزر فترة من الوقت ، ولقد أضيف إلى هذا العامل ، عامل آخر لم يفهم أثره بعد فهمها حقيقيا ، فقد كان سكان الجزر يعيشون في ظل نظام اجتماعي واقتصادي معين ، في حالة اكتفاء ذاتي ، تحوطه طقوس محلية ، قضى عليه النظام الأوروبي الجديد ، بوجهة نظره المادية التجارية الجديدة . وقد تأثرت نسب المواليد بهذه الثورة الاجتماعية والبيولوجية التي لم يهبأ لها السكان الأصليون بعد ، فنقصت نقصا ملحوظا ، ويقال إن هذا النقص في نسب المواليد لدى الماوري في نيوزيلندة قد توقف ، وإنهم بعد أن امتزجوا امتزاجا قليلا بالأوروبيين قد بدأت نسب مواليدهم في الارتفاع ، غير أن هذا لا يمثل الحال في أجزاء كثيرة من بولينيزيا وميلانيزيا ، حيث اختفت المهارات القديمة أمام البضائع الأوروبية ، وحيث أصبحت التجارة أكثر أهمية من ذي قبل .

الفصل الحادي عشر

إفريقية جنوب الصحراء وجنوب الحبشة

أظهرت الحفائر الحديثة في إفريقيا أنماطا من القردة العليا وأشباه البشر (انظر الفصل الأول) ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود الدكتورين بروم ودارت في جنوب إفريقيا ، بينما أضافت جهود الدكتور ليكي في كينيا الكثير من المعلومات الخاصة بالإنسان القديم وعمله . ولقد تعدل كل ما كتب عن العصر الحجري في إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ، كما كان تأريخه موضع النقاش باعتبار أن أنماط الحياة الحجرية القديمة قد استمرت في بعض أنحاء هذه القارة زمنا طويلا بعد أن انتهى ذلك العصر في أوروبا .

ولكن عندما ننتقل إلى أواخر العصر الحجري، ويبدأ انتشار إنتاج الطعام في الأقطار التي تقع بين المدارين في أفريقيا وفي جنوبها ، تقابلنا بعض المشكلات التي لا تزال غامضة .

فقد جمع عدد صغير نسبيا من آلات العصر الحجري الحديث من نيجيريا ومن حوض الكونغو ، ومن جنوب شرق إفريقيا ، ولكنها ليست شائعة وليست موزعة توزيعا عاما في هذه الأجزاء . وقد ظل رأس سهم صواني مشرشر جيد القطع أداة منعزلة وحيدة حيث وجدت في أومتالي (جنوب شرق إفريقيا) . ولو عثر على مثل هذه الأداة في بريطانيا لكانت دليلا جيدا على وجود شعب على أبواب عصر البرنز . إلا أن إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والحبشة لم تعطنا دليلا على إعداد أو استخدام أو استيراد البرنز في عصور ما قبل التاريخ . فلم يوجد ثمة عصر سابق للبرنز - على ما يبدو - في هذا الإقليم . ويعتبر القصدير من منتجات نيجيريا الحديثة الهامة ، كما أنه استخرج من هضبة باوتشي Bauchi عدة قرون ، وتعتبر شمال روديسيا من أهم مصادر النحاس في العالم ، إلا أنه ليس لدينا دليل على أن الناس خلطوا هذين المعدنين لصنع البرنز في عصر ما قبل التاريخ أو في العصر السابق للحديد في إفريقيا جنوبي الصحراء .

وتوجد خامات حديدية رديئة النوع في كثير من مناطق إفريقيا. فأكاسيد الحديد معرضة لأن تصعد ذائبة في الماء إلى سطح التربة في أثناء الفصل الجاف الطويل في الإقليم الحار ، حيث تبخر المحاليل وترسب أكاسيد الحديد وخصوصا إذا وجد بها جير ذائب ، فإنه يساعد على تكوين قشرة على السطح أو بالقرب منه ، ثم تهطل الرياح الموسمية وتجرف معها المواد غير الحديدية ، فلا تكاد تنقص من القشرة الصلبة شيئا ، وهكذا تتوافر خامات الحديد حتى ولو لم توجد مصادر كثيرة له .

ويحتاج الحديد لصناعته إلى تسخينه مدة أطول مما يحتاج إليها النحاس ولكن ما إن تعد النار إعدادا جيدا ، وتغذى بحطب الحطب ، حتى تصبح عملية صهره سهلة فلا يتضمن تنظيما تجاريا أو مهارة كالتى تتضمنها عملية صناعة البرنز من صهر القصدير والنحاس ، اللذين يجابان عادة من أماكن بعيدة حيث يصهران في مكان واحد .

وقد وجدت نظريات ترى أن صناعة الحديد قد نشأت في إفريقيا منذ عدة آلاف من السنين ، غير أن الأدلة على ذلك ليست كافية ، ويبدو أنه من المستحسن أن تتبع النظريات السائدة من أن صناعة الحديد ، غير قطع الحديد الساقطة من الشهب ، قد أصبحت هامة جدا بين الشلوبيين Chalybes في الأناضول بعد منتصف الألف الثانية ق.م. وما إن توصل الناس إلى طريقة بنفخون بها الهواء في الفرن ، حتى أمكن انتشار تلك الصناعة ، بحيث إنها لم تتأخر طويلا في الوصول إلى إفريقيا المدارية . وإلى جانب هذا فإن الحديد كان أوسع انتشارا بين الإفريقيين شمال غابات الكونغو ، أكثر مما كان بين الإفريقيين في جنوب إفريقيا (على الأقل قبل الاتصال بالأوروبيين) وهذا وحده يدل على أن الحديد ليس عريقا جدا في إفريقيا . ويضاف إلى هذا أن الحدادين في إفريقيا عبارة عن جماعات متجولة في الغالب ، ينظر

إليهم أحيانا على أنهم سحرة ، أو على أنهم غرباء ، أى ينظر إليهم بحذر وشك . إلا أننا يجب أن نذكر أن سيرليونارد وولى قد وجد رأس ربح من الحديد فى قبر يرجع إلى الأسرة الثانية عشر فى بوهين ، شمال الجندل الثانى بقليل ، وقد تساءل ما إن كان مصدره الحدادون المتجولون فى إفريقية المدارية قبل ١٨٠٠ ق . م .

لقد تعرض تغلغل فكرة إنتاج القوات جنوباً فى إفريقية إلى عدة صعوبات فاقده أكد الفيلسوف المسلم ابن خلدون فى القرن الرابع عشر عدم وجود مدن فى الإقليم الحار (من إفريقية) وأرجع عدم وجود مدن فى هذا الإقليم إلى أثر الحرارة الشديدة فى عقول الناس . ولا شك فى أن الإنسان يرتاح عادة ويصبح فى أحسن بيئاته إذا كانت درجة حرارة النهار تراوح بين ٦٠° - ٧٠° أو ٧٢° فى حوالى ١٥°م - ٢١°م أو ٢٢°م مع فترات باردة من حين إلى آخر . هذا يعنى أن النوع البشرى (الإنسان العاقل) قد نشأ فى إقليم معتدل نسبياً ، وأنه كان من الصعب عليه أن يتلاءم مع بيئة مدارية حارة ، ولا سيما إذا كانت تجمع بين الحرارة والرطوبة ، ومن ثم كانت عملية ملامته بهذه البيئة شاقة وربما لم تكن كاملة ، وعلينا أن نذكر نشاط القرية الإفريقية عند غروب الشمس وفى أثناء الليل . ويبدو أن جسم الإنسان يتعرض لكثير من الأمراض فى البلاد المدارية ، التى تعج بالحشرات والأوبئة المختلفة ، وإلى جانب ذلك كانت توجد بعض العقبات . فالقمح والشعير لا يصلحان للإقليم الحار الرطب ولم ينتشر بعيداً جنوبى الصحراء الكبرى فى إفريقية . أما الدخن فقد انتشر فى إفريقية فى طول القارة وعرضها وأصبح المحصول الإفريقى التقليدى ، وربما نشأ الدخن كنبات مزروع فى جنوب غرب آسيا ومصر ، إلا أن هذا رأى لم يصبح بعد نهائياً : فهو لا يحتاج لمهارة فى زراعته .

كما يحتاج القمح ، ولا يغل محصولا وفيرا مثله . فقد اعتمدت زراعة القمح في مصر وجنوب غرب آسيا منذ أقدم العصور على الري ، ونجحت زراعته في الأراضي التي تدمرها فيضانات سنوية منتظمة ، مصدرها التلوج الذائبة كما كانت الحال في سومر وأكاد أو أمطار الحبشة الموسمية كما هي الحال في مصر . ولم تسمح الظروف المناخية في إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى إلا بالحد الأدنى لشأ الساليب زراعة قائمة على الري ، بل إن أعمال الري لم تبدأ في إفريقية المدارية إلا في القرن العشرين . ولقد أدت أعمال الري وضبط المياه إلى إنشاء نظام اجتماعي سليم منذ أقدم العصور في مصر ، وهذا عامل هام في التطور فقدته إفريقية المدارية فظلت الزراعة الإفريقية على مستوى منخفض ، وربما ساعد انتشار زراعة الأرز المغمور في الماء كثيرا في إصلاح تربة إفريقية ونظامها الاجتماعي . ويبدو أن موارد السكان الأصليين في إفريقية المدارية من المواد الغذائية قليلة وضئيلة القيمة ، فنحن لا نكاد نعرف من هذه الموارد سوى أصناف ضئيلة وقليلة القيمة من البام والفول . ويضاف إلى هذا حقيقة جغرافية هامة وهي أن الطريق إلى إفريقية جنوبي الصحراء أو الحبشة لا بد له من أن يخترق نطاقا صحراويا جافا أو مناطق تغطيها المستنقعات والسدود ، ومن ثم فلا يمكن أن تسمح هذه الظروف إلا لعدد ضئيل من السكان بالتغلغل داخل إفريقية ، ربما اضطروا إلى الاعتصام فيها تحت ضغط شعوب أخرى أقوى عدة وعددا . ولم تزر تلك البلاد سوى رحلات بحرية قليلة من حين إلى آخر عندما تحسنت وسائل بناء السفن ، ربما منذ الأسرة الثالثة المصرية القديمة ، إلا أن هذه السفن ظلت عدة قرون لا تغامر قط بالإبحار جنوبي طرف البحر الأحمر الجنوبي أو خليج عدن . وقد وصلت الرحلات البحرية حول القارة الإفريقية في العصر القرطاجي من البحر المتوسط إلى خليج غانة جنوبا بغرب .

إلا أن التجار القدماء — على ما يبدو — كانوا يرغبون في الرحلات البحرية لكي يعودوا بمحصولات معينة ، ومن الواضح أنهم لم يتركوا سوى آثار ضئيلة في حياة إفريقية في الإقليم الحار الرطب . ومن ثم فقد كان ينقص إفريقية المدارية الفوائد التي كان يمكن أن تعود عليها من دخول آراء جديدة من بلاد أخرى ، بينما كانت جنوب شرق آسيا تتقبل مؤثرات كثيرة من الصين .

ولابد وأنه كان من الأمور النادرة أن تدخل إفريقية جنوبي الصحراء محاصيل غذائية في العصور القديمة ، كما كان من الأمور الصعبة توطيد دعائم نبات غذائي جديد في إفريقية المدارية . ومن أمثلة المحاصيل الغذائية التي نجح إدخالها في إفريقية ، الدخن والموز ، وذلك قبل أن تتأثر إفريقية بالأوروبيين . ويبدو من المحتمل أن يكون العرب هم الذين أدخلوا الموز إلى إفريقية . كما جابه إدخال حيوانات مستأنسة إلى هذه البلاد صعوبات كبيرة ، وربما كانت عائلة الوعل — من الحيوانات الأصلية في البلاد — أقلها نفورا ، ورغم أنها قريبة من الثيران ، إلا إنها سريعة العدو ، ومن المشكوك فيه أن تكون قد استأنست قديما لدرجة تجعلها مفيدة فعلا للإنسان ، وقد وجدت في جبانة قديمة في هليوبوليس ترجع إلى حوالي الألف الثانية ق . م . ستة مدافن لغزلان صغيرة ، ومعها بعض القرابين ، فقد كانت هذه الغزلان حيوانات مقدسة ، ولا نعلم ما إذا كان الإنسان يقوم بتربيتها أم لا .

فإذا استبعدنا عائلة الوعل ، فإننا نستطيع أن نقول إنه كان لابد من إدخال الحيوان المستأنس إلى إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى مع الهجرات من الشمال إلى الجنوب . ويبلغ من اعتماد الماشية على الماء ، أن طرق الهجرة التي أدخلت تلك الحيوانات كانت محدودة للغاية بل إن معظم الحشائش في إفريقية المدارية خشن ردي . النوع تنقصه فيتامينات حـ بصفة خاصة ومن ثم لا تنمو الماشية نموا حسنا . كما أن الحشائش الطويلة الخشنة كثيرة الألياف قليلة

البروتينات ، ولما كانت الماشية تحتاج إلى قدر يتراوح بين ١٥ - ٢٠٪ من البروتين في طعامها فإن تغذيتها تغذية جيدة تستلزم أن تستهلك كميات كبيرة من هذه الحشائش الطويلة التي تنمو في كثير من جهات إفريقية المدارية . وفوق ذلك فإن هذه المنطقة موبوءة بالحشرات والطفيليات وغيرها ، وهذا يستلزم بذل عناية كبيرة في تربية الماشية حتى تنجح وتصبح الماشية مفيدة فعلا للإنسان وتستخدمها في العمل . ونستطيع أن نقول ونحن على شيء من الاطمئنان إن إفريقية المدارية وجنوب إفريقية لم تعرف استخدام الحيوان في العمل قبل أن يتصل الإفريقيون بالأوروبيين حديثاً إلا في بعض مناطق قرب النيجر . والضأن أصلاً من حيوانات الأقاليم المعتدلة المائلة للبرودة ، ومن ثم فهي لا تزدهر في المناطق الاستوائية الإفريقية ، ومن ثم فهي قليلة القيمة في منطقتنا ، هذا بغض النظر عن إدخالها في جنوب إفريقية . أما الماعز فقد استطاعت أن تلائم نفسها مع الظروف المدارية ملائمة حسنة ، وهي ذات أهمية في بعض أجزاء إفريقية ، وكذلك الدواجن إلا أنها لم يحسن تربيتها بعد . ولم يكن للجمل تاريخ في مصر قبل العصر الإسلامي (القرن السابع الميلادي) . رغم أنه عرف في بلاد العرب قبل ذلك بنحو ١٧٠٠ سنة . إلا أننا يجب أن نذكر أنه وجدت بعض عظام قليلة تعرف إليها العلماء بأنها عظام جمل ، مع بعض آثار قبل الأسرات (أي قبل ٣٤٠٠ ق.م) في مصر العليا . وأن امتدادها الضئيل داخل إفريقية جنوبي الصحراء أمر حديث جداً . أما الحصان فقد وصل مصر بعد الهكسوس أو ملوك الرعاة في القرن السابع عشر ق.م . ولم يتوغل إلى إفريقية المدارية وجنوب إفريقية فيما عدا الحبشة حتى دخول الأوروبيين حديثاً إلى إفريقية ، واستخدامهم للخيل في جنوب إفريقية .

ومن ثم لم تسهم الحيوانات المستأنسة إلا مساهمة محدودة جداً في مساعدة الإفريقيين . ومن المحتمل أن توغل المحراث توغلاً ضئيلاً جداً إلى إفريقية

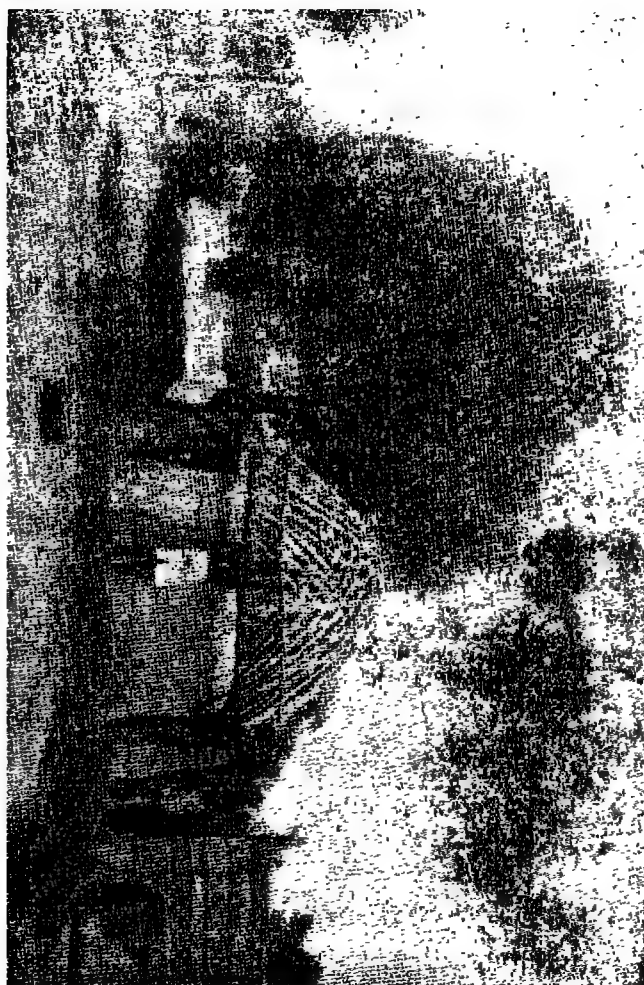
جنوب الصحراء في نيجيريا قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان أمراً حديثاً جداً .

فزراعة إفريقية المدارية الأولى إذن كانت لا تعرف الري أو المحراث ، ومن ثم كانت على مستوى منخفض من حيث الأدوات والمهارة والتنظيم الاجتماعي . وظلت على هذا المستوى بعد ذلك ، وعلى كل حال فإن الحرث كان جديراً بأن يعرض التربة إلى الاحتراق تحت أشعة الشمس المحرقة في كثير من أنحاء إفريقية المدارية وفي إفريقية شبه الجافة خارج المدارين . وهناك صعوبة أخرى ، فبينما تضيف الماشية سماداً طبيعياً إلى مراعيها ، فإن الفل الأبيض يلتهم فضلاتها في البلاد المدارية ، ثم تأتي الأمطار المدارية بعد ذلك فتجرف ما تبقى منها . أما في الفصل الجاف فإنها سرعان ما تتحلل وتذروها : الرياح ، وكان لابد للزراعة البدائية أن تكون نتيجة لبعض العادات المدمرة . على طول المدى . فقد جرت العادة بأن تنظف قطعة الأرض بتحطيم الأشجار وقطعها بالفأس وحرقها ، ثم تزرع بضعة أعوام قليلة ، ثم تترك بعد ذلك فترة من الزمن ثم يعود إليها الزراع مرة أخرى ويعيدون تنظيفها وزراعتها . وكثيراً ما تزيد مساحة الأرض المنظفة على المساحة المنزرعة فعلاً . ومن ثم تترك مساحة من الأرض عارية من الغطاء النباتي ، فتجرف الأمطار الغزيرة التربة وتتعرى الأرض ، وهذا أمر كثير الحدوث إذ تهطل الأمطار غزيرة عادة كل يوم بعد الظهر ، أو ربما تتعرض الأرض العارية للبحر الشديد الذي يؤدي إلى رفع محلول الجير والحديد إلى السطح ، فيتبخر الماء ويترسب الجير والحديد ويكونان قشرة صلبة . ومن ثم يتكون ما يسمى بالصحراء ذات الدروع المصفحة حيث كانت تنمو الحشائش . أو أرض كثيرة الشقوق . والخفر معرأة من تربتها التي حملتها الأنهار وجرفتها إلى البحر . بل إنه حيث لم تحدث مثل هذه الكوارث للأرض ، فإن إعادته حرق الحشائش عاماً بعد عام ، لا يدع مجالاً إلا للحشائش الصلبة التي تحتفظ بمخزون من الطعام

كى تنمو مرة أخرى ، وهذه الحشائش كثيرة الألياف وقليلة القيمة كمرع حيث إن الحيوان لا بد له من أن يستهلك كميات كبيرة منها لكي يحصل على ما يحتاج إليه من بروتين . أما في حالة مناطق الغابات فإن حرق الأرض وزراعتها ثم تركها بعد ذلك يعنى نمو أحراج ضئيلة محل الغابة الاستوائية الأصلية ، وقد تشجع هذه الأحراج المزارعين على حرقها مرة أخرى . إذ أن هذا أسهل من محاولة إزالة غابة أصلية . وتقدر المدة اللازمة لراحة الأرض التي أزيلت منها الأشجار بنحو عشرين عاماً ، حتى يمكن أن تستعيد شيئاً من غطائها النباتي الطبيعي إذ أن التربة تتعرض لخسارة كبيرة من إزالة محاليلها الغذائية والمعدنية . هى معرضة المطر الغزير دين أن يغطيها أى غطاء نباتي . ولا يحاول الإفريقيون قط عمل شيء لإعادة خصب الأرض ، فيما عدا نشر هشيم الحشائش المحرقة . غير أنه يجب أن نذكر أن وسائل الزراعة الأوربية تعود بالضرر على كثير من تربات النباتات الإفريقية . فأحياناً تزول العناصر الهامة من التربة ، وأحياناً تحطمها أشعة الشمس المحرقة .

فالزراعة إذن ليست على مستوى منخفض فحسب ، بل إنه يجب أن يتبعها انتقال مراكز الاستقرار البشرى من مكان إلى آخر خصوصاً في الغابة . إذ سرعان ما تتحلل أخشاب الآكواخ وتفسد ، فيتحتج على الجماعة أن تنتقل إلى قطعة أرض أخرى وتشرع في تنظيفها وتحتاج أى جماعة صغيرة العدد لمساحة كبيرة تتجول فيها وتمارس زراعتها المتنقلة إلى جانب شيء من الصيد . وقد يخطئ الزائر في تقديره عند ما يرى مساحات واسعة من الأرض غير مستغلة ، في هذا النظام الزراعي الذى ينطوى على إسراف شديد . إلا أنه يجب أن نعترف للإفريقيين بشيء من المهارة اليدوية في إقامة أكواخهم من المواد النباتية المحلية .

قامت في بعض المناطق مثل بعض أجزاء غرب إفريقية ، أما كن عمران دائمة ، تقوم على نظام زراعى دقيق ، يعتمد على أداة العصا المعقوفة (السلوكة)



(شكل ٧٥)
آشيد كوخ من
حلاء الدجر في منطقة النيجر

إلا أن المحراث لم ينتشر وراء شمال نيجيريا ، فيما عدا الجهات التي تأثرت بالآوربيين. ولا ريب أن انتشار المحراث سيتضمن ثورة كبرى في النظم الاجتماعية ، ولا تربي الماشية إلا لاستبدالها وتقديم مهوور للزواج ، ولا يهتم الإفريقى سوى عدد الماشية التي يملكها بغض النظر عن قوتها وطاقتها للعمل . وأكثر من ذلك فإن استعمال المحراث أمر خطير في الأقاليم الرطبة الحارة ، ولا داعى مطلقا للحراث العميق إذ أن مواد التربة الغذائية قريبة من السطح .

وتقوم الجماعات الصغيرة المحلية عادة بشئونها الصغيرة ، كما أنها تعيش غالبا في حالة اكتفاء ذاتى . وربما كانت هناك ضريبة تدفع للرئيس الذى يرأس عددا من الجماعات الصغيرة ، وأحيانا - كما هى الحال في أوغندا - يوجد ملك يحكم مساحة لا بأس بها من الأرض ، حيث تقوم أرسقراطية مكونة من الرعاة ، فوق سواد للشعب من الزراع .

ومن مميزات إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى والحبشة ، وفيما عدا بعض أجزاء نيجيريا والسودان وأوغندا ، أنه لم تتم قط دول إدارية ، أو أى نظام يعمل على نقل التراث الاجتماعى من جيل إلى جيل إلا فيما يتعلق بحياة الجماعة بصفة عامة . فلم يكن ثمة كتابة أو أى تسجيل لأى شىء . وكان تولى الزعماء السلطة في إفريقية يتضمن كثيرا من المنازعات والمشاحنات .

فالإقليم إذن كان يمتاز بضاآلة السكان الذين يعيشون في مستوى منخفض وهم يجاهدون في وجه بيئة صعبة ، فيما عدا بعض نقاط قليلة يتكاثر فيها السكان والمناطق التي فرض فيها الآوريون نفوذهم .

إلا أن هذه الظروف قد تغيرت إلى حد ما في شرق إفريقية ، حيث وصل البحارة العرب في الوقت الذى ظهر فيه الإسلام تقريبا ، وعرفوا استخدام الرياح الموسمية في الملاحة والنجارة في المحيط الهندى . واستطاعت السفن العربية أن تبحر من البحر الأحمر وتخليج عدن إلى عمان والهند والملايو

ومن ثم تتصل بالصين ، وكان من الممكن لهذه السفن أن ترسو على ساحل شرق إفريقيا وخصوصا في رحلة عودتها. ومن المحتمل أن هذه العملية ساعدت على نشر بعض الآراء ، ومن المحتمل أيضا أنها نقلت بعض الأشياء من جنوب شرق آسيا إلى شرق إفريقيا عن هذا الطريق . وربما كان انتشار الموز إلى إفريقيا قد تم بنفس الوسيلة وإن كانت هذه المسألة لم تحل بعد إلا أنه من الممكن أن تكون بعض النباتات قد أدخلت إلى إفريقيا حيث ضاعت أو نسيت طريقة زراعتها بوساطة البحارة العرب . وقد كان معنى قيام علاقات جديدة بهذا الشكل ، نمو تجارة الرقيق ، مع بلاد العرب على أية حال ، إلا أن هذه العلاقات تضمنت نقل مهارات جديدة إلى سواحل شرق إفريقيا على الأقل .

توجد شمال مومباسا بتمايا عدة موانٍ ومخيمات إسلامية ترجع إلى العصور الوسطى ، ونجد مثلا في جندى أساس قصر ومسجداً . ويدل ما وجد من فخار على وجود اتصال بعمان ، وربما بالصين أيضا بطريقة غير مباشرة . وهذه الآثار كما تدل عليها الأواني الصينية الكيلادونية (سونج) تدل على أنها من العصور الوسطى . وعائنا أن نذكر هذه الاتصالات الخارجية عندما نتناقص النصب التذكارية الكبيرة التي وجدت في روديسيا ، مثل زنبا بوى Zimbabwe وغيرها . وقد وجد الدكتور رندل ما كايغر ومس كيتون تومسون أدلة تؤيد ما يذهبون إليه من أن آثار زنبا بوى قد وجدت ، أو على الأقل أضيفت إليها إضافات كثيرة في عصورنا الوسطى حيث وجدت بتمايا كيلادونية وغيرها تحت الأرضية الطينية . وربما كانت هذه الآثار تمثل أقصى ما وصل إليه التجار الساحليون جنوبا في اتصالهم بالإفريقيين داخل القارة .

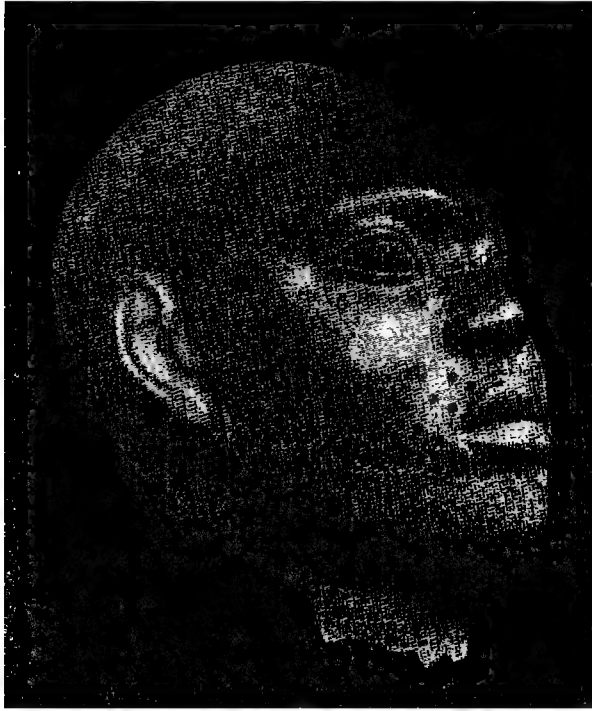
أما في غرب إفريقيا ، فيجب أن نذكر آيات في النحت وصب المعدن في بنين وآيف وغيرهما من الأماكن النيجيرية . ولقد عرف من قبل أن صب البرنز ونحت العاج وعمل التماثيل من الطين النضيج كانت فنونا قائمة في بنين

حتى عصر الرحلات البرتغالية (القرن الخامس عشر الميلادى) ، ويوجد في المتحف البريطاني الآن رأس منحوت من العاج مزين بعدد من رؤوس البرتغاليين الصغيرة ، كما توجد به عينات أخرى من الفن الزنيجي ، ولسنا نعرف حتى متى ظل هذا الفن في بنين ، أو ما إن كان هذا الفن قد تقدم نتيجة للاتصال بالبرتغاليين ، ولكن من المؤكد أن هذا الفن كان موجودا قبل قدوم البرتغاليين وقد صبت بعض التماثيل من البرنز ، وهذا شيء فريد في إفريقية ، واسكنه أسر يمكن تعليله بوجود القصدير في هضبة باوتشي Bauchi شمالا . وتواجهنا صعوبة خاصة إذا أردنا إرجاع هذا الفن إلى تأثر منطقة النيجر بانتشار الإسلام حوالى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فإن هذا الفن كان يعنى بتمثيل الأشخاص ، وهذا نوع من الفن لم يجذبه الإسلام أو على الأقل المسلمون السنيون أى أنه فن لا يمت للإسلام بصلة .

ووجد في السنوات الأخيرة عدد من تماثيل الرؤوس الجميلة مصبوبة من سبيكة قريبة من البرنز في آيف Ife وقد عثى بها حاكم الإقليم الذى يسمى بالواحد ، وأرسلها للإخصائين في المتحف البريطاني . وعرضت وقتا ما في المتحف عام ١٩٤٨ قبل أن تعاد إلى إفريقية . وهى تنتمى إلى نفس المجموعة المصنوعة من الصلصال والمتصلة بصناعات المعدن في هضبة باوتشي .

وقد أدت هذه التماثيل الجيدة النحت والى تدل على مهارة في صب المعدن ، بحيث تمثل رؤوس أنماط مختلفة من الرجال ، بما فيها من وشيم إلى كثير من الآراء الخاصة بنشأة هذا الفن ، التى نستطيع أن نقول مطمئنين إنها نشأة غير إسلامية ، وهذا ميدان فسيح للبحث لم يصل فيه الباحثون بعد إلى نتائج نهائية ، غير أنه يجب علينا ألا ننسى احتمال نشأة هذا الفن نشأة أصيلة في هذا الإقليم .

انتشر الإسلام كما هو معروف بالفتح غربا في شمال إفريقيا في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وقد قابل العرب مقاومة البربر مرة بعد أخرى ، إلا أنه ما إن وافي القرن الحادى عشر حتى أصبح شمال إفريقيا مسلما رغم تنافس البربر والعرب . وقد أدى انهيار الخلافة الأموية والحكومة الإسلامية في أسبانيا إلى قيام حركة إصلاح إسلامية في القرن الحادى عشر في شمال إفريقيا ، ووصل هؤلاء المصلحون الذين سمو أنفسهم بالمرابطين إلى السنغال ، وبهذا وصلوا إلى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى الغربية وأوجدوا صلات قوية ونشطة بينها وبين العالم الإسلامى شمال إفريقيا وربما



شكل (٧٦)

رأس برنزي من إيف — بنيجريا

نشأت منذ ذلك الحين الإمارات الإسلامية في النطاق الذي يحف بجنوب الصحراء الكبرى ، بمدنها المبنية باللبن ، وأسواقها وجمالها التي كانت تستعمل المحراث قرب ثنية النيجر .

وكانت تلك الجماعات التي تقع على نفس خط عرض شمال نيجيريا تقع تحت ضغط الرعاة من شمالها ، وتضغط هي بدورها الجماعات الزراعية في جنوبها .

وكان اكتشاف الأوروبيين لأمريكا من أبشع الأحداث بالنسبة لإفريقية . فقد تسببت في تضخم تجارة الرقيق وفي نقل آلاف من الإفريقيين الغربيين إلى جزر الهند الغربية والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد حصل الرقيق في وطنهم الأمريكي - مع مرور الزمن - على حريتهم ، وتكاثروا وأصبحوا يعدون بالملايين ، ومعظمهم - ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية - خلاسيون ، أى مزيج من الإفريقيين والأوروبيين . ولا سيما وأن البحث عن الرقيق قد عاد بأوخم النتائج على حيا لا غرب إفريقية ، وإن ما نراه الآن في هذه البلاد أدنى بكثير مما ينبغي أن تكون لو لم تقم هذه التجارة المشؤومة .

غير أن اكتشاف أمريكا أيضاً قد عاد بآثار أخرى على تلك القارة ، فقد أدى إلى إدخال عدد من المحصولات الأمريكية إلى إفريقية المدارية ، وقد انتشرت زراعة محصولين من هذه المحصولات النباتية انتشاراً واسعاً في إفريقية . وهذان المحصولان هما الذرة الأمريكية Maize والمانيوق وهما محصولان سهلا الزراعة دون حاجة إلى حرث . وبينما يقوم الإفريقيون بطقوس خاصة عند نمو الدخن ، وهو المحصول التقليدي القديم في البلاد ، فإنه لا يرافق زراعة الذرة أو المانيوق أى شيء منها . وإلى جانب هذين المحصولين ، دخلت إفريقية أصناف كثيرة من البام والطماطم وأنواع نباتية أخرى مثل البطاطس والبطاطا

ومن الممكن أن ينمو السكان نمواً كبيراً بعد إدخال هذه المحصولات ، ولا ريب أنه كان من الممكن أن يزداد هذا العدد أكثر بكثير مما هو عليه في الوقت الحاضر لولا تجارة الرقيق وما كان يتصل بها من بؤس .

ويجب أيضاً أن نلاحظ أنه بينما كانت إفريقية - قبل القرن السادس عشر - مفتوحة لتقبل تأثيرات ثقافية من شمال إفريقية نحو الجنوب ، أو من بلاد العرب نحو سواحل شرق إفريقية عن طريق الرحلات البحرية العربية ، فإنه بعد هذا القرن تعرضت إفريقية المدارية وجنوب إفريقية لضغط آراء ومعتقدات أجنبية عنها . وقد ساعدت المؤثرات الخارجية بشكل كبير في القرن التاسع عشر على التغلغل في قلب القارة ، وعلى تغيير الحياة الإفريقية ، وكان على كثير من الإفريقيين أن يواجهوا هذا الانتقال العنيف المفاجيء من حياتهم التقليدية القديمة إلى حياة أخرى حديثة لا رغبة لهم فيها . وقد رافق هذا الانتقال كثير من أعقد المشكلات الموجودة في العالم في الوقت الحاضر ، وبصفة خاصة في المستقبل . ولم يمنع الأثر الأوربي في إفريقية في الوقت الحاضر عملية انهيار التربة ، وربما ازدادت سوءاً على يد الأوروبيين . وإن إفريقية في حاجة إلى عدد من الإصلاحات العاجلة ، منها ضبط الماء وإدخال زراعة الأرز المغمورة في مناطق ملائمة ، وتشجير الأرض ، وفوق هذا كله حماية التربة الصالحة للزراعة من التعرض للشمس والمطر ، هذا إلى جانب محاربة ذبابة تسي تسي ، والجراد والطفيليات ، والبعوض ، والبلهارسيا وغيرها من الأوبئة .

- ٤١٣ -

فهرس الأعلام

(١)

- أأمدوس ١٧٤ - ١٧٥
 أبن خلمون ٣٩٩
 أبريان ٢٢٦
 أبسولون ٨٤
 أبفيلية (حضارة) ٤١ ٤٢ ٤٥ ٥٣
 أبولو ٢٢٤
 أبوليا ٢١١
 إناكا ٢١٢
 أقريوس ٢٢١
 إتروسكان ٢٢٦
 أنشين ٢٨٤
 إتكفسون ٢٨٢
 أتيكا ٢٢٤ - ٢٢٥
 أثينا (إلهة) ٢٢٤
 أثينا (مدينة) ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٨
 إثيوبيا (أنظر أيضاً الحبشة) ٢٩٨ ٤٠٠ ٤٠٢
 أجاد (أكاد) ١٤٦
 أجامنون ١٩٨ ٢٢٤
 الأحمر (بحر) ١٥٣ ١٦٨ - ١٦٩ ١٧٥ ١٧٨ ٤٠٠ ٤٠٦
 إخناتون ١٥١ ١٨٢
 الأخيون ٢٢١ - ٢٢٥
 أراميون ٢٢٢
 أربشية ٧١٦

- أرتبولة ١١٢ ١١٧-١٢٨
 أرجال ١٣٣
 أرجوس ١٥١ ٢٢٠
 أرجوسى ٢٣١
 أردادغ ٢٢٥
 أرمسترونج ١٠١
 أرمينا ٢٢٩
 أريحا ١٣١ ١٣٤
 أريى ٢٠٤
 أزيلية ١١٠ ١١١
 أسام ١٢٧ ٢٩٦ ٣٣٣ ٣٥٤ ٣٦٣ ٣٧٢ ٣٧٦ ٣٧٧
 إسبريتوساتوس (جزر) ٣٨٤
 أسترال (جزر) ٣٨٠ ٣٨٨
 أسترال (سلالة) ٣٨٣
 أستراليا (أسترالى) ٣٨ ٥١ ٥٢ ٨٩ ٩٩ ١٠٢ ١٠٧ ٣٨٢ ٣٩٣
 إسترومادورا ٣٣٤
 أستورى ١١١ ١١٢
 الأسد (باب) ٢٢٦
 إسرائيل ١٨٤ ٣١٣
 أسطنبول (انظر أيضاً القسطنطينية) ٢٢٧
 الإسكندر (الأكبر) ١٥٥ ١٥٦ ١٨٤ ١٨٧ ٣٥٢
 الإسكندرية ١٥٥ ١٨٨ ٢٣٦ ٢٣٧
 إسلام ١٥٧ ١٥٩ ١٦٠ ١٨٨ — ٢٢٩ ٢٣٤ — ٢٧٥ ٢٨٢
 ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٥٥ ٣٧٧ ٣٩٩ ٤٠٦ ٤٠٩
 إسكيفيون ١٥٤ ٢٦٧

— ٤١٥ —

إسكيمو ٩٧ ١٠٢
 الأسود (بحر) ٢٢٨ ٢٦٥
 أسوكا ١٥٦ ٣٢١ - ٣٢٣
 أسيلار ٩٩
 أشولية ٣٤٣١ ٤١ ٤٢ ٤٤ ٤٥ ٤٧ ٥١ ٥٢ ٦٧ ٧٨ ٢٩٣ ٢٣٦
 أشور ١٥١ ١٥٨ ١٨٤ - ١٨٥
 أطلسية (الفترة) ١١٨
 أكروكورنت (قلعة كورنت) ٢٠٣ ٢٢١
 أفغانستان ١٣٦
 آلات ذات وجهين ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٧ ٥١ ٦٧
 الألاخ ١٤٦ - ١٤٧
 الألب (عمرات) ٣٦٧
 التاميرا ٨٥ ٨٦
 الله آباد ٢٩٦ ٣٦٣
 العيد ١٣٧ - ١٤٢
 إلكترا ٢٢٤
 الميناء ١٤٦
 الميرية ٢١٥ ٢١٧ - ٢١٩
 المستيرا ٩٩
 الأنعمان ٢
 إلبا ١٥
 إليسا ١٨٦
 إليوت سميت ٣١٢ ٣٧٣
 أماتي ٢٣٦
 إمارات (إسلامية) ٤١٠

أمالني ٢٣٢
 أميرالية (جزر) ٢٨٠
 لاسر ١٢٧
 آمون رع ١٥٤ ١٧٨ ١٨٢ ١٨٤
 أميلبا ٢١٥
 أمينحوتب ١٨٢
 أمية وأمويون ١٥٧ ١٦٠ ٤٠٩
 أنام ٣٦٣
 أنار ١٣٠ ١٤٢
 أنتريم ٢٥٢
 أنجورفات ٣٦٧
 أنجكوساكون ٢٧٥ — ٢٧٦
 إنسان جاوة ٢٩ ٣١ ٣٦ ٥٤ — ٥٥
 أنجيلوروجو ٢١٣ ٢١٤
 أندرسون ٣٤٤
 الأندلس ١٥٤ ١٨٧ ٢١٤ ٢١٥ — ٢١٧ ٢٢٦
 أندلمان ٣٨٢
 أنهواي ٣٣٤
 أنكيلوس ١٠٨
 أنياخ ٣٤٤ — ٣٤٧
 أهريمان ١٥٣
 أهو ٣٧٥ ٣٨٨
 أهورماردا ١٥٣
 أوربان ١٠١ ١١٠
 أوبركاسل ٩٧ ٩٩

اوبرماير ۷۳
 اوتراشو ۲۱۱ ۲۱۲ ۲۱۵ ۲۲۷
 اوجاريت ۱۴۶ ۱۴۹ ۱۵۰ ۱۵۱
 اودر ۲۷۶
 اودين ۲۶۳
 اودی ۷۴ — ۷۶
 اور ۱۲۸ ۱۴۵ ۱۴۶ ۱۴۹ — ۱۵۰ ۲۹۹ ۳۱۱
 اورثوذكسية (كنيسة) ۲۸۲
 اورخومينوس ۲۰۳ ۲۱۶
 اوركنى ۲۴۸ ۲۵۲ ۲۸۱
 اوريسا ۲۹۵ — ۲۹۶ ۳۶۳
 اوريستس ۲۲۴
 ورنياسى ۷۴ ۷۵ ۷۶ ۷۸ ۸۰ ۸۲ — ۸۵ ۹۶ ۹۷ — ۹۸
 اوزيريس ۱۷۳
 اوغندة ۲۱۱ ۲۱۲ ۲۱۵ ۲۲۷
 اوفرتون هل ۲۵۶
 اوقت ۹۹ ۱۰۳
 اوكلى ۳۳
 اولدواى ۹۹
 اولب ۲۲۱ ۲۲۴ ۲۲۵
 اولو ۱۰۰
 اولورجيزىلى ۵۳
 اوليرون ۲۸۶
 اومتالى ۳۹۷
 اوندورى ۹۸

— ٤١٨ —

اوبسديان ١٩٦ ٢٠٣ ٢٠٨ ٢٢٣
 لياسى ٣٧
 ليزا ١٥٤ ١٨٧
 ابيرى موروسى ٨١
 آيتا ٣٨٢
 ايجيستوس ٢٢٤
 ايجية او ايجى ١٤٩ ١٥٧-١٧٥ ١٩٣-٢٠٠ ٢٠٣ ٢٠٧ ٢١٢-٢١٤
 ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٤٩ ٢٥٣ ٢٦٤ ٢٨٥
 ايزيس ١٧٣
 ايسلندا ٢٤٨ ٢٨١
 ايستر (جزر) ٣٧٥ ٣٨٨
 ايفانز (سير آرثر) ٢٠١ - ٢٠٢
 ايفانز (استن) ١١٩ ٢٥٠
 آيف ٤٠٧ ٤٠٨
 ايفبرى ٢٤٦ ٢٥٦
 ايفلينز هول ١٠١
 ايونى ١٨٤ ٢١٤
 اينياسى ١٨٦
 اينو (شعب) ٥٠ ٦٤ ٢٣٢ ٣٦٩ ٢٧١
 ايوربال ١٣٣ ٢٦٠
 ايومينيد ١٦٨

(ب)

بابل ١٤٩ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ٢٠٦
 بابو ٣٨١ - ٣٨٣ ٣٩٣
 باترسون ٦٠ ٦١

— ٤١٩ —

- بادکشان ١٣٦ ٣٠٨
 بادوا ٢٣٣
 باربودور ٣٦٧
 بارثیا ٢٨٢
 بارثولوميو، سانت ٢١٤
 بارنز ٤٤
 بارماجراند ٩٥ ٩٧ ٩٩
 بارانثروپوس (شبيه البشر الضخم) ٢٩ ٣٠
 باروس ١٩٦
 باريس ٢٦٨ ٢٧٢
 باریاه ٣١٩
 بازی ٣٧٥
 بافلوف ٨٩
 باقیا ٢٢٢
 باکستان ٢٩٥ ٢٩٧ ٢٩٨ ٣٢٥ ٣٣٤
 بالرمو ١٧٢ ٢٢٧
 بالمیلا ٢١٩
 بامیر ١٣٦ ١٤٥ ٣٠٨ ٣١٥
 باتتاریا ٢٠٨ ٢١٢
 بان (وادی) ١١٦
 بازجی ٢٨٩
 بانکس (جزر) ٣٨٤
 باهانج ٣٦٤
 باهورالبور ٣٠٢
 باوتشی (هضبة) ٩٧ ٤٠٨

— ۴۲۰ —

- ۲۲۲ ۲۰۶ ۱۵۳ ۱۵۱ ۱۵۰ ۱۴۹ — ییلوس ۱۴۶
 ۱۷۸ ۱۷۵ بتاح
 ۱۵۸ — ۱۵۷ بتر
 ۱۶۶ بتری، فلندرز
 ۳۸۱ — ۳۸۰ بتکرین
 ۱۶۵ ۱۶۴ البدارى
 ۱۱۱ بدجر سلاك
 ۸۴ ۷۶ براسمبوى (تمائيل فسائية)
 ۲۸۵ براغ
 ۲۱۷ برانس
 ۳۲۰ — ۳۱۷ براهة
 ۳۱۶ ۳۱۰ ۳۰۰ براهوى (جبال)
 ۴۰۸ ۲۳۴ ۱۸۹ ۱۸۷ بربر
 ۳۶۰ برتسفالسكى (حسان)
 ۴۰۵ برتغالى
 ۳۱۴ برثيق
 ۱۷۳ برست
 ۱۳۵ برسيپولس
 ۲۳۷ — ۲۳۴ برشلوثة
 ۲۳۵ ۲۱۵ برشيا
 ۱۸۰ برکه قارون
 ۲۳۳ — ۲۳۱ برز
 ۲۵۲ برنکيدو (جزيرة) (انظر أيضا قاض كيوى)
 ۹۶ برو (رون)
 ۲۸۳ بروکس

— ٤٧١ —

- بروگل ٩٦
 بروکسبورن ١١٦
 بروکن هیل (رودسیا) ٣٢ ٣٣ ٣٢
 بروم ٢٨ ٢٩ ١٠٢ ٣٩٧
 برویل ٣٠ ٤٦ ٦٠ ٦٩ ٨٤ ٨٦
 بریتانی ٢١٥ ٢١٧ ٢٥١ — ٢٥٢ ٢٥٤ ٢٥٧ ٢٦١ ٢٦٨ ٢٦٩
 بریجار ١٠٩
 بریجوردیة ٧٦
 برین ٢٨٦
 بسمارک (جزر) ٣٨١
 بشدموست ٩٧
 بصری ١٥٧ — ١٥٨
 بطليموس ١٨٧
 بصل ١٥٢
 بغداد ١٦٠
 بکتونوکولوس ١٩٧
 بکلی ١١١
 بلاک (دافیدسون) ٣١
 بلجیکی ٢٦٦
 بلعلی (بحر) ١٠٨ ١٠٩ ١١٨ ٢٤٢ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٦ ٢٥٨ ٢٦٣ ٢٨٥ — ٢٨٦
 بلغور ٣٧٥
 بلنسیة ٢٣٤
 بلیزیا نثروبس (شبه البشر الترنسفالی) ٢٩ ٣٠
 بمبروکشیر ٢٥٦
 بنجاب ٣٠١ ٣٠٢ — ٣١٣

— ۴۷۲ —

البندقية ۲۳۰ — ۲۳۲
 بنغال ۲۹۶ ۳۲۴ ۳۶۳
 بنك وبركنز ۵۷ ۶۰ — ۶۱
 بنين ۴۰۷ ۴۰۸
 بوباش ۱۱۰
 بوبك ۶۸
 بوتوكودر ۱۰۲
 بوديونيجورو ۳۶۱
 بوذا (بودی) ۲۹۸ ۳۰۲ ۳۲۰ ۳۲۲ — ۳۲۴ ۳۵۰ ۳۷۰۰
 بوجوس ۲۳۴
 بوركاردت ۱۷۳
 بورنيو ۲۶۲ ۲۷۲ ۲۷۹ ۲۸۱
 بورما ۲۲۴ ۲۳۱ ۲۷۲
 بوزان ۲۸۵
 بوزويل ۳۱
 بوسكوب ۹۹
 بوشمن (ج.غ. أفريقية) ۹۰ ۹۱ ۹۲
 بول ۶۳
 ولان (نمر) ۲۹۹ ۳۰۱
 بولونيا ۲۳۲
 بولیری ۲۱۴
 بولينزيا ۲۴۲ ۳۶۶ ۳۷۵ ۳۷۶ ۳۸۰ ۳۸۳
 ۲۸۵ ۳۸۸ ۳۹۰ ۳۹۱ ۳۹۳ ۳۹۴
 بومباي ۳۲۵
 بوماب ۳۸۵ ۳۸۷
 بون ۲۶ ۹۷ ۲۸۳

— ٤٢٢ —

بونت ١٥٢ ١٧٨ ١٨٢
 بوهیمی ٢٤١ ٢٥٥ ٢٥٨ ٢٧٦
 بوهین ١٧٩ ٢٩٩
 بیبی ١٧٦
 بیت المقدس (القدس) ١٥٢ — ١٥٢
 بیتس ١٨٥
 بیتیا ٢٦٥
 بیجوان ٧٣
 بیجوت، ستیوارت ٢١٢ ٢١٦ ٢٥٦ ٢٩٩ — ٢١٢
 بیرسیک ١١٠
 بیرو ٢٧٤ ٣٨٥ ٣٩٠ — ٣٩١
 بیردسل ٢٨٢
 بیرهور ٧١
 بیزنطة ١٥٢ ١٥٦ ١٨٨ ٢٠٠ ٢٢٨
 بیسون ٦٨
 بیکر ٢١٤ — ٢١٧ ٢٥٤ — ٢٥٧
 بیکرز هول ١٠٠
 بین ٢٦٦
 بینج (بکین) ٣٣١

(ت)

تازا ٢٤٥
 تاجه ٢١٦ ٢١٧
 تارا ٢٧٥

تاربان ۲۶۰ ۲۶۲
 تارسیوس ۷۷
 تاکشام ۱۱۶
 تالچای ۹۹
 تانج ۱۶۰ ۳۵۳-۳۵۶
 تاهوا ۲۷۵
 تاهیتی ۲۸۸ ۳۸۱
 تبت ۳۰۸ ۳۲۴
 تبکسان ۹۹
 تخنو (لییون) ۱۷۰ ۱۷۳ ۱۷۵ ۲۰۱
 تخوتس ۱۵۰ ۱۸۲
 تدروهولو ۳۳۸
 تدمر ۱۵۸ - ۱۵۰
 تراس اوس موتیس (البرتغال) ۱۰۱
 ترافانکور ۳۲۱ ۳۲۳
 ترانسلفانیا ۱۵۶ ۱۷۵ ۲۶۷
 ردنوازی ۸۲ ۱۱۱ - ۱۱۴ ۱۱۶ ۲۹۵
 ترکستان (منخفضات قزوین و آرال) ۶۸ ۱۴۲ ۱۵۰ ۱۵۵ ۱۶۰
 ۲۲۰ ۲۲۹ ۳۰۷ ۳۱۰ ۳۳۳ ۳۵۲
 ترکستان (الصينية) ۳۵۴
 تریان دی لاکویری ۳۲۹
 تروخوس لیناتوس ۱۱۱
 تربیکوم ۱۲۸
 تسالیا ۲۰۳
 تسانیون ۳۸۲ ۳۹۳

— ۴۲۵ —

تسینان ۲۳۶
 تشایلد ۲۵۸ ۲۹۹
 تشرنوزیوم ۲۴۴
 قندال ۳۸۲
 توامانو ۲۹۶
 توبوای ۳۸۰ ۲۸۲
 توت عنخ آمون ۱۸۲
 تورشیلو ۲۳۰
 تونجک-نج ۳۶۴ ۳۷۲
 تورین ۲۳۵
 تورین (پردیه) ۱۷۲
 توك دودوپرت ۷۱ ۸۴ ۸۶
 تونجا ۳۸۰ ۳۸۱ ۳۸۲
 توهوا ۳۸۸
 تیاسی ۴۴ ۴۶ ۴۷
 تیاھواناكو ۳۷۴ ۳۹۱
 تیراماری ۲۱۵
 تیر ۲۲۷-۲۲۸
 تیرنز ۲۲۱
 تیلانثروبوس ۳۰
 تیکویا ۳۸۱
 تیمونوفکا ۶۳
 تیوتون ۲۶۰
 تېوبا ۳۷۴ ۳۷۶

— ٤٢٦ —

(ث)

نور ٢٦٣
ثورنجن ٦٠
نيوسيد ٢٢٤

(ج)

جاجارينو ٦٩
جارود، دورثي ١٣٠ ٥٢
جالي هيل (هيكل) ٣٣
جانتيجي ٢٠٩ ٢٠٧
جانج ٣٦٣ ٣٢٤ ٣١٥
جاورا ١٣٤٠
جاوة ٣٦٥ — ٣٦١ ٣٤٢ ٢٩٦ ١٩٠ ٩٩ ٣١ ٢٩
٣٧٢ ٣٦٧ — ٣٦٦
جايجي، جيمس ٥٧
جميل الاراك ١٦٩
جبل طارق ٦٧ ٤٣ ٣٦٠
جرافيت ٧٦ ٧٥
جرسي ٢٧٠
جرنزي ٢٧٣ — ٢٧٢
جريت جلن (اسكتلندة) ٤٥٢
جريرسون، سير جورج ٣١٥
جرينلندة ٢٨١
جريمالدي ٩٥

جزویت ۲۵۷

جستنیان ۲۲۸

جلاستون بوری ۲۵۹ ۲۷۰

جلبرت (جزر) ۳۷۷ ۳۸۱ ۲۸۳

جهدت نصر ۱۳۹ ۱۴۴

جل ۱۴۲ ۱۵۸ ۲۲۲ ۳۰۴ ۳۱۰

جیز (عصر جلیدی) ۴۴

جیز مندل ۴۴

جنوا ۲۳۱ — ۲۳۲ ۲۳۷

جینیاتی ۳۱۸

جوالاوا ۳۶۱

جوترا ۳۱۸

جودا فاری ۲۹۶ ۳۶۳

جودینا ۱۱۴

جوزو ۲۰۷ ۲۰۹

جونز (سیرجون) ۲۶۱

جونز (سیرولیم) ۳۱۵

جیان ۱۳۵

جیدی (مینا) ۳۵۵ ۴۰۷

جیر (دی) ۵۷ ۵۸ ۱۰۸

جیراس ۲۱۴

جیراش ۱۵۷

جیزه ۱۷۸

جیموتینو ۳۶۹

— ٤٢٨ —

(ح)

حاموراني ٢٠٦ ١٤٩
 حبشة (أنظر أثيوبيا) ١٦٣ ٦٨ — ١٦٤ ٢١١
 حتشبسوت ١٥٣ ١٧١ — ١٨٢
 حزقيال ١٥٤
 حزين ١٦٣ ٨٢ ٦٨
 حسونة ١٣٦ ١٣٣ — ١٣١
 حصارك ١٤٦ — ١٥١ ١٥٢ ١٩٨ — ٢٠٠ ٢١٤ ٢١٩ ٢٢٢
 الحصان الوحشي ٧٨ ٦٨
 حلب ٢٢٩
 حلف ٣٣٣ ١٤١ ١٣٦
 حلوان ١٧١ — ١٧٠ ١٦٨ ٨١
 حمامات (وادي) ١٦٧ — ١٦٨
 الحيتيون ٣١٤ ٢٦٤ ٢٢٢ ١٨٢ ١٥٠
 حوريس ١٧٣
 حيرام ١٥٣

(خ)

خارجة (الواحة) ١٨٤ ١٥٥ ٤٩
 خامسيا (خامسى) ٣٧٦ ٣٧٣ ٢٢٣
 خربة الكراك ١٤٩
 خفرع ١٧٧ — ١٧٦
 خوفو ١٧٦
 خيروكيثيا ٢١٦ ٢٠٦ ٢٠٣

— ۴۲۹ —

(د)

دارت ۲۸
 دارجلینج ۳۵۴
 داردیة ۳۱۶
 داسبوس ۳۱۳
 داشیا ۱۵۶ ۲۷۶
 دالامیون ۲۰۷
 داهو ۲۷۴ ۲۷۶
 داود ۲۲۲
 دبروجة ۱۵۶
 دراخنلوخ ۴۹
 دراخنهولیه ۴۹
 درافیدیون ۳۱۵ ۳۱۶
 دردنیل ۲۰۰
 دردونی ۱۰۱
 دروید ۲۷۱ — ۲۷۲
 دلمی ۳۲۴ ۳۲۵
 دکا ۳۲۵
 دکورث ۱۰۱
 دمشق ۱۵۲ ۱۵۷ ۱۵۹
 دنمارك (جلید) ۵۸
 دنییر ۲۴۵ ۲۴۸ ۲۵۳ ۳۱۵
 دنیستر ۲۴۴
 دهشور ۱۷۶

— ۴۳۰ —

دیار بکر ۱۴۳

دیو ۲۹

دوقنزی ۱۰۹ ۱۱۴

دیولون ۲۲۳ - ۲۲۴

دیدو ۱۳۹

دوریون ۱۵۱ ۲۲۲ ۲۲۵ ۲۶۴

الدر البحری ۱۵۳ ۱۸۱ - ۱۸۲ ۱۸۳

دیرتاسا ۱۶۴ ۱۶۶

دیلوجاز (بالهامش) ۱۶۴

دیمینی ۲۰۳

دیوسبولیس بارقا ۱۶۶

(ر)

راجبوت (راجبوتانا) ۳۰۶ ۳۱۸

راجوزا ۲۳۱

راجوندا (رکام) ۶۳

راراتونجا ۳۸۸

راس شمره ۱۳۵

رافینا ۲۳۰

رانا جواندی ۲۹۹

رس ۳۳ ۴۴ ۶۲

رس - فرم ۴۴ ۴۶ ۴۷

رع ۱۶۸

رندزینا ۱۹۵

رندل ۵۴

— ۴۳۱ —

رنه ۷۸ ۱۱۲
 رمیلو ۲۱۵
 رمیس ۱۵۰ ۱۵۱ ۱۸۲ ۱۸۴
 روان ۲۶۸ ۲۷۲
 روبلسون ۲۸
 رودیسیا ۲۸ ۲۳ ۹۲ ۳۵۶ ۳۹۷ ۴۰۷
 روس ۲۹۹ — ۳۰۰
 روما ۱۸۷ ۲۲۷ — ۲۳۳ ۲۳۷ ۲۴۱ ۲۷۴ ۲۸۱
 ۲۸۲ ۲۸۷ ۲۸۸
 رومانیة (مدن حوض پاریس، الراین، الدانوب) ۲۷۲ ۲۷۴ ۲۸۲
 رومانلی ۱۰۰
 ریچاس ۳۷۹
 ریچ فیدا ۳۱۳ ۳۱۴
 ریلموار ۴۴
 ریشتون، ف. فون ۳۲۹
 ریغیرا ۷۶ ۱۰۰
 ریوکیو (جزر) ۳۶۷

(ز)

زرادشت ۱۵۳
 زفانچفلور ۲۷۸
 زوب ۲۹۹ — ۳۰۰
 زوسر ۱۷۵
 زوینر ۴۴ ۶۱

— ۴۳۲ —

زیمبابوی ۳۵۶ ۴۰۷
زیوس ۲۲۵
زینویا (الزباء) ۱۵۸

(س)

ساتون فینی (ولتشر) ۲۵۸
سارجون ۱۴۶ ۱۴۸ ۱۴۹ ۱۷۸ ۲۰۶
ساردیس ۱۵۵
سارش ۲۵۶
سارسفاتی ۳۰۲
ساقیج (جزر) ۳۸۰
ساتورین ۱۹۵
سالیرنو ۲۳۰ ۲۳۲
ساموا ۲۸۱ ۲۸۵
سامورای ۳۷۲
ساموس ۱۹۵
ساتال پارجاناس ۱۲۷ ۲۹۶ ۳۶۴
ساتاکروز (جزر) ۳۸۰ ۳۸۱ ۳۸۳ ۳۹۰
ساتیاجودی کبوسقیلا ۲۳۴ ۳۰۸
سانشی ۳۲۱ ۳۷۵
سایفیة ۳۲۳
سبوندلیوس ۲۶۲
سیلیة ۸۰ - ۸۱ ۱۶۳
ستراندجارد ۱۱۹

— ٤٢٢ —

سقشوان ٣٢٤ ٣٤٢ ٣٦٤ ٣٧٢ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٣
 ٣٨٤ ٣٩٠ ٣٩٣
 ستوبا (هیکل بوذا) ٣١١ ٣٢٢
 ستون هو ٢٧٥
 ستینلو ٢١٣
 ستوننج ٢٤٦ ٢٥٦ - ٢٥٧ ٣٢١ ٣٧٥
 سخول (فلسطين) ٣٦ ٣٧
 سردینیا ١٠١ ١٨٦ ١٨٧ ٣٠٨ ٢١١ - ٢١٥ ٢١٧ ٢٥٣
 سفیردبورج ١١٥
 سقارة ١٧٥
 سلافونی، سلافی (صقلي) ٢٦٠ ٢٧١ ٢٧٦ ٢٨٥
 سلامنکا ٣٣٤
 سلامیس ١٥٥
 سلیمان (جزر) ٢٥٦ ٢٨٣
 سماریا ١٥٢ ١٥٢
 سمارا ١٣٦
 سماج ٥٢ ٢٨٣
 سمرقند ١٦٠
 سمول (جزر - هردیز الجديدة) ٢٨٣
 سمیسون ٦١ ٦٢
 السند ١٤٣ ٢٢٠ ٢٦٠ ٢٩٨ ٣١٧ ٣٣٤
 السندوالجانب (سبل) ٢٩٣ ٢٩٤ ٣١٥
 سنسکریتیة ٣١٣ ٣١٥
 سنغال ٤٠٩
 سنغرو ١٧٦

— ٤٣٤ —

سولترية ٧٧ ٧٨ ٨٥ ٩٦ ٩٧ ١٠٠ ١٠١ ١٠٣

سواقة ١٥٢

سوان (نهر) ٢٩٣

سوانسكومب ٣٣ ٣٥ ٤١ ٩٤

سواى ١٣٣ ٢٦٠

سونكا جندور ٣٠٨

سوئس ١٧٢ - ١٧٣

السودان ١٨٦ ٢١١ ٤٠٦

سودر ٢٨١

سودرا ٣١٧ ٣٢٠

سورجيل ٦٠ ٦١

سورد ٩٧

سوسا ١٥٥ ٢٩٩

سوسنى (جزر) ٣٨٠

سولترية ٧٧ ٧٨ ٨٥ ٩٦ ١٠٠ ١٠١ ١٠٣

سومبا ٣٧٢ ٣٨٠

سومر ١٤١ ١٤٦ ١٥٧ ١٦٩ ٣١٠ ٣١١ ٣٣٤ ٤٠٠

سومطرة ٣٦٤ ٣٧٢ ٣٧٧

سونج ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٧١ ٤٠٧

السويس ١٧٩ ٢٣٦

سيالك ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٦ ٢٩٩

سبت (أوبت) ١٥٣ ١٨٠

سيفيل (كهف فكتوريا) ١١٠

سنى ١٥١ ١٨٢

سيسى ٢١٠ ٣١٢

— ۴۳۵ —

سیفا ۳۱۳ ۳۱۷ ۳۲۳
 سبگانی ۲۱۳
 سیلین (و بحر سیلین) ۳۴۲ ۳۶۴ ۳۷۲ ۳۸۰ ۳۸۱ ۳۸۳
 ۳۸۴ ۳۹۰ ۳۹۳

سیلان ۳۲۴
 سبکلیدر (جزر) ۱۹۷ ۲۱۷
 سبنا ۱۴۳
 سیتی ۴۴
 سبکیانج ۳۵۲

(ش)

شاتام (جزر) ۳۸۰
 شارتر ۳۷۰
 شاتلیرون ۷۴ ۷۵
 شاتونج ۳۲۳ ۳۲۶ ۳۴۸ ۳۶۴
 شان (ولایات) ۳۳۱
 شانج ۳۴۲ — ۳۴۸ ۳۵۱ ۳۵۶ ۳۶۹
 شتا. داسم ۳۶۷
 شتلند ۲۴۸ ۳۵۲ ۳۸۱
 شلویون ۳۹۸
 شنسی ۳۳۳ ۳۳۵ ۳۳۷ ۳۴۷ ۳۴۸ ۳۵۸
 شنسی ۳۰ ۳۲۳ ۳۳۴ ۳۳۷ ۳۴۸
 شون (قلعه) ۳۷۰
 شو (أسرة) ۱۵۴ ۳۳۸ ۳۴۷ — ۳۵۲
 شونانا جیور ۷۱ ۱۲۷ ۲۹۶ ۳۶۳ ۳۶۴ ۳۶۷

— ٤٢٦ —

شوكتين ٣١ ٥٣ ٩٩ ١٠٣ ٢٣١ - ٢٣٢ ٢٧٠
 شن شيه هوانج تي ١٥٦ ٢٥١ - ٢٥٢ ٢٥٣
 شيدار ١٠٠
 شيشرون ٥٥
 شيشير ٢٥٢ ٢٦٨
 شيه لي ٢٤١

(ص)

مقلي ٢١٣
 صور ١٥٤ ١٨٦
 صولون ٢٢٥
 صيني (نغار ما قبل التاريخ) ٢٢٢ ٢٣٥ ٢٢٤

(ط)

طبارة ١٤٩
 طرشيش (طريسون) ١٨٧
 طروادة (انظر أيضا حصارك) ١٥٤ ١٨٦ ١٩٨ ٢٢٢ - ٢٢٤
 طلبلة ٢٣٤
 طميلات (وادي) ١٧٩
 طوارق ١٨٩

(ع)

عاطرية ٤٩ ٨١
 عامر، مصطفي ١٧٠ - ١٧١

— ٤٣٧ —

عبريون (ويهود) ١٥٢ - ١٥٤ ١٨٩ ٢٢٢ ٢٢٤ ٢٨٥
 عدن ١٥٣ ١٥٥ ٤٠٠ ٤٠٦
 عسقلان ١٥٢
 عمان ١٤٣ ٤٠٦
 عمري ١٥٢
 عميرة ٥٢

(غ)

غاليون ٢٧١ ٢٧٤ - ٢٧٥
 غانة الجديدة ٢٦٤
 غانة (خليج) ٤٠٠

(ف)

فارسي (الخليج أو العربي) ١٣٧ ١٤٤ ١٥٣ ٢٠٨
 فالير ٢٨٢
 فاي برونيكوبل، لا ٩٧
 فايسنوس ٢٠٢ ٢٠٣
 فرم ٢٨ ٤٧ ٥٨ ٦٢ ٦٧ ٨٠ ٨٢
 فرنسية (رحلات القرن ١٧) ٢٨٩
 فرنكفورت ١٦٧ ١٦٩
 فش هوبك ٩٩
 فلد كرشي ٤٩
 الفلستين ١٥١ - ١٥٣
 فلندروف ٦٩

— ٤٣٨ —

فلورنسا ٢٣٢ — ٢٣٣
 فلورينسباد ٩٩
 فلورين (التشبع بـ) ٢٣
 فنجين ٣٦٤
 فنواسكنديناوى (ركام) ٦٣
 فوجيون ١٠٢
 فورفوز ١٠٠
 فورم ٢٢٧
 فورموزا ٢٩٦ ٣٤٢ ٣٦١ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٧٠
 فوكس، سيرسيريل ٢٧٠
 فولسوم ٩٩
 فونت دى جوم ٨٦
 فونت روبرت ٤٩ ٧٥ ٧٦ ١١٢
 فوتيشفاد ٣٤ ٩٤
 فيجى ٣٦٦ ٣٨١
 فيراس، لا ٧٦
 فيلاكوبى ٢٠٣
 فيلين ٢٩٦ ٣٤٢ ٣٦١ — ٣٦٤ ٣٧٢ ٣٧٩ — ٣٨١
 فينستير ٢٥١
 الفينيقيون ١٥٤ ١٨٦ ٢٠٨ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٧٣
 الفيوم ١٦٣ ١٧٨ — ١٨٠

(ق)

قارا ايوك ١٥٧

- قازان ٢٤٤
 قادش ١٨٢
 قاضى كيوى ٢١٩
 القاهرة ٢٣٧
 قبرص ١٤٦ ١٩٦ ٢٠٣ - ٢٠٦ ٢١٦ ٢٢٠ - ٢٢١
 القديسيون ٢٧٥
 القرد الجنوبي ٣٠ ٣١
 القرده الضخمة ٣٠
 القرده العليا ٢٨
 قرطاجه ١٥٤ ١٨٦ ١٨٧ ٢٢٦ ٤٠٠
 قرطاجنة (قرطاجه الجديدة) ١٥٤ ١٨٦ ٢٢٦
 قرطبة ١٦٠ ٢٢٩ - ٢٣٤
 القسطنطينية (انظر أيضاً بيزنطة) ١٥٦ ٢٢٨ ٢٧٤
 قشتالة الجديدة ٢١٧ ٢٣٤
 قطالونيا ٢١٩ ٢٣٤
 قفصة ٨١ ٨٣ ١٦٣
 قفط ١٧٨
 قنا ١٦٧ ١٦٩
 القنائة الكبرى (الصين) ٢٥٩
 قيروان ١٨٩ ٢٢٨

(ك)

- كاثاوار ٣٠٨
 كارل لارش ٣٠

— ٤٤٠ —

- ٣٩١ ٣٩٠ ٣٨٧ — ٣٨٣ ٣٨١ ٣٦٧ كارولينا (جزر)
 ٢٦٤ كاسلوكوشيو
 ٢٢٤ كاسندرا
 ١٩٧ ١٤٣ كاسيتريت
 ٣١٩ — ٣١٧ كاشتريا
 ٣٩١ كالار
 ٣٥٢ كالكوتا
 ٣٨١ كاليدونيا الجديدة
 ٢٥١ ٢١٩ كاليه
 ٣٦١ كاليفلنس، فون شيتاين
 ٨٦ — ٨٥ ٧١ كامباريل، لي
 ٣٠٨ كاتبري
 ٤١ ٣١ كاتيجيرا
 ٣٦٤ ٣٤٤ ٣٣٤ ٣٣٣ كانسو
 ٣١ كاتم
 ٣٢٥ كراشي
 ٤٤ كراج (رواسب)
 ١٢٥ كراسنويارسك
 ٢٨٥ كراكار
 ١٧٥ الكربات
 ١٦٩ ٥٨ ١٤ (نشاط إشعاعي) كربون
 ١١٦ ١١٢ ١٠١ كرزويل
 ١٣٠ الكرمل
 ٢١٧ كرمونا
 ١٨٢ ١٧٨ الكرنك

— ۴۴۱ —

کرومانیون	۳۸	۹۴ — ۱۰۱							
کرنیت (افظر ایضا کنوسوس، موخلوس، میزارا، فایستوس)	۶۵۱								
	۱۷۵	۱۷۹	۱۹۶ — ۲۰۲	۲۰۷	۲۰۸	۲۱۹ — ۲۲۰			
کریسا	۱۹۷								
کریستیان	۳۸۸								
کشتون	۲۵۷								
کشمیر	۲۰۸	۲۲۴							
کلارک ج. ج. د.	۱۰۹	۱۱۶ — ۱۱۷							
کلاشان	۲۷۹								
کلاکتون	۴۱	۴۵							
کلاید (خلیج)	۲۵۲								
کلنی	۲۶۰ — ۲۶۲	۲۶۸	۲۷۰	۲۷۵					
کلیمینسترا	۲۲۴								
کبودیا	۳۶۷								
کنوسوس	۱۴۶	۱۴۹	۱۵۱	۱۹۷	۲۰۱ — ۲۰۲	۲۲۱			
کهرمان	۲۵۱	۲۶۳							
کف الاطفال	۹۵	۱۰۰							
کوبرنیکوس	۲۸۷								
کوبنهاجن	۲۸۶								
کوتا	۲۲۹								
کوتیل	۴۱								
کوجول	۷۲	۷۴							
کورانا	۱۰۲								
کورشن	۱۵۴								
کورفو	۲۱۲	۲۲۷							
کورنت	۱۹۷	۲۰۳	۲۱۲	۲۱۴	۲۲۱				

— ٤٤٢ —

٢٦٨ ٢٦١ ٢٥٢ ٢٤١ کورنول
 ٢٩١ ٢٦٧ (تیار) کورسیو
 ٢١٧ کورنیل
 ٣٧٠ — ٣٦٧ ٣٦٣ ٣٤٢ کوریا
 ٣٦٩ (جزر) کوریل
 ١٠١ کوستادی فیدیرا
 ٦٩ کوستنمکی
 ٢٨٢ ٢٨٠ (جزر) کوک
 ٣٠٠ کولی
 ٣٩١ کولومبیا البریطانیة
 ٢٨٥ — ٢٨٣ کولن (کولونیا)
 ١٠١ کولینبون
 ٣٩١ کومارا
 ١٠١ — ٩٤ ٢٨ کومب کابل
 ٣٠ کونجز فالند، فون
 ٣٩٨ — ٣٩٧ الکونفو
 ٢٥٧ ٢٥٢ ٢٥١ — ٢٥٠ کونفوشیوس
 ٩٩ کوہونا
 ٢٧٥ کوہو
 ٤٠٧ ٨٢ ٨١ ٤٩ کینتون تومسون
 ٨٤ کیٹ، سیر آرثر
 ٢٨١ ٢٥٢ کیٹنیس
 ١٤٩ کیش
 ٤٠٧ ٢٥٥ کیلادون
 ٢٧٥ کیلز (کتاب)

— ٤٤٣ —

کیلی هربر ٤٤
کیلیا ٥٣ ٨٢ ٢٩٧
کینیون ١٣١
کیوتو ٢٧١ ٢٧٢
کیوشیو ٢٦٧

(ل)

اللاب ٢٤٨
لاتین ٢٢٦ ٢٢٢ ٢٣٦ ٢٦١ ٢٧٤ ٢٧٥
٢٨٣ ٢٧٦
لاسکوب ٨٥ ٨٧
لاشابل اوسانت ٢٦ ٢٨ ٢٩
لانجويٹ ١٠٠ - ١٠١
لاوتزو ٣٥٠ - ٣٥١
لاوتش ٩٧
لاوس ٢٦٤ ٢٧٢
لايارد ٢٨٣
لسيلس، دي ٢٣٦
لشپونة ٢٤٤
لويك ٢٤١ ٢٨٦
لوتيتيا (باريس) ٢٠٨
لوجيري السفلي ٩٧
لو (جزر) ٣٩١

— ٤٤٤ —

لو، فان رایت ٩٢
 لوس میلاریس ٢١٩
 لوسیل ٨٤
 لویانج ٢٦٨
 لویڈ، إدوارد ٢٦١
 لویس ٢٤٢ ٢٤٩ ٢٥٣ ٢٥٧ ٢٦٢ ٢٧١
 ٢٨١ — ٢٨٥ ٣٠٢ ٣٣٦ ٣٣٧ — ٣٣٨
 لوینبورجرهایده ٢٨٥
 لی (طراز الآنية الثلاثية) ٣٣٥ ٣٤٢
 لی روك، شارنت ٨٥
 لییزج ٢٨٦
 لییا (تحنو) ١٦٧ ١٦٩ — ١٧٠ ١٧٥ ١٧٨ — ١٧٦
 ١٨٢ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٦
 لیتورینا (فتره) ١٠٩ — ١١٠ ١١١
 لیجوری ٢٤٦
 لیجی ١١٣
 لیدل ١٠٧
 لیسنر ٢١٧
 لیفالوازی ٤٦ — ٤٨ ٥٢ ٨٠ ٨١
 لیکی ٣١ ٤١ ٥٣ ٨٢ ١٣٢ ٣٩٧
 لین کیریج ٢٧١
 لیوکاس ٢١٣
 لیون ٢٣٤

(م)

ماجان ٢٤٣

— ٤٤٥ —

ماجلوز ١١٢ ١١٥ — ١١٧ ١١٨
 ماجو ١٨٧
 الماشية الوحشية ٦٨ ٨٥ ٨٦ ٨٧
 ماعز ١٢٦ ١٢٧ ١٩٥ ٣٠٤ ٣١٠
 ماكاذثر (كهف) ١٠١ ١٠٧
 ماكي ٢٩٩ ٣٠٦
 ماليكيولا ٣٨٤
 مانش (جزر) ٢٥١ ٢٥٢ ٢٧١ — ٢٧٢
 ماهاباراتا ٣١٦
 ماهاباتيا ٣٨٨
 ماهايانا ٣٢٤
 ماهون (ميناء) ١٨٧
 ماير ١٣٣
 مجارا ٢٠٧
 مجدى ٧١ ٧٨ — ٧٩ ٨٦ ٨٨ ٩٧
 محمد على ٢٣٦
 محمود الغزنوى ٣٢٤
 مدراس ٣٢٥
 مدريد ٧٦ ٢٣٤ — ٢٣٥
 مدغشقر ٣٧٧
 المرابطون ١٨٩ ٢٣٤ ٤٠٩
 مزارا ٢٠١ — ٢٠٢
 مقدونيا ١٩٦ ٣٦٦
 المقطم ١٦٧ ١٧٠
 مكران ١٥٣ ٣٩٩

— ٤٤٦ —

ملايو ٣٢٤ ٣٥٦ ٣٦١ — ٣٦٤ ٣٧٢ ٣٧٧ ٣٨٢ ٤٠٦
 مباسا ٣٥٦ ٤٠٧
 منج ٣٥٦
 مندل — رس ٤١ ٤٤ — ٤٦ ٢٩٣
 منغوليا (منغولي) ١٦٠ ٢٢٠ ٢٢٤ ٢٥٢ ٢٦١ ٣٤٧
 ٢٧٠ ٣٥١ ٣٥٥

منقرع ١٧٦
 منوسفسك ١٢٠
 موتيا ٢٢٧
 موجيم ١٠٠
 الموحدون ١٨٩ ٢٣٤
 موخلوس ٢٠١
 مور ٣٣
 مورافيا ٧٠ ٨٤
 موريبات ٢١٩ ٢٥١
 مورتون ٢٧
 موسيري ٤٦ — ٤٨ ٥١ ٥٢ ٧٥ ٧٦ — ٨٠
 الموصل ١٥٩
 مولون ١٣٣ ١٩٨ ٢٦٠
 موندا ٢٦٩ ٣١٦ ٣٦٧
 مونسيان ٨٣
 موهايجودارو ٢٩٩ ٣٠٤ ٣١٠ ٣١٤
 ميتاني ١٤٦ ١٨٢
 ميخال (ابنة شاول) ٢٢٢
 ميدن (قلعة بدورسيت) ٢٦٩ ٢٧٠

— ٤٤٧ —

ميساساجي ٣٦٩ — ٣٧٠
 ميكرونيزيا ٣٦١ ٢٨٣ ٣٩٣
 ميكوڪي ٤٧
 ميڪيني (ميڪينيٽي) ١٥١ ١٥٤ ١٨٦ ١٩٨ ٢٠٧
 ٢١٣ — ٢١٤ ٢٢١ — ٢٤٤ ٢٥٧ — ٢٥٨
 ميلان ٢٣٢ ٢٣٧
 ميلانڪوئش ٥٩ ٦٠ ٦١ — ٦٢ ١٢٠
 ميلوارد ١٠٢
 مين ١٧٨
 ميناهاسا (سيليڙ الشماليه) ٦٣٤ ٢٨٠ — ٢٨١
 مينز ٢٨٥
 مينسوتا ٩٩
 مينوي ٢٠١ — ٢٠٣

(ن)

نابلي ٢٣٢ ٢٣٦
 ناجا ٣٧٣ ٣٧٨
 ناجاكونياڪ ٣٧٨
 ناجي ساب ١٠٠
 ناربادا ٢٩٣
 نارمر ١٧١ ١٧٣
 ناكڊوس ١٩٦
 نال ٣٠٠ ٣٠١ ٣١٠
 انجا ٣٩٠

— ٤٤٨ —

- ٣٨٦ نان تاوش (جزر کارولینا)
 ٣٨٧ ٣٨٥ نال ماتال
 ٣٨ النبطيون
 ٣٧ بجاندوچ
 ٣٨٢ نجریتو
 ٣٢١ زرفانا
 ١٥٩ نسنين
 ١٨٢ نفر تلی
 ١٨٤ ١٧٩ — ١٧٦ ١٦٧ النوبة
 ٢١٩ نورا
 ٢١٢ ٢١١ نوراجی
 ٢٨١ — ٢٨٠ ٢٧٥ ٢٤٧ النوردبون
 ٢٨٦ نوفوجورود
 ١٨٧ نومیدبون
 ٣٠٠ نوندارا
 ٣٠ نیارا (بحيرة)
 ٣٧٨ — ٣٧٧ ٣٧٢ نیاسی
 ٢٣٢ ١٠٣ ٩٤ ٩٣ ٢٨ ٢٧ ٣٦ نیاندوتال
 ٤١٠ — ٤٠٥ ٤٠٣ ٤٠٢ ٣٩٧ نجر (نیجیریا)
 ٣٨٢ نیکوبار (جزر)
 ٢٢٢ ١٥٢ — ١٥١ ١٣٦ — ١٣٥ ١٣١ نینوی
 ١٦٩ — ١٦٧ نیوبری
 ٣٩٤ ٣٨٣ ٣٨١ ٣٨٠ ٣٤٢ نیوزیلندة

(ه)

- هادریان (سور) ۲۷۲
 هارابا ۲۸۹ — ۳۰۴ ۳۱۱
 هارولد فیر هیر ۲۸۱
 هال تارکسین ۲۰۷ — ۲۰۹
 هال سافلینی ۲۰۷
 هالشتات ۲۶۵
 هالنچ ۱۰۱
 هافنلیف ۱۱۹
 هامبورج ۲۸۶
 هان ۱۵۶ ۳۵۲ — ۳۵۳
 هانزا ۲۸۵ — ۲۸۶
 هاوای ۳۹۱
 هایب جلدن ۳۱۳ ۳۴۹ ۳۶۱ ۳۷۹
 هبریز ۲۸۰ — ۲۸۱
 هبردیز الجدیفة ۳۶۷ ۳۸۰ ۳۸۳
 هتون ۳۷۴ — ۳۷۵ ۳۷۸
 هردلشکا ۱۰۲
 هسیا ۲۳۶ ۳۳۸
 حسین ۲۳۵
 هسیونج نو ۳۴۹ ۳۵۲
 هکسوس ۱۵۰ ۱۸۰ ۲۰۲ ۲۶۰ ۴۰۲
 هلیستی ۱۵۶ ۱۵۹ ۱۸۸ ۱۸۹ ۲۳۰
 هلیوبولیس ۲۸۶

— ٤٥٠ —

٢٥٤ ٢٩٤ - ٢٩٣ ٦٠ هملایا
 هنتنجتون، الزورث ٣٤٠
 ٣٢٤ ٣٢٣ ٣١٨ - ٣١٧ ٣١٣ هندوکیه
 ٣١٦ - ٣١٥ ٢٠٢ ١٥٠ هندی آری
 ٢٦٢ - ٢٦١ ٢٥٢ هغاریا (المجر)
 ٣٧٨ - ٣٧٥ هو
 ٣٤٤ ٣٤١ ٣٣٨ هوانج هو
 ٢٤٨ ٣٤٤ هوبای
 ١١٦ هورشام و (آشدون)
 ٣٦٩ ٣٣٢ هوکایدو
 ١١٥ هولجارد
 ٢٨٨ ٢٨٦ ٢٥٦ هولندا
 ٢٥٢ هون
 ٣٦٤ ٣٥٠ - ٣٤٧ ٣٤٤ ٣٣٥ هونان
 ٣٧٣ ٣٠ هونج کونج
 ٣١٣ ٣٠٣ ٢٩٩ هوبلر، سیرمورتمبر
 ٣٣ ٣٢ هیدلبرج (فک)
 ٢٢٢ هیرا
 ١٧٨ هراکیوبولیس
 ٣٩٣ ٣٩٠ ٣٧٥ میرداهل
 ٢٦٧ ١٨٧ هیروودوت
 ٣٢٤ هینایانا

— ٤٥١ —

(و)

ووادجاك ٩٩
 وادی الناطوف ١٣٠ - ١٣٢
 وای هو ٢٢٧ ٢٤١ ٢٤٧
 ورگا. ١٣٩ ١٤٢ ١٤٤ ١٤٥ ٢٣٤
 وسکس ٢٥٨
 ولتشر (تلال) ٢٥٦
 ولتون ١١٢
 ولدبستیت ٦١
 وودجوز ٢٧ ٢٨٣ ٢٩٣
 ولی، سیرل. ١٣٩ ١٤٥ - ١٤٦ ١٧٩ ١٨٢ ٢٩٩
 ویس، ١٠ ج. ب. ٢٢١
 ویلر ٢٦١ - ٢٦٢

(ی)

یانج ٢٥٣
 یانجنمی ٢٥٣
 یاهویه (یهوه) ١٥٢ ١٥٤ ٢١٣
 یزو (أنظر هوکایدو) ٢٤٢ ٢٦٣ ٢٦٩
 یهوذا ١٥١ - ١٥٣ ١٨٤
 یو ٢٢٨
 یوجا ٢٢٨
 یوسف (بحر) ١٨٠
 یوشع ١٥٣
 یولدییا (فترة) ٩٨ ١١١
 یونان ٢٤٢ ٢٦٣ ٢٦٤

تصويب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٢٨	٢٠	دوار وحتو	وجد دارت
٣٤	٤	ص ٢٧	ص ٤١
٣٧	٨	باندونج	نجاندونج
٤٦	٣	القياسية	القياسية
٤٧	١٩	القياسية	القياسية
٧٦	٧	بمعي	بمعي القيادة
١٠٩	١	الليفورينا	الليورينا
١١٣	١١	الجيسي	لنجسي
١٥٩	١٤	وك	ولا
١٦٣	١٤	Pre-neolithic	Pre-neolithic
١٦٣	١٥	Proto-neolithic	Proto-neolithic
١٨٩	١	السابق	المابق
١٨٩	٨	القيردان	القيروان
٢٢٤	١	ثيوسيديد	ثيوسيد
٢٦٣	١٢	Thot	T 101
٢٦٨	٢١	كوردبول	كوردبول
٣٢٤	١٠	محمد الغزنوي	محمود الغزنوي
٣٦٣	٥	أوربا	أوريسا
٣٦٣	١٣	تومجكينج	تومجكينج
٣٦٣	٢٢	بالهيرداهيل	بوساطة هيرداهيل

Ge. Li. Organizat. Li.
Pro. 200

مكتبة ورسائل
- m. 2000



